

يفيم ريزفان

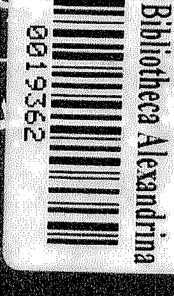
الحج قبل مئة سنة

الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الاسلامي

١٨٩٨-١٨٩٩

الـ[illegible]ـة للضـابط الروسي عبد العزيز دولتشين الى مكة

رو[illegible]ديعة للتاريخ والجغرافيا والسياسة والاجتماع والادارة



Bibliotheca Alexandrina
0019362

الحج قبل مئة سنة

يفيم ريزفان

الرحلة السرية للضابط الروسي
عبد العزيز دولتشين إلى مكة المكرمة
١٨٩٨ - ١٨٩٩

الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي

رواية وصفية بديعة للتاريخ والجغرافيا والسياسة والإجتماع والإدارة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك - بناية الوهاد
تلفون: ٢/ ٣٥٠٧٢١
٣٤٥٤٦٠ - ٣٤٤٢٣٦
فاكس: ٥٢٢١٠٧ - ٠٠٣٥٧٩
تلكس: ELTOUP LE ٢٢٦٦١
ص.ب: ٨٣٧٥
برقياً: انكلسامس
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية
١٤١٤هـ-١٩٩٣م

تصميم الغلاف جمانة ابو شقرا

يفيم ريزفان

عبد العزيز دولتشين وسفرته السرية الى مكة

ـ صفحة عنوان تقرير دولتشين.

على ذكرى والدى
اناطولى ريزفان

ان اوصاف المدينتين المقدستين فى الجزيرة العربية ، مكة المكرمة والمدينة المنورة ، تشغل ، لاسباب مفهومة ، مكانا كبيرا فى المؤلفات التى وصلت الينا من ادب التاريخ والجغرافية عند العرب وسائر الشعوب الاسلامية . فان مؤلفات جغرافية شهيرة عديدة ، ومنها «سفر نامه» من تاليف ناصرى خسرو (٣٩٤ – حوالى ٤٨١ هجرية/ ١٠٠٣–١٠٨٨) قد ظهرت بمثابة اوصاف للحج الى مكة . كما ظهر نوع خاص من المؤلفات مكرس لفضائل المدينتين المقدستين . وفى هذا الصدد لفت العلماء الاوروبيون من زمان بعيد الانتباه الى الامكانية الفريدة التى توفرها المصادر من هذا النوع لبعث تاريخ مكة المكرمة وجغرافيتها التاريخية . فمن سنة ١٨٥٧ الى سنة ١٨٦١ اصدر فرديناند فوستنفلد سلسلة من اربعة مجلدات اسمها «اخبار مدينة مكة» (١) ، وختمها بمؤلف النهروالى (توفى سنة ٩٩٠ هـ ./١٥٨٢). ويحتوى كتاب اوغست رالي «المسيحيون فى مكة . . .» (٢) عرضا لانطباعات رحالة اوروبيين زاروا هذه المدينة بدءا من سنة ١٥٠٣ (لودوفيكو بارتيما) وانتهاء بسنة ١٨٩٤ (جرفه-كورتيليمون) . ان المواد التى استرعت انتباه صاحبى هذين الكتابين ترتبط فى المقام الاول بمكة والمدينة مباشرة ، ولكنها تتسم باهمية خارقة على صعيد دراسة الحج بالذات ، ودوره التاريخى الثقافى والاجتماعى السياسى فى المجتمع الاسلامى . ان دراسة مختلف المصادر من هذا النوع بمجملها ، ومنها مثلا الوصف الشعرى للحج بلغة «الحميادو» من وضع مؤلف مغربى مجهول فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (٣) تتيح لنا ان نرى فى الحج شكلا للوحدة فى الايمان التى توحّد ملايين المسلمين على اختلاف بلدانهم وتقاليدهم القومية والثقافية . وباعتبار الحج عنصرا محوريا ، تتيح لنا هذه الدراسة ان نرى تاريخ

الشعوب الاسلامية فى وحدته . وان المؤلف يود لو يعتبر هذا البحث قسطا فى بناء صرح جليل لهذا التاريخ .

وهذا الكتاب الذى نضعه بين ايدى القراء يرتكز على وثائق ومواد فريدة وعسيرة المنال من الارشيفات والمكتبات السوفييتية : ارشيف المستشرقين ومكتبة فرع لينينغراد لمعهد الاستشراق لدى اكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى ، ارشيف الدولة العسكرى التاريخى المركزى (موسكو) ، ارشيف الدولة التاريخى المركزى (لينينغراد) ، مجموعات المخطوطات والوثائق لدى اكاديمية العلوم فى جمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفييتية (طشقند) ، ارشيف الدولة المركزى للاسطول البحرى الحربى (لينينغراد) ، ارشيف سياسة روسيا الخارجية ، ارشيفات مكتبات اخرى فى لينينغراد وموسكو وتبيليسى .

يعود مكان الصدارة فى هذا الكتاب الى المواد المتعلقة برحلة الضابط فى الجيش الروسى ، النقيب عبد العزيز دولتشين الى مكة والمدينة سنة ١٨٩٨ . ولكى يحصل القارئ على تصور عن كل طيف الآراء والتقييمات المتواجدة فى روسيا على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين بصدد الحج ، جمعنا فى الملاحق سلسلة من المواد ، فى عدادها انطباعات عن الحج ، اصدرها حجاج بسطاء من منطقة الفولغا والاورال الجنوبى وتركستان تبرز اولوياتهم واهتماماتهم وتعطى تصورات عن العقائد الشعبية العديدة بصدد الحج ؛ نظرة الى الحج من كاتب تقدمى اجتماعى اسلامى ومن معاون فى القنصلية الروسية فى جدّة مفعم بالروح الاوروبية ؛ رأى كاتب اجتماعى مفعم بالشوفينية وروح الدولة الكبرى فى حج المسلمين من رعايا دولة روسيا ، واخيرا ، وثيقة رسمية لوزارة الداخلية فى امبراطورية روسيا تتعلق بتنظيم حج المسلمين .

يعرب المؤلف عن خالص الامتنان لنوريه بكياشيفا على العون الكبير الذى قدمته فى مجال دراسة الوثائق ، وكذلك للدكتور عبد الجبار عبد الوحيدوف والدكتور حميد الله حكمت اللايف على العون فى اعداد المخطوطات من مجموعة اكاديمية العلوم فى جمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفييتية لاجل النشر .

* * *

ان القرار غير العادى نوعا ما بارسال الضابط فى الجيش الروسى ، المسلم من حيث الاصل والتربية ، النقيب دولتشين ، قد اتخذ فى وضع

تعاظم فيه كثيرا دور العامـــل الاسلامى فى سياسة روسيا الداخليـــة والخارجية . وقبل ان نشرع فى عرض المواد التى فى منالنا والمتعلقـــة بحياة دولتشين ونشاطه ، نحاول ان نرسم اطار السياسة الخارجية والداخلية الذى اتخذ فيه هذا القرار ، وخصائص العلاقات بين الطوائف والعلاقات بين المسلمين فى روسيا على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين ، والقضايـا الناشئة لمناسبة حج المسلمين من رعايا روسيا .

النصف الثانى من القرن التاسع عشر هو مرحلة تعاظم نفوذ روسيا فى الشرق الاوسط وفى آسيا الوسطى بسرعة وحدة . وقد شهد عام ١٨٩٨ ضم اقليم تركستان الى روسيا . فقد التحق بقوام الامبراطورية الروسية – علاوة على الشعوب الاسلامية التى كانت تعيش فيها من قبل – الملايين والملايين مـن المسلمين ممن حافظوا على كل بنية علاقاتهم فى اطار العالم الاسلامى . ومع خانة (امارة) بخارى وخانة (امارة) خوى ، بلغ عدد الرعايا المسلمين فـــى الامبراطورية ١٦ مليون نسمة . ومن حيث الجوهر لم يبد السكان المحليون مقاومة بوجه القوات المسلحة الروسية . وفى غضون ٣٥ سنة (١٨٤٧–١٨٧٩) من العمليات الحربية التى جرت هنا ، خسرت روسيا ، بمـــوجب المعطيات الرسمية ، زهاء ٤٠٠ قتيل (٤) . ان تخفيض ضريبة الارض الـى النصف ، واعفاء السكان من الخدمة العسكرية ، وتوظيفات الرأسمال الكبيرة ، ومستوى احترام الادارة الروسية لعادات السكان المحليين وتقاليدهم الدينية ، ومنافع التجارة المحلية من اتساع الاتصالات مع روسيا – كل هـذا خفف كثيرا فى عيون السكان المحليين من عواقب توسع القيصرية الاستعمارى . وبموجب استنتاجات لجنة التفتيش برئاسة المستشار السرى غيرس (سنـة ١٨٨٢) ، بدأ فى سنة ١٨٨٦ تطبيق لائحة ادارة اقليم تركستان . وقـــد نصت هذه اللائحة على مساواة حقوق السكان المحليين بالحقوق التـــى كان يتمتع بها السكان الروس ضمن حدود الامبراطورية ، وعلى تطبيق نظام قضائى مستقل ، وتخفيض عدد موظفى الادارة فى الاقضية ؛ واخيرا على تطبيق «مبدأ الانتخاب» عوضا عن تعيين مدراء النواحي . وكان يبدو ان التهدئة قد تحققت فى المنطقة . ولكن نشبت فتنة انديجان فى ١٨ ايار (مايو) ١٨٩٨ ؛ وفـى سياقها ذبح ٢٠ جنديا روسيا وجرح ٢٢ جنديا ، وقطع رأس مستوطـــن روسى . قامت هذه الفتنة تحت شعار الجهاد ، وترأسها الزعيم الصوفى المحلى ايشان محمد علي صابر اوغلي ، الذى قام قبل ذاك بقليل بالحج الى مكة والذى استقبل ، كما بيّن التحقيق ، رسلا من اسطمبول . وفى عداد المشتركين فى الفتنة كان خمسة من مدراء النواحى ، وقضاة انتخبهم السكان المحليون .

وفى سياق المحاكمة ، ذكر محمد علي صابر اوغلي فى عداد دوافعه فساد الاخلاق ، والانحراف عن مقتضيات الشريعة ، والغاء الزكاة وقوانين الاوقاف ، واخيرا ، منع الحج . وبالفعل وضعت الخزينة يدها على الاراضى المسماة باوقاف السواد («قره وقوف») التى اعتبرت وثائق ملكيتها غير شرعية ؛ ومرارا منعت السلطات الحج بسبب وباء الكوليرا ووباء الطاعون .

ان تحليل هذه الاحداث ، وكذلك الاضطرابات التى وقعت قبل ذاك فى سنة ١٨٧٢ (فى منطقة نهر قره سو) وفى سنة ١٨٩٢ فى طشقند ، قد بيّن الدور الكبير الذى لعبه ذوو المكانات الدينية (الايشانات) فى تنظيمها . ولم تستطع السلطات او لم تشأ ان ترى فى هذه الاضطرابات بداية لحركة واسعة معادية للاستعمار تجلت بعد بضعة اعوام فقط فى الكثير من التمردات والانتفاضات التى شملت عددا من المراكز الهامة فى تركستان .

فى اواخر القرن التاسع عشر ، اشتد الصراع بين الدول الاستعمارية على السيطرة فى منطقة الخليج العربى وحوض البحر الاحمر (٥) . والى هذا الصراع ، وعلى الاخص بصدد بناء سكة حديد بغداد ، انجذبت روسيا ايضا . وظهرت فى الخليج العربى السفن الحربية والتجارية الروسية (٦) . وقد حاولت الاطراف المتصارعة هنا الاستفادة فى مصلحتها من بأس روسيا ونفوذها . ومن الادلة الطريفة على محاولات الديبلوماسية الالمانية من هذا النوع رسائل ادوارد غلازر الاختصاصى فى تاريخ جنوب الجزيرة العربية وثقافتها ، وعميل المخابرات الالمانية الكبير كما يتضح من هذه الرسائل التى ارسلها فى خريف ١٨٩٨ الى وزير الخارجية فى روسيا ميخائيل مورافيوف . وهدف هذه الرسائل ومحورها الرغبة فى استثارة تدخل روسيا فى شؤون الجزيرة العربية الى جانب تركيا ، الامر الذى كان من شأنه ان يؤدى فى آخر المطاف الى تقارب فرنسى روسى المانى ذى وجهة معادية للانجليز . وفى المانيا كانوا يخشون خارق الخشية من ان توافق روسيا على اقتراح بتقسيم الامبراطورية العثمانية الى مناطق نفوذ مع احالة جميع الاراضى العربية الى انجلترا . هذه المقترحات تقدم بها فى كانون الثانى (يناير) سنة ١٨٩٨ رئيس وزراء بريطانيا العظمى سولسبيرى . وقد كان من شأن تطبيقها ان يؤدى الى انهيار سياسة القيصر الالمانى «البغدادية» كلها . وقد حسب سولسبيرى ، اذ تقدم باقتراحاته ، ان تحول المانيا دون تعزيز مواقع روسيا فى الشرق الاوسط تعزيزا جوهريا وان تعود الاراضى العربية الى انجلترا . ولكن الديبلوماسية الروسية درست وتفهمت فحوى مقترحات غلازر ، فرفضت تطبيقها (٧) ، كما رفضت الموافقة على مقترحات سولسبيرى .

ومن جراء ذلك ، قامت فى الصحافة الانجليزية وبخاصة فى الصحافة الانجلو- هندية حملة واسعة ضد روسيا فى خريف سنة ١٨٩٨ وفي ربيع سنة ١٨٩٩ ؛ وقد اتهمت الحكومة الروسية بالاعداد لاحتلال سلطنة تاجورا ، وبارسال العملاء الى الجزيرة العربية ومنطقة الخليج (٨) .

وفى روسيا تفاقم الحذر من سياسة المانيا فى الشرق الادنى . وقد قدروا فى روسيا كل عمق نفاق «السياسة الاسلامية» التى كان ينتهجها القيصر الالمانى غليوم الثانى الذى ارسل الى القيصر الروسى نيقولاى الثانى رسالة بتاريخ ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٨ كتبها اثناء اقامته فى القسطنطينية : «تذكر اننا انت وانا قد اتفقنا فى بيترهوف على الا ننسى ابدا ان من الممكن ان يصبح المسلمون ورقة كبيرة للغاية فى لعبتنا اذا ما وجدنا انفسنا فجأة ، انت وانا ، فى حالة حرب مع دولة معروفة تدس انفها فى كل مكان» (٩) . وقد فهموا فى بطرسبورغ ان محاولة المانيا لاستغلال الامزجة الاسلامية ضد انجلترا موجهة ايضا ضد روسيا التى يعيش فيها الملايين والملايين من المسلمين . والى هذا اشار ، مثلا ، نشر الترجمة الروسية فى سنة ١٩٠٢ فى برلين لكتاب الكاتب الاجتماعى الاسلامى التوحيدى مير علي من الهند «حياة وتعاليم محمد او روح الاسلام» ؛ وفيما بعد ، فى عشية الحرب العالمية الاولى وفى سياقها ، صدرت فى برلين نداءات الى مسلمى آسيا الوسطى تدعوهم الى الجهاد .

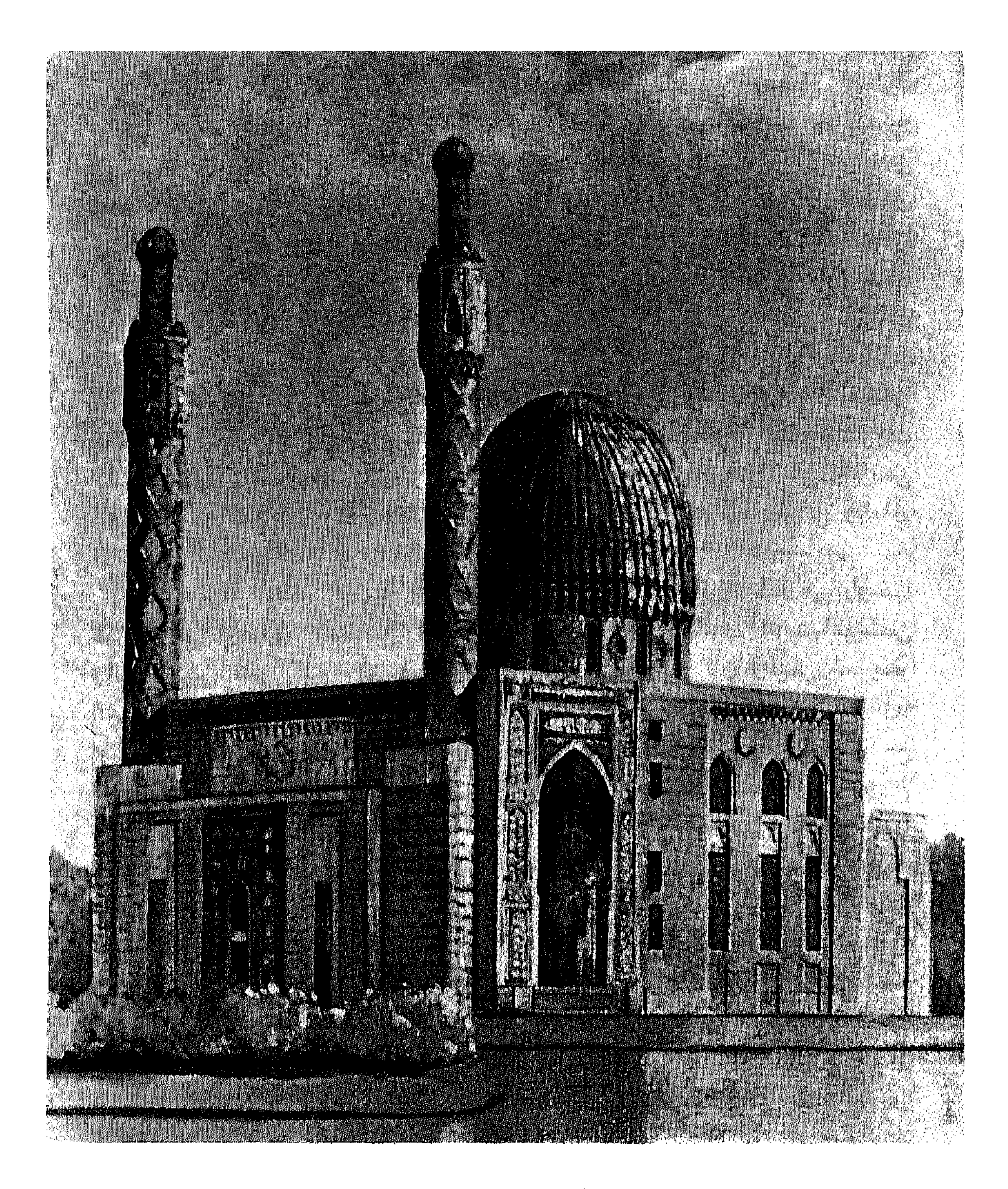
وبما ان روسيا كانت ترى فى الخليفة التركى عدوا حربيا دائما ، فقد كانت تنتهج بالطبع حيال الاسلام سياسة حذرة قوامها تأمين حرية الاعتقاد وحرية ممارسة الشعائر الدينية لاجل السكان المسلمين ، والاعتماد على رجال الدين المسلمين ذوى التفكير التقليدى ، وتحويل الائمة والمفاتى من حيث الجوهر الى موظفين حكوميين ، وكذلك الموقف السلبى من اغلبية حركات التجديد فى الاسلام ، والتضال ضد الدعاية الاسلامية التوحيدية والدعاية التركية التوحيدية .

فى سنة ١٧٨٧ ، صدر فى بطرسبورغ نص القرآن بامر من الامبراطورة ايكاتيرينا الثانية . وهذا النص اعده الملا عثمان ابراهيم وزوده بالتعليقات . وقد اعيد طبع النص مرارا عديدة فى بطرسبورغ ثم فى قازان . وقد صدرت احدى الطبعات على حساب الخزينة وخصيصا «لاجل التوزيع على الشعب القرغيزى القيساقى» . وبموجب فرمان بتاريخ ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٠٠ أُلغيت القيود على اصدار المطبوعات الدينية الاسلامية فى روسيا ؛ وفى سنة ١٨٠٢ ، افتتحت فى قازان اول مطبعة اسلامية . وفى

سنة ١٨٢٩ صادق الامبراطور نيقولاى الاول على نموذج تصميم وواجهة لاجل بناء مساجد كان ينبغى تخصيص امكنة لائقة لها فى المقامات السكنيـــة الاسلامية . وفــى سنة ١٨٣٣ صدر فرمان يطالب جميع مسلمى روسيـــا بالتقيد الدقيق بمقتضيات دينهم وعقائده وبمعاقبة المخالفين معاقبة صارمة . ومن السهل مواصلة تعداد الوقائع من هذا النوع ؛ ولكن هذه المتطلبات لم تكن تمنع الدعم الرسمى لرسالة الكنيسة الارثوذكسية فى حقل التبشيـــر والدعوة الى اعتناق الدين المسيحى شرط عدم جواز اعمال العنف والتطرفات التى كان من شأنها ان تـــؤدى موضوعيا الى الاخلال بالاستقرار فـــى الامبراطورية الروسية .

ادت سياسة روسيا حيال الاسلام الى تعاظم التعاطف معها فى صفـوف الشعوب الاسلامية . واننا نجد دليلا طريفا على ذلك فى «تقرير» دولتشيـن الذى اورد قول المدرّس السيّد علي ظاهر المشهور فى الحجاز : «ايماننـا صحيح ؛ ولا ريب فى هذا ؛ ولكن لا وجود للعدالة فى الدول الاســلامية ؛ يجب البحث عن العدالة عند الروس» (١٠) . وفى هذا كان اخصام روسيا يستشفون خطرا على مصالحهم . وفى سنة ١٨٧٣ اتهمت الجريدة الانجليزية "Pall-Mall Gazette" روسيا بدعم الهيئات الدينية الاسلامية اذ رأت فيه مكائد ضد انجلترا (١١) . وفى سنتى ١٨٧٣ و١٨٧٤ غالبا ما كان الشـــاه الايرانى نصر الدين يردد «ان الروس اخطر مـــن الانجليز لان المسلمين يكرهونهم اقل مما يكرهون الانجليز» (١٢) .

على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين تبدت بكل وضوح فى اوساط المسلمين من رعايا روسيا ايضا التغيرات فى وعى الشعوب الاسلاميـــة الدينى ، ونشوء الاتجاهات المتصلة بتعاليم المهدى والبعث الاسلامى وتطور الميول الاصلاحية فى الفكر الدينى والفكر الاجتماعى السياسى . وفى عداد الوقائع من هذا النوع يسترعى الانتباه ظهور «فوج فايسوف الربانى» فـــى سنة ١٨٦٢ ، الذى اسسه بهاء الدين فايسوف (١٨٠٤–١٨٩٣) والذى دام حتى سنة ١٩١٨ ، عندما قتل ابن مؤسس الحركة عنان الدين فايســـوف الذى واصل قضية والده . ان ايديولوجية هذه الحركة التى كانت تحظى دوريا بواسع الانتشار بين السكان المسلمين فى منطقة الفولغا كانت ترتبط سواء بتقاليد الطريقة «النقشبندية» ام بافكار البعث . وقد طالب زعماء هذه الحركة فى مؤلفاتهم وفى ممارستهم (١٣) سواء بالخضوع التام لاحكام القرآن ، ام بالامتناع المطلق عن الاتصال مـــع سلطات الدولة ومع ممثلى الاســـلام التقليدى . وقد احيل الفايسوفيون الى المحاكمة بسبب الامتناع عـــن اداء



ـ بطرسبرج، الجامع الكبير. نسخة من لوحة لرسام مجهول.
سنوات العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين.

الخدمة العسكرية ، كما ان مؤسس الحركة توفى اثناء سجنه فى مستشفى الامراض النفسية فى دائرة قازان . ورغبة فى نيل الدعم من جانب الرأى العام الروسى تراسل ابنه وتلاقى مع ليون تولستوى (١٤) .

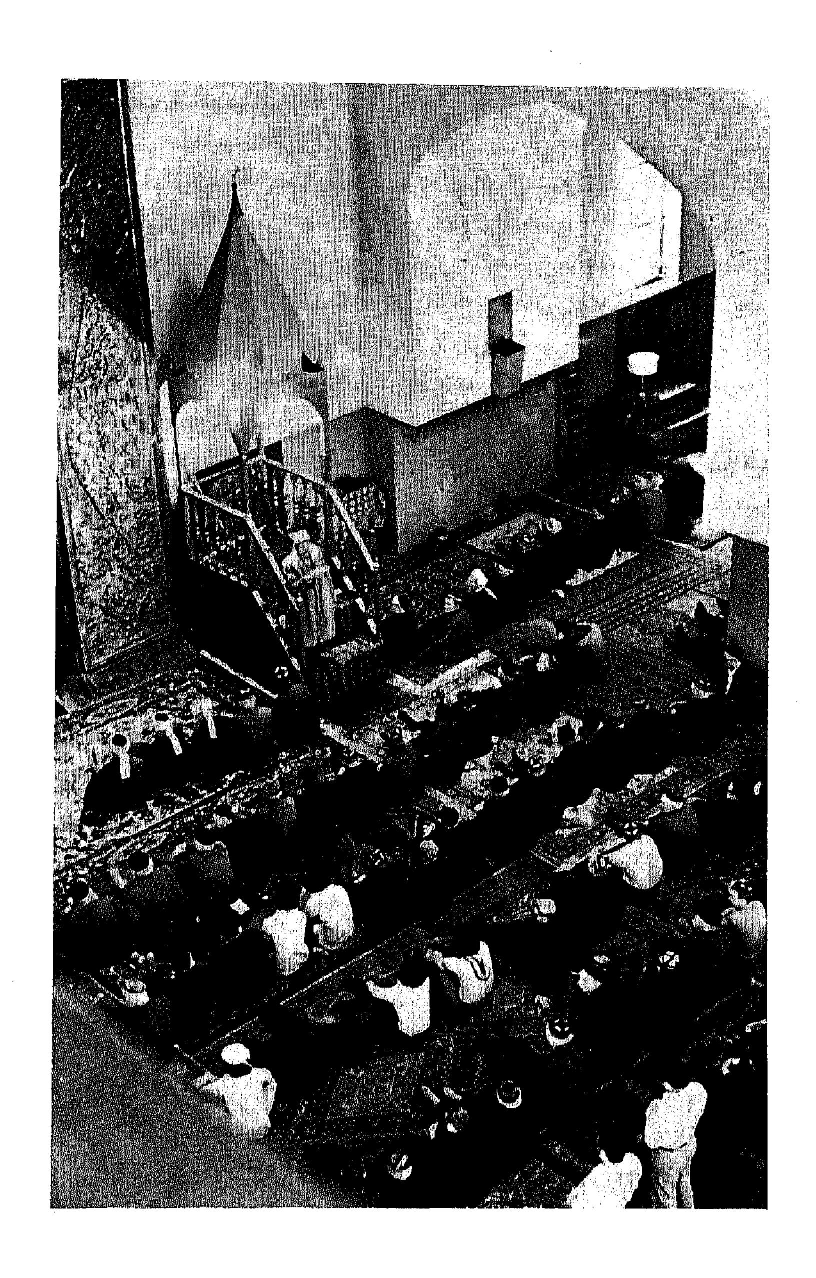
ان انتشار الامزجة المهدية التى كتب عنها دولتشين قد مس كذلك اراضى الامبراطورية الروسية . فقد كتبت جريدة «سانكت-بيتربورغسكيه فيدوموستى» (العدد ٦٤ لسنة ١٨٨٣) فى رسالة «من القفقاس» ان مسلمى القفقاس يتحدثون دائما عن قرب مجىء المهدى وان انباء الجرائد عن المهدى السودانى «صبّت النار فى لهيب التوقعات الشعبية ، وان المسلمين تتبعوا بانتباه وتوتر الاحداث التى تتطابق مع تعاليم الكتب الاسلامية» . ويستفاد من اقوال ن . ب . اوسترووموف الذى استشهد باحاديثه مع المسلمين ان «الحجاج المسلمين من رعايا روسيا الذاهبين الى مكة والمدينة كانوا يحاولون ان يروا فى الطريق المهدى الذى كان قد بدأ العمل فى السودان وان ينحنوا امامه . . .» (١٥) . وفى سنة ١٨٨٨ ، جاء الى مدينة اوفا البشكيريان تشوفاشوف وعبدالوف ، وصرح الاول انه «النبى المهدى» واعلن الثانى انه «رسول النبى» . وقال الاثنان انهما جاءا الى اوفا ليخاطبا المفتى والعالم الاسلامى كله . وقد اعتبروا الاثنين مجنونين (١٦) .

ومن جراء اليقظة القومية والثقافية للشعوب الاسلامية القاطنة فى روسيا ظهرت فى اوساط المثقفين القوميين جماعة من الكتاب الاجتماعيين والسياسيين ممن كتبوا من مواقع اصلاحية . وابرزهم كان رئيس تحرير الجريدة الروسية التترية «بيريفودتشيك»/«الترجمان» (مدينة بختشى سراى) اسماعيل بك غاسبرينسكى (١٨٥١–١٩١٤) الذى كان غالبا ما يتحادث مع ليون تولستوى اثناء استراحته فى غاسبرا ، وامام سانكت بطرسبورغ عطالله بايازيدوف (توفى سنة ١٩١١) ، والكتاب الاجتماعيون والسياسيون احمد بك اغايف ، ودولت قيلدييف ، وسليم غيرى سلطانوف (١٧) . وقد عرضوا فى مقالاتهم وكراريسهم افكارا قريبة جدا من افكار كبار المصلحين المسلمين من امثال سيّد احمد خان (١٨١٧–١٨٩٨) ، وجمال الدين الافغانى (١٨٣٩–١٩٠٩) ، ومحمد عبده (١٨٣٤–١٩٠٥) . ان انتقاد الموقف الذى وقفه ارنست رينان فى محاضراته فى جامعة السوربون (١٨) لم يظهر فى مقالة الافغانى المنشورة فى "Journal des débats" وحسب ، بل ظهر كذلك فى كراس بايازيدوف «موقف الاسلام من العلم وغير المسلمين» (سانكت بطرسبورغ ، ١٨٨٧) . وكانت قضية اصلاح التعليم (١٩) من عداد القضايا الرئيسية التى تناولها الجدال بين المسلمين التقدميين

(«الجديداتيين») والمسلمين المحافظين («القديماتييـن») . وقد تعـاون المسلمون التقدميون مع الاحزاب المعارضة ، ورحبوا فيما بعد باحداث سنة ١٩١٧ . وبالمقابل استثار نشاطهم حذر السلطات الرسمية وارتيابهـا ، وانتقاد وغضب الشوفينيين المفعمين بروح الدولة الكبرى . وقد كتب احدهم ، وهو ن . اى . ايلمينسكى (١٨٤٢-١٨٩١) : «المتعصب بدون التعليـم الروسى واللغة الروسية افضل نسبيا من التترى المتمدن على الطريقة الروسية ، والاريستقراطى اسوأ من هذا الاخير وذو التحصيل الجامعى اسوأ ايضا» (٢٠) . وقد وافقه فى الرأى ف . تشيريفانسكى ، عضو «المداولة الخاصة فى شؤون الايمان» ، ومؤلف عدد من البحوث كان بهاؤها بمثابة تحذير من «خطر فادح» مزعوم يتهدد بلدان اوروبا من جانب العالم الاسلامى (٢١) . ولكن الآراء من هذا النوع لقيت الرد والصدّ سواء فى الصحافة الديموقراطية الروسية ام فى بحوث المستشرقين الروس الحقيقيين (٢٢) .

ومن قلق الاوساط الحاكمة بصدد الوضع فى المناطق الاسلامية مـن الامبراطورية الروسية ، نبعت ضرورة جمع المعلومات الموضوعية بشـأن مجموعة القضايا المتعلقة بدور الاسلام فى الحياة الاجتماعية والسياسيـة للسكان المسلمين فى روسيا ، بما فيها قضية حج المسلمين من رعايـا روسيا . وبناء على امر من محافظ تركستـان س . م . دوخوفسكى ، انشئت فى سنة ١٨٩٨ لجنة خاصة لدراسـة احوال ونشاط رجال الديـن المسلمين فى اقليم تركستان . وقد نشر التقرير عن نشاط هذه اللجنة فى سلسلة «مواد فى الاسلام» التى شرعت تصدرها فى عام ١٨٩٨ هيئة اركان الدائرة العسكرية التركستانية . وفى هذه السلسلة وردت ايضا مقالة عن الحج بقلم الملازم ياروف-رافسكى (٢٣) .

وتدريجيا اخذت قضية الحج الـى مكة تكتسب المزيد والمزيد مـن الاهمية ؛ وفى المقام الاول اعتبروا الحـج سبيلا لتسرب افكار الجامعـة الاسلامية الى روسيا . وفى ذلك الوقت كانوا يقيّمون الحج ، لا فى روسيا وحسب ، بل ايضا فى الدول الاوروبية الاخرى ، كظاهرة دينية سياسية قبل كل شىء ، علما بانهم كانوا غالبا ما يربطون الاضطرابات فى المستعمرات الاسلامية السكان بامر من مكة (٢٤) . ففى ٢٤ تشرين الاول (اكتـوبر) ١٨٧٨ (كانت تدور رحى الحرب الروسية التركية ١٨٧٧-١٨٧٨) افاد مراسل وكالة رويتر من القسطنطينية ان «رئيس لجنة «الهلال الاحمر» راح الى مكـة بذريعة مراقبة تطبيق التدابير الصحية نظرا لاقتراب عيد الاضحى . اما هدف سفرته الحقيقى ، فكان يتلخص فـى تبادل الآراء مع الحجاج مـن الهند



ـ الصلاة في الجامع الكبير بمدينة بطرسبرج.

وافغانستان وآسيا الوسطى الذين كان من المتوقع ان يصلوا الى مكة باعداد كبيرة فى الشهر المقبل وفى التأثير فيهم بروح ملائمة للسياسة الانجليزية ومعادية لروسيا» («غولوس» ، سانكت بطرسبورغ ، سنة ١٨٧٨ ، العدد ٢٨٩) . ودون تقييم موضوعية هذا الخبر ، تجدر الاشارة الى انه يدل على الاقل على رأى الصحفى من وكالة رويتر بصدد احتمال تأثير الحج العسكرى السياسى .

ان مؤلفات المؤرخين والجغرافيين المسلمين القروسطيين تبيّن ان ممارسة الحج الثابتة قد قامت على امتداد قرون عديدة عند السكان المسلمين فى الاراضى التى دخلت فيما بعد فى قوام روسيا . فان ابن بطوطة ، مثلا ، يرى ان اسم مدينة استراخان نفسه يرتبط باعفاء هذه المدينة من الضرائب لان حاجا تقيا كان يعيش فى هذه الانحاء (٢٥) . وقد لعب الحج دورا كبيرا جدا فى انتشار الممارسة الدينية والعادات القائمة فى سائر مناطق العالم الاسلامى الى هذه الاراضى . ومن الامثلة على ذلك ، نشاط شيخ الطريقة النقشبندية زين الله رسولييف (١٨٣٣-١٩١٧) (٢٦) . ولا ريب فى ان الحج كان ايضا قناة بالغة الشأن لايصال مخطوطات مؤلفات هامة جدا للشخصيات الاسلامية الكبيرة الى الاراضى الداخلة فى قوام الامبراطورية الروسية ، الامر الذى كان ييسر فعلا تبادل الافكار والنظرات فى العالم الاسلامى . وكان الحجاج يتمتعون بين مواطنيهم بعميق الاحترام . ومن الامثلة على ذلك ، وصف لقاء فريق من الحجاج فى مدن آسيا الوسطى من وضع ا . فامبيرى . اللقاء فى غموشتيبه : «انتشر نبأ وصولنا فى كل مكان : النساء والاولاد وحتى الكلاب تدفقوا فى حيرة غريبة من الخيام لكى يلقوا نظرة الى الحجاج المقتربين ، وينالوا بلمسهم ، جزءا من الافضال والمكافآت الناجمة عن الامر الربانى عن الحج . . . غريب ! الشبان والشيوخ ، دون تمييز فى الجنس او اللقب ، الجميع رغبوا فى لمس الحجاج الذين نزل عليهم غبار المدينة او مكة المقدس . احكموا على دهشتى حين اندفعت نساء رائعات الجمال وحتى فتيات الى معانقتى ! لقد تملكنا التعب والعذاب من جراء مظاهر الاحترام هذه» . ثم جاء : «اما فى بوابة خوى ، فقد استقبلنا بضعة اتقياء من سكان خوى وقدموا لنا الفواكه المجففة والخبز . من زمان بعيد لم يتوافد الى خوى مثل هذه الكثرة من الحجاج . كان الجميع ينظرون الينا بدهشة ؛ ومن جميع الجوانب كانت تصل الى مسامعنا هتافات : «اهلا وسهلا ! آه ، انت صقرى ! انت اسدى !» . وقد تأثرت بالغ التأثر حين اندفع الناس يبوسون يدى وقدمى — اجل ! — والشراريب المتدلية من حزامى» . وحين

غادر الحجاج خوى ، «تراكض كثيرون من السكان وراءنا حوالى نصف ميل : كانت مشاعر التقوى تتير الدموع من عيونهم ؛ وقد سمعنا هتافاتهم اليائسة : «من يعرف متى تسعد خوى مرة اخرى من ايواء متل هذا العدد من الرجال الاتقياء ضمن جدرانها» (٢٧) .

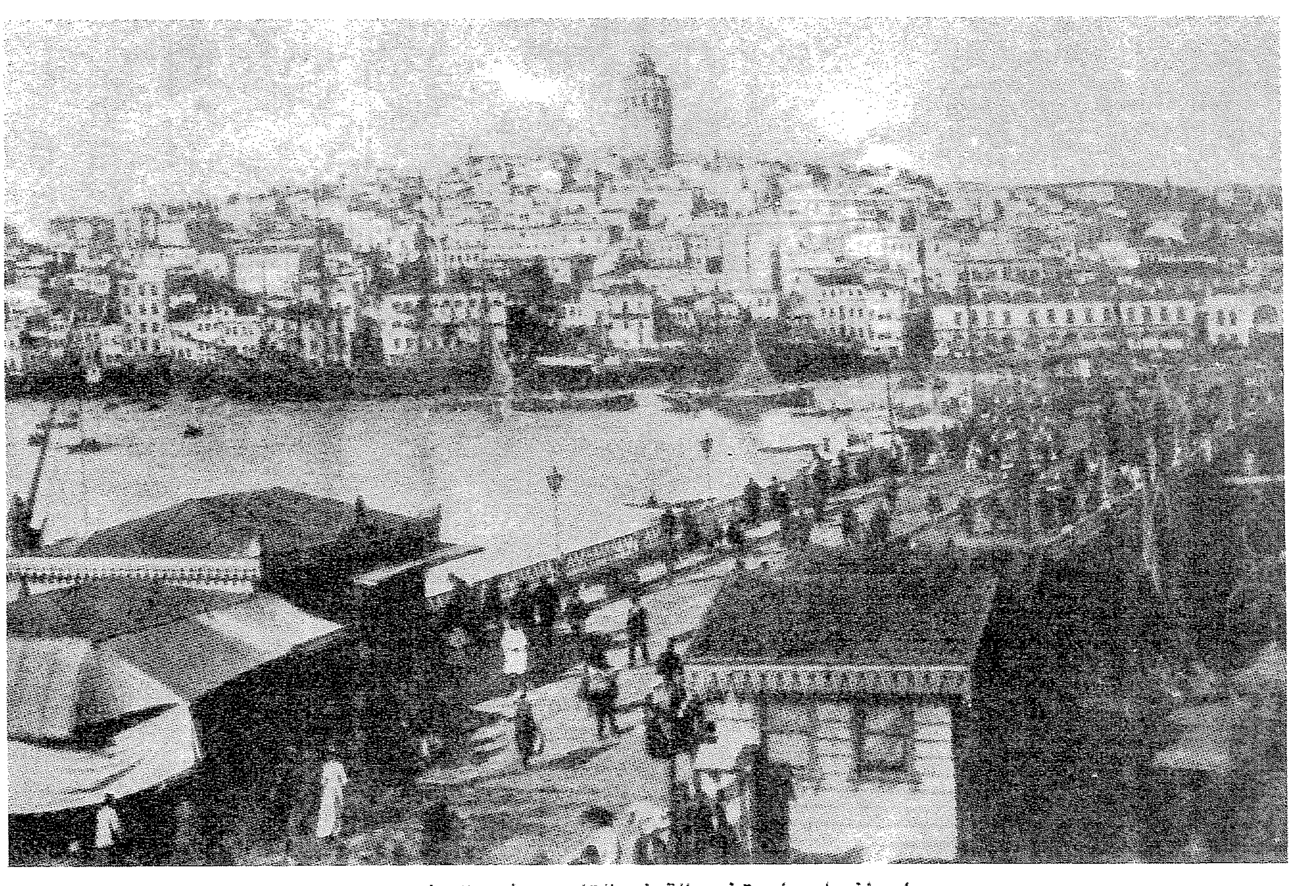
نحو اواخر القرن التاسع عشر ، تكونت ثلاثة طرق رئيسية لحج الحجاج من رعايا روسيا (٢٨) .

١ — فى منطقة ما وراء القفقاس (ارمينيا واذربيجان وجورجيا) والقسم الشمالى من ايران عبر كرمنشاه ومدينة خانقين الواقعة قرب الحدود مع تركيا ، فى اتجاه بغداد ، نحو كربلاء والنجف ، ثم عبر رمال الجزيرة العربية الى مكة والمدينة .

٢ — عبر سمرقند وبخارى ومزارى شريف وكابول وبيشاوار فى افغانستان ومن ثم الى بومباى (الهند) ، ومنها بحرا الى جدّة وينبع .

٣ — عبر اوديسا وسيباستوبول (لاجل المناطق الداخلية فى روسيا وسيبيريا) وعبر باطوم لاجل سكان آسيا الوسطى ومنطقة ما وراء قزوين ، عبر القسطنطينية والسويس وجدّة وينبع . كذلك شرعوا يستغلون السكة الحديدية الجديدة عبر فيينا والقسطنطينية .

كتب ياروف-رافسكى ان «الطريق الاول بين الطرق المذكورة ينطلق عليه على الاغلب المنتـون الى الشيعة من مسلمى منطقة ما وراء القفقاس ومنطقة ما وراء قزوين الذين يعطون من بيئتهم ، على ما يبدو ، العدد الاكبر من الحجاج ، اى نحو ١٢—١٥ الف شخص . وليس من النافل الاشارة الى ان حج مسلمى ما وراء القفقاس قد استقر برسوخ بفضل من يسمونهم «بالجاويشية» الذين يقومون حصرا بتكوين وتوديع قوافل الحجاج لقاء اجر معين . ان «الجاويشية» يتمتعون بكبير التأثير بين السكان ويشبهون فى الطريق ربان السفينة بحكم العادة ؛ بعض منهم احيانا من السكان المحليين وبعض آخر من الاتراك والعرب القادمين الذين يتسربون بلا عائق الى اراضى الامبراطورية الروسية ؛ وكل سنة يتجوبون فى الوقت المناسب فى قرى الاقليم ، ويدعون بجميع الوسائل الى الحج ، ثم يعينون اماكن تجمع الحجاج ، ويقودونهم اخيرا عبر الحدود ، بدون اية مصاعب على ما يبدو ، دفعات كل دفعة من ٧٠ فارسا واكثر غير مزودين عادة باية جوازات سفر . ثم يتجمع الحجاج الذين يقودهم الجاويشية ، بعد عبور الحدود الايرانية ، لاجل مواصلة السير بصورة مشتركة ، الى نقطة من النقاط المختارة سلفا تبعا لامكنة اقامتهم ؛ وهذه النقاط هى عادة :



ـ اسطنبول، على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين.

النقطة الرئيسية في طريق انطلاق الحجاج الروس إلى الجزيرة العربية.

١ — تيريز — لاجل سكان الاقسام الجنوبية من محافظة يريفان ومحافظة ايليزابتبول .
٢ — اردبيل — لاجل سكان القسم الجنوبى من محافظة باكو .
٣ — خوى — لاجل سكان القسم الغربى من محافظة يريفان ومنطقة قرص .
٤ — ٥ — انزلى وبلفروش — لاجل الذاهبين بحرا من مدينة باكو والاقسام الشمالية من محافظة باكو ومن منطقة داغستان (مدينتى بتروفسك ودربند) .

وتبعا لنقاط التجمع المذكورة ، تنقسم جميع الطرق التى يسلكها الحجاج فى ايران الى خمس فئات :

١ — تبريز — بيناب — «صاين قلعه» — كرمنشاه .
٢ — خوى — تبريز — كرمنشاه .
٣ — اردبيل — زنجان — همدان — كرمنشاه .
٤ — انزلى — رشت — زنجان — كرمنشاه .
٥ — بلفروش — طهران — قم — كرمنشاه .

ومن كرمنشاه التى تتسم بالتالى باهمية خاصة بوصفها عقدة تقاطع جميع الطرق البالغة الشأن من حدود الامبراطورية الروسية الى الجزيرة العربية الخاضعة لتركيا ، يمضى الحجاج فى طريق واحد عبر ماهيدشت ، وغورون آباد ، وقريند ، وسريبول ، وكافى شيرين الى مدينة خانقين الحدودية ، ثم عبر شهراباد وبعقوبة الى بغداد او الى مدينة الكاظمية الواقعة بالقرب من بغداد ؛ ومن هناك يتفرقون الى كربلاء والنجف وغيرهما من الاماكن .

فى الاتجاه الثانى ، عبر سمرقند وبخارى الى افغانستان ، مع قطع الطريق من بيشاوار الى بومباى بالسكة الحديدية ، يمضى كل سنة من مناطق آسيا الوسطى ٤ — ٧ آلاف من الحجاج . وهؤلاء يفضلون هذا الاتجاه رغم كل طول الطريق وغلائه وصعوبته ، وذلك اساسا ، بسبب السهولة المتوفرة لهم لتحاشى جميع المتطلبات المتعلقة بجوازات السفر ، ثم لانه الطريق الذى تكون على امتداد القرون والذى تقع عليه ، فيما تقع ، مدينة مزار شريف حيث مقام علي (صهر النبى محمد) الذى يملك ، كما يقول المسلمون ، قوة عجيبة لشفاء العميان والخرس . ومن مزارى شريف يمضى الحجاج عبر طش كورغان ، وغى باغ ، وشاريقار ، وكابول ، وغزنى ، وقندهار وكته ، ثم بالسكة الحديدية الى مرفا كاراتشى ومنه بالباخرة الى بومباى ؛ ويمضى الآخرون عبر جلال آباد الى بيشاوار ، ومنها بالسكة الحديدية الى بومباى .

واخيرا الطريق الثالث ، وهو الاسهل والاقصر ، ينطلق من مرافئ البحر الاسود الى القسطنطينية والسويس ، ويستفيد منه جميع التتر وسنّيو القفقاس والقرغيز القاطنون فى غرب المنطقة من رعايا الامبراطورية الروسية ؛ وجميعهم يقدمون كل سنة بين الفين وثلاثة آلاف حاج ؛ وبينهم يتواجد فى الوقت الخالى من الاوبئة ، نظرا للمراقبة الشديدة هنا ، عدد من حملة جوازات السفر ؛ اما فى السنوات غير الملائمة (حين تمنع الحكومة الحج) ، فانه يتبين ان الاغلبية الساحقة منهم مزودة باوراق تركية وفارسية وبخارية قديمة يحصلون عليها لقاء ثمن باهظ فى باطوم واوديسا» (٢٩).

ولتبيان ما كان يتوقع الحجاج فى طرقهم الى مكة ، نورد فى «ملاحق» هذا الكتاب ملاحظات سفر لحجاج قاموا برحلاتهم فى مسيرات مختلفة.

تشير جميع مصادرنا الى ان الحجاج من رعايا روسيا كانوا يفضلون ، كما من قبل ، استعمال جوازات السفر التركية والفارسية والبخارية القديمة ، وحتى جوازات السفر الصينية . ومرد ذلك الى التعقيدات البيروقراطية التى كانت ترافق الحصول على جوازات السفر فى روسيا ، والى المنع الدورى (مثلا ، فى سنوات ١٨٩٢-١٨٩٥ ، ومنذ النصف الثانى من سنة ١٨٩٦ الى سنة ١٩٠٠) من اعطاء جوازات السفر للحجاج نظرا لخطر الاوبئة فى الشرق . ان غياب الوثائق الرسمية لم يقلل عدد الحجاج من رعايا روسيا ، ولكنه جعلهم رهنا بشتى ضروب الانذال الذين كانوا يأخذون منهم مبالغ ضخمة من النقود لقاء جوازات السفر . وان الرسم الكاريكاتورى الذى اخذناه من مجلة المسلمين التقدميين «الملاّ نصر الدين» الصادرة فى تفليس يسخر من جنس «الشطار» الذين يبتزون الارباح من طموح آلاف الحجاج غير المجربين وسعيهم المشكور الى زيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة . وقد كتب ياروف-رافسكى : «يتشكى جميع الحجاج على الخصوص من ابتزاز الاموال الرهيب فى عموم افغانستان . فعن حق دخول الاراضى الافغانية ، وعن الحصان ، وعن الاشياء ، وغير ذلك ، مثلا ، كانوا يتقاضون فى مزاري شريف من كل حاج روبية واكثر ، وفى وزيرآباد روبيتين ، وفى باميان وقاضىآباد وطوشزار روبية ، وفى شاريقار ٩ روبيات ، وفى كابول ٥١/٢ روبيات ، وفى جلالآباد روبية ، والخ . . وفضلا عن هذه الاتاوى ، لم يكن من النادر ان يصبح الحجاج ضحايا الكذب والخداع والابتزاز فى بومباى من جانب من كانا يقولان عن نفسيهما انهما وكيلا حجاج بخارى ، سليمان خوجا (وهو من مواليد انديجان) ويوسف علي (من مرغلان) . ويقول الحجاج ان سليمان خوجا الذى أُرسل منذ عشر سنوات الى بومباى مع اوراق من امير افغانستان بصفة دليل ووكيل

لاجل الحجاج يبتز من كل منهم بضعة روبيات عن المسكن ، وعن اركابهم على متن باخرة ، وخلافه ، ناهيك بانه يجبرهم بالقوة على شراء الطحين والرز والقمح من بائع يعرفه ومنه وحده مؤكدا لهم انهم سيبيعون كل ما اشتروه بربح في جدة . صحيح ان نقل بضعة اكياس من الطحين والرز من بومباي بالباخرة مجانى ، ولكن ثمن هذا الطحين او الرز او القمح في جدة مثل ثمنه في بومباي واحيانا ارخص .

وفى باطوم ايضا حيث يعيش الفارسي خوجا علي يتعرض حجاجنا لابتزاز الاموال وعمليات التعسف لانهم لا يحملون جوازات سفر ؛ فان خوجا علي لا يفعل غير ان يبيع من حجاجنا ، بواسطة يولداش وكولداش من بخارى ، تذاكر هوية فارسية قديمة واوراقا بخارية قديمة . وتعتبر القسطنطينية النقطة التالية بعد باطوم من حيث ابتزاز الاموال وغير ذلك من عمليات التعسف . ففيها يتعرض حجاجنا ، حتى وان كانوا يحملون جوازات سفر ، من قبل مختلف الادلة ، لاساليب متنوعة ، منها اخذ جوازات السفر منهم لاجل اجراء معاملة الفيزا فى القنصلية العامة الامبراطورية ولاجل تسليمهم بموجبها تذاكر تركية . وبعد ان يتقاضى الادلة النقود عن هذا وذاك ، يعطون الحجاج التذاكر عند سفرهم بالذات ، ويعيدون لهم جوازات السفر بدون فيزا القنصلية . وبما ان كلفة جواز السفر الروسى مع فيزا القنصلية تبلغ ١٢ روبلا و٦٠ كوبيكا ، فان هذا قد ادى الى خسارة تكبدتها الخزينة تتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ الف روبل كل سنة (٣١) .

اما فيما يتعلق بعدد الحجاج ، فان مصادرنا تعطى الارقام التالية :

عدد الحجاج الاجمالى :

سنة ١٨٠٧ — ٨٣٠٠٠
سنة ١٨١٤ — ٧٠٠٠٠
سنة ١٨٥٤ — ٥٠٠٠٠
سنة ١٨٥٥ — ٨٠٠٠
سنة ١٨٥٦ — ١٢٠٠٠
سنة ١٨٥٧ — ١٤٠٠٠
سنة ١٨٥٨ — ١٦٠٠٠٠
سنة ١٨٦٥ — ٩٠٠٠٠ (٣٢)
سنة ١٨٨٤ — ٤٦٢٨٠ (٣٣)
سنة ١٨٨٨ — ١٠٠٠٠٠ (٣٤)
سنة ١٨٩١ — ٤٤٩٠٠
سنة ١٨٩٢ — ٥٣٩٦٢
سنة ١٨٩٣ — ٨٦٤٨٩

وبالاعتماد على تقارير القنصل الروسى فى جدة ليفيتسكى ، يسوق الملازم ياروف-رافسكى المعطيات التالية (٣٥) .

ثم كتب ياروف-رافسكى : «مع الانتقال الى عرض التقرير عن الحجاج المسلمين من رعايا روسيا وبخارى بوجه الحصر ، يلفت القنصل فى جدة

قائمة

الحجاج المسلمين (ما عدا حجاج روسيا)

من ١٦ تموز (يوليو) ١٨٩٠ الى اول تموز ١٨٩٤

القومية	الحج سنة ١٨٩١ من ١٦ تموز (يوليو) ١٨٩٠ الى ٢ تموز ١٨٩١			الحج سنة ١٨٩٢ من ٢١ آب (اغسطس) ١٨٩١ الى ٢٠ تموز ١٨٩٢			الحج سنة ١٨٩٣ من ٢٠ تموز ١٨٩٢ الى ٨ تموز ١٨٩٣			الحج سنة ١٨٩٤ من ١٠ تموز ١٨٩٣ الى ١ تموز ١٨٩٤		
	عبر			عبر			عبر			عبر		
	جدة	ينبع	المجموع	جدة	ينبع	المجموع	جدة	ينبع	المجموع	جدة	ينبع	المجموع
الحزائريون	١٠٥٤	٠٠	٣٨٥٠	٤٨٢٩	٢٥	٤٨٥٤	١٤٤٤١	١٣٠٠	١٥٧٤١	١٢١٥	٣٨	١٢٥٣
العرب	٢٠٨٦	٦٨	٢١٥٤	١٦٤٦	—	١٢٤٦	٢١٦٢	—	٢١٦٢	١٥٢٦	٢٦	١٥٥٢
المصريون	٦٢٨٥	٥٤	٦٣٣٩	٧٩٠٠	٢١٩	٨١١٩	١٣٣٦١	٥١٢	١٣٨٧٣	٦٥٢٠	٤٧٢	٦٩٩٢
الهنود	١١٠٣٥	١٢	١١٠٤٧	١٥٩٥٩	٣٨	١٥٩٩٧	١٤٧٧٢	٢٩	١٤٨٠١	١٥٤٧٨	٧	١٥٤٨٥
اليمنيون والحجازيون	١٨٨٧	—	١٨٨٧	٢٦٩٣	—	٢٦٩٣	٦٤١٠	٨٢٦	٧٢٣٦	٢٤٠٧	١٥٧	٢٥٦٤
الفرس	١٧١٧	٢٣٧	١٩٥٤	١٠٢١	١٦٤	١١٨٥	١٧٥٧	٨٨٧	٢٦٤٤	٢٣٥٤	١١١	٢٤٦٥
السودانيون	٢٤٧	٤١	٢٨٨	٢٨٨	—	٢٨٨	٢٧٧	—	٢٧٧	٤٤٨	١٤	٤٦٢
الاتراك والسوريون	٣٢٨٥	١٨٠٦	٥٠٩١	٧٥٢٨	٢٢٢٨	٩٧٥٦	٨٤٢٧	٥٠٢٠	١٣٤٤٧	٥١٩٨	١٩١٦	٧١١٤
الجاويون	١٠٨١٧	—	١٠٨١٧	١١٥٠٨	—	١١٥٠٨	١٣٨٥٦	—	١٣٨٥٦	١٢١٢٦	—	١٢١٢٦
مختلف القوميات على زوارق شراعية (سمابك)	—	١٤٧٤	١٤٧٣	—	٣٣١٦	٣٣١٦	—	٢٤٥٢	٢٤٥٢	—	١٢٦٧	١٢٦٧
المجموع	—	—	٤٤٩٠٠	—	—	٥٣٩٦٢	—	—	٨٦٤٨٩	—	—	٤٦٢٨٠

قائمة
السفن التى دخلت مرفأ جدة بالحجاج
من ١٦ تموز (يوليو) ١٨٩٠ الى اول تموز ١٨٩٤

تحت اية راية	الحج سنة ١٨٩١ من ١٦ تموز ١٨٩٠ الى ٢ تموز ١٨٩١			الحج سنه ١٨٩٢ من ٢١ آب (اغسطس) ١٨٩١ الى ٢٠ حزيران (يونيو) ١٨٩٢			الحج سنة ١٨٩٣ من ٢٠ حزيران (يونيو) ١٨٩٢ الى ٨ حزيران ١٨٩٣			الحج سنة ١٨٩٤ من ٩ حزيران ١٨٩٣ الى ٣١ ايار (مايو) ١٨٩٤		
	من الجنوب	من الشمال	المجموع	من الجنوب	من الشمال	المجموع	من الجنوب	من الشمال	المجموع	من الجنوب	من الشمال	المجموع
النمساوية	٢	٦	٨	٢	٤	٦	—	١	١	—	١١	١١
الانجليزية	٥٢	١٧	٦٩	٥١	١٥	٦٦	٦٦	٢١	٨٧	٦١	٣	٦٤
الالمانية	—	—	—	١	—	١	—	١	١	—	٢	٢
الهولندية	٨	—	٨	٢٢	٨	٣٠	٢٠	٤	٢٤	٢١	١٢	٣٣
اليونانية	١	١	٢	—	١	١	—	—	—	—	—	—
المصرية	١٢	٢٠	٣٢	١٥	٢٩	٤٤	١٤	٤١	٥٥	١٧	٣٣	٥٠
الزنجبارية	١	—	١	١	—	١	١	—	١	—	—	—
البرتغالية	٣	—	٣	—	—	—	—	—	—	—	—	—
التركية	٥	٤	٩	١٦	٩	٢٥	١٢	١١	٢٣	١٠	١٠	٢٠
الفرنسية	—	٥	٥	—	٤	٤	—	١٢	١٢	—	—	—
المجموع	٨٤	٥٣	١٣٧	١٠٨	٧٠	١٧٨	١١٣	٩١	٢٠٤	١٠٩	٧١	١٨٠

قائمة
الادلة والوكلاء (بموجب تقرير القنصل فى جدة
عن سنة ١٨٩٣)

الرقم	الادلة فى مكة	الوكلاء فى جدة	لاجل اى حجاج
	من مواليد مكة		
١	علي محمود شكرى	محمد غيريتلى	من انديجان
٢	علي بيرينجى	محمد غيريتلى	من اوش
٣	الشيخ محمد اصغر	الشيخ حسين	من خوى
٤	أ – سيد احمد مؤذن	من مواليد طرابلس احمد غوريانى من مواليد جدة	الشركس
	ب – خليل دوبى	محمد صالح بانغاش	
٥	سليمان مداح عباس عبد الرفاشين	الشيخ حسين من طرابلس	تتر القرم
	من ذرية بنى (من مكة)	حميد بحرى الجدى	
	من ذرية سنانى من مكة	محمد صالح بانغاش	
٦	ابراهيم سلسيله	محمد صالح بانغاش	من داغستان
	ابراهيم ميره	لا وكيل	
٧	من ذرية اشجى من مكة	خوجا موسى من قشقار	من قوقند
٨	من ذرية علي سروجى من مكة	عبد الرسول من مواليد اليمن	القرغيز وتتر قازان
٩	سيد عبد القدير اصله داغستانى	محمد دهاقينى من مواليد جدة	من نامانغان
١٠	سيد محمد كوتشك من بخارى	محمد جان من مواليد خوجند وخوجا موسى من قشقار	من بخارى سمرقند طشقند مرغلان خوجند تركستان

الانتباه الى «المطوّفين» او «الادلة» الذين مضوا فى سنة ١٨٩٤ الى بخارى وتركستان لاجل دعوة مسلمينا الى الحج . فمن مكة ، مثلا ، راح دليلان من ابناء مكة هما سعيد حسن كوتشوك ، ابن سعيد حمود ، وعبد الله كوتشوك ، ابن خوجا-سريمساك ، ومن المدينة سيد محمد (وهو من مواليد بخارى) ، ابن معصوم خوجا .

جميع ادلة الحجاج ينقسمون الى فئتين : «المطوّفين» او الادلة ووكلائهم ، وعلى رأسهم شيخ مع وكيله . والشيخ ، مثله مثل الادلة ، يُعيَّن بفرمان خطى من شريف مكة ، بينما الوكلاء يختارهم الادلة .

ومع تقديم قائمة بالادلة والوكلاء لاجل رعايا روسيا وبخارى ، يفيد القنصل ان حسن غونغ (وهو من مواليد مكة) يعتبر شيخ جميع الادلة فى جدة ، وان علي اخضر (وهو ايضا من مواليد مكة) وكيله . وفى المدينة لا وجود لشيخ الادلة .

ان بعض الادلة ، ومنهم مثلا المشار اليهم فى هذه القائمة بالرقم ٣ و٩ و١٠ ، كانوا ، بعد سنة او سنتين ، يمضون بانفسهم الى روسيا وبخارى لاجل جمع الحجاج . وكان آخرون ، ومنهم مثلا ، الوكيل المشار اليه بالرقم ٨ ، يرسلون من طرفهم شخصين او ثلاثة سواء لاجل بيع الماء من بئر زمزم والمسابح والتمر وغير ذلك ام لاجل الدعوة الى الحج .

وبما ان مسلمى آسيا الوسطى من رعايا روسيا ، وكذلك التتر والافغان والقشقار وقسم من الفرس كانوا معروفين فى جدّة عموما بانهم بخاريين ، فمن المستحيل تعيين العدد الحقيقى من الحجاج من رعايا روسيا ورعايا بخارى .

فى سنة ١٨٩١ بلغ مجمل الحجاج من رعايا روسيا وبخارى القادمين الى مكة عبر افغانستان والهند زهاء ١٢٦٩ شخصا وعبر القسطنطينية ٧٨٤ شخصا . وفى سنة ١٨٩٢ وصل الى الحج عبر الطريق الاول ٣٠٤٣ شخصا وعبر الطريق الثانى ٨٠٤ اشخاص . وفى سنة ١٨٩٣ وصل الى الحج

الرقم	الادلة فى المدينة	الوكلاء فى ينبع	لاى حجاج
١	محمد علي (من بخارى)	لا	من بخارى
٢	سيد شافى (من المدينة المنورة)	وكلاء	القرغيز والتتر

عبر بومباى ٤٣٢٨ شخصا ، وعبر السويس ١٨٠٨ اشخاص ؛ وفى سنة ١٨٩٤ ، بلغ عدد الحجاج من بلادنا ٣٣٤٩ شخصا منهم ٢٩٣١ جاؤوا عبر الهند و٤١٨ عبر السويس .

ومن اصل ٣٣٤٩ شخصا لم يستجوبوا فى القنصلية الامبراطورية فى جدة سوى النصف اى ١٧٩٥ شخصا تبين ان بينهم من :

انديجان	٤٥٦	تركستان	٤
قوقند	٢٤٢	خوجند	٢
مرغلان	٣٥٢	بخارى	١٧٩
ناماتغان	٢٠٤	داغستان	٢٠
اوش	٦٨	الشركس	٣٠
سمرقند	٢٧	الذين صرحوا	
التتر	٤٦	بانهم من رعايا	
طشقند	٨٠	روسيا فقط	٨٥

واذا امعن المرء فى هذه القائمة ، لا يصعب عليه ان يلاحظ ان منطقة فرغانة التى اكتسبت شهرة سيئة بالانتفاضة فى شهر ايار (مايو) ١٨٩٨ تعطى ثلاثة ارباع مجمل عدد الحجاج عندنا فى اقليم تركستان .

ومن حيث نوع الاشغال يشكل الزراع بالطبع العنصر المهيمن — فان عددهم ١٢٥٠ شخصا .

ومن حيث العمر ينقسمون جميعهم كما يلى :

من ٢٠ الى ٣٠ سنة	٢٩٤
٣١ــ٤٠	٣٥٩
٥١ــ٦٠	٤٤٣
٦١ــ٧٠	٢٢٧
٧١ــ٨٠	٦٨
٨١ــ٩٠	١١
العمر غير الواضح	٣٩٣
المجموع	١٧٩٥

جميع هذه الارقام بعيدة عن الواقع لان تعيين عدد المسلمين من رعايا روسيا الذين يمضون الى الحج كل سنة ، وتعيينهم بدقة كافية من مجمل عدد الحجاج المذكور آنفا ، يبدو ، فى الظروف الراهنة ، مستحيلا تماما

لانهم ، باغلبيتهم الساحقة ، يمضون بدون اية جوازات سفر . ويستفاد من المعطيات المتوافرة عند القنصلين فى بغداد وجدة ان عدد الحجاج السنيين والشيعيين من رعايا روسيا لا يقل تقريبا بالاجمال عن ١٨-٢٥ الف شخص (٣٦) .

من المقطع المذكور يتبين ان صاحب المقالة يربط مباشرة انتفاضة انديجان بعدد سكان منطقة فرغانة الذين قاموا بالحج . وللمقارنة نسوق هنا جدولا من «تقرير» دولتشين (٣٧) .

عدد الحجاج فى سنة ١٨٩٨ يبلغ :

من روسيا : القرغيز		٢٥٠
التتر		١٠٠
سكان ما وراء القفقاس		١٠٠
من تركستان الصينية		٢٠
الفرس		٨٠٠٠
الاتراك		١٠٠٠٠
السوريون		٤٥٠٠
المصريون		٥٢٤٥
البدو المصريون		١٥٠٠
من سكان : طرابلس		٦٠٠
تونس		٢٠٠
الجزائر		٢٠٠
فاس-المغرب		٣٠٠
الهند		١٠٠٠
ساحل افريقيا الغربى		٢٠
سكان مكة وضواحيها	حتى	٤٠٠٠٠
سكان الجزيرة العربية :		
المدينة		٣٥٠٠
اليمن		٤٠٠٠
عمان		٣٠٠
عدن		٢٠٠
نجد وغيرها		٤٠٠٠
الافغان		٢٠
الماليزيون		١٥٠٠٠
الحاصل حوالى		١٠٠٠٠٠

ومن تقرير القنصل الروسى فى جدة براندت ينجم ان متوسط عـــدد الحجاج من رعايا روسيا ٨–١٠ آلاف شخص فى السنة ، علما بانه فى سنة ١٩٠١ اعطى الرقم ٦٠٠٠ وفى سنة ١٩٠٢ الرقم ١٦٠٠٠ وفى سنة ١٩٠٣ الرقم ٤٧٤١ (٣٨) .

ان اداء فريضة الحج ، كما سبق ان قلنا ، كان محفوفا فى ذلك الوقت بخطر نقل اوبئة الطاعون والتيفوس والكوليرا المشؤومة العواقب الى داخل الامبراطورية الروسية ، علما بان هذه الاوبئة كانت تزهق ملايين الارواح فى الشرق الاوسط وفى آسيا الوسطى . وآنذاك مثلا نسبوا نشوب وبـاء الطاعون فى محافظة استراخان الى الحج . وفى كانون الثانى (يناير) ١٨٩٧ ، انشئت لدى وزارة الداخلية لجنة خاصة لمكافحة عدوى الطاعون برئاسـة الامير ا . ب . اولدنبورغسكي . وكان من صلاحية هذه اللجنة البت فـــى مسألة تنظيم حج المسلمين من رعايا روسيا . كان اعضاء اللجنة يدرسون التقارير عن الحج من السفارة الروسية فى القسطنطينية والقنصليات فـــى جدة ومشهد وبغداد (٣٩) . والى جدة أُرسل فى مأموريات كل من الاطباء سوكولوف ودالغات وتولانوف وتاكايف ؛ وهؤلاء ارسلوا بدورهم التقارير الى اللجنة (٤٠) .

ولكن لاجل تقييم الحج من جميع جوانبه السياسية والدينية (وبخاصـة بالارتباط مع الاحداث فى انديجان) والطبية الوبائية ، كان ينبغى الحصول على معلومات شاملة وصادقة من مصدرها الاول . وفى هذا الصدد بالذات ، كما تبين مواد ارشيف الدولة العسكرى التاريخى المركزى (٤١) ، نشـأت فكرة ارسال ضابط مسلم من الجيش الروسى الى مكة . وقد وقع الاختيار على عبد العزيز دولتشيـــــن ، الذى قدّره وزيـــــر الحربية نفســـه ا . ن . كوروباتكين رفيع التقدير . وفيما بعد سنتحدث عـن شخصيـــة دولتشين ونتائج نشاطه الاساسية . اما هنا ، فتجدر الاشارة الى ان تقريره المطبوع فى المطبعة العسكرية لهيئة الاركان العامة مع الختم «سرى» احتوى كمية كبيرة من المعلومات الموضوعية والمختارة اختيارا موفقا لاجل اتخـاذ مجموعة من القرارات الصحيحة بصدد القضايا المتعلقة بحج المسلمين مـن رعايا روسيا . وقد حاول دولتشين ان يستبعد المخاوف القائمة ويبـــدد الاوهام بصدد الحج ، واوصى فى حال غياب خطر وبائـى فعلى ، لا بالتخلى عن جميع الموانع وحسب ، بل ايضا بتسهيل السبيل من روسيا الى مكـــة امام الحجاج .

ان الصيغة الاولى للوثيقة التى اعدتها فى هذه المسألة وزارة الداخلية

تقيدت اجمالا بهذا الاتجاه . وقد اعتبر الحج ظاهرة دينية محضة ، وظاهرة هامة بالنسبة للسلطات فى المقام الاول من حيث عواقبها على الصعيد الصحى الوبائى . وورد اقتراح بتقليل الرسوم على جواز السفر لاجل الحجاج . وكان من المرتأى تكليف المحافظين بتأمين الشروط لاجل مجموعات الحجاج الذاهبين بغير السكة الحديدية بحيث يحصلون على الاغذية باسعار رخيصة ، والمساكن للمنام والراحة ، والاسعاف الطبى . وكان من المرتأى ايضا اقرار سعر مهاود لتذاكر السكة الحديدية من اجل الحجاج وتنظيم ايصالهم الى جدّة بواسطة سفن الشركة الروسية للملاحة والتجارة (٤٢) . وقد ادى بحث هذه الوثيقة من قبل السلطات فى الوزارات والمحافظات المعنية (٤٣) الى ظهور عدد من الصيغ فيها بصدد «التعصب الاسلامى» وبصدد تأثير الحج ، غير المرغوب فيه برأى السلطات ، فى الوضع السياسى والاجتماعى فى المناطق الاسلامية من الامبراطورية . وفى هذا المجال على الاخص انعكس فى الوثيقة المعنية موقف عدد من محافظى المناطق الاسلامية وشهادة الخبير ، عضو المداولة الخاصة فى شؤون الدين المذكور آنفا ، ف . تشيريفانسكى ؛ وهذه الشهادة نسوقها كليا بوصفها ملحقا لهذه المطبوعة . وقد استثار الاقتراح بصدد سفر وعودة جميع الحجاج عبر مرافئ البحر الاسود واسطمبول مجادلات كبيرة . فان هذا الاجراء الذى يسهل الرقابة ضد الاوبئة كان يتناقض مع محاولات معارضة دعاية الجامعة الاسلامية التى كانت عاصمة الامبراطورية العثمانية مركزها . وتم شطب الاقتراح بصدد الاسعار المهاودة لتذاكر السكة الحديدية من اجل الحجاج . ولكن حتى بعد كل هذا ، تبين «القواعد الموقتة بشأن حج المسلمين» والوثيقة المرافقة لها الصادرة عن وزارة الداخلية ان حج المسلمين وحج المسيحيين الارثوذكسيين الى القدس قد وُضعا من حيث الجوهر فى شروط متساوية . وان تطبيق هاتين الوثيقتين سهل كثيرا حج المسلمين من روسيا ، مما ادى الى ازدياد عدد الحجاج المسلمين الى ١٦ الف شخص فى سنة ١٩٠٢ .

ان الاهتمام بحج المسلمين باعتباره ظاهرة اجتماعية وسياسية ودينية قد استمر فى صفوف الجمهور القارئ الروسى . واكبر عدد من المطبوعات فى هذا الموضوع قد ظهر بالطبع فى المجلات والجرائد الروسية الصادرة فى تركستان . ففى سنة ١٩١٠ نشرت مجلة «آسيا الوسطى» الصادرة فى طشقند ترجمة وصف مكة من الكتاب المعروف الذى وضعه سنوك خورغونيه ؛ وفى طشقند ايضا صدرت فى سنة ١٩١٣ الترجمة الروسية لكتاب ا . راللى «مكة فى اوصاف الاوروبيين» (الاصل — «المسيحيون فى

مكة . . .») . صحيح ان ميل ازدياد الحجاج من رعايا روسيا قد اخلت به الاوبئة وتعرجات السياسة الداخلية والخارجية (٤٤) ، ولكنه استمر ، على ما يبدو ، حتى الحرب العالمية الاولى والثورة فى روسيا .

وختاما بضع كلمات عن حج المسلمين فى عهد السلطة السوفييتية . قبل اغلاق حدود الاتحاد السوفييتى الجنوبيـة بصورة تامة فى اوائـل الثلاثينيات استمر الحج من مناطق آسيا الوسطى وما وراء القفقاس ، وان يكن قد قل على الدوام من حيث العدد . وقد جعلت سياسة ستالين المعادية للدين من المستحيل عمليا على اغلبية السكان المسلمين ، لا الحج وحسب ، بل ايضا اداء الشعائر الدينية اليومية والاسبوعية . وقامت دعاية حادة ضد الدين (٤٥) .

فى سنوات الحرب العالمية الثانية ، حين تطلبت المحن الشاقة توطيد قوى المجتمع بأسره لاجل صد العدوان وحين حاول النظام الستالينـى ان يكتسب مسحة اكثر حضارة فى عيون المجتمع العالمى ، طـرأ تغير على السياسة الرسمية حيال الدين . فقد فتح من جديد قسم من الجوامع والكنائس المسيحية والبيع اليهودية ؛ وفى اوائل ١٩٤٥ استؤنف حج المسلميـن من الاتحاد السوفييتى . والفريق الاول من الحجاج ترأسه المفتى ايشان باباخان . ومذ ذاك يقوم بالحج كل سنة ٢٠–٢٥ شخصا . والفرق تشكلها مباشرة الادارات الدينيـة وتتألف اساسا من الائمة الخطباء ونشطـاء الجوامع . وفى السنوات الـ٤٥ المنصرمة ، قام بالحج ٨٥٠–٩٠٠ شخص ، الامر الذى لا يتطابق ابدا مع مجمل عـدد المسلمين فى اراضى الاتحـاد السوفييتى (٤٦) .

ادت سياسة البيريسترويكا (التغيير ، اعادة البناء) الى انعتاق الحياة الدينية فى الاتحاد السوفييتى . تبنى وتفتتح الجوامع الجديدة والمراكـز التعليمية الاسلامية (مثلا فى باكو واوفا) . ونظرا لتسهيل قواعد الخـروج والدخول بصورة مبدئية ، تتكشف امكانيـات جديدة لنمو عدد الحجـاج المسلمين من الاتحاد السوفييتى نموا كبيرا جدا ، وقد كان الطابع غيـر العادى للعلاقات الديبلوماسية بين الاتحاد السوفييتى والعربية السعوديـة واستحالة تحويل الروبل السوفييتى الى العملات الاجنبية بمثابة عقبة خطيرة فى هذا المجال . وقد ادى تطبيق سعر خاص للروبل بالنسبة للعمـلات الصعبة القابلة للتحويل فى سنة ١٩٨٩ الى ازدياد كلفة حج المسلميـن السوفييتيين من ٣٥٠٠ روبل الى ١٦ الف روبل (وهذا مبلغ يوازى زهـاء خمسة مداخيل سنوية متوسطة) .

رغم ذلك وصل فى عام ١٩٩٠ الى جدة ١٥٢٥ حاجا من خمس مـــدن سوفييتية (طشقند وقازان وباكو ومينير النيى فودى وموسكو) وذلـــك بطائرات ارسلتها خصيصا شركة «ايروفلوت» السوفييتية . وقد ساعـدت السلطات السوفييتية الحجاج فى قضية شراء الاشياء الضرورية للسفـــرة والهدايا التذكارية. وبمساعدة السلطات الرسمية تم تذليل العديد من الصعوبات الناشئة في تنظيم الحج

ان فرح المسلمين السوفييتيين بسبب الحج الاول الحر حقا قد عكرته فاجعة هلاك العديد من أخوانهم في الدين في النفق قرب مكة المكرمة . صحيح انه لم يلحق اى اذى بالمسلمين السوفييتيين ، الا ان الحجاج واخوانهم فـى الوطن قد تلقوا نبـأ الكارثة وكأنها فاجعتهم هـــم انفسهم .

لا ريب فى ان عدد الحجاج من الاتحاد السوفييتى سيزداد من سنة الى اخرى ؛ بيد ان التغير النوعى لن يحدث ، اغلب الظن ، الا بعد حل مسألة تحويل الروبل الى عملة صعبة ، وفى هذه الحال سيكون عدد الحجاج متناسبا مع عدد المسلمين فى البلاد . ومن شأن البرامج الموجودة اليوم للتعـاون بين الهيئات الاسلامية فى الاتحاد السوفييتي والمنظمات الاسلامية العالمية ان تسهم بقسطها فى حل القضايا القائمة .

* * *

ولد عبد العزيز دولتشين فى ٢٤ حزيران (يونيو) ١٨٦١ فى عائلـة ضابط فى الجيش الروسى . وكانت هذه العائلة التترية المحترمة تتمتـــع بتأثير كبير بين ابناء قوميتها ؛ وقد شغل والد المؤلف مناصب هامة فى ادارة مناطق الاورال الجنوبية فى روسيا . ان انتماء الوالد الى فئة النبلاء ومهنته العسكرية لم يؤثرا فى روح التقوى الاسلامية السائدة فى العائلة . بعد التخرج من مدرسة الامبراطور بافل العسكرية المتميزة فى بطرسبورغ ، خدم عبد العزيز دولتشين خمس سنوات فى قلعة دينابورغ غير بعيد عن دفينسك ، وتعلم فى سنوات ١٨٨٧-١٨٩٠ فى صفوف اللغات الشرقيـــة لاجل الضباط لدى الدائرة الآسيوية فى وزارة الخارجية (٤٧) . وهـــــذه الصفوف اعطت الجيش الروسى والـــديبلوماسية والعلم سلسلة مـــن المستشرقين الممارسين اللامعين .

وامام الضابط المسلم الشاب الذى امتلك فى نهاية التعليم ناصيـــة اللغات العربية والتركية والفارسية والانجليزية والفرنسية ، ناهيك عن لغته

القومية واللغة الروسية ، انفتحت آفاق رائعة للترقى فى الميدان العسكرى والديبلوماسى الروسى . ولكن دولتشين ، بحكم طبعه ، لم يسع وراء الوظائف العالية . فان هذا الضابط الهادئ ، المتوازن ، الرصين ، العملى ، وحتى المتحذلق نوعا ما ، الذى لا يتميز بالغرور راح بهدوء من بطرسبورغ الى وظيفة غير كبيرة فى اعماق آسيا الوسطى ، فى ناحية قره قلعه ، غير البعيدة عن عشق آباد . واثناء اقامته هنا سبع سنوات ، تفهّم جيدا جدا القضايا التى تشغل بال الناس القاطنين فى الاراضى الخاضعة لادارته ، وامتلك ناصية اللهجات المحلية ، ودرس اخلاق السكان المحليين وطبائعهم وعاداتهم وفولكلورهم . وبحكم عمله ، تقابل غير مرة مع رئيس مقاطعة ما وراء قزوين ا . ن . كوروباتكين الذى سرعان ما صار وزير الحربية . وقدّر كوروباتكين كفاءة النقيب المسلم . وهناك جملة من الوقائع توحى بانه نشأت بينهما علاقات صداقة ؛ وعندما وردت مسألة ضرورة ترشيح ضابط فى الجيش الروسى لاداء فريضة الحج وتفهم ما اذا كانت هذه الممارسة تشكل خطرا على مصالح روسيا العسكرية والسياسية فى الشرق ، تذكره كوروباتكين .

حالف الترشيح اقصى التوفيق . نبما ان دولتشين كان مسلما ، فقد اعتبر امكانية اداء فريضة الحج كمنحة من القدر ، ومهمة المامورية كفرصة لمساعدة الآلاف من اخوانه في الايمان ، من المسلمين من رعايا روسيا ، مساعدة فعلية فى اداء فريضة الحج ، الامر الرئيسى على الاغلب فى الحياة الروحية لكثيرين منهم ، واداائها فى ظروف وشروط لائقة بالبشر . ومع ذلك ظل من رعايا الامبراطورية الاوفياء كليا ، ظل مخلصا لقسم الضابط . وعن حق وصواب اعتبر تلبية الحقوق المشروعة لابناء دينه فى اداء فريضة الحج انعكاسا لعناية الدولة برعاياها ، الامر الذى يوطد الدولة نفسها فى آخر المطاف .

تجدر الاشارة الى ان دولتشين لم يكن يعرف حاجات المسلمين البسطاء القاطنين فى اراضى روسيا وحسب . فان مضمون يومياته يدل على انه كان يعرف ايضا عددا من الشخصيات الاسلامية العائشة فى روسيا . ومن معارفه ، الشخصية المحافظة نوعا ما ، حميد الله آخون ، الذى كان يتمتع بجزيل الاحترام بين المسلمين القاطنين فى بطرسبورغ ؛ وعطالله بايازيدوف ، المذكور سابقا ، مؤلف جملة من المطبوعات تشكل بمجملها بيانا فريدا لمسلمى روسيا الذين يشاطرون الافكار الاصلاحية . ويذكر دولتشين بين معارفه القريبين كبار اصحاب مصانع النسيج التتر من

عائلتي اكتشورين ودبرديف ، الذين تبرعوا بمبالغ كبيرة لتلبية الحاجات الدينية ولعبوا دورا ملحوظا في حياة روسيا السياسية ؛ والدكتور دالغات الذي خدم في سنة ١٨٩٩ لدى القنصلية الروسية في جدّة ، والذي صار فيما بعد شخصية اسلامية هامة تقدمية الاتجاه ، واشترك في مؤتمر مسلمي روسيا الذي انعقد في بطرسبورغ في حزيران (يونيو) ١٩١٤ .

في هيئة الاركان العامة للجيش الروسي التي مضى دولتشين الى مكة بتكليف منها ، كان يوجد تقليد علمي جدي . فقد كانت دراسة بلدان الشرق الادنى تحظى باهتمام كبير . ان ازدهار النشاط العلمي المتعلق بقيام الضباط الروس بوصف مختلف مناطق الامبراطورية العثمانية كان يرتبط باسم الشخصية العسكرية ورجل الدولة البارز الليبيرالي الاتجاه ن . ن . اوبروتشيف (١٨٣٠-١٩٠٤) الذي عُيّن في سنة ١٨٨١ رئيسا لهيئة الاركان العامة . وبمبادرته شرعت اللجنة العسكرية العلمية لدى هيئة الاركان العامة باصدار «مجموعات المواد الجغرافية والطوبوغرافية والاحصائية عن آسيا» . ونحو بداية الحرب العالمية الاولى صدرت ٨٧ من هذه المجموعات ٨ منها (٤ ، ١١ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٤٩ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٤) مكرسة للشرق الادنى (٤٨) .

واذا كانت «يوميات» دولتشين تدل على مبلغ عمق الانطباع الذي تركته في شعوره الديني مراسم الحج (٤٩) ، فان «تقريره» يبيّن الى اي حد تفهم بدقة واهتمام القضايا المطروحة امامه .

وقد استفاد دولتشين في عمله من مصادر متنوعة باللغات العربية والتركية والاوروبية ، فضلا عن ملاحظاته ومراقباته الشخصية . وعلاوة على المعلومات المفصلة عن الحج عموما ، بما في ذلك ترجمة آيات من القرآن تتحدث عن الحج الى مكة ، ووصف المراسم والشعائر بالتفصيل ، حلل دولتشين بدقة وعناية القضايا المتعلقة بحج المسلمين من رعايا روسيا وكذلك بالحجاج من الدول الاخرى ، وتناول الوضع الصحي الوبائي في الحجاز ، وساق قائمة الاجراءات الصحية ، الضرورية برأيه ، واعطى وصفا مفصلا عن مكة والمدينة وسبل الحجاج . ان باب «معلومات اولية عن الحجاز» ينطوي على معلومات في غاية التنوع — من وصف النباتات والحيوانات الى مواد تتعلق بالميزانية والتقسيم الاداري . وتضمن «التقرير» معلومات طريفة ومفيدة ذات طابع عسكري وسياسي واثنوغرافي وتاريخي واقتصادي تتعلق بالجزيرة العربية والحج في اواخر القرن التاسع عشر . كذلك عكس «التقرير» جملة من القضايا التي اثارت الاضطراب بين المسلمين من رعايا

روسيا . ومن هذه القضايا ، الدعاية لنـــزوح المسلمين من روسيا الـى البلدان الاسلامية . وبتأثير هذه الدعاية ، نزح ، مثلا ، من القرم الـــى تركيا ، مئات الناس .

بعد العودة ، اعد دولتشين خلال بضعة اشهر «التقرير» للطبع ؛ وفى سنة ١٨٩٩ ، بحث امكانية مأمورية جديدة الى القسطنطينية لاجل مواصلة دراسة المسائل المتعلقة بحج المسلمين من رعايا روسيا (٥٠) . ولكن مهمة اخرى كانت بانتظاره . فقد ارسلوه من جديد الى آسيا الوسطى ، وهـذه المرة للاطلاع على نشاط المحاكم الشعبية . فان ادراج منطقـــة ما وراء قزوين ، واقليم تركستان ، وكازاخستان فى قوام الامبراطورية قد تطلب كذلك ادماج النظام القضائى القائم فى هذه الانحاء فى النظام القضائى لعامة روسيا . وقد تبدت نواقص النظام القضائى المحلى ، مثلا ، فى سياق البحث عن اسباب انتفاضة انديجان وتحليل عواقب تطبيق لائحة سنة ١٨٨٦ بصدد ادارة اقليم تركستان . وقد عهد الى دولتشين ، الخبير البارع فى شؤون هذا الاقليم ، بتفهم مجمل هذه القضايا فى مطرحها . وهذه المرة ايضا ادى المهمة بنحو باهر ، الامر الذى يدل عليه «تقرير النقيب دولتشين عـن المأمورية الى اقليم تركستان ومناطق السهوب للاطلاع على نشاط المحاكم الشعبية» (سانت بطرسبورغ ، سنة ١٩٠١) ؛ وهذا التقرير لا يزال الى الآن على جانب من الاهمية بوصفه مصدرا تاريخيا فريدا (٥١) .

بعد العودة من آسيا الوسطى ، كلفوا دولتشين بوظيفة نقيب تحـت تصرف رئيس هيئة الاركان العامة ، مـــع استمراره فى دراسة قضايـــا تركستان . وتدل مواد ارشيف المستشرقين فى فرع لينينغراد لمعهـــد الاستشراق لدى اكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى (المجموعة رقم ٧٠) على سعة اهتماماته . فان هذه المجموعة تحتوى تسجيلات مؤلفات فولكلورية (الملف رقم ٤٩) ووثائق تتعلق بخدمة المسلمين فى الجيش الروسى (الملف رقم ٧) وبالخدمة الدينية والممارســـة الادارية فى المناطق الاسلاميـــة (الملفات رقم ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٩) ومشاريع الرى فى تركستان (الملف رقم ٤) وامكانيات انتاج القطن فى تركستـان (الملف رقم ٤٠) . وهناك عدد كبير من الترجمات ومـن المقتطفات مـــن الكتب ، ومن ملاحظات المؤلف الشخصية ، وكلها تتعلق بتاريخ الاســلام والعالم العربى الاسلامى والشعوب الاسلامية القاطنة ضمن حدود روسيـــا (الملفات رقم ٣٣-٣٩ ، ٤١-٤٣) . ويحلل دولتشين اعمالا تتحدث عن الاسلام (الملف رقم ٤٧) . اما باى احترام كانت الطائفة الاسلامية فـــى

ـ الصفحة الأولى من يوميات دولتشين.

روسيا تعامله ، فتدل عليه الرسالة التذكارية المقدمة له فى يوم بلوغــه الاربعين من العمر (الملف رقم ٧٩) . وهذه الرسالة ننشرها فى هذا الكتاب على سبيل التبيان .

وفى حياة دولتشين مرحلة خاصة ترتبط ببناء جامع بطرسبورغ حيث كان رئيسا للجنة بنائه . وقد جرى ارساء اساس الجامع فى ٣ شباط (فبراير) ١٩١٠ . ان بناية الجامع التى لا تزال اليوم من ابرز آثار الهندسة المعمارية فى لينينغراد كانت محسوبة لاجل ٣٠٠٠ من المصلّين . وقد اخذ دولتشين على عاتقه قسما كبيرا من العمل على تنظيم البناء وجمع الاموال من اجله ؛ وكان قد صار فى هذه الاثناء عقيدا . (راجع الملف رقم ٦١-٦٤) . والـى هذه الحقبة من الزمن ترقى الصورة التى يبدو فيها دولتشين مع خان خوى سيّد اسفنديار والتى التقطها المصور الشهير من بطرسبورغ كارل بولاّ على حاجز كاتدرائية بطرس وبولس فى بطرسبورغ . وبموجب فرمان من القيصر نيقولاى الثانى ، كان دولتشين قد كوفئ بوسام ستانيسلاف (الملف رقم ٨٠) ، كما ان امير بخارى منحه وسام النجمة الذهبية من الدرجة الثالثة .

فى سنة ١٩١٦ ، صار دولتشين برتبة لواء امين سر هيئة الاركان العامة ، وترأس العمل المتعلق بجمع الوثائق التى تهيئها هذه الدائــرة البالغة الاهمية فى بنية الجيش الروسى . ولكن ، بعد سنة ، فى ايار (مايو) ١٩١٧ ، حل محل الفريق ماناكين فى منصب رئيس القسم الآسيوى فــى هيئة الاركان العامة (٥٢) . وقد بقى فى هذا المنصب بعد ثورة اكتوبر ، وعلى الاقل حتى ٤ آذار (مارس) ١٩١٨ (٥٣) .

بعد ثورة اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٧ ، تعاون دولتشين بهمــة ونشاط مع حكومة العمال والفلاحين ، اذ رأى فى العديد من تصريحات ممثلى السلطة الجديدة امكانية تحسين حياة المسلمين فى تركستان . واهتم كثيرا بمسائل الرى فى تركستان ، وساعد فى شراء المطبوعات الضرورية (الملف رقم ٥٦ ، ٥٨) ، وقام بدور الخبيــر ، وعكف على دراسة وحل المسائـــل المتعلقة باصدار كتب التعليم باللغات المحلية (الملف رقم ٥٥) ، ووضع خطة من الاجراءات لمكافحة الملاريا فى تركستان ، وعمد الى وضع موجز تاريخى عن القوات المسلحة البشكيرية (الملف رقم ٤٦) . وتدل الوثائق على ان دولتشين كان فى اواخر سنة ١٩١٩ يشرف على هيئة اركان القسم الشرقى الخاص لدى اكاديمية الاركان العامة (الملف رقم ٥٤) .

ومن المؤسف انه لم يتسنّ لنا ان نعثر على مواد تتعلق بمصير عبـد العزيز دولتشين لاحقا .

ملاحظات

١ — F. Wüstenfeld. Die Chroniken der Stadt Mekka... I—IV. Lpz. 1857—1861.

٢ — A. Ralli. Christians at Mecca... Illustrated. L., 1909. صحيـــــــــح ان المؤلف يفسر المصادر بشكل اعتباطى ، ولكن كتابه يعطى مع ذلك تصورا واضحا عن طابع وحجم المواد المتوافرة ، ويحتوى معلومات هامة .

٣ — „La Coplas del Alhichonte de Puey Monzon" راجع اى . يـــــو . كراتشكوفسكى . المطبوعات الجغرافية العربية . المؤلفات ، المجلد ٤ ، ص ٤٥٧— ٤٥٨ .

٤ — راجع ف . ب . سالكوف . انتفاضة انديجان سنة ١٨٩٨ . قـــازان ، سنة ١٩٠١ ، ص ٩٥ . الملاحظة رقم ١ .

٥ — من بين اعمال المؤلفين السوفييتيين ، راجع ، مثلا ، غ . بونداريفسكى . طريق بغداد وتسرب الامبريالية الالمانية الى الشرق الادنى . طشقند ، سنة ١٩٥٥ ؛ بونداريفسكى ايضا : السياسة الانجليزية والعلاقات الدولية فى الخليج العـــــربى . موسكو . سنة ١٩٦٨ ؛ ا . س . سيلين . توسع المانيا فى الشرق الادنى فى اواخر القرن التاسع عشر . موسكو ، سنة ١٩٧١ ؛ ل . غ . ايستياغين . التسرب الالمانى الى ايران والمواجهة الروسية الالمانية عشية الحرب العالميـــة الاولى . مـــوسكو ، ١٩٧٩ ؛ يو . ا . بويف . الشرق الادنى فى سياسة فرنســـــا الخارجيـــة (١٨٩٨— ١٩١٤) . لمحات فى تاريخ نضال فرنسا الديبلوماسى من اجل الشرق الادنـى . كييف ، سنة ١٩٦٤ .

٦ — راجع ا . ريزفان . السفن الروسية فى الخليج العربى (١٨٩٩—١٩٠٣) . مواد ارشيف الدولة المركزى للاسطول البحرى الحربى . موسكو ، سنـــة ١٩٩٠ (باللغة العربية) .

٧ — ارشيف سياسة روسيا الخارجية . المجموعة السياسية . الملف رقـــم ٩٩١ . ص ١١١—١١٥ . تتضمن رسائـــــل ا . غلازر مواد فريدة فى تاريـــــخ الانتفاضات ضد الاتراك فى اليمن فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وبخاصة انتفاضة سنة ١٨٩٨ . لمزيد من التفصيل عن هذه المواد راجع بونداريفسكـى . الامبريالية الالمانية ، ٤—١٠ .

٨ ـ راجع ، مثلا ، "Times of India„ بتاريخ ٨ـ١٠ـ١٨٩٨ ، ١٨ـ٢ـ١٨٩٩ ، ٢٩ـ٤ـ١٨٩٩ . راجع كذلك بولداريفسكى . الامبريالية الالمانية ، ١٠ .

٩ ـ مراسلات غليوم الثانى مع نيقــولاى الثانى . موسكو ـ بتروغــراد ، ١٩٢٣ ، ٣٠ .

١٠ ـ راجع ادناه «التقرير» ، ص ٦٤ .

١١ ـ مقال الجريدة الانجليزية هذا كان صدى لمقالة «الملالى المتجولون» («بيرجيفى فيدوموستى») . سانت بطرسبورغ ، العــدد ٣١٢ بتاريخ ٢١ـ١١ـ١٨٧٣) . ردت الجريدة الروسية على حملات «Pall-Mall» بمقالتين : «تطلعات بريطانيا الى الجزيرة العربية والاتهام الجديد ضد روسيا» (العدد ٣١٩ بتاريـخ ٢٨ـ١١ـ١٨٧٣) و«اتهام روسيا بحماية الاسلام» (العدد ٣٣٩ بتاريخ ١٨ـ١٢ـ١٨٧٣) .

١٢ ـ راجع B. G. Martin. German-Persian Diplomatic Relations. 1873—1912. Monton, 1959, 27.

١٣ ـ بهاء الدين فايسوف . طريقى خوجاغون (طريق الحجاج) . قــازان ، ١٨٧٤ . عنان الدين فايسوف . جواهرى حكمتى درويشون . (اثمن اقوال الدراويش الحكيمة) . قازان ، ١٩٠٧ . ورقة القسم المقدسة . اصدار جمعية مسلمى فــوج فايسوف الربانى . قازان ، ١٩٠٨ . المعرفة المقدسة وتصريح عضو فوج فايسوف الربانى . قازان ، ١٩٠٨ .

١٤ ـ ا . ف . مولوستفوفا . فوج فايسوف الربانى . عالم الاسلام . م I ، ١٩١٢ . ١٤٩ ؛ ى . كوبلوف . الكونت ل . ن. تولستــوى والاسلام . بصــدد مراسلات ل . ن . تولستوى مع تتر قازان . قازان ، ١٩٠٤ ؛ Chodja Muchammed Cajan Waisow. Les „weisowens" et Leon Tolstoy. —Annuaire tartar. Vilno, 1932, I, 215—221. راجع كذلك ن . ف . كابانوف . معطيات جديدة عن الشيعة الفايسوفيين . قازان ، ١٩٠٩ (ملزمــــة منفردة مــــن مجلة «برافوسلافنــى سوبسيدنيك» لسنة ١٩٠٩) ؛ عبد الله كيلديشوف . عنان فايسوفنى توزاغــى (فخ عنان فايسوف) . قازان ، ١٩٠٨ .

١٥ ـ ن . ب . اوستروموف . الرسالة المسيحية . قازان ، ١٨٩٤ ، ١٥٩ .

١٦ ـ المرجع ذاته ، ١٥٩ـ١٦٢ ؛ جريدة «اورنبورغسكى ليستوك» («ورقـة اورنبورغ») . اورنبورغ ، العدد ٤٢ بتاريخ ١٥ـ١٠ـ١٨٨٩ .

١٧ ـ راجع ، مثلا ، اى . غاسبرينسكى . الاسلام الروسى (مقتطفات من الاعداد ٤٣ـ٤٧ من «توريدا» لسنة ١٨٨١ مع اضافات) . سيمفيروبــول ، ١٨٨١ . غاسبرينسكى ايضا : الاتفاقية الروسية الشرقيــة . افكار ، ملاحظات ، تمنيــات . بختشى سراى ، ١٨٩٦ ؛ بايازيدوف . الاسلام والتقدم . سانت بطرسبورغ ، ١٨٦٨ ؛

احمد بك اغايف . المرأة بموجب الاسلام وفى الاسلام . تفليس ، ١٩٠١ ؛ دولت۔ كيلديف . محمد كنبيا . سانت بطرسبورغ ، ١٨٨١ ؛ سليم غيرى سلطانوف . منطقة المسلمين المقدسة فى الجزيرة العربية . موسكو ، ١٩١٦ . راجع كذلك ن . اشمارين . لمحة فى نشاط تتر قازان المحمديين الادبى فى سنوات ١٨٨٠-١٨٩٥ . بتحرير ا . ى . كريمسكى . موسكو ، ١٩٠١ . راجع كذلك : A. Battal-Taymas Musa Garulla Bigi. Kiişilği, fikir, hauati ve eserlery.—Kazanli Türk Meşhurlarindan. II, Istanbul, 1958. ونشرت مواد طريفة عن نشاط غاسرينسكى كذلك فى مجموعة „Tatars of the Crimea: their struggle for survival. Original studies from North America, unofficial and official documents from Czarist and Soviet sources. E. Allworth, ed. Durham, 1988.

١٨ — هذه المحاضرة نشرت فى روسيا بالترجمة الروسية : ارنست رينان . الاسلام والعلم . خطاب القى فى اجتماع «الرابطة العلمية الفرنسية» (التى اسسها ليفيريه عام ١٨٦١) فى ٢٩ آذار (مارس) فى مدرّج السوربون الكبير . سانت بطرسبورغ ، ١٨٨٣ .

١٩ — راجع فايزخانوف . اصلاح مدارس . قازان ، ١٨٦٦ ؛ (عبد الرؤوف فترات) . فترات البخارى . جدال مدرّس بخارى مع اوروبى فى الهند وفى مدارس المنهاجية الجديدة (والنتيجة الحقيقية لتبادل الافكار» . الطبعة الاولى طبعت فى المطبعة الاسلامية فى اسطمبول) . نقلها عن الفارسية العقيد ياغيللو . لا يجوز النشر . طشقند ، ١٩١١ .

٢٠ — ن . اى . ايلمينسكى . رسائل . قازان ، ١٨٩٥ ، ١٧٤—١٧٥ .

٢١ — راجع ، مثلا ، ف . تشيريفانسكى . عالم الاسلام ويقظته . المجلد ١—٢ . سانت بطرسبورغ ، ١٩٠١ ؛ تشيريفانسكى ايضا : ملاحظة بصدد شؤون ايمان السنة . سانت بطرسبورغ ، ١٩٠٦ .

٢٢ — راجع . مثلا ، ا . كريمسكى . الاسلام ومستقبله . موسكو ، ١٨٩٩ ؛ ف . ف . بارتولد . الفكرة التيوقراطية والسلطة الدنيوية فى الدولة الاسلامية . سانت بطرسبورغ ، ١٩٠٣ .

٢٣ — لمحة موجزة عن الوضع الراهن ونشاط رجال الدين المسلمين وشتى ضروب الدوائر والمؤسسات التعليمية الدينية للسكان المحليين فى مقاطعة سمرقند مع بعض الاشارات الى ماضيها التاريخى . — مواد فى الاسلام . النشرة الاولى . طشقند ، ١٨٩٨ ؛ ياروفيرافسكى . الحج الى مكة والمدينة . — مواد فى الاسلام . النشرة الخامسة . طشقند ، ١٨٩٩ .

٢٤ — م . ميروبييف . الاهمية الدينية والسياسية للحج او لسفر المحمديين المشكور الى مكة لاجل الاحتفال بالعيد الدينى . قازان ، سنة ١٨٧٧ ، ٢٣٧ . راجع كذلك فينّر . بصدد حج المسلمين الى مكة . الكشوف التركمانية . طشقند ، العدد ٢٩ ، سنة ١٨٩٥ .

٢٥ ــ ف . ف . بارتولد . المؤلفات . موسكو ، ١٩٦٥ ، المجلد ٣ ، ص ٣٣٦ .

٢٦ ــ ف . ف . بارتولد ــ الشيخ زين الله رسولييف . ١٨٣٣ــ١٩١٧ . رثاء . ــ العالم الاسلامى . بتروغراد ، ١٩١٧ . النشرة I ، ٧٣ــ٧٤ .

٢٧ ــ ا . فامبيرى . رحلة فى ربوع آسيا الوسطى . سانت بطرسبورغ ، ١٨٦٥ ؛ ٢٥ ، ٦٥ ، ٧٧ .

٢٨ ــ ياروف-رافسكى . الحج ، ١٦ . دولتشين . تقرير . ٩٠ ، ١٢٠ .

٢٩ ــ ياروف-رافسكى . الحج ، ١٦ــ١٧ ، ١٨ــ١٩ .

٣٠ ــ المرجع ذاته ، ١٢ــ١٤ .

٣١ ــ المرجع ذاته ، ٢٠ .

٣٢ ــ مبروبييف . اهمية الحج الدينية والسياسية ، ١٠٠ (مع الاستشهاد بمعطيات على باى وبورغهارت وبورتون وح . دوفال) .

٣٣ ــ ياروف-رافسكى . الحج ، ٣ (مع الاستشهاد بتقارير القنصل الروسى فى جدة ليفيتسكى وكشوف قسم جدة للجنة الصحية التركية) .

٣٤ ــ دولتشين . تقرير ، ١٢٦ .

٣٥ ــ ياروف-رافسكى . الحج ، ٤ــ٥ .

٣٦ ــ المرجع ذاته ، ٥ــ٩ .

٣٧ ــ دولتشين . تقرير ، ١٢٦ .

٣٨ ــ ارشيف الدولة المركزى للاسطول البحرى الحربى . المجموعة ٤١٧ . الملزمة I . الملف ٢٧٥٧ . ظهر ص ٧ .

٣٩ ــ راجع ، مثلا ، ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ ، الملزمة I . الملف ٢٨٩٢ ، ص ٩٦ وظهرها ؛ المصدر نفسه ، الملف ٢٨٨٣ ، ص ١٠٠ــ١٠١ .

٤٠ ــ راجع ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ ، الملزمة ، الملف ٢٨٨٦ . تقرير تولاتوف (المرجع ذاته ص ٨ــ١٦) والتقارير الشهرية عن عدد الوفيات فى جدّة (من سنة ١٨٩٨ الى سنة ١٩٠٠) المزودة فى غالب الاحيان بمعطيات عن عمر المتوفين ومهنهم وانتمائهم القومى وعن اسباب وفاتهم تتسم بقدر كبير من الاهمية والفائدة . راجع ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ ، الملزمة I ، الملف ٢٨٨٣ و٢٨٨٦ . كان الاطباء الروس فى جدّة يستعملون احدث الادوية . ففى جدة مثلا حالف النجاح استعمال اللقاح الحديث المضاد

للطاعون ، الذى ابتكره معهد الطب الاختبارى فى بطرسبورغ . (راجــع ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ ، الملزمـة ، الملف ٢٨٨٣ ، ص ٢٩٠ — الظهر) .

٤١ — راجع ارشيف الدولة التاريخى العسكرى المركزى . المجموعة ٤٠٠ ، الملزمة I ، الملف ٢٢٣٩ ، ص ١—٧٢ (الظهر) .

٤٢ — راجع ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ ، الملزمـة ، الملف ٢٨٩٢ ، ص ٦٣ ؛ ارشيف الدولة المركزى للاسطول البحرى الحربى . المجموعة ٤١٧ ، الملزمة I ، الملف ٢٧٥٧ .

٤٣ — راجع ، مثلا ، ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ ، الملزمة I الملف ٢٨٩٢ ، ص ٩٦—٩٦ (الظهر) و٩٩—٩٩ (الظهر) وكذلــك وثيقة وزارة الداخلية «بصدد المصادقة على مشروع «القواعد الموقتة المتعلقة بحج المسلمين» » المنشورة كملحق لهذا الكتاب .

٤٤ — راجع ، مثلا ، ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٨٤ ، الملزمة ١٨٨ ، الملف ٣٥١ «بصدد اقرار رقابة حكومية صارمة فى روسيــا على تجارة الكتب باللغة التترية واللغة العربية وغيرهما من اللغـــات الشرقية» (سنـة ١٩٠١) ؛ المرجع ذاته ، الملف ١٦٠ «حول منع عملاء المؤسسات الملاحية الاجنبية من بيع التذاكر من الحجاج المسلمين لاجل السفر من روسيا الى الحجاز» (آب — اغسطس ١٩١٤) .

٤٥ — راجع مثلا ل . كليموفيتش . قربان بيرم . عيد الاضحى وحج المسلمين الى مكة . موسكو ، سنة ١٩٣٣ .

٤٦ — العمل الوحيد من حيث الجوهر عن الحج من الاتحاد السوفييتى فى الآونة الاخيرة — انما هو القصة الساخرة الوصفية بقلم فضل الدين محمدييف «سفرة الى العالم الآخر او قصة عن الحج المبرور» (موسكو ، سنة ١٩٦٩) . المؤلف — طبيب رافق فى الستينيات الى مكة فريقا من الحجاج من الاتحاد السوفييتى .

٤٧ — راجع قائمة الخدمة لحد ايلول (سبتمبر) ١٨٩٠ للملازم الاول دولتشين الذى كان يتعلم فى سنوات ١٨٨٧—١٨٩٠ فى صفوف اللغات الشرقية لدى دائرة آسيا بوزارة الخارجية (ارشيف الدولة التاريخى العسكرى المركزى . المجموعـــة ٤٠٠ ، الملزمة ٢١ ، الملف ١٦٠٩ ، ص ٢٦٢—٢٦٦ ؛ المجموعة ٤٠١ ، الملزمة ٤ ، الملف ٢٩ ، الجزآن ١ و٢ ، سنة ١٨٨٨ ؛ الملف ٢٩ ، سنة ١٨٨٩) .

٤٨ — لمزيد من التفصيل راجع ب . م . دانتسيغ . دراسة الشرق الادنى فى روسيا . موسكو ، ١٩٦٨ ، ١٤٩—١٥١ .

٤٩ — لم يكن دولتشين اول ضابط مسلم فى الجيش الروسى يزور مكة . ففى سنة ١٨٤٥ ، قام بفريضة الحج عباس قولى آغــا باقى خانوف (الاسم الادبــى

المستعار – قدسی) المؤرخ والفيلسوف والشاعر الاذربيجانى البارز (١٧٩٤–١٨٤٦، العقيد في الجيش الروسى . فى الطريق من مكة الى المدينة ، مات بسبب الكوليرا ودفن فى وادى فاطمة .

٥٠ – راجع ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ ، الملزمة I ، الملف ٢٢٨٦ ، ص ١٦٧–١٦٧ (الظهر) .

٥١ – راجع كذلك ارشيف المستشرقين فى فرع ليتينغراد لمعهد الاستشراق لدى اكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى . المجموعة ٧٠ ، الملزمة I ، الملف ٣ . يتضمن الملف دفترين بمواد عن المامورية ومنشورات للمؤلف فى القضبة ، ونصا مطبوعا «للتقرير» – بملاحظات خطية كثيرة . وثائق تتعلق بالنظام القضائى فى آسيا الوسطى . راجع كذلك فى الملفات ١١ ، ١٢ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ . عن مامورية دولتشين هذه راجع ارشيف الدولة التاريخى العسكرى المركزى . المجموعة ٤٠٠ ، الملزمة I ، الملف ٢٠٨٧–٢٠٩٠ .

٥٢ – راجع ارشيف الدولة التاريخى العسكرى المركزى . المجموعة ٤٠٠ ، الملزمة I ، الملف ٤١٤٩ ، ص ٨٤ .

٥٣ – راجع المرجع ذاته ، الملف ٤١٤٩ ، ص ٧٧–٨٢ .

عبد العزيز دولتشين

يوميات السفر الى مكة
التقرير عن المأمورية الى الحجاز

يوميات السفر الى مكة

في ٢٦ شباط (فبراير) ، سافرت الى اسخاباد * بناء على برقية من المحافظ ؛ وبعد عودتي في ٢٨ شباط ، شرعت اهيئ الشؤون والكتب لاجل التسليم . وفي ٣ آذار (مارس) جاء الملازم الاول بوبلافسكي ليحل محلي ، – وهو رجل لا يفهم البتة اللغة المحلية ؛ وسيكون حاله صعبا وعلى الاخص في البداية . وفي ٥ آذار انهيت عملي ، وفي ٦ منه ودعت عائلتي وزملائي في الخدمة ورحت الى قيزيل ارواط . وصلت قبل انطلاق القطار بنحو ساعتين . توقفت عند براور . نقلوا الامتعة الى المحطة الحديدية على عربة يجرها يحمور . ركبت القطار وفي الطريق اخذت احدق بكآبة في جبال كابت داغ حيث كنت اعرف كل مضيق وكل قمة ؛ وودعت بالفكر الآوولات (القرى) الواقعة بمحاذاة السكة . كنت احب ابناء السهوب المتوحشين هؤلاء ، وهم ايضا كانوا دائما يعربون لي عن مودتهم . هل اراهم من جديد ! من قازاندجيك انبأت سلفا فيسكوفنيكوف بوصولي الى كراسنوفودسك . كل ذلك اليوم وجميع الايام السابقة بعد وصول البرقية ، شعرت باقصى الارهاق والضيق النفسي ، وفقدت الشهية ، وتملكني الأرق . أهذا احساس مسبق ام مجرد أسف على مفارقة الاولاد لزمن طويل ؟

في الساعة السابعة صباحا من ٧ آذار وصلنا الى كراسنوفودسك . وفي القطار تقابلت مع الملازم في قوات القوزاق فولكوداف الذي كان في طريقه الى منشوريا ؛ وبناء على نصيحته قررت ان اسافر في رحلة مباشرة على باخرة للشركة الشرقية لكي اكسب يوما واحدا . في المحطة الحديدية قابلت شيشكيفيتش . رحت مع فولكوداف الى الرصيف . في مقر الشركة عرفنا ان

* هكذا كانوا يسمون عشق آباد قبل ثورة اكتوبر ١٩١٧ . المحرر .

السفينة «ميريديان» ستنطلق فى الساعة ١٢ ظهرا . بقى فولكوداف ليأمر بنقل الامتعة ، ورحت انا الى آل شيشكيفيتش حيث تقابلت مع مدفعيين قوزاقيين اثنين آخرين . تناولنا الفطور بمرح وفى بداية الساعة الثانية عشرة رحت مع شيشكيفيتش على عربة الى الرصيف ووعدت مدام شيشكيفيتش بالذهاب مع الضيوف لتوديعنا . فى الطريق تقابلنا مع شرطى ؛ وهذا الشرطى قال لى ان الباخرة ستنطلق الآن وانهم ينتظرونني وحدى . حين اقتربت من الرصيف سمعت الصفارة الثالثة . بفضل تلطف الربان ، واساسا بفضل جهود فولكوداف انتظرونى ساعة ونصف ساعة . وقد تبين ان العميل أمر بانطلاق السفينة فى الساعة ١٠ عوضا عن الساعة ١٢ . وارسل فولكوداف رجلا يفتش عنى فى كل مكان ، وارسل مرارا الرسل الى رئيس القضاء الذى كنت انوى الذهاب اليه ، ولكننى لم اذهب لأنه كان فى اسخاباد . ما احلى ان يكون للمرء مثل هؤلاء الرفاق .

خرجنا من كراسنوفودسك فى الساعة الحادية عشرة والنصف . الربان ومعاوناه شبان ولطيفون جدا . الثلاثة جميعهم روس . «ميريديان» باخرة مروحية شاحنة ، فى مؤخرتها عدد قليل من المقصورات لاجل الركاب . الباخرة نظيفة وجديدة . عند الرحيل قال الربان انه من المحتمل ان تهب ريح مقابلة قوية لأن البارومتر يسقط بشدة . ورحت انام . كان البحر هادئا نسبيا . استيقظت فى الساعة الثالثة ليلا بسبب تموج قوى وضجة غير عادية . كانت تهب ريح غربية قوية ، وكانت الباخرة تغطس بشدة ؛ وعندما ارتفعت مؤخرتها ، احدثت المراوح ضجة منفرة جدا . كنت متمددا ؛ وكلما كنت اقوم باقل محاولة للوقوف كان يتملكنى الدوخان والغثيان . وكان فولكوداف بالذات يعتنى بجميع الذين يعانون من التموج . حاول فولكوداف بالحاح اقناعى بأكل المزيد ؛ السيدات من المقصورة المجاورة نقلوا بعضهن الى المتن ، ونقلوا بعضهن الآخر الى مقصورة اخرى ؛ وحمل الىّ قشرة من الخبز الاسود ونصحنى بأكلها مع الماء ، وقال ان هذه وسيلة تركية مجربة ، وجاءنى ايضا باقراص النعناع .

فى ٨ آذار (مارس) استمر التموج طوال اليوم كله ، وواصلت التمدد ، وواصل فولكوداف العناية بالجميع .

فى ٩ آذار استيقظت مع فولكوداف (فقد انزلونا فى مقصورة واحدة) فى الساعة الرابعة صباحا ؛ كان التموج ضعيفا . وفجأة توقفت الباخرة ، فظننا ان الربان يستدل بمنارة بتروفسك ولكن تبين اننا قد دخلنا المرفأ ونقف الى حاجز الامواج . سررت جدا لنهاية الطريق البحرى . فى نحو

الساعة الثامنة رحت مع فولكوداف الى المدينة . كان البرد هنا منفرا جدا (١٥ درجة مئوية تحت الصفر بسلّم ريومور) . وعندما رحت كان اللوز قد ازهر فى قره قلعه ، اما هنا فكادت اذنى تتجمدان من البرد . رحت الى مركز البرق وارسلت برقية الى اخى فى فيتبسك طلبت فيها منه ان يذهب الى بطرسبورغ كما ارسلت برقية ثانية الى امى عن مغادرتى وثالثة الى قره قلعه عن الوصول الى بتروفسك (٢) .

في الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبا سافرت فى قطار للركاب الى بسلان .

فى ١٠ آذار (مارس) ، حوالى الساعة الواحدة ليلا ، انتقلت الى القطار الذاهب من فلاديقفقاس الى روستوف ؛ ونظرا للزحمة انتقلت الى مقعد من الفئة الاولى دافعا بقية ثمن التذكرة حتى بطرسبورغ . بقى رفيقى الدائم فولكوداف فى مينيرالنى فودى ، وواصلت انا السفر بصحبة ٤ عقداء — آمر الفوج الثانى من الفرقة ٢٨ ، آمر ت . ب . ٢٠ (٣) ، آمر الفوج القوزاقى غ . م . (٤) ، ومهندس متقاعد . انهم اناس ودودون جدا ولبقو المعاملة ، ولا يتبجحون بمناصبهم .

فى الثانى عشر من آذار ، وصلت فى الساعة الرابعة بعد الظهر الى موسكو حيث كنت احسب ان اجد فى محطة نيقولايفسك برقية اخى من فيتبسك . ولكن بسبب تسرعى للحصول على هذه البرقية ، نقلت فى البدء امتعتى الى محطة بطرسبورغ ، ورحت الى المدينة لشراء بعض الحاجيات . بدا لى غريبا جدا ركوب العربات الزحافة التى لم ارها منذ ٧ سنوات : تكاد تجلس على الارض ، من جميع الجهات تلوح رؤوس الخيل . وهذا ، بسبب انعدام العادة ، منظر مخيف نوعا ما . عدت الى المحطة الحديدية الى اصحابى [. . . . . .] ** فى الساعة السادسة والنصف ، ورحت اسأل عن البرقية ؛ وتبين لما فيه دهشتى ان البرقية ليست من فيتبسك بل من موسكو ؛ وقد اتضح لى فيما بعد ان اخى تلقى برقيتى حين كان ينوى الذهاب الى عيادة فى موسكو لمعالجة اخت زوجته التى ظهرت على وجهها اكزيما .

وكان من المؤسف جدا انى لم اسأل قبل ذاك عن البرقية . فى الساعة الثامنة مساء رحت بالقطار السريع الى بطرسبورغ .

فى ١٣ آذار ، الساعة ٨ والدقيقة ٥٠ صباحا وصلت الى بطرسبورغ وودعت رفاق الطريق اللطفاء واتجهت الى زاوية جادة نفسكى وشارع كارافانايا لافتش عن غرفة صغيرة . وفى اليوم ذاته لبست معطفى العسكري ورحت اقدم نفسى لرئيس هيئة الاركان العامة واعرف متى يستقبلنى مدير

الوزارة . كان اليوم غير موفق ، لم احرز شيئا ، وارجأت الزيارة الى الغد .

في ١٤ آذار رحت في الساعة الحادية عشرة والنصف الى رئيس هيئة الاركان العامة . استقبلني البواب بالقول ان المراجعات قد انتهت . رحت الى غرفة الاستقبال العامة وانا موطد العزم على احراز شيء ما . تلقيت ردا قاطعا من جانب عقيد مكلف بهذا الامر ، فانتظرت ذهاب هذا العقيد الغاضب ، وخاطبت جنرالا واوضحت له اني اريد ان اقدم نفسي اليوم حتما لرئيس هيئة الاركان العامة . اصغى الجنرال بكبير الانتباه وقادني رأسا الى الجنرال ساخاروف (٥) . وهذا الاخير اعجبني خارق الاعجاب بمنظره البسيط واللطيف (في الصورة يبدو سمينا بشكل منفر) ؛ وعرفت منه ان الجنرال كوروباتكين (٦) يستقبل اليوم في الساعة الثالثة ، ولكنه سيتأخر ، اغلب الظن ، لأنه سيكون في مجلس الدولة . نحو الساعة الثالثة رحت الى ديوان وزارة الحربية . جمهرة من الزوار اغلبهم من النساء ، ميدان غني للمراقبة – فما اكثر ما تراه هنا من نماذج ! وبما ان الجنرال كوروباتكين قد حذر بانه سيتأخر لاستقبال الزوار ، فقد استقبل جنرال مترهل اصحاب الطلبات . والشيوخ من هذا الطراز ظهروا دفعة واحدة من مكان ما بكثرة كثيرة . اغلب الظن انه كانت هناك جلسة في المجلس . بقي من الراغبين في انتظار وصول كوروباتكين ٦ اشخاص . واخيرا ، حوالى الساعة الخامسة ، رنّ جرس ، فتحرك الجميع ، وصعد الكسي نيقولايفيتش [كوروباتكين] وراح الى مكتبه وخرج منه في الحال نحونا في غرفة الاستقبال . لم اره منذ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٧ ؛ كان اشحب بقليل من ذي قبل ، ولا غرابة نظرا لعمله الجهيد . في البدء اقترب من زائرتين ملحافتين بشكل لا يطاق ، ثم اقترب مني ؛ وسأل متى وصلت انا ؛ وقال انه لا وقت عنده الآن وطلب ان آتي غدا في الساعة الثانية عشرة الا ربعا الى شقته . ان جميع ذوي الرتب العالية الذين نظروا اليّ بتعال قبل وصول الجنرال قد تغيروا كليا عند ذهابي ، لما فيه دهشتي ؛ فقد رأوا كيف استقبلني الكسي نيقولايفيتش ، ولذا مشيت ببعض الاعتزاز امام صفهم . في اسفل سألتني احدى الزائرتين المذكورتين آنفا والبواب عما اذا حالف التوفيق مهمتي ؛ اجبت اني لم آت طالبا . في المساء رحت الى السيرك . يجب اعتبار اليوم موفقا . ولكن ما عسى ان يقول الكسي نيقولايفيتش غدا ؟

في ١٥ آذار ، نحو الساعة الثانية عشرة ، جئت الى الجنرال في شقته ، على رصيف غاغارين ؛ دعاني مباشرة الى فطور عائلي تحادثنا خلاله عن

رحلتى المقبلة . نظرات الكسى نيقولايفيتش خارقة الطرافة . كان لطيفا ومحتفيا جدا ؛ وقال لى عند خروجى انه يأمل فى ان يرانى مرة اخرى عند رحيلى وطلب ان آتى اليه مساء بعد الساعة الثامنة ، حين يكون عادة حرا . ومن الجنرال رحت الى الكسى غيورغييفيتش غوليكوف ، وتقابلنا كالاخوة ؛ وقد سررت جدا لأنه شفى من المرض الخطير الذى اصيب به . ينصح الاطباء بالانتقال الى الجنوب . تناولت الغداء ، كما فى الماضى البعيد ، عند ميلبريت ، ورحت مساء الى الصالة الكبرى فى الكونسرفاتوار لحضور عرض قدمته فرقة خاصة من اوبيرا موسكو ؛ كانوا يعرضون اوبيرا «فاوست» ، ولكن العرض كان ضعيفا جدا ، ولذا لم يحدث فى نفسى لا لحن زيبيل ولا لحن ميفيستوفل المشهور ذلك الانطباع الذى استحوذ عليّ عند مشاهدتى الاوبيرا فى مسرح مارييسنكى .

فى ١٦ آذار رحت صباحا لتدبير بعض الامور . كنت فى جزيرة فاسيلييفسكى ، واضطررت الى الذهاب فى شارع كاديتسكايا لينيا . كم وكم من الذكريات بعثتها هذه الانحاء فى نفسى ! فهنا امضيت افضل سنى حياتى : اولا سنتين فى مدرسة الامبراطور بافل التى اتذكرها دائما ، على نقيض الجمناز ، بارتياح خاص ؛ وهنا كان العمل وكان النوم الآمن ، والرفاق الطيبون . ولكم استغرقنا آنذاك فى هواية المسرح والمطالعة ! بعد خمس سنوات ، تأتى لى من جديد ان اعيش فى هذه الانحاء بالذات ، مقابل مبنى المدرسة بالذات ؛ وهذه السنوات الثلاث ايضا مرت آنذاك بسعادة ، وان يكن فى اجواء مغايرة تماما . وقد حظى المدعو [ى .] بقسط كبير من السعادة .

حين عدت الى منزلى نحو الساعة الثالثة ، علمت بوصول اخى ، ولكنى لم اجده : فقد انتظرنى زمنا طويلا ثم راح يتنزه . بعد فترة من الوقت عاد اخى . عاد عليّ اللقاء بمتعة كبيرة اذ اننا لم نتقابل منذ اكثر من سبع سنوات . وكل ذلك النهار ، والمساء ، والليل مرت فى الاحاديث . الاّ انى غبت لوقت قصير اذ رحت الى دالغات وكوروباتكين لتوديعهما . ودعنى الكسى نيقولايفيتش كأخ ، وطلب ان اكتب له ، وعانقنى للوداع .

فى اليوم التالى ، فى السابع عشر ، استغرقت طوال الصباح كله فى امورى وتدبير شؤونى المالية . وعند العودة الى المنزل ، قدمت لاخى ٣٠٠ روبل وطلبت منه ان يقبلها كتسديد لتلك المبالغ العديدة التى غالبا ما كان يقرضنى اياها بينما كان غالبا ما يحتاج هو نفسه الى النقود . رفض اخى قطعا . آنذاك طلبت منه ان يرسل المبلغ الى امنا اذا كان هو لا يرغب

فى اخذه . فوافق على هذا الطلب ، وقبل النقود . فى المساء رحنا الى السيرك ، ولكن السيرك لم يوفر المتعة لا لى ولا له ، كما يخيل الىّ .

فى ١٨ آذار رحت صباحا مع اخى الى حميد الله آخون ؛ وكان علىّ ان آخذ احتياطيا من بعض الالبسة . وطلب منى آخون اثناء الحديث ، وقد عرف انى مسافر الى مصر ، ان اقترح على الفقهاء المصريين ، المعروفين بمستواهم العلمى الرفيع ، حل مسألتين خارقتى الاهمية بنظره ، هما التاليتان . فقد قرأ فى كتاب «حوار البياع» (لربما اخطأت فى الاسم) ان من يلبس قبعة ، لا بحكم الضرورة ، بل لمجرد ان يشبه الكفار ، انما هو كافر ، وان الذين يحزمون الخصر بحزام رقيق دقيق ويعلقون الصلبان (الاوسمة) فى كل مناسبة هم بلا ريب كافرون . وطلب آخون ان استوضح هذه المسألة . وهذا واسع الدلالة . ومن الاسئلة علمت انه يوجد فى اوديسا آخون (ابراهيم) يحكى عنه الجميع بصورة سلبية جدا ، ويتهمونه «بسلخ جلود» الذاهبين الى الحج .

انقضت بقية الوقت على معاملات جواز السفر . عرجت لفترة وجيزة على بايازيدوف ، والتقيت هناك باراغانسكى ؛ يبدو انهما فتحا مطبعة بالشراكة . وقد اعطى هو ايضا تقديرا سيئا عن ابراهيم ، آخون اوديسا .

فى ذلك اليوم سافرت فى الساعة ٨ مساء مع اخى فى قطار سريع لسكة تسارسكويه سيلو : هو حتى دفينسك (٧) ، وانا بدون مناقلة الى اوديسا .

ركبنا فى مقصورة من الدرجة الاولى ، ونمنا الليل بصورة مريحة ، رغم انى نمت قليلا جدا . وهذا يحدث لى منذ سفرى الى اسخاباد ؛ المهم ألاّ افقد اعصابى نهائيا !

فى ١٩ آذار وصلنا فى الساعة ٧ صباحا الى محطة بطرسبورغ فى دفينسك ؛ نزلنا انا واخى من القطار واحتسينا الشاى ثم تفارقنا . وعندما رأيت المحطة الحديدية التى سبق ان عرفتها جيدا اثناء خدمتى مدة خمس سنوات فى اللواء التانى فى دينابورغ (٨) ، وعندما رأيت من نافذة عربة القطار المدينة والقلعة ، تدفقت فى خاطرى طائفة من الذكريات ؛ وبجهد وصعوبة قمعت انفعالى الداخلى . حوالى الساعة الرابعة كنا فى فيلنو (٩) ، — وهى ايضا مكان اتذكره . وهنا تقابلت مع بانسوبوف فاعطانى بطاقة لقريبه الذى يملك «تكية» فى مكة المكرمة . فى هذه السنة سافرت من بطرسبورغ الى الحج ٥ عائلات تترية من مدينة قاسموف . كذلك اعطى بانسوبوف تقييما سيئا عن ابراهيم آخون ، واوصى ، عند الاقتضاء ، بحسن

خلفا (المعلم – لقب مشرف تترى – ا . ر .) . بعد فيلنو ، قلما رأيت الثلج ، ولكن الضباب الشديد كان منتشرا على الدوام وظل منتشرا حتى رحيلى من اوديسا . ومعى سافر من بطرسبورغ فى مقصورة واحدة حتى محطة رازدلنايا شيخ ، ملاك اقطاعى من بيسارابيا (١٠) ؛ وتبين انه محادث بشوش وودود جدا .

فى العشرين من آذار ، سرنا طوال الوقت كله ، ووصلنا فى هذه الاجواء الى اوديسا فى الساعة ٨ مساء . فى الطريق من المحطة الحديدية الى الفندق [. . .] * ، اقتنعت حقا بنظافة المدينة ، وانارتها الجيدة ، وجودة حال الطرق . الغرف فى الفندق فاحشة الغلاء . غرفة صغيرة فى جناح فى الحوش – روبل واحد و٥٠ كوبيكا ؛ ناهيك عن ١٥ كوبيكا للنور و٢٠ كوبيكا للسماور ، وغير ذلك .

٢١ آذار . رحت اولا الى ابراهيم آخون . يبدو محتالا قديما ومحنكا . وليس من الصعب على امثاله ان «يسلخوا جلود» البشكير السذج والقرغيز الذين لم يغادروا يوما ديارهم . ومنه عرفت ان [تيمور] اكتشورين وزوجته وابنيه وبناته الثلاث و[عب . .] دبردييف راحوا الى مكة . هذا النبأ كان معزيا لى . انا اعرف من زمان الشيخ وابنه يعقوب . بناء على توجيه آخون وجدت حسن خلفا وكلفته ببضع مهام . اشتريت لباسا مدنيا ، ولبسته ، ووضعت اللباس الرسمى جانبا لارسله الى اخى . بسبب انعدام عادة ارتداء اللباس المدنى ، يبدو الحال مزعجا جدا : فقد اشتريت قبعة (رخوة) وبياضا . ومن جراء الضباب الكثيف لم ار او يكاد المدينة ولم اكوّن تصورا كاملا عنها .

فى ٢٢ آذار انتقلت فى الساعة ٨ صباحا الى باخرة تابعة للشركة الروسية (١١) ، متجهة رأسا الى الاسكندرية . ولحسن الحظ كانت الباخرة من اكبر (٧٨٠٠ طن) واجدد بواخر الشركة . اسم الباخرة «الامبراطور نيقولاى الثانى» . انزلونى فى مقصورة منفردة من الدرجة الاولى . زينة المقصورات وغير ذلك من الغرف فاخرة . ثمن التذكرة ٩٨ روبلا . جاء الى وداعى حسن خلفا ثم آخون . فى الساعة العاشرة تماما ، ابتعدت الباخرة عن الرصيف وخرجت من المرفأ ببالغ البطء ، واتجهت صوب البوسفور . كان التموج ضعيفا . فى الحادية عشرة ، دعونا الى الفطور . اشتد اضطراب الموج ، ولذا راحت السيدة الوحيدة الجالسة معنا بعد تناول الصحن الاول بالذات . الفطور وفير جدا – يتألف من ٣ صحون عدا المتبلات والنقل . نحو نهاية الفطور كان تمايل الباخرة من مقدمتها الى مؤخرتها قد ازداد ؛

بصعوبة بقيت جالسا الى النهاية ؛ ثم رحت الى مقصورتي وتمددت . تملكني غثيان قوي . مرة او مرتين ظننت اني سأتقيأ ، ولكن انتهى كل شيء بخير وسلام . لم استطع بالطبع ان انهض لتناول الغداء ؛ وفي المساء شربت الشاي وانا متمدد . اخذت الباخرة تهتز نوعا ما ؛ يبدو ان التموج خفيف . حوالى الساعة ١٠ مساء اغفيت .

٢٣ آذار . استيقظت في الساعة ٣ صباحا . لم اشعر باضطراب الموج . القيت نظرة عبر الكوة . التموج كبير . خرجت الى المتن . الريح قوية ، لا يمكن الوقوف . اضطراب الموج ، رغم هذا ، ضعيف جدا . حوالى الساعة الثانية ، دخلنا البوسفور . ضفتاه وعرضه تذكر جدا بالفولغا قرب نيجني (١٢) . الضفتان عاليتان بالقدر نفسه ، تليتان ، مزروعتان ، مكسوتان بالشجيرات وباشجار نادرة من السرو . وغالبا ما نرى بقعا رملية صفراء . الضفتان ، على العموم ، جميلتان جدا . تقع العين على ثكنات حجرية دفاعية مهملة . على بعد نحو ٧ فرستات * عن المدخل ، انشئت على الضفتين بطاريات ترابية من طراز جيد وموضع قوي جدا . في هذا المكان يبلغ عرض البوسفور زهاء ٣٠٠ ساجين ** . في المزاغل تبدو مدافع من عيارات كبيرة ، قرابة ١١ بوصة . الاستحكامات متعددة الطوابق ، وتقع في اماكن مختلفة ، ولذا يمكن اطلاق نيران متقاطعة . على متراس خندق كان جنود في طرابيش حمراء واشرطة حمراء على السراويل . قرب احد الحصون توقفت الباخرة وانزلت زورقا مضى عليه الى الضفة معاون الربان وعدد من البحارة لكي يأخذوا رخصة بالعبور لاحقا . بعد عودة الزورق ، واصلت الباخرة سيرها . ومن هنا الى القسطنطينية تحتفظ الضفتان بالطابع نفسه الذي تتميز به الضفة اليمنى من نهر الفولغا قرب نيجني او قازان ؛ وهما مكسوتان كليا بالمباني والمنشآت . الصف الادنى من المباني ينتصب قرب الماء بالذات ؛ ولكثير من المنشآت والابنية بوابات لاجل عبور الزوارق الى داخلها . وبين البنايات بنايات جميلة جدا من حيث الهندسة المعمارية . وبما اني تعودت رؤية هذه الصفوف المتواصلة من البنايات ، لم الاحظ كيف اقتربنا من القسطنطينية ؛ وقد وصلنا اليها حوالى الساعة الرابعة نهارا . الانطباع الاول-كثرة من اصحاب القوارب في طرابيش حمراء ولغط رهيب . وما ان انزلوا السلالم حتى تدفق جمع غفير في الطرابيش الى المتن : من ضباط في البوليس التركي وعلى صدورهم كتابة «قانون» ، وادلة ، وسواقي زوارق ،

* الفرستا=١٠٦٠ مترا . المعرب .

** الساجين=متر و١٣ سنتمترا . المعرب .

ووسطاء لمختلف الفنادق . (توقفت الباخرة عند مدخل «القرن الذهبى» على بعد نصف فرستا من الساحل) . كان المنظر جميلا الى حد اننى قررت عدم النزول الى الضفة اليوم ، ومشاهدة الجمهور والمدينة من البوسفور .

تقف الباخرة قرب مدخل البوسفور ؛ الى يميننا بيره (القسم الاوروبى) والى يسارنا استنبول (القسم التركى) ، والى ورائنا سكوتورى . عرض البوسفور مقابل القسطنطينية فرستا ونصف فرستا او فرستان . ومنظر بيره هو ايضا يذكر جزئيا بمنظر نيجنى من نهر الفولغا ، ولكن للمبانى طابعا مغايرا تماما ؛ فهى عبارة عن بنايات عالية جدا ومنتصبة فى خطوط متوازية ضيقة ذات نتوءات وشرفات مختلفة (ومثل هذه المبانى رايت فى اللوحات عن المدن الايطالية القديمة) . ان استنبول عبارة عن كثرة من منشآت اصيلة بين اشجار السرو ، وفوقها تهيمن القبة الهائلة لجامع آيا صوفيا ؛ وهى على العموم خارقة الروعة والجمال والاصالة .

حول الباخرة تغلى الحياة غليانا ؛ فان كثرة من البواخر والزوارق تنقل الجمهور الى سكوتورى وعبر البوسفور . وحول باخرتنا ، يصطف اصحاب الزوارق مثل الحوذيين . ومن الباخرة يفرغون الطحين فى ٤ مراكب دفعة واحدة .

اتفقت مع رفيقى فى الباخرة على الذهاب غدا معا الى الضفة ، وعدت الى مقصورتى ونمت .

٢٤ آذار . فى الساعة ٧ صباحا ، اعتزمنا انا ورفيقى الذهاب الى المدينة ، علما باننا اتفقنا على الاستغناء عن الدليل ؛ وهذه المهمة اخذها رفيقى على عاتقه . اما انا ، فقد تعهدت بان اقوم بدور المترجم . لم ينزلوا سوى السلم الاولى من الفئة الثالثة ، وكان لهه درابزون من جانب واحد فقط ؛ اسرع رفيقى نزولا بجرأة وقفز الى زورق . امــا انا ، فقد خفت وعــدت القهقرى لأن درجات السلم رطبة ومزعجة جدا ؛ وبعيدا فى الاسفل ، تضطرب هوة البحر ناهيك عن السلم المتأرجح . رأى البحار المناوب عجزى فساعدنى على الخروج والنزول فى الزورق . وصلنا الى الضفة واذا بنا فى الجمرك ، فتفحصوا جوازى سفرنا ، الامر الذى استغرق نصف دقيقة من الوقت . خرجنا من الجمرك واذا بنا فى شارع بيره الساحلى .

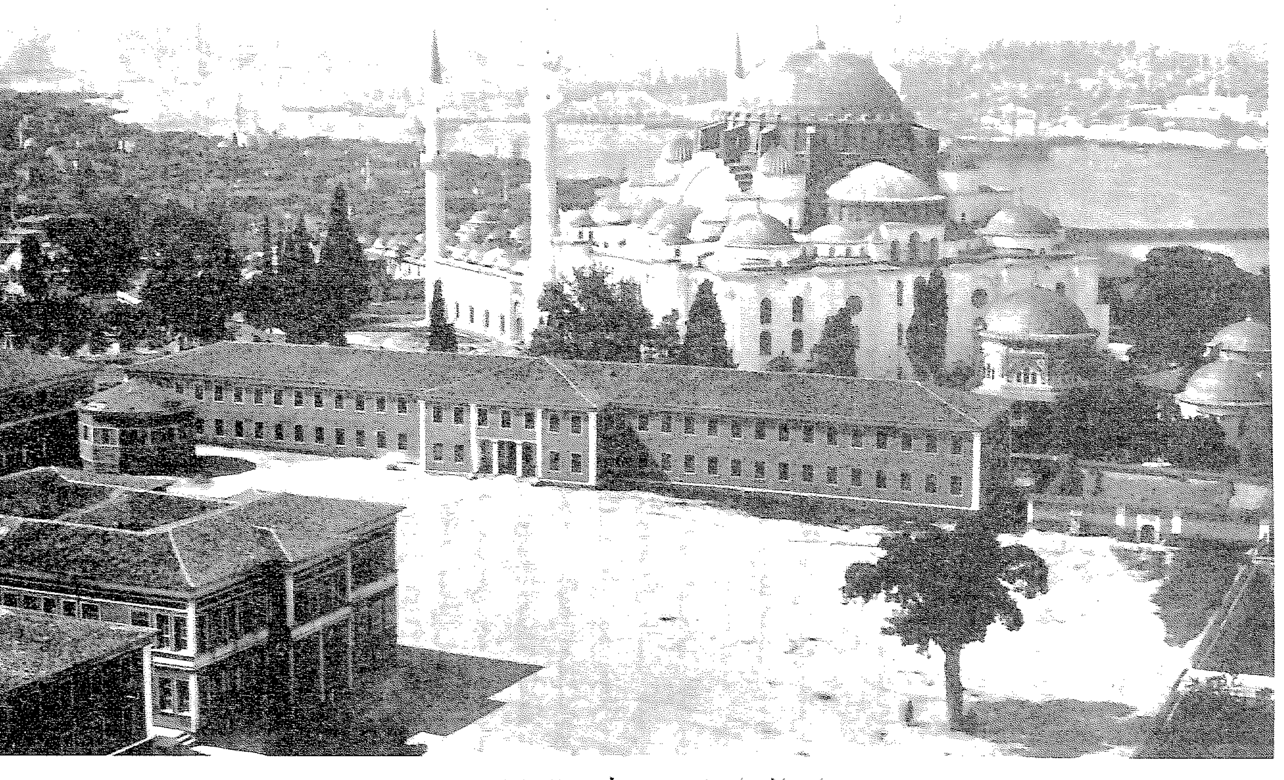
لقد قرأت الكثير من اوصاف القسطنطينية ؛ وجميع الرحالة يصفونهــا بانها مدينة جميلة جدا من البحر ولكنها قذرة وغير جذابــة فى الــداخل ؛ ويكتبون عن الامتيازات التى تتمتع بها كلاب الشوارع ، وغير ذلك وهلــم جرا . ونحن المسلمين من اتباع روسيا ، لا نصدق بطيبة خاطر كل ما يمس

الجوانب الرديئة فى هذه الاوصاف ، ونحن مستعدون لكى ننسب هذا الى نفور المسيحيين من الاتراك ، والخ . .

اول ما اذهلنى فى شوارع القسطنطينية ، انما هو وفرة الزبالة ووفرة نوع خاص من الكلاب التى تتصرف على الارصفة كما فى بيوتها . وغالبا ما تقع العين على بيوت خشبية متعددة الطوابق . فماذا يحدث هنا اذا ما نشب حريق فى شارع بمثل هذا العرض التافه ؟ ان ضيق الشوارع يمكن تفسيره ، ولكن كيف يجوز فيها مثل هذا القدر من الزبالة ، مثل هذا القدر من الوحل ، مثل حال الطرق هذا ، مثل هذه الهندسة المعمارية المنفرة ؟ ان اى رئيس للبوليس فى اية مدينة فى روسيا يستحوذ عليه الرعب من مثل هذه الاوضاع .

صعدت مع رفيقى الى الشارع الرئيسى فى بيره ، وسرنا فى هذا الشارع ، ونزلنا الى جسر يوصل بين بيره واستنبول (ما افظع ارضية هذا الجسر الخشبية !) ، واستأجرنا قرب الجسر حصانين للركوب بمبلغ مجيديتين ورحنا عبر استنبول كلها الى مقبرة ايوب الواقعة عاليا فى الجبل فى ناحية القرن الذهبى . المنظر من هذا المرتفع عجيب : فى اسفل ، القرن الذهبى مع كثرة من السفن ؛ فى البعيد ، بيره وغالاتا ؛ مقابر فى كل مكان ؛ ادغال اشجار السرو والسفوح الخضراء المرحة المكسوة باولى زهور الربيع . منظر عجيب ، فلا يرغب المرء فى الرحيل . بعد ان نزلنا من الجبل سيرا على الاقدام ، امتطينا الحصانين ورحنا اولا بمحاذاة السور البيزنطى القديم (وهو انشاء حجرى وطيد جدا مع خندق ملبس بالحجر هو ايضا) ، واجتزنا الشارع البازارى فى استنبول ونزلنا قرب السوق المسقوفة ؛ وبعد مشاهدتها رحنا الى آيا صوفيا . لقاء مشاهدة هذا الجامع ، اخذوا منا ، لما فيه دهشة رفيقى الذى كان غير مرة فى هذه الانحاء ، مجيدية واحدة فقط . من الخارج يبدو جامع آيا صوفيا غير جميل ؛ وزجاج نوافذه مدمر ؛ والمبنى مصبوغ باللون الاصفر بصورة سيئة . فى الداخل ، مبنى رائع ، جليل ، مهيب ، فيه رواق مذهل من الاعمدة وقبة بديعة . على الجدران ، دروع عليها كتابات ، الامر الذى يتنافى مع روح الصرح العامة . فى الجامع تطير الحمائم ، وتوسخ بالطبع . الانطباع عميق . بعد مشاهدة الفوارات الجميلة الواقعة قرب الجامع والتركية الصنع (وغالبا ما تقع العين على الفوارات فى الشوارع) ، عدنا عبر الجسر نفسه الى بيره وتخلينا عن الحصانين . بعد تناول الغداء والتنزه كثيرا فى الشوارع عدنا الى الباخرة .

فى شوارع القسطنطينية ، تقع العين على عدد كبير من العسكريين ،



ـ اسطنبول، تصدير بدفورد ١٨٦٢.

من جنود وضباط ؛ وفى كل مكان تسير دوريات ، وفى كل مكان ، تنتصب المخافر . الجنود طويلو القامة جدا ، ولكن بدون الهيئة اللازمة ، وفى معاطف سوداء نمساوية ، وغالبا ما تكون البستهم قذرة . ولكنهم ، على ما يبدو ، يحفظون السلاح بصورة جيدة جدا . رأيت فصيلة من الخيالة — الاحصنة جيدة ؛ رأيت تدريب مفرزة — جميع الاساليب والحركات يؤدونها بنحو ممتاز وباجتهاد .

فى القسطنطينية ، يلاحظ الزائر فى الحال الاهمال والاستهتار والقذارة فى كل مكان . مثلا . تراموبات الخيل سيئة ، الاحصنة سيئة كذلك ؛ تنطلق احصنة الترامهوى بخبب فى شارع منتعش جدا . وقد تدهس شخصا ما ، بينما الحوذى منصرف فى هذه الاثناء ، وقد تخلى عن الازمّة والكابح ، الى لف سيجارة ليدخنها . هذه هى انطباعاتى المرتكزة بالطبع على مراقبات عابرة فقط .

يجب ان اضيف ايضا انه لا يوجد فى القسطنطينية نظام نقدى معين ، وان عملات جميع البلدان قيد التداول ، وانه لا يوجد بريد معين ، وان لكل دولة بريدها .

٢٥ آذار . منذ الصباح ، نظرا لرحيل الباخرة ، اخذ اصحاب الزوارق يتدافعون بزوارقهم ؛ وبدأ قبول بريد جميع الدول ووصول الركاب . واخيرا فى الساعة ١٠ ، رفعت الباخرة مراسيها وانطلقت الى بحر مرمره . من بعيد تمتعنا من جديد بمشاهدة القسطنطينية والجزر . البحر هادئ تماما . رأيت على المتن الرأسى مسلمين يقومون بالاويله (صلاة الظهر باللغة التترية — ا . ر .) . بعد نهاية الصلاة ، اقتربت من جماعة منهم وعرفت انهم من سكان قشغر ، وانهم ذاهبون الى مكة . سافروا فى الثانى من شعبان ، وعبروا مضايق تيريك داوان فى ١١ يوما . فى كراسنوفودسك وجههم المدعو عبيدالله الى سيباستوبول . وقد تشكوا من ان المدعو صدرا والمدعو غيراى قد ابتزا الاموال منهم هناك لقاء تأمين الفيزا لجوازات سفرهم ، اذ اخذا من كل منهم ١٣ روبلا . انوى التعرف عليهما بنحو اقرب حين تسنح الفرصة .

فى الساعة ١٠ مساء عبرنا الدردنيل — عرض هذا المضيق يتراوح بين فرستا ونصف فرستا و٣ فرستات . ضفافه عالية . البحر هادئ تماما . الطقس بارد دائما .

٢٦ آذار . فى الساعة ٤ صباحا وصلنا الى ازمير . الضواحى جبلية جدا ؛ الذرى تذكر بجبالنا كوبت داغ . على مسافة ٧—٨ فرستات من ازمير ،

توجد فى مكان ضيق بطارية عصرية المنظر . المدينة من البحر جميلة جدا؛ فى الجبل المجاور ، تظهر انقاض سور قلعة تشبه كثيرا «قلاء»نا ، ولكنها حجرية . المرفأ مجهز جيدا وفيه سد للامواج . ما ان توقفت الباخرة ، حتى انقض فى الحال سرب كبير من اصحاب الزوارق كانوا ، على ما يبـــــدو ، يكبحونهم حتى تلك اللحظة ، واذا ازدحـــام غير عادى ، وهرج ومـــرج شديدان . لم اذهب الى المدينة ، واكتفيت بمشاهدتها من الباخرة . فى الساعة الرابعة اقلعنا واتجهنا الى بيريوس فى اليونان . الطريق تقع دائما بين جزر عالية ، متناثرة بصورة كثيفة جدا فى البحر (ارخبيل) . فى ازمير (اركبوا ؟) فى مقصورات الدرجة الاولى نحو ٢٠ شخصا ؛ انهم سياح انجليز والمان ذاهبون الى آثينا ؛ بينهم عجوزان او ثلاث عجائز طاعنات جدا فى السن ؛ فماذا يدفعهن الى التسكع فى الدنيا وتحمل كل مصاعب السفر ؟ وكما فى القسطنطينية ، تقترب السفن الاجنبية فى ازمير من الساحـــل بالذات ، ولكن سفننا الروسية وحدها تتوقف على بعد نصف فرستا مـن الساحل ، — وهذا منغص كبير للركاب وللشحن والتفريغ . اليوم تحادثت طويلا مع الحجاج من قشغر . اخذوا تذاكـر السفر من سيباستوبول الـى القسطنطينية ، واعطوهم التذاكر من القسطنطينية الى جدة رأسا . سألت الربان عن كيفية تقلهم لاحقا . يبدو ان الشركة الروسية للملاحة والتجارة قد اتفقت مع السكك الحديدية المصرية ومع شركة ملاحة عربية . يستقبل (عملاء ؟) خاصون الحجاج فى الاسكندرية ويركبونهم فى السكة الحديدية ؛ وفى السويس ينقلونهم من جديد الى باخرة .

اليوم تحادثت طويلا مع الحجاج من قشغر ، وعلى رأسهم الحاج اميـن الذى يسافر للمرة الثالثة الى مكة والذى يذهب هذه المرة لكي يبقى هناك على سبيل الاقامة الدائمة . عددهم جميعا ١٣ شخصا ، اكثرهم شيوخ .. قال هذا الحاج ان نحو الفى شخص يذهبون سنويا من قشغر (اقليم) الى مكة حين لا تقيم روسيا العوائق . وفضلا عنهم يذهب عدد غير كبير نسبيا من الصينيين المسلمين (الدونغان) .

يسلك الحجاج الطرق التالية :

١ — الطريق الاغلى ، ولكن الطريق الاسرع والانسب — تيريك-داوان الى اوش وسمرقند (هؤلاء الحجاج قطعوا الطريق بين اوش وسمرقند على احصنة البريد وفى السكة الحديدية الى كراسنوفودسك ، ثم الى باكـو وباطوم والقسطنطينية) ، والخ . .

٢ — فى الاتجاه ذاته الى سمرقند ، ومنها عبر كابول الى بيشـاور

على ظهور الخيل ، ومن بيشاوار الى بومباى فى السكة الحديدية ، ومن ثم الى جدّة على بواخر انجليزية .

٣ و٤ – يذهبون كذلك الى كابول دون دخول اراضى روسيا ، عبر قونجوت (الطريق ٣) وباداخشا (الطريق ٤) (ليست باداخشان) (١٣) .

السفر فى الطرق الثلاثة الاخيرة لا يكلف غاليا ، ما لا يزيد على ١٠٠ روبل ، ولكنها تحفل بمصاعب كبيرة وتتطلب وقتا كثيرا ؛ والذاهبون فى هذا الاتجاه يمضون عادة على خيولهم بالذات حتى بيشاوار حيث يبيعونها بربح ؛ وعادة يشتريها الامير المعظّم فى كابول لاجل خيالته . وفى البلدان التى تقع على طريق الحج ويقطنها المسلمون يلقى الحجاج من السكان الدعم المادى . والبواخر الانجليزية اكثر تكيفا لحاجات المسلمين ؛ فهناك مقصورة خاصة يستطيعون فيها ان يهيئوا بانفسهم طعامهم ، الامر الذى لا يتوفر فى بواخر الشركة الروسية ؛ وهذا ما اقتنعت به شخصيا حين سألت رؤساء الباخرة عن هذا بطلب من الحجاج .

٢٧ آذار . حوالى الساعة ٩ صباحا ، وصلنا الى بيره (بيرايوس) . دخلت الباخرة مكلأ مغلقا . ازدحام اصحاب الزوارق وخلافهم من الناس اكبر مما فى القسطنطينية وازمير . برفقة ٣ ركاب نزلت الى الساحل ، واخذنا نحن الاربعة عربة ، ورحنا نشاهد انقاض الاكروبول . بيره بلدة مغبرة جدا ولكنها نظيفة ؛ الطريق الى الاكروبول طريق حسن جدا ينطلق بموازاة خط للتراموى البخارى . على جانبى الطريق حقول متواصلة ؛ سنابل الشعير اخذت تظهر وتتنامى . فى كل مكان تقع العين على اشجار الزيتون . غالبا ما نرى آلات لرفع الماء ، عاملة بالاحصنة او بالبغال ؛ يبدو ان كل شيء يتطلب السقاية . المحلة تحيط بها جبال بلا حياة من طراز جبالنا فيما وراء قزوين . اذا كانت اليونان كلها هكذا ، فليست البتة بلادا زراعية .

انقاض الاكروبول على صخرة عالية تتألف من عدد من اروقة الاعمدة المرمرية شبه المنهارة والمدمرة . الاعمدة خفيفة جدا بالفعل ؛ وخطوط الهندسة المعمارية خارقة الاناقة رغم انها مستقيمة ، ولكن كل هذا لم يثر فى نفسى كبير الاعجاب والتهليل ؛ فان آثار سمرقند ، مثلا ، تعجبنى اكثر ؛ فى اسفل الصخر ، آثار مسرحين – مدرجين . المكان لاجل الاكروبول اختير برائع التوفيق ؛ اذا نظرنا من اسفل ، فلا بدّ ان يظهر كل هذا بشكل جميل جدا على خلفية لازورد السماء .

من الاكروبول يلوح منظر عجيب على الضواحى قرب السفح : (من الشمال) تقع آثينا التى تبدو جميع مبانيها وشوارعها كأنما على راحة الكف ،

في الجنوب ، على بعد ١٠–١٢ فرستا ، تظهر بيره ؛ ثم تنبسط ميـــاه الخليج الزرقاء . تبدو آثينا مدينة أنيقة ، مرتبة ، نظيفة .

عدنا نحو الساعة الواحدة الى الباخرة ؛ وقد تفضل ربان السفينة وارجأ الفطور الى الساعة الواحدة (عادة في الساعة الحادية عشرة) .

اقلعنا في الساعة الثانية نهارا ، وانطلقنا من جديد بين الجزر . البحر هادئ تماما . السماء صافية . الآن يتعين اجتياز اكبر مرحلة ؛ في الليل تدخل الباخرة احد مرافئ جزيرة كريت ، اغلب الظن ، لكي تتلقى البريد ، نظرا للمضاعفات المحلية (١٤) .

٢٨ آذار . في الصباح ، عبر المنام ، سمعت كيف رموا المرساة وكيف اقلعنا من جديد بعد قليل ؛ اغلب الظن اننا كنا في كريت . قمت كالعادة في الساعة السادسة صباحا . البحر هادئ تماما . نمضي بمحاذاة ساحـل كريت الشمالي . الجزيرة ، او ، من الافضل القول ، السواحل التي سرنـــا بمحاذاتها – من الجهة الشمالية والشرقية – جبلية جدا ؛ الجبال تشبه جبال كوبت داغ ؛ وهناك قمم كثيرة لا تزال مكسوة بالثلج ؛ ارتفاعها ، كمـــا قال الربان ، حوالي ٨٠٠٠ ارشين * ؛ الثلج يبقى حتى حزيران (يونيو) .

من جديد تحادثت زمنا طويلا مع الحجاج من قشغر ، علما باني تعلمت مراسم الحج على يد الحاج امين . يتبين من اقوال هؤلاء الحجاج ان الطريق من قشغر الى اوش يستغرق عادة ١٠ ايام ، بينما قضوا هم بسبب الفصـــل غير المناسب من السنة ١٧ يوما . واذا مضى الحجاج على خيولهم بالذات من قشغر الى سمرقند عبر كابول ، فانهم يقضون شهرا واحدا في الطريق ؛ ومن سمرقند الى بلخ ١٠ ايام ؛ والى كابول (من بلخ) ١٥ يوما ، وحتـى بيشاوار ١٥ يوما آخر . في السكة الحديدية الى بومباي – ٦ ايام . اما في الباخرة ، فقد قضى الحاج امين شهرين بكاملهما ، لأنه اضطر الى البقاء في المحجر الصحي في كمران . ومن الحجاج عرفت ايضا انهم ينزلون في مكة في فنادق خاصة (تكيات) ، ”متجمعيـــــن حسب القوميات ؛ فهناك تكيـــات قشغرية ، وقرغيزية ، وكازاخية ، والخ . .

اليوم ، البحر هادئ تماما طوال الوقت . رفاقي هم : خوروشيفيتش – الصحفي المشهور في احدى جرائد اوديسا ، تجوب كثيرا جدا ، وكـــدس خبرة ؛ كان كذلك في ساخالين ؛ لا يزال شابا ؛ وهو محادث مستطاب جدا ؛ انه ذاهب الى فلسطين حيث سيبقى شهرا ، ومن هناك يسافر عبر ايطاليا

---

* الارشين يساوي ٧١ سنتمترا . المعرب .

التى يحبها خارق الحب الى اسبانيا ويبقى فيها للصيف . ستظهر مقالاته عن ساخالين فى طبعة منفردة فى سانت بطرسبورغ .

وكان هناك ملاك عقارى بولونى من محافظة بودوليا يقوم كل سنة برحلة فى البحر الى الاسكندرية وهو يفكر فى الذهاب هذه المرة الى دمشق وبعلبك . وقد تجوبت معه فى القسطنطينية ؛ وكان هناك جنرال فى مصلحة السكك الحديدية لا يضيع هيئته الجنرالية ، رغم انه اخذ يغير ملابسه تدريجيا ويلبس البسة مدنية . الباقون ركبوا فيما بعد ، وجميعهم حجاج . فى الوقت الحاضر يوجد ١٢ روسيا و١٠ اجانب . مقصورات الدرجة الثالثة كلها مليئة بالحجاج الروس الذاهبين الى القدس .

٢٨ آذار . اليوم ، كما قال الربان ، اذا ناسب الطقس فلا بد ان نصل الى الاسكندرية فى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر ؛ وبالفعل لا يزال الطقس بديعا ؛ الحرارة تزداد ، الشمس تدفئ كما فى منطقتنا فيما وراء قزوين . ها انا لليوم الثانى اشعر بانى غير سليم تماما ، وذلك ، اغلب الظن ، من وفرة المآكل على مائدة الباخرة ؛ فيما بعد ، كما اعتقد ، لن يدللنى الطريق بهذا .

فى السنة الماضية ، فى مثل هذا الوقت ، كنت اتجوب فى جبال قطاعى ، واعكف باجتهاد على الاحصاء ، ولم يخطر البتة فى بالى انى بعد سنة ساكون بعيدا جدا عن الانحاء التى تعودت عليها جيدا فى هذه السنوات السبع لما فيه دهشتى .

حوالى الساعة الثالثة اقتربنا من الاسكندرية . منظر المدينة من البحر عملى . كثرة من السفن [. . . .] * الاخرى ، و[. . . .] ** الانيقة . اقترب منا موظف من المرفأ ، وركض على السلم الى اعلى بقدر من المهارة والخفة بحيث ينبغى الظن انه ليس من اهل البلد بل انجليزى . رسونا رأسا الى الرصيف (وهذا للمرة الاولى بعد اوديسا) . على الرصيف كثرة من العرب فى قمصان بيضاء طويلة جدا . ما ان مدوا الجسور حتى تدفقت كثرة من الحمالين (الشيالين باللهجة المحلية) .

كنت قد تعرفت فى الباخرة على قرغيزى من جوار اورنبورغ ؛ كان لا يزال شابا ؛ وكان يعيش على الدوام فى مكة ؛ والآن يعود الى هناك بعد ان اقام فى مسقط راسه ؛ وفى مكة عنده زوجة وحماة . هذا القرغيزى الذى يعرف اهلى اعجبنى كثيرا الى حد انى قررت ان اجعله معاونا موقتا لى . اسمه الحاج سلطان .

يبدو انه توجد فى الاسكندرية ايضا عصابة من نهابى الحجاج ؛ ومنذ

بادئ بدء وقعت فى مخالب صاحبنا الحاج مصطفى ، المولود فـــى كريت . ودعت ربائنا اللطيف ، وفارقت آخر شيء روسى – السفينة . وحين دبـــر الحاج سلطان شؤون الحجاج من قشغار مع حوذيين للنقل ، رحت معه الى الجمرك ؛ وهناك اخذوا جواز سفرى ، وفتشوا الحقيبة ، وفتشونى انا ايضا بخشونة ، واطلقوا سراحى قائلين انى سأتلقى جواز السفر غدا من قنصلنا . قال الحاج مصطفى شيئا ما عن امكان الحصول على جواز السفر فـــى وقت اسرع ، اليوم بالذات اذا اعطيت بخشيشا ، ولكنى رفضت . رحنا الـــى المدينة ؛ المنظر اوروبى تماما ، الارصفة بديعة ، من البلاط ؛ عمـــارات متعددة الطوابق ، بينها جامع غنى فخم ، واتماما [لكل شيء ، تمثال ؟] محمد على فى الساحة . اخذنى الحاج مصطفى الى فندق سيئ يخص حسن كريدلى ؛ الغرفة سيئة ولكن المفروشات على الطريقة الاوروبية . ٨ قروش فى اليوم . رحت اشاهد المدينة . كثيرون من المتنزهين (اليوم يوم الجمعة) ، فى البسة على احدث موضة ، اذهلتنى المقاهى الشاسعة مع طاولاتها الصغيرة فـــى الشارع ، وفيها يلعبون فى النرد وجزئيا فى الورق بكل حمية . بعـــد ان شبعت من المشاهدة عدت الى غرفتى فى الفندق . فى المساء رحت اتسكع من جديد . لباس النساء المحليات غريب ؛ فهن ملفوفات بكليتهن بالاسود ؛ على الجبهة خشبة صغيرة لدعم الحجاب . تسترعى الانتباه وفرة مرضى العيون والعميان . الجنود المحليون (العرب) يحافظون على النظام – البستهم حسنة مع [. . . . .] * على الكم ؛ جميعهم سود العيون حليقو الذقون ، فى قمصان ذات قبات ناصعة البياض . واضح ان الهيئة جيدة . رأيت ايضا جنـــودا انجليز – فى معاطف حمراء وقبعات صغيرة ، وعصى فى الايـــدى ، منظر مفرط فى الاباء .

فى كل مكان نسمع النطق العربى والصيحات باللغة العربية . نمت فى الساعة العاشرة ، بعد ان تعبت جدا من المشى الطويل .

٣٠ آذار . فى الصباح رحنا الى القنصلية الروسية لاخذ التذكرة . لم يكن القنصل موجودا ؛ كان السكرتير ، وكان لا يعرف اللغة الروسية اطلاقا . المفروشات حقيرة ، ولكن صورة الامبراطور الكسندر الثالث الرخيصـــة تستلفت النظر . بعد قليل جاء القنصل ؛ وهو رجل لطيف جدا من الظاهر . حين علم انى بحاجة الى جواز سفرى ، ارسل معى قواسا الى الجمرك . عدت اليه مع جواز السفر وسألته بخصوص التعليمات عن العمل لاحقا . اوضح لى القنصل انه ، نظرا لمنع المسلمين من رعايا روسيا عن الحج ، كتب الى المحافظ المحلى بسحب جوازات السفر من جميع المحمديين من رعايا روسيا ، وارسالها

اليه لكى لا يسلمهم اياها بعد ذلك ولكى يعيدها الى روسيا . وهذا تدبير ساذج جدا ! اذن ، يعود الىّ جواز سفرى لأنه لم يرد فيه ذكر مكة ! الحمد لله .

ثم ، بموجب تعليمات الحاج مصطفى ايضا ، اخذت تذكرة الى جدّة فى وكالة شركة المانية ؛ اخذوا منى عن تذكرة الدرجة الاولى الى السويس فى السكة الحديدية وعن التذكرة فى الباخرة ١٠ جنيهات استرلينية اى ٩٤ روبلا و٧٠ كوبيكا ، بدون الطعام !

حوالى الساعة الرابعة انطلقنا بالسكة الحديدية من الاسكندرية . دبرت للحاج سلطان مكانا فى الدرجة الثانية . نسيت ان اذكر انى اشتريت فى الاسكندرية ردائين طويلين بـ٣ جنيهات استرلينية ، وطربوشا وشالا حريريا لاجل العمامة ، وحذاء لاجل الاحرام وقطعتين من القماش الابيض للغرض نفسه ، وزنّارا لاجل النقود .

قبل حلول الظلام سرنا طوال الوقت فى ارض محروثة جيدا جدا : فى كل مكان ، اشجار البلح ؛ لا وجود لاية قطعة صغيرة فارغة . مزروعات ممتازة من الشعير الذى نضج والقمح بسبيل النضوج ؛ السواقى والمضخات لاجل رفع الماء من السواقى . المنظر يشبه نوعا ما ضواحى سمرقند ، ولكن الاشجار اقل بكثير . تقع العين على قرى ، تشبه كثيرا القرى الكردية او النهورية — البيوت الطينية نفسها ، والتراكم نفسه ، والقذر نفسه . شكل الانشاءات السكنية مقبب . كما ذكرتنى بالنهوريين ادوات حراثة الارض — الزوج نفسه من الجواميس مقرون الى محراث شبيه بالمحراث التركمانى . كذلك يظهر تأثير الازمنة الحديثة — تقع العين على لوكوموبيل صغير لاجل آلات رفع الماء (القوة العادية — الجواميس) ، البنايات فى القرى ذات نوافذ واعلى . اساليب تسييل الماء رائعة — بالخراطيم الى اسفل . فى جميع القنوات الكبيرة ، كثرة من الزوارق الشراعية . وعدد السكك الحديدية يكفى . اكبر المرافئ ، وعددها خمسة ، — الاسكندرية ، روزيتا ، دمياط ، بور سعيد ، السويس — تربطها السكة الحديدية بالقاهرة .

يبدو السكان فقراء .

السكة الحديدية ذاتها تختلف كثيرا عن سككنا . العربات متعبة جدا ، ابوابها جانبية ؛ الدرجة الاولى اسوأ من درجتنا الثانية ؛ يقلع القطار دون اى صفير او جرس ؛ العوارض تشبك بدبوس كأسين مقلوبتين من الحديد الصب موصولتين فيما بينهما . البساطة [. . . . . . .] * (١٥) غير مفهومة بالنسبة لنا ولا تصدق : لا حراس على الخطوط ؛ للقاطرة مصباح بسيط واحد فقط لا ينير السكة اطلاقا ؛ كذلك لا وجود لمصابيح الاشارة

وللاسهم ؛ لا وجود للمكابح فى العربات ؛ هيئة الخدمة تتألف بكاملها من شخص واحد لا يظهر الامرة واحدة لكى يأخذ التذكرة (وهذا حسن احيانا) ؛ ولا يعلنون اسم المحطة ووقت التوقف . خلاصة القول ان الراكب متروك كليا لشأنه . اذا كنت نائما اثناء المناقلة ، اذا تأخرت عن القطار ، فلا تلم الا نفسك . فى الليل ، انتقلنا فى احدى المحطات الى قطار ذاهب من القاهرة الى السويس . واخيرا وصلنا الى السويس فى الساعة الخامسة صباحا . فى جميع المحطات ، باعة كثيرون يعرضون الماء (يصيحون : مى ، اكوا) والفواكه والبيض ، وخلافها .

٣١ آذار . السويس ، مدينة صغيرة تقع على نحو ٤ فرستات من المرفأ الموصول بالمدينة بسكة حديدية . البيوت متعددة الطوابق . الشوارع كبيرة وعريضة ومستقيمة ، بضعة متاجر جيدة . بازار محلى ، وخلاف ذلك كما يجب .

نزلنا عند الحاج على ، من مواليد بخارى . الغرفة كما فى الاسكندرية . هنا تلاقيت مع عبد الله دبردييف . اللقاء مستطاب جدا لى ! للبواخر عادة التصرف تصرفا غريبا خبيثا : فى الاسكندرية اكد لنا العميل ان الباخرة «ماغنت» ستقلع عند الظهر يوم الخميس (اول نيسان — ابريل) ؛ اما العميل المحلى ، فى السويس ، فقد قال انها ستقلع يوم السبت . نصح دبردييف بتغيير التذكرة باخرى من شركة «الخديوية» التى ستقلع باخرتها يوم الجمعة ؛ وافقت ، واعطيت التذكرة لتغييرها . بسبب الملل ، تجوبت فى المدينة كلها ، ورغبت فى بلوغ الهدف المنشود بأسرع وقت ! المهم ألا يخدعونا يوم الجمعة ايضا ! اليوم مساء قررت السفر الى بور سعيد لادبر شؤونى المالية واعود يوم الجمعة . يبدو ان ٣ شركات — الخديوية ، والمانية وتركية — تهتم بالتحقق من الحجاج . كثيرون ينتظرون الباخرة . رأيت بضعة اشخاص من الفرس والقفقاسيين . اليوم ، كما يقولون ، اقلعت باخرة واحدة من الشركة الخديوية وعلى متنها نائب الخديوى وحاشيته المؤلفة من ٥٠ شخصا .

اول نيسان (ابريل) . اليوم فى الساعة ١٠ صباحا ، تلقيت امتعة الحاج سلطان وسافرت بالسكة الحديدية الى بور سعيد . ضواحى السويس ، التى لم ارها عندما جئت الى هنا ، لأننا عبرناها ليلا ، صحراء لا تفرح البتة ، تشبه نوعا ما ضواحى المحطة الواقعة بين جبل وكراسنوفودسك ، ولكن بدون اية نباتات تقريبا [...] * . بين الفينة والفينة تظهر القناة (قناة السويس) . فى الساعة الواحدة نهارا وصلت الى الاسماعيلية وعرفت برعب

انه يتعين الانتظار ٣ ساعات فى هذه المحطة . بين الاسماعيلية وبور سعيد تخص السكة الحديدية شركة قناة السويس ؛ وهــى سكة ضيقة الخط ، ذات عربات صغيرة جيدة ومريحة ، ومحطات غارقة فى الخضرة ولها واجهات تطل على القناة ، ومؤخرات تطل على السكة الحديدية .

انتقلت الى محطة سكة السويس وركبت عربة غير كبيرة . وفــورا شعرت بان حالى اسهل ؛ ففى كل مكان فرنسيون لطفاء ولغة اعرفها . من لا يعرف العربية او الانجليزية ينزعج فى مصر وعلى الاخص عندما يرى فــى جميع الاماكن الرئيسية بريطانيين متغطرسين متعجرفين . تمر السكة قليلا فى الاسماعيلية وتطل على القناة ، وتمضى طوال الوقت كله بموازاتها على بعد ٥٠ ساجينا * . وللقناة العرض نفسه تقريبا . الضفاف ملبسة بمعظمها بالحجر . فى كل مكان علامات ، سواء على الماء ام على اليابسة ؛ غالبا مــا تقع العين على آلات ضخمة جدا لاغتراف الطين ؛ الطين المنتزع من القاع يوضع فى عربات صغيرة وينقل من هنا ، وذلك ، اغلب الظــن ، لتحاشى زيادة الاعباء على الضفاف . من الاسماعيلية الى القنطرة ، ينطلق ماء الشرب بموازاة الضفة فى انبوبين من الحديد الصب قطر الواحد منهما حــوالى ٦ بوصات ؛ والى القنطرة تصل ساقية كبيرة وتنطلق طوال الوقت كله حتى بور سعيد بالذات بين السكة الحديدية والقناة ؛ تقع العين على حبســات تمرر الماء الى الجانب الآخر من السكة الحديدية . مستوى الماء فى الساقية اعلى بكثير من مستوى الماء فى القناة . لا اعرف كيف يتجنبون الــرشح . على الساقية ادغال القصب . رأينا سفنا كثيرة ، بخارية وشراعية ، سائرة فى القناة .

العربات الحديدية مقسومة الى مقصورات صغيرة ، كل منها لاربعــة اشخاص . كانت من نصيبى رفقة طريفة : عربى لا يعرف غير اللغة العربية ، انجليزيان ، لا يعرفان هما ايضا غير لغتهما ، وانا . نادرا ما كان الانجليزيان يتحادثان ؛ كنا نسافر ونلزم الصمت . وصلت الى بور سعيد فى الساعة السابعة مساء ، ونقلنى الحوذى الى فندق الشركة الخديوية ؛ صاحبه يونانى لا يعرف غير اللغة اليونانية ، فكان لا بد من التفاهم بالايماءات والحركات اكثر مما بالكلام . اكلت فى المطعم المجاور ورحت انام فى غرفتى بالفندق .

٢ نيسان (ابريل) . منذ الصباح اخذت افتش فى المتاجر عن سريــر متنقل ولكنى لم اجد ، وهذا مفهوم ؛ فمن ذا الذى يحتاج هنا الى سرير من هذا الطراز . تجوبت فى المدينة كلها ، ورحت الى الحى العربى ، وتسكعت

* الساجين يساوى ١,١٣ متر . المعرب .

على رصيف المرفأ ، وشاهدت المدينة الميناثية مع جميع خصائصهـــا . البيوت عالية ، حجرية ؛ الشوارع مستقيمة ؛ فى وسطها طريق مزفتة لاجل العربات ؛ المقاهى كثيرة . للقسم العـــربى الطابع ذاته ، ولكنه اكثـر تواضعا ؛ النوافذ مغلقة فى كل مكان بشعيريات خشبية كثيفة . المدينـة قذرة نوعا ما . فى وسط المدينة ، جنينـة صغيرة فيها تمثال نصفى لدى ليسبس . من الرصيف الى المقبرة العربية ، يعمل تراموى تجره الاحصنة ، فاستفدت منه . هنا ايضا بساطة مدهشة : الحوذى وقاطع التذاكر فتيّان فى الثامنة عشرة او التاسعة عشرة من العمر . دائما يقفز الى العربة شبان عرب ويطلبون نقلهم. الطلب حيث لا وجود لقامة المراقب الانجليزى الرهيبة يلبى بطيبة خاطر ومجانا .

فى آخر الرحلة ، نزلت ورحت اتسكع ؛ وفجأة لحق بى قاطع التذاكر وطلب بخشيشا ؛ سألته : لماذا ؟ ارتبك— وقفل راجعا . يا للبساطة القروية المدهشة ! نحو الساعة التاسعة ، رحت الى مكتب «كريدى ليونه» وانجزت شؤونى المالية . وحتى ذاك تأتى لى ان اتسكع ايضا فى المدينة لكـــى اقضى الوقت حتى الساعة الثالثة والربع ، وقت اقلاع القطار . فى طريـق العودة ، وصلت الى الاسماعيلية فى الساعة ٧ مساء ، وعرفت بـــرعب ان القطار لن يقلع الى السويس الا فى الساعة الواحدة ليلا . حاولت ان انزل فى غرفة لاجل الركاب ، ولكن انجليزية رهيبة قالت لى بلغة رهيبة ان هذا لا يجوز ، فكان لا بدّ من التسكع من جديد بدون هدف ، خائفا على نقودى فى جيوبى . الاسماعيلية محلة نظيفة ، كلها بساتين وجنائن ؛ لم ار احدا من اهل البلد . فى كل مكان حول البلدة صحراء رملية . وفى آخر المطاف عثرت قرب المحطة الحديدية على رفقة طريفة من الحجاج الذاهبين الى مكة — ٣٦ شخصا بالاجمال — اقاموا بشكل مخيم بانتظار القطار . الشيـــوخ يجلسون بمهابة على المخدات ؛ الشبان ينفخون النار باجتهاد تحت سماورات غير كبيرة ، ويهتمون بالنارجيلات . اقتربت ، تحادثت . فى البدء سألوا عن موعد اقلاع سفينة الشركة الخديوية الى جدّة ، افرحتهم اذ قلت لهم : غدا ، مع انه خطرت فى بالى فكرة : المهم ان لا تخيب الباخـــرة غدا املى واملهم . يتبين من اقوال الحجاج انهم من اماكن مختلفة : بغداد ، بـــلاد العجم ، وهناك حاج من خراسان (مشهد) : يتحادثون فيما بينهم بالتركيـة وبالفارسية — واكثر بالفارسية . الحاج من مشهد امضى فـــى الطريق ٦ اشهر ، الباقون حوالى ٤ اشهر . راحوا الى القدس على ظهور الخيل ، ثـم الى يافا بالسكة الحديدية . من يافا اخذوا تذاكر من الشركة المصريـــة

الخديوية الى جدّة . نزلوا فى بور سعيد ، والآن يمضون الى السويس . وصلوا بنفس القطار الذى وصلت به انا .طريقهم عبر القدس ، كما يستفاد من اقوالهم ، الطريق الرئيسى بالنسبة للحجاج الفرس ؛ كذلك يمضون عبر ازمير . وبعض يذهب برا عبر سوريا ؛ هذه السنة جاء عدد كبير جدا من الفرس . يفكرون فى العودة برا عبر سوريا (عن طريق المدينة المنورة) بالانضمام الى قافلة سلطان .

٣ نيسان (ابريل) . وصلت اليوم فى الساعة الخامسة صباحا الى السويس ؛ واهتممت صباحا باموری ؛ ومنذ الساعة ١٢ امضيت النهار كله مع عبد الله دبردييف ؛ مع عبد الله يذهب رشيد قاضى ، مُلاّ (امام) محافظة توبولسك ، وهو رجل واسع الاطلاع ومحنك جدًا . ناقشنا مسألة الحج الى مكة ومسألة ضرورة تنظيم الحج . الجميع يعتقدون : اذا مدت الحكومة يد المساعدة ، فان المسلمين (الروس) سيجمعون النقود بالاشتراك ؛ وهم يرون من الضرورى تأسيس «خانات للقوافل» فى كل من اوديسا وسيباستوبول والقسطنطينية ، وعلى رأسها راع محترم . والجميع يدركون ما يتعرض له الحجاج فى السفن من ظروف رهيبة منافية للاصول الصحية . وقد وافقوا على مناقشة هذه المسائل بمزيد من التفصيل بعد وصولنا الى الهدف .

سألت الحاج سلطان عن الاضطرابات فى مكة سنة ١٨١٢ وعن الهجوم على القناصل . عرفت ما يلى . انشأت الحكومة التركية فى مكة مستشفى فيه غرفة للتعقيم . الا ان البدو ، اصحاب الجمال ، الذين يستأجر منهم الحجاج الجمال لاجل الذهاب الى عرفات وجدّة وغيرهما استاؤوا من احتمال اخضاع امتعتهم للتعقيم ؛ وخوفا من انتقاص مداخيلهم هاجموا المستشفى باعداد كبيرة ودمروا المبنى . طلب الاطباء العون من الوالى ، فرفض تقديم العون قبل وصول الاوامر من القسطنطينية . فى اليوم نفسه عرف البدو ان القناصل يمضون من جدة الى البساتين المجاورة ، فاتجهوا اليها ، وانفصل عن جمعهم ٤ اشخاص ، وهؤلاء دخلوا غرفة القناصل واطلقوا على كل قنصل طلقة من الفرد . لقى القنصل الانجليزى مصرعه فى الحال ، واصيب الآخرون بجراح متفاوتة الخطورة ، واصيب القنصل الروسى فى خده .

فى سنة ١٨٩٢ ، كما يروى الحاج سلطان ، تطابق وباء الكوليرا مع موسم الحج وكان رهيبا . كان الموتى متمددين مجموعات كبيرة متراصة ، ولم يتسنّ الوقت لدفنهم . بدأت الوفيات باعداد كبيرة فى عرفات ، وبلغت اوجها فى منى . وفى تلك السنة كان تدفق الحجاج كبيرا جدا .

في جدة ، كما يعتقد رشيد القاضي ، لم ينشب وباء الطاعون ، بل نشب مرض هندي ما محلي غير معد .

امضى القاضي ٢٦ يوما في المحجر الصحي في الطور ، مات ٤ اشخاص فقط من اصل ٨٠٠٠ .

في المساء رحت اتنزه مع عبد الله دبردييف ، ودخلنا Hotel Europe (فندق اوروبا) حيث كان ينزل ضابط بحري تركي من معارف عبد الله . وتبين ان الضابط انسان لطيف جدا وانه يعرف اللغة الروسية جيدا وتعلم في سانت بطرسبورغ ، وذاهب الى مكة .

واليوم رحت اصلي الجمعة في الجامع . حجاجنا تذهلهم جدا لامبالاة المسلمين المحليين . فاثناء صلاة الجمعة يبقى قسم كبير من الجمهور في الدكاكين وفي المقاهي . وفي الجامع يسود الهوان والتشوش . يبدو ان المصلين ينتمون الى شيع مختلفة — ابو حنيفة ، الشافعي ، مالك — ولا وجود للرزانة وللمهابة الاحتفالية الصارمة ، الملازمة لجوامع روسيا .

غدا تقلع باخرة الشركة الخديوية «الرحمانية» ، وعليها يسافر دبردييف والقاضي وشركاهما . باخرتنا "Magnet" ، كما يقولون ، تقلع بعد غد ، وهذا يعني البقاء اسبوعا بكامله في مصر بلا هدف .

٤ نيسان (ابريل) . في الساعة ٧ صباحا رحت الى الميناء لاودع دبردييف . تقع الميناء على بعد ٥ فرستات تقريبا من المدينة . انشئت جزيرة اصطناعية مرفقة ببضعة مكلات محجوزة بحواجز امواج . الطريق بالسكة الحديدية تستغرق ١٥ دقيقة . تبين لي ان «الرحمانية» باخرة متوسطة الحجم ومرتبة جيدا . الحجاج المسافرون على هذه الباخرة لا يحصى لهم عدد ، واغلبهم من السوريين والفرس . بعد ان شاهدت «الرحمانية» من الرصيف فقط ، رحت اشاهد "Magnet" التي سأسافر عليها . مشاهدة الباخرة افسدت نهاري كله ؛ فلم ار من قبل سفينة احقر واقذر ، واقل جاذبية . على الرصيف ، القذر والنتن الى اقصى حد ، عدد كبير جدا من الحجاج الذين ينتظرون اقلاع الباخرة ؛ وقد حل قسم منهم في خيام حقيقية وقسم آخر في خيام مرتجلة . جميعهم عرب وفرس . كيف اتسعت «Magnet» الصغيرة لهم جميعا ؟ عدت الى المدينة وعكفت على العمل قبل ان ياتي درويش افندي ويعرقلني . سبق ان تعرفت عليه في الباخرة «الامبراطور نيقولاي الثاني» . انه بنظري تركي صرف نموذجي — عديم الحركة ، يحب الهدوء ، متدين جدا ، قليل التطور ، ودود . ولد في سمسون ويقول انه حاكم هذه المدينة . قوله موضع شك !

5*

٥ نيسان (ابريل) . اليوم رحت منذ الصباح الى الرصيف مع الحاج سلطان ودرويش افندى . امام الباخرة جمع غفير جدا ينتظر فى الشمس اللافحة ، السماح بركوب الباخرة التى يحرس رجال الدرك المصريون الصارمون جدا الجسر اليها . حاولت الاقتراب من الجسر ، لم يسمحوا . اخيرا بعد نصف ساعة تقريبا ، امر المسؤولون بتمريرى وحدى انا . سررت جدا حين وجدت نفسى فى الظل . تبين ان المسؤولين هم باشا مصرى منظره صارم جدا ، وضابط مصرى شاب منظره لطيف وناعم جدا ، وعميل شركة الملاحة هذه ، وكائن آخر فى طربوش تبين ، من الاسئلة ، انه اخو نائب قنصلنا (فى السويس) وكاتبه فى الوقت نفسه . وعداهم ، كان بين المسؤولين صاحب الفنادق لايواء الحجاج المدعو الحاج على . طلبوا منى جواز السفر ، تهيج اخو نائب القنصل ، قال شيئا ما . اوضح الحاج على انه يجب التأشير على جواز السفر عند قنصلنا ، ولهذا الغرض اخذوا منى مجيديتين . تم التأشير بسرعة تثير الشكوك ؛ فبعد ربع ساعة اعادوا لى جواز السفر وعليه التأشيرة وتوقيع نائب القنصل ، فى حين ان مقر القنصلية فى المدينة !

سمحوا بصعود الركاب الى الباخرة فبدأ شيء رهيب . الباخرة ترسو على بعد نحو ٥ ساجينات عن الرصيف ويوصله بها لوحان ضيقان ؛ الجمع يدفع بقوة من الخلف ؛ يمررون الركاب واحدا واحدا ؛ فحص جواز السفر يستغرق بعض الوقت . فى الجمع اولاد ونساء . الجنود يصدّون الجمع بالقوة مستعملين العصى ، رغم انى لاحظت انهم كانوا حريصين جدا على الاولاد والنساء . الركاب الذين يصعدون الى الباخرة يعمدون الى تدبير امورهم باسرع وقت ، فارشين الحصر واللباد .

. «Magnet» باخرة صغيرة عتيقة جدا ، وقذرة جدا . درجتها الاولى انما هى مسخرة ، وبدون مبالغة اقول انها ليست افضل من الدرجة الثالثة فى السفينة «الامبراطور نيقولاى الثانى» . ولكن يوجد بياض حقير للفراش . الدرجة الاولى فى مؤخرة الباخرة ، الدرجة الثانية فى مقدمتها ، ولكن الشيطان وحده يعرف ما هذا . والواقع انهم اخذوا منى لقاء الدرجة الاولى بدون الطعام ٩٤ روبلا و٧٠ كوبيكا . فما ارهب هذا الاستثمار الوقح !

استمر المشهد الفظيع ، مشهد صعود الركاب الى الباخرة ، ٣ ساعات ونصف الساعة . خرجت الى المتن قبل اقلاع الباخرة ، فتملكنى الرعب من ملء الباخرة ؛ حسبى القول انهم حشروا الركاب على جوار العنابر

والمتن ، وعلى مقصورات الدرجة الاولى والثانية وعلى سلوقية الربان وفي جميع الممرات ، وكذلك فى الزوارق ، — وفيها استقر العرب والفرس البارعون في التسلق . ولم يتسن لى ان اذهب الى الحاج سلطان فى الدرجة الثانية الا بمصاعب لا تصدق ، وبمضايقة الناس باستمرار . هذا الموقف من الناس ، وبخاصة من ركاب المقصورات ، لم يتسنّ لى يوما ان ارى نظيرا له ! هذا مرعب ، هذا مثير للغضب ! واذا كان كل شيء يتحقق على هذا النحو ، فلا بدّ من الدهشة اذا لم تنشب شتى الاوبئة بين الحجاج . صاننا الرب من البلايا ! فى كل مكان ينصبون السماورات ويشعلون النار تحتها ، ويدخنون ، ويطبخون ، والخ ، ؛ الانارة بالكاز .

تحادثت مع مختلف الحجاج ؛ الفرس يفضلون الطريق عبر القدس لكى تتسنى لهم زيارة كربلاء وبغداد والقدس . وكثيرون يمضون عبر بندر وبوشير (بوشهر) . من خراسان نحو ٥٠ شخصا .

٩ نيسان (ابريل) . حوالى الساعة ١١ صباحا وصلنا الى جدّة ورسونا فى وسط الخليج بين مدينة جدّة ومحلة الرأس الاسود ؛ فى كل مكان شعاب ، صخور بحرية . جدّة مدينة جميلة من البعيد . بعد فترة وجيزة جاء من جهة المدينة زورق وفيه تركى يرتدى معطفا ، وحافى القدمين ؛ وقد تبين انه عضو فى لجنة الحجر الصحى ؛ سرعان ما عاد واعدا بارسال الزوارق لنقل الركاب الى الشاطئ ؛ رفعوا على الصارية راية تشير الى استدعاء الزوارق . ذلك اليوم امضيناه كله عبثا فى الرسو ، مع انه كان من الممكن الاستراحة من العاصفة التى عانيناها .

١٠ نيسان (ابريل) . منذ الصباح ظهر من جانب الرأس الاسود اسطول من الزوارق المنطلقة بالاشرعة . الطقس مناسب . اقتربت الزوارق . بدأ الهرج والمرج العادى . ظهر عضو لجنة الحجر الصحى الذى جاء امس . فى آخر المطاف ، جاء دورنا . اقترب زورقان ، احدهما نزل فيه الركاب ، والثانى وضعوا فيه امتعتهم . زورق الامتعة رفع الشراع وجر زورق الركاب صوب الرأس الاسود . كان بين الركاب عدد كبير جدا من النساء من المغرب . اخذن يغنين اغنية رخيمة جدا ، رنانة جدا ، حركت نياط قلبى الى حد انى بكيت . كل شيء — الطقس ، والبحر ، والمحلة المحيطة — اثار حالة من الاجلال . كانت الزوارق تتلوى طوال الوقت بين الصخور البحرية مصطدمة فى بعض الاماكن فى القاع بالصخور التحتمائية . استمر الانتقال زهاء ساعتين . واخيرا ، على الشاطئ ، رأينا بضع عشرات من الخيام ، وعددا كبيرا من الشقادف والجمال والحمير ، ورصيفين حقيرين مصنوعين

من الواح خشبية ومظللة من فوق بحصائر . لم تقترب الزوارق من الشاطئ ، بل توقفت . وطلبوا من كل منا ان يدفع نصف مجيدية لاجل المحجر الصحى . رفض بعض الركاب الدفع ؛ اما انا ، فقد دفعت تجنبا للانتظار المضنى تحت اشعة الشمس الحارقة ؛ ونقلونا الى الرصيف . وهنا طلبوا مرة اخرى نصف مجيدية لاجل المحجر الصحى ، ثم اخذوا منا جوازات السفر واجبرونا على دفع النقود ايضا ، واطلقوا سراحنا . شغلنا خيمة من خيام المحجر الصحى . القيظ لا يطاق . كتمة الهواء يستحيل تحملها . الخيام موزعة بغير انتظام ، بصورة ضيقة جدا ، محاطة بحواجز ، استقرت فيما وراءها سرية وخفر فى خيام ايضا . لا يسمحون بالخروج من المكان المحجوز . ثم تبين انهم لن يرسلونا الى ابعد الا غدا صباحا برفقة خفر . الانتظار الممل . اليوم ساء حالى جدا . ألم فى البطن ، وعطش لا يروى ؛ لا استطيع اطفاءه بشيء ؛ حاولت احتساء الشاى ، والقهوة والليموناضة (الفاترة) ، ولكن عبثا . الماء يستجلبونه من جدة فى شخاتير ؛ طعمه مالح . تعذبت كثيرا . فى هذه الاثناء تعرفت على متصرف تركى (؟) من اليمن ، ذاهب هو ايضا الى مكة . رجل مطلع ولطيف جدا . احتاج رفيقى المريض [. . .] * تلطف جدا وارسل الى المحجر الصحى ؛ اما هنا ، فلا وجود لاى طبيب . بين الخيام بازار ؛ كثيرون يذبحون لانفسهم الخرفان بين الخيام . التربة رمل بحرى . لقضاء الحاجة يذهبون الى شاطئ البحر . بفضل الرمل ، لا يتلوث الشاطئ .

هنا يعيش القنصل الفارسى . خيمته فخمة ، مفروشة بمفروشات جيدة ، ومنارة مساء انارة ممتازة ، تقع الخيمة خارج الحاجز وتثير انطباعا قويا ؛ فى خيمة اخرى يعيش معاونه ؛ وقد انتقل الى هنا مؤخرا من ينبع . جميع المثقفين من الحجاج الفارسيين يتجمعون عند القنصل ؛ القنصل يقدم لهم القرى ببالغ اللطف . توعكت تماما . اخاف ان لا استطيع غدا السفر . جدة يحميها الحجر الصحى ، رغم انى رأيت كثرة من تجار المسابح والشالات وغير ذلك ، وقد جاؤوا من جدة لبيع بضائعهم . الماء ايضا من جدة . والى جدة يرسلون ايضا الناس لنقل البرقيات . وقع سوء تفاهم بصدد الماء المجلوب . بعد انفاق الماء ، راح شختور الى جدة لجلب الماء . حل المساء ، ولكن الماء لم يصل . الحجاج جميعهم مع الاوعية ينتظرون على الرصيف . الساعة ٩ مساء ، طلبوا الذهاب الى المتصرف لطلب المساعدة منه . رحت . اوضح المتصرف ان الشختور تأخر بسبب انقطاع الريح ، وانه سيأتى حتما بعد ساعة . ولكن الشختور لم يأت نحو منتصف الليل ، ولم يأت فى صباح اليوم التالى ، فى وقت ارتحال الحجاج .

١١ نيسان (بريل) . لم انم طوال الليل كله . آلام رهيبة فى بطنـــى . بجهد كبير نهضت ووصلت الى الحمار المهيأ لى . استعجلنا انا ودرويش افندى للسفر بأسرع وقت طالما كان الطقس باردا نوعا ما ، وركبنا حمارين واتجهنا اثر طابور من الحجاج ظاهر فى البعيد. ضاع الحاج سلطان . اعتقد انه سيلحق بنا ؛ كان معه مسدس والماء . لحقنا بالطابور ، وهو من المغاربة ؛ هؤلاء لا يعرفون كلمة من لغتنا . نمضى صامتين وراءهم . ندهش لكونهـــم جميعهم يسيرون بلا طرق ؛ نبدأ نخشى على مصيرنا . معى حقيبة فيها كـــل رأسمالى ؛ وليس معى اى سلاح . اعرف ان الطريق خطر جدا . والمرافقون الله وحده يعلم من هم . اخذ الافندى يبكى . بعد السير طويلا فى الجبال ، نطل على طريق متساو ، مسطح ، ولكنه طريق غير كبير ، لأنه لا وجـــود للتلغراف . افكر فى الوصول الى اول مقهى ؛ والمقاهى ، كما يقول الحـاج سلطان ، تسعة ؛ وهناك ننتظر الحاج سلطان ، ولكن لم نجد اى مقهـى . نصادف جماعات من البدو المسلحين من الراس الى اخمص القدمين . نجـأة يطلق المرافقون النار فى الهواء ؛ مع جميعهم تقريبا بنادق رش [. . .] * . نسير منذ ٥ ساعات ؛ انا ملتف بتوب الاحرام ، مكشوف الرأس ؛ اخذ عطش رهيب يعذبنى . جف فماى كله . لا استطيع تحريك لسانى . اطلب من الافندى الليمون الحامض او اقراص النعناع . يخاف ان يتوقف لكى يسحب هـــذه الاشياء فيتأخر . الطريق يستمر بين صخور جرداء ؛ احيانا تقع العين على ادغال عالية من الشوك . ابدأ افكر فى المجازفة والتوقف فى مكان ما تحت دغل ؛ احزر ان الطريق الكبير الى شمالنا . فى عينى تتلاعب حلقات ضاربة الى الاحمر . اخيرا اقنع الافندى باعطائى ليمونة ؛ وحين راح ليجلبها تنحيت جانبا قليلا ، واذا بى ارى غير بعيد الى الشمال بناية بيضاء . اســـأل . يقولون : هذا مركز حراسة . اعد رفقتى بمجيدية اذا اخذونى الى هناك . الجميع يستديرون . يحمل لى الافندى ليمونة ؛ ابلعها فى الحال وانتعش . بعد ربع ساعة نصل الى البناية — مركز يحرس طريق مكة . يسرع شيخ حـاملا بندقية . وحين يعرف فحوى الامر ، يدعوننى بلطف الى الجلوس فى الظل ، ويضع سماور على النار ، ويقدم على العموم آيات الضيافة الاخوية حقا .

ننتقل الى داخل البناية المشيدة بصورة عقلانية جدا بحيث تتسع لاجل ٨ اشخاص . الجنود والشيخ جميعهـــم اتراك ، شبان لطفاء . نقضى هنـــا ساعتين مستطابتين مع احتساء الشاى . الماء يستجلبونه من بئر على بعد ٣ فرستات . طعمه مالح نوعا ما . يروون انهم شاهدوا بام عيونهم فى الايـام الاخيرة قرب المخفر كيف نهب البدو الحجاج . يبدو ان هؤلاء الرحل يزرعون

الرعب فى قلوب الجميع . اخيرا وصل الحاج سلطان ؛ وبالحاح الساقة الذين لم يوافقوا البتة على الانتظار هنا حتى هبوط القيظ ، مضينا الى ابعد . الآن كنا فى الطريق التلغرافى الكبير الواقع طوال الوقت بين الجبال ، ولكنـــه متساو ومريح جدا .

بمحاذاة الطريق ، ينطلق التلغراف المركب جيدا جدا على اعمدة حديدية . الطريق مناسب تماما للحركة على العجلات . حتى المحطة التالية — البحرة — اضطررنا الى السير فى اقصى القيظ . كل ٣—٤ فرستات تقع بنايات مخفرية . فى البحرة مقر اركان الطابور . وصلت الى البحرة بالكاد حيا ، وقلت فى نفسى انه لن يتسنى لى مواصلة السير . تبين ان المقهى كوخ ردئ مــــن القصب يأوى اليه الناس وحميرهم . الماء مالح نوعا ما . تقابلت مع بضعة ضباط اتراك ؛ انهم اناس ودودون بسطاء . الجميع حاولوا انعاشى وتعزيتى . من جديد الح الساقة على الانطلاق بأسرع وقت ، ولكن الضباط هدأوهـــم ببالغ السرعة . هنا سمعت بين الناس شتى الاشاعات والمخاوف عن هجـوم البدو : اليوم سلبوا احد الحجاج ٥ ليرات ، وقتلوا آخر واخذوا ٤٠ ليرة . فى حضورى جاء جندى وابلغ الضابط ان رفيقه الذى راح معه من جدة الى مكة قتلوه بالحجارة . نشب جدال بين الضباط بصدد من يرسلونه وراء القتيل . نحو الساعة ٥ مساء ، انهضونى مع ذلك واجبرونى على مواصلة السفر حتى حدّة . المسافة ٧—٨ فرستات . بفضل البرودة قطعنا هذه المسافة بصورة سهلة جدا . من البعيد تبدو على حدّة مظاهر البشاشة الكبيرة بدغلها من اشجار النخيل . تبين ان الماء (من الآبار) جيد . هنا استرحت ونمت للمــرة الاولى نوما هادئا نوعا ما . رجلىّ احمرتا بشدة بسبب القيظ . [السفر . . .] *

كان هناك بضعة اشخاص ذاهبين من جدّة الى مكة .

١٢ نيسان (ابريل) . انطلقنا اليوم فى الساعة ٥ صباحا وفى الساعة ٩ اقتربنا بسلامة من مكة التى تغدو الجبال فى جوارها اعلى واشد انحدارا . الوصول مفاجئ تماما . المدينة لم تظهر الا حين دخلناها تماما . الانطبـــاع الاول — بيوت حجرية عالية ، حركة شديدة جدا فى الشوارع . بعد فترة وجيزة وصلنا الى تكية قرغيزية ، ونزلنا فيها موقتا فى ضيافة الحاج سلطان . منذ اللحظات الاولى بالذات ، تواجد اناس كثيرون جاؤوا لزيارة الحـــاج سلطان ؛ فضاق المكان كثيرا . تضخمت رجلاى كثيرا ، وخزبتا . امشى بجهد كبير . نزول الدرج عذاب . فى المساء ، بعد الدعـــاء قمت بالطواف ثـــم بالسعى . الانطباع من الطواف عميق وعجيب جدا وهو من الانطباعات التــــى تندر معاناتها فى الحياة . بعد العودة الى التكية ، خلعت ثوب الاحرام ولبست

ثيابا عربية محلية – قميصا طويلا جدا من الشاش ، وسترة ، وعباءة حريرية .

١٣ نيسان (ابريل) . امضيت اليوم كله متمددا . جاءنى حارث ، ابن احمد عبدو وعرض ان يخدمنى طوال اقامتى هنا وفى المدينة . الشقات التى اعدّها غالية جدا – ٦٠ روبلا فى اسبوعين . قررت ان انتظر .

١٤ نيسان (ابريل) . جاء يزورنى تلميذى القديم يعقوب اكتشورين ، الذى كان آنذاك صبيا والذى صار الآن شابا راشدا . جاء جميع افراد عائلته عبر ينبع الى المدينة فى الشقادف . رحت مع يعقوب الى محل اقامتهم ؛ فقد استأجروا شقة فى مدرسة دينية تطل نوافذها على كعبة الله وتخص الحاج شريف . تتألف الشقة من ٣ طوابق ويبلغ بدل ايجارها ٢٠ ليرة (٨ روبلات ، ٦٠×٢٠) . اخو يعقوب ، الذى رأيته منذ ٨ سنوات صبيا تستحيل معرفته لانه كبر وترجل . الشيخ لا يزال كما كان . ملاك كبير من الخدم والشاكيرديين (تلامذة المدرسة – كلمة تركية. – المؤلف) والادلة ، وخلافهم . بالاجمال ٥٠ شخصا .

١٥ نيسان (ابريل) . اليوم صباحا انتقلت فجاة الى شقة جديدة استأجرتها من ابن دليلنا صالح . صحيح ان الشقة بسيطة ، ولكنها رحبة ، ومنفردة تماما . فى التكية مللت جدا من الضيق والازدحام .

كنت عند اكتشورين وعرفت ، فيما عرفت ، انهم اعتقلوا قرب بئر زمزم كافرا . سألت كثيرين عما سيفعلونه به ؛ اجاب الجميع بالاجماع انهم لن يفعلوا به شيئا ، وانهم سيرسلونه الى القنصل فى جدّة . كنت اتصور تعصبا اكبر .

١٦ نيسان (ابريل) . امضيت اليوم قرب النافذة مراقبا مواكب مختلفة . فى البدء راح الشريف والوالى الى المحامل ، ثم عادا بمهابة واحتفال . خفر الشريف يتألف جزئيا من مشاة ، وجزئيا من جنود على الجمال ، وفرقة موسيقية طريفة ؛ ثم جرى خروج المحمل الفلسطينى والمحمل المصرى ؛ للاول فصيل كبير من الفرسان على [. . .] * ، و٣ مدافع جبلية . الجماعة كلها خارقة السطوع والاصالة ؛ اعجبتنى على الاخص اغنيات العرب ومسيرتهم مع الرقص والحجل . موكب اهل المدينة على الهجائن والحمير اصيل هو ايضا . المحمل انما هو هودج من الديباج على جمل واحد . المحمل الفلسطينى – حضرة عائشة ؛ المحمل المصرى – حضرة فاطمة .

١٧ نيسان (ابريل) . قبلت دعوة يعقوب اكتشورين اللطيفة وانضممت اليه للذهاب الى عرفات . الشيخ والسيدات راحوا فى الشقادف . اما نحن ، فقد رحنا ركوبا . المسافة الى عرفات زهاء ٢٠ فرستا ؛ فى الطريق تمضى

سلسلة متواصلة من الجمال ومن حجاجنا . الطريق تنطلق طوال الوقت كله في مضيق تارة يزداد ضيقا وطورا يتسع . مررنا بمنى والمزدلفة ووصلنا الى عرفات نحو الساعة ٨ مساء . وعرفات جبل غير عال يتألف من كتل صخرية هائلة ؛ في اعلاه موشور ابيض غير كبير ؛ عند قدم الجبل مخيم شاسع من خيام الحجاج . التربة رملية . بصعوبة وجدنا في هذه الفوضى خيمتنا . المساء بارد جدا (٢٠ درجة من ميزان ريومور) مع نسيم مستطاب ؛ قرب كل خيمة بيت خلاء خاص بها ، مقام بتشكل خيمة هو ايضا . من بعيد تبدو مقامـــات المحامل المنورة ، والالعاب النارية . غير بعيد ، بازار شاسع ، موقت ، يحتوى اشياء واشياء ، وعلى الاكثر الخرفان والبطيخ . الماء من مكـــة [. . . . .] ** من النوافذ . اسمع صيحات [. . . . .] ** معد ، كما عرفت ، لاجل قرغيزيينا ومحضر من بقايا المصارين في مكة . كثيـــرون يذبحون الاغنام قرب خيامهم .

١٨ نيسان (ابريل) . اليوم يصعد جميع الحجاج ، ما عدا الحنفيين ، الى جبل عرفات لاجل السجود ؛ الجبل كله مكسو بالناس . وهناك ادراج حجرية . اما نحن ، فيتعين علينا ان نبقى طوال الوقت كله في اسفل . كثيـــرون يستحمون . ولهذا الغرض انشئت احواض حجرية غير عميقة تمر بها المياه السائلة الى مكة . الحر اليوم شديد جدا . في الخيام ترتفع الحرارة الى ٣٥ درجة ريومور ، في الشمس الى ٥٠ درجة . في نحو الساعة الثالثة ، بعـــد الغداء ، بدأ الامام من اعلى الجبل تلاوة الخطبة وهو على ظهر جمل ؛ الجبـــل كله مغطى بالحجاج . التلاوة ذاتها غير مسموعة بالطبع . واظن ان حتى الواقفين على سفوح الجبل لا يسمعونها هم ايضا . وحين يتلو الخطيب لبيّك اللهم لبيّك ، يردد الجمهور على الجبل بصوت مدو ملوحا بالمناديل ، وبموجب هذه العلامة يردد جميع الباقين .عند الاقتراب من الجبل بالذات ، يستحيل عبور البازار بسبب الرائحة الكريهة . وقرب الخيام ايضا رائحة كريهة . قبيـــل مغيب الشمس ، يبدأ الجميع يرتبون امتعتهم ويستعدون للعودة لكي ينطلقوا فـــي النهاية الى المزدلفة . تنتهي الخطبة قبل صلاة الختام . المكان واسع ، ولكن تحرك مثل هذا الجمع من الناس والجمال في آن واحد يسفر بالطبع عن الهرج والمرج . من عرفات الى المزدلفة نحو ٧ فرستات ؛ الطريق تمر في مضيق عرضه نحو ٢٠٠ ساجن ، جانباه جبال صخرية جرداء . هذه النقطة عبارة عن صف طويل من مناضد التجار والمقاهي . وهنا ينبغي ان يقضي الحجاج الليل . والتربة هنا ايضا رملية ، ولكن لا قذر ولا زبالة هنا بفضل اقامة الجمهـور

غير الطويلة . غدا يتعين اجتياز نحو ٧ فرستات فى اتجاه مكة الى منى .

١٩ نيسان (ابريل) . فى الصباح الباكر وصلت الى منى . وهى مقـام سكنى يتألف من شارع واحد طويل جدا وبيوت حجرية متعددة الطـوابق ، تعيش بضعة ايام فقط فى السنة : عند تحرك الحجاج الى عرفات وبخاصـة لدى عودتهم حين يبقون هنا اكثر من يومين ؛ وفى بقية اوقات السنـة لا يعيش احد هنا . عرض المضيق هنا زهاء ٤٠٠ ساجين بالمتوسط ؛ فـى كل مكان ، صخور عارية ؛ التربة من رمل ضخم . اكتشورين أجّر بيتـا منفردا بكامله بمبلغ ٢٠ ليرة ؛ عادة ينزل الجميع فى خيام منصوبة فـى الشوارع وفى اماكن مطوقة خصيصا باسيجة حجرية وتخص الادلة . تعتبر منى نقطة حارة جدا ، وهذا صحيح ، رغم ان الحرارة فى الغرف لا ترتفـع الى اكثر من ٣٠ درجة ريومور ، ولكن كتمة الهواء فى الصباح (وقد نمنـا على الشرفة) لا تطاق . فى البـــدء قدمنا الاضاحى ؛ وفى الحال تخاطـــف المغاربة الخرفان الـ١٢ كلها . المحلة التى يذبحون فيها الاغنام تقع قرب منى بالذات ؛ وهناك حفروا عددا من الحفر عرض الواحدة منها ٣ ساجينات وعمقها ارشينان . يذبحون على حافة الحفرة . يقولون انهم يطمرون الزامـا جميع الاغنام المذبوحة بعد الظهر . وعموما يوجد اشراف ولكن بدون مراقبة دائمة .

٢٠ نيسان (ابريل) . يوم الاثنين . فى هذا اليوم بقى الحجاج فى منى لرمـى الاحجار فى ٣ اماكن مسيجة . الاحجار المرمية سابقا تختفى ؛ اغلب الظن ان الامطار تفرقها وتجرفها . الاحجار — رملية هشة . رحنا الى مكان تقديم الاضاحى الذى ذكرته التوراة . قذارة مدهشة فى ازقة منى ؛ كثرة من بقايا الحيوانات ؛ رائحة رهيبة . بيوت الخلاء مراحيض مكشوفة صغيرة ، بدون حفر . نصلى ونركع امام حجر مفلوق . الوضع الصحى الرهيب فـى المحلة يخنق الرغبة فى الصلاة . فى المساء رحت مع يعقوب لمشاهدة الالعاب النارية وللاستماع الى الموسيقى . كانت الصواريخ جيدة جدا . اطلقوهـا فى ٣ اماكن — قرب مقامى القافلة الشامية والقافلة المصرية وقرب موقف الوالى . صواريخ المكانين الاولين كانت ناجحة جدا . الموسيقى — اوركسترا عسكرية جيدة جدا ، رغم انها صغيرة القوام . موسيقى الشريف المحليـــة اصيلة . الوالى والشريف تجوبا اليوم ركوبا فى الشارع الرئيسى برفقـــة خفر اصيل . فى المساء ، يرفعون فوق مبنى المحجر الصحى المحلى مصباحا اخضر مرئيا من بعيد . امكنة الاقامة فى المبنى ٢٠—٤٠ ؛ عدد الاطباء اثنان ، مرسلان من القسطنطينية ، الطبيب الثالث يعمل عند الوالى شخصيا . وهنا

عثمان افندى ايضا ، ولكن كفرد من الافراد . عدنا فى ساعة متأخرة . الجو مرهق الى اقصى حد ؛ لربما يلعب الخيال (سبق الرأى) دوره فى هـذا . الماء هنا وفي المزدلفة وعرفات يأخذونه من الآبار والمجارير ؛ وهذا معمول به فى كل مكان . فى الصباح طفنا مرة اخرى لرمى الحجارة ثم عدنا الـى مكة . رحت رأسا الى محل اقامتي ؛ ونحو المساء قمت بالطواف . مساء رحت الى اكتشورين . بين الحجاج انفعال فرح ملحوظ ؛ الجميع يرسلون الـى الوطن برقيات عن العودة بأمان وسلام من عرفات . الحجاج يذهبون الـى عرفات مفعمين بخوف عظيم ، ولذا كان فرحهم بعد العودة مفهوما . عـدد الموتى في كل وقت الذهاب الى عرفات والعودة منه ٣٠ فقط . يقولون ان هذه السنة موفقة جدا . فى منى غالبا جدا ما ينشب وباء الكوليرا ؛ وفـى السنة الموفقة مات كثيرون ، وبخاصة عدد كبير من القرغيز ، الامر الـذى يجب تفسيره بالزحار ، والقيظ الرهيب ، والأكل غير المعتدل ، والشرب الاقل اعتدالا ايضا ، والبنية البدينة ، وانعدام العادة طبعا . يقول عبد القادر سعيد ان الحرارة فى الخيام بلغت منذ بضع سنوات ٤٨ درجة ريومـور . كان القرغيز المساكين لا يعرفون ما يفعلون . راح الجميع للقيام بالعمرة ؛ من هم اكثر يسرا يكلفون الغير بالقيام بذلك لقاء اجر . بالنيابة عني راح حارث .

الحاج الذى لم يذهب بعد الى المدينة المنورة يتحدث عن العودة رأسا الى الوطن . يتطرقون الى اخطار الطريق مـن عمليات السلب والنهب . الجميع يخيفهم المحجر الصحى فى الطور . يروون عن الفظائع فى السنـة الماضية فى الطور : الاقامة الرهيبة ، الاحوال المناخية المرهقة ، الغـلاء الفاحش ؛ انتزعوا من الحجاج مؤنهم ؛ وهذه المؤن بالذات باعوها منهم فيما بعد . ابقوهم ٢٧ يوما لأن التفريغ استغرق ١٢ يوما ؛ وهذه المدة ليست فى الحساب .

٢٤ نيسان (ابريل) . يوم الجمعة . زرت مع رشيد القاضى عمارة ضخمة قيد البناء عند مدخل المدينة . تبين انها مأوى لاجل الحجاج المعدمين . تبنى كلها على حساب الحكومة التركية . العمارة [. . .] (١٧) من طابقين ، حجرية ، رائعة التخطيط . غرف مشرقة ، رحبة ، عالية ، رواق مريح ، لا وجود لقطعة خشبية واحدة . يبدو انهم امعنوا الفكر سلفا فى كل شيء ، النوافذ مجهزة بحصائر ، فى الوسط فناء . كل شيء وطيد وجيد جدا ، عقلانى وجميل . كثرة من الهواء والنور . [. . .] * . تركى ، سقانا فيما بعد القهوة دون ان

يذكر الجاويش الفاره وسمح بطرح الاسئلة ببالغ اللطف [. . .] * . مثل هذه العمارة لا يرفض اغنى الحجاج النزول فيها .

بعد العودة ، دخلنا مستشفى المدينة . من وقف والدة السلطان عبد المجيد . عدد الامكنة ٣٠—٤٠ . اسرّة نظيفة نسبيا . عدد المرضى ٢٥ ، مصابون على الاغلب بابى الركب . للمستشفى صيدلية ، وجنينة . المرضى من شتى القوميات . الراغبون فى الحصول على الادوية كثيرون . المكان لاجل المستشفى مفرط فى الانتعاش والحركة ، قرب السوق . ثم رحت مع عثمان افندى الى سوق العبيد . حوش مفتوح صغير . هناك ٦٠—٨٠ فتاة ، زنجيات على الاغلب ؛ وهناك ايضا حبشيات ، وامرأة مع طفل ، بعض [. . .] * ، زهاء ٢٠ صبيا ، حليقى الرؤوس ، محضّرين للبيع ، جالسون فئات فئات على دواوين . استقبلنا هناك عربى همّام .

البضاعة يأتون بها من السودان والحبشة . يسرقون ، ينقلون الى الساحل ؛ يشحنون خفية عن الانجليز على «سمابك» ؛ وعلى هذا الساحل يبيعونها من التجار ، وهؤلاء ينقلونها الى مكة وغير ذلك من المراكز . ثمن الفتاة الجيدة ٤٠ ليرة . ثمن الصبيان يتراوح بين ١٥ و٢٠ و٣٠ ليرة . الحبشيات يأخذونهن على الاكثر كزوجات ، الزنجيات كعاملات . يتفحصون الفتاة عارية مثل الماشية . الانطباع من ذلك فى غاية الارهاق . والشريعة لا تسمح بهذه التجارة . استحوذت عليّ وعلى رفاقى كآبة شديدة .

٢٥ نيسان (ابريل) . يوم السبت . قضيت اليوم كله فى بحث مسألة السفر الى المدينة المنورة . الطريق ، كما يروون ، فى منتهى الخطر ، رفض معظم رفاق الطريق السفر .

القافلة الشامية محروسة ، لربما آمن ، ولكن ، اثناء السير ، تهتز الجمال كثيرا ، والشقادف غير مريحة ؛ قوافل مكة خطرة جدا . بنصيحة رشيد القاضى قررنا السفر على هجائن ، انا واحمد يرزين ركوبا . اخذ ادلة عمر ابراهيم من المدينة المنورة على انفسهم تدبير كل امور السفر . عند يرزين آنيته ؛ وعد ان يعطينا اياها فى الخيمة . وقت السفر اسبوع . المسافة ٤٠٠—٤٥٠ فرستا .

٢٦ نيسان (ابريل) . يوم الاحد . الماليزيون او «جاوة» كما يسمونهم هنا يؤلفون ثلث او ربع السكان الدائمين فى مكة . عندهم ٣—٤ آلاف تلميذ . يتميزون بالميل الى الوئام ؛ مسالمون جدا ، مجتهدون ؛ يتعاطون التجارة ؛ بدأوا يمارسون الدور الاول بين السكان المحليين . بواسطة مواطنى مراد افندى ، تعرفت على ممثلين اثنين للماليزيين .

جميعهم من اتباع الشافعي . جاؤوا الى مكة منذ ٢٠ سنة ، ولكن عددهم يتزايد سنة بعد سنة ؛ فى هذه السنة بلغ عدد الحجاج منهم زهاء ١٥ الفا . عادة يتوافد ٣٠-٤٠ الف حاج . وهم اذ يعتزمون الحج الى مكة او الذهاب منها الى المدينة المنورة ، يختارون مدبّرا خصوصيا ملزما باستئجار الجمال وتوفير المؤن ، وغير ذلك . وهم يشكلون على الدوام قوافل خاصة ، ولا يختلطون مع قوميات اخرى . وهم شعب مهذب جـدا ، وهـــادئ ومحب للمعرفة . يقولون انهم يتمتعون فى وطنهم بالحرية الدينية التامة . من جزر السوند الماليزية يأتى الى مكة على الاغلب الخشب والبضائع المستعمرية . فى مكة زهاء ٢٠ معلما ماليزيا بينهم ٣ يمارسون خصيصا الترجمة من اللغة العربية الى اللغة الماليزية . القطع النقدية الفضية المتداولة سواء هنا فى مكة ام فى المدينة المنورة وكذلك بين الرحل ، هى جميعها تقريبا «البورون» الماليزى ، الذى توازى قيمته ١١ غروما او ٨٨ كوبيكا . اليوم ودعنا آل اكتشورين ثم قمت مع حارث برحلة الى جبل قوايس . تظهر منه مكة كلها تقريبا ، الواقعة فى فج ضيق والمطوقة بوثوق بصخور قاتمة اللون . منظر الضواحى خارق الصرامة . اعلى نقطتين تشغلهما ثكنات . الحرم الشريف فى قاع هذا المضيق . ركعنا للمكان الذى حدثت فيه معجزة للقمر ، ونزلنا من جانبه الآخر ، وركعنا لمكان ولادة النبى ، المحول الى جامع بارد نوعا ما ، ثم عدنا . مررنا على يرزين ؛ كان مشغولا بالتوضيب . البيت يلصق الحرم الشريف ؛ فى اسفل رائحة عفنة رهيبة ؛ التكية مهملة ؛ المشرف عليها (محمد) يقبع فى السجن فى تهمة معللــــة جدا بسرقة النقود مـن يرزين . عــــن الاشخاص الذين عهدوا اليهم بالتكية ، — فيما عدا اثنين هما مراد ونجـم الدين افندى — يروون اشياء فظيعة — منها ان اموال الحجاج الموتى تعود اليهم ، وانهم ينتظرون الاوبئة وخلافها بفارغ الصبر . يجمعون من النزلاء النقود للتصليح ، ولكن لا يجرى اى تصليح ، ويؤجرون الغرف ويضعون النقود فى جيوبهم . محمد (المذكور اعلاه) ، مثلا ، يقبع فى السجن للمرة الثالثة . توجد هنا بالاجمال ٩ تكيات ، افضلها تكية دبيربييف ، كل تكية تتسع لـ١٠-١٥ شخصا .

٢٧ نيسان (ابريل) . انقضى اليوم كله فى الاستعدادات للرحيل الى المدينة المنورة . لا بدّ من الأسف الكبير لأنى لم آخذ اى احتياطى من المأكولات ؛ المحفوظات من المأكولات السائلة قيمة بخاصة هنا . احتجنا الى ١٢ جملا وحصان واحد . وهكذا ننطلق مع نفر من اهل المدينة المنورة عائدين من الحج على جمال خفيفة تسمى بالهجائـــن . فالهجين حيوان لطيف جـــدا ،

وديع ، جميل ، محب للنظافة ، خال من الرائحة المنفرة الملازمة للجمال .
واخيرا فى الساعة ١٠ مساء انطلقنا الى نقطة التجمع على بعد نحو ٦ فرستات من مكة . هنا اجتمع الركبان ؛ الاول ، الكبير ، انتخب داغستانيا شيخا له ؛ الثانى ، ركبنا ، انتخب عباس خيارى . حوالى الساعة الواحدة ليلا ، بدأ الركب الاول يتحرك ، وحوالى الساعة الثانية ليلا ، بدأنا نحن نتحرك .
٢٨ نيسان (ابريل) . يوم الثلاثاء . منذ هذا اليوم تبدأ حقا حياة السفر بدون نوم تقريبا ، بدون المعيشة المألوفة ، فى القيظ الرهيب . اثناء السير ، تقيد الركبان بالنظام التالى . كنا ننطلق حوالى الساعة ١٢ — الساعة الواحدة ليلا ، ولهذا كان ينبغى النهوض قبل ساعة ، علما بانه لم يكن يتسنى الوقت لاحتساء الشاى ؛ كنا نسير حتى الساعة ٦—٧ صباحا ، ونتوقف للاستراحة . اثناء التوقف كان ينبغى الاسراع فى النوم ، لأن هذا يغدو مستحيلا مع حلول القيظ . ثم كنا ننطلق حوالى الساعة ١٢ — الساعة ٢ بعد الظهر ، ونسير بلا انقطاع حتى الساعة ٧—٩ مساء ، حين كنا نتوقف للاستراحة ؛ وهكذا حتى المدينة المنورة بالذات ، دون اية وقفة فى النهار ودون اية انحرافات . الركب الاول كان ينطلق قبل الثانى بساعتين . كان الركب يتألف من راكبين على الهجائن ، (القسم الاكبر) على الحمير ، وعشرة احصنة و٣ [. . . .] * . اثناء السير ، كان يسير فى المقدمة فريق على الحمير والاحصنة ، وفى الوراء فريق على الهجائن . فى النهار كان الركب يستطيل ، ولكن عند حلول العتمة كان يتجمع ويتراص ويسير باحتراس . وعند الانطلاق ، كان الجميع يصلون بصوت واحد طالبين من الله سلامة السفر وسلامة الشيخ ؛ وعند الاقتراب من الموقف ، كانوا يغنون بصوت واحد اغنية مشجعة ومتناسقة جدا . كانت سرعة السير متكيفة لسرعة الهجائن التى تسير عادة بخطوات واسعة ، وبوسعها ان تسير خببا بطيئا ، الامر الذى كنا نستغله لفترة قصيرة فى الصباح ونحو المساء . الجميع يتذمرون من عدم هطول المطر فى الشتاء الماضى وبالتالى من نحول الجمال ؛ ومن جراء ذلك ، تعين تطويل مدة السفر من ٤—٥ ايام الى ٧—٨ ايام . كانوا يطعمون الجمال الاعشاب المجففة ولا يسقونها الا نهارا على حدة فى المواقف .
٢٨ نيسان (ابريل) . حوالى الساعة ٧ وصلنا الى نبع يقع فى مجرى مضيق وادى فاطمة العريض . النبع تتساقط مياهه فى طاحونة غير كبيرة وتروى بستانا من البلح . التربة ، سواء فى الطريق ام هنا ، من الرمل الخشن ؛ فى كل مكان صخور قاتمة غير عالية . الطريق مريح ، صالح لاجل

العربات حتى رابغ بالذات . الوقود متوفر فى كل مكان من الطريق بصورة اشجار صغيرة ، شائكة ، قرنية ، مسماة بالشوك وبصورة ضرب من ephedra «ايفردر» مسماة «العَشْر» (١٨) وتأكلها الجمال . هناك ضرب من عشب مجفف قاس تتلقفه الجمال اثناء السير . فى مراكز التوقف يبيعون الاعشاب المجففة الجاهزة فى حزم . فى الساعة الثانية نهارا ، استأنفنا السير . الطقس حار جدا . ولكن بعد الساعة الثالثة ، اخذت الحرارة تهبط بشكل ملحوظ . ومع حلول الظلام سرنا باحتراس خاص ، موزعين رجالنا على جانبى الطريق . التنادى دائم بين الركبين . واخيرا فى الساعة ٩ مساء توقفنا لمبيت الليل ، ومعنا الماء . كان النهار مضنبا جدا .

٢٩ نيسان (ابريل) . انطلقنا فى الساعة الثانية ليلا . وصلنا الى اسفان فى الساعة ٦ صباحا . القرية تتألف من اخصاص من القصب ؛ من اجل العابرين توجد سقائف خاصة مبنية من الاغصان والعشب الجاف . قبل القرية ، مزروعات شاسعة من الذرة الصفراء والقرع . الماء فى بئرين [. . . .] * جيد جدا .

استأنفنا السير الى ابعد فى الساعة الواحدة نهارا ، الفرستات الاربعة ، الاولى من الطريق صعبة جدا ؛ بين الحجارة والجبال تقع ساحات شاسعة منظفة من الحصى والحجارة لاجل المزروعات البعلية . وصلنا الى خليص فى الساعة ٧ مساء . توقفنا بعيدا عن القرية والماء معنا .

٣٠ نيسان (ابريل) . يوم الخميس . انطلقنا فى الساعة الواحدة ليلا . الطريق فى الفرستات الـ١٠ الاولى صعبة من جراء الرمل ، ثم تصبح متساوية ، صلبة ؛ نشعر بقرب البحر . الريح باردة نوعا ما ؛ من بعيد نرى الاشرعة . وصلنا الى قضيمة فى الساعة ٧ صباحا . الماء مالح نوعا ما . هناك مزروعات من القرع . تجدر الاشارة الى ان البطيخ والشمام فى الجزيرة العربية ينموان طوال السنة كلها ؛ ولكن نادرا جدا ما يكونان من نوع جيد ؛ الاحجام فى المعتاد صغيرة وبلا طعم .

انطلقنا فى الساعة الثانية نهارا ، وتوقفنا بدون ماء فى الساعة ٨ مساء . الطريق بعد قضيمة بـ١٠–١٥ فرستا ، حتى رابغ بديعة : متساوية ، صلبة (رمل بحرى كبير متراص) ، بدون غبار .

اول ايار (مايو) . يوم الجمعة . انطلقنا فى الساعة ١٢ صباحا . وهكذا قطعنا نصف الطريق دون مصاعب شديدة ، ودون معاناة القيظ الشديد ، ودون التعرض لخطر جسيم ، وهذا يعنى اننا قطعنا نصف الطريق . وكيف سيكون النصف الثانى ؟ ان رابغ ضرب من مركز قضاء . الابنية نسخة عن

بيوت النهوريين عندنا . هناك قلعة فيها حامية تركية وبازار وبساتيـــن شاسعة من البلح . الماء فى البئر مالح نوعا ما ؛ يشربون ماء المطر مـن صهريج ؛ يبيعون الكثير من الاسماك والصدف . شاطئ البحر منبسط ، متساو ؛ الجبال على بعد ٧–١٠ فرستات . هنا تنقسم الطرق . انسبهـا ، «السلطانية» ، تنطلق على شاطئ البحر عبر مستور ؛ اما قُرق وغايـــر فتنفصلان عنها الى اليمين . قرر قادتنا اختيار غاير باعتبارها الطريـــق الاقصر . عادة يتحاشون هذا الاتجاه بسبب منغصات المعبر عبر غاير . فى هذا الطريق وقعت الهجرة منذ ١٣١٥ سنة ، ولذا تزداد اهميتها .

انطلقنا فى الساعة الثانية نهارا . سرنا فى اتجاه الجبال نحو ساعتين ، دخلنا الجبال . الطريق حجرى مع ارتفاعات وانحدارات كثيرة وغير كبيرة . فى الساعة ٧ ، ارتفاع حجرى مزعج جدا وانحدار صغير شعشعت عند قدمه انوار الركب الاول. وقفة بدون ماء .

٢ ايار (مايو) . يوم السبت . انطلقنا فى الساعة الواحدة ليلا ، وسرعان ما دخلنا نجا مشجرا (بالمفهوم المحلى) غير عريض وصلنا فيه ، صعدا على الدوام ، حتى غاير تقريبا . الطريق مريح ؛ الرمل نادر . الاشجار كثيرة . حوالى الساعة ٧ صباحا وصلنا الى الآبار . الماء ليس عذبا تماما . فـى نحو الساعة ١٠ صار القيظ لا يطاق ؛ هبت ريح حارقة لم اعرف من قبـــل نظيرا لها . لففت وجهى بالعباءة ، فشعرت ببعض اليسر (بدون كتمة الهواء) . حديد السرير فى الخيمة توهج . انطلقنا فى الساعة الواحدة نهارا . السير نحو المساء اسهل على كل حال من التمدد فى الخيمة . انا واحمد سبقنا ركبنا وسرنا فى طليعة الركب الاول وسرعان ما وصلنا فى الساعة الخامسة والنصف [الى آبار مبارك] (١٩) . وجدنا هنا بستانا من اشجار البلح والماء السائل . جلسنا قرب النبع بفرح انتظار الشاى حين تصل الجمال . كانت خيبة أملنا مرة جدا حين تبين لنا ان الماء غير لذيذ الى حد ان الشاى فقد مذاقـــه . ونظرا لحالة الماء هذه قررنا مواصلة السير بعد راحة قصيرة .

انطلقنا فى الساعة ١١ مساء . انهكنى الحصان المتهيج ، ناهيك بـان سلسلة الشكيمة انقطعت ، فاخذ الحصان يندفع ، ويرفس ، ويعض ، ولا يتيح الاقتراب من احد . اخيرا ، تقدمنا كيفما اتفق ؛ ركبنا من الحميـــر والاحصنة على بعد ٥٠٠ خطوة تقريبا امام الهجائن . وفجأة ، حوالى الساعة الثانية ليلا ، حين اخذ النعاس يسيطر بقوة ، دوت على التوالى بضع طلقات فى الركب الخلفى . قلت فى نفسى : اخيرا وقع تبادل النار . توقفت ، سحبت المسدس ، اردت ان اعرف ما سيحصل . ولكن شيئا لم يحصل . اقتربت

الهجائن التى انطلقت من موقفها الطلقات ، وعلمنا انه تراءى لاحد الحجاج ان بدويا يقتطع من اجربته اشياء ، فصاح ، فاطلقوا انذارا ، وركضوا الى الحاج المذنب ، ولكن وجدوا كل شيء فى محله . يبدو ان اسلوب السرقة هذا يمارس هنا على نطاق واسع . يتمدد البدوى على الرمل ؛ وحين يقترب الجمل منه ، يقفز (الجمال المحلية لا تعرف الخوف اطلاقا) ، ويستغل واقع ان راكب الجمل لا يرى ما يجرى تحت الجمل بسبب الاجربة ، فيبتر الاجربة ويسحب الاشياء .

تبدد النوم ، وتمدد الركب وواصل السير على انشاد الحادى . ودائما كنت انظر بحسد الى اصحاب الحمير . يؤجر كل منهم حمارين او ثلاثة ، ويمضى هو نفسه فى المؤخرة على حمار احتياطى ؛ وهم دائما مرحون ، ودائما يضحكون ، جالسين بصورة جانبية على حميرهم ، لابسين على الرأس عمامة جميلة ، وعلى الجسم قميصا ازرق طويلا مزنرا وحسب . وطوال الطريق كله يثرثرون مع رفاقهم بلا كلل ، وغالبا ما يدخنون سيجارة واحدة معا لكل ٥-٦ اشخاص . كل منهم شاب ممشوق القامة ، رشيق القوام .كثيرون منهم مسلحون بالمسدسات . هذه المرحلة كانت مضنية : النهار القائظ السابق ، الماء الردىء ، ليل الارق ، — كل هذا فعل فعله . توعكت بشدة ؛ شرب الماء غير المغلى محفوف بالمخاطر . فمى جاف بشكل رهيب .

٣ ايار (مايو) . يوم الاحد . فى الساعة السادسة صباحا ، وصلنا الى بئر وتوقفنا للاستراحة . توقف الركب الاول قرب بئر اخرى على بعد نحو ١٠ فرستات . الماء عذب تقريبا . نحن فى املاك القبيلة الاشد لصوصية وشقاوة بين القبائل العربية — قبيلة Lehaba . ومستور كذلك من ارضها . جاء متوسلوها وباعتها . عيونهم منفرة جدا . اخذ صبيانهم يركضون بيننا وينشلون ما يستطيعون . وقد اختطفوا من فقير سائر معنا مظلة ؛ فتش عنها المسكين طويلا الى ان وجدها . احدث فى نفسى انطباعا مرهقا بائع باع اشياء حاج ما من الاكيد انه مقتول ؛ فى عداد هذه الاشياء ، كان ثوب الاحرام ومسدس وساعة فضية ، وبندقية والبسة كانت فى جيوبها اوراق ايضا . سئل البائع عما اذا كان قتل الحاج ، فاكتفى بالضحك . لم يعمد احد الى شراء هذه الاشياء .

انطلقنا فى الساعة ١٢ نهارا ؛ وقرب بئر [رصفة] *** (٢٠) حيث توقف الركب الاول ، سقينا الخيل وحشدنا الركب كله ، وواصلنا السير باحتراس خاص ، وكانت لنا طليعة ومؤخرة ، ودوريات على الجانبين ؛ وكان شيخنا على حصانه حاضرا فى كل مكان ، متسلحا ببندقية جاهزة ، وهكذا

اجتزنا نحو ٥-٦ فرستات . بعد ان قطعنا معبرا غير عال عرفنا ان ارض قبيلة لحابه قد انتهت وانتهى خطر السرقة والسلب . وعرفت انا ان ابناء القبيلة قتلوا فى السنة الماضية فى هذا المعبر اتنين من المدينة المنورة ، عندما كان هذان فى طريقهما الى مكة ، ومذ ذاك يوجد دم بين اهل المدينة المنورة وابناء القبيلة وتحاسى اهل المدينة المنورة تكرار قصة السنة الماضية .

نحو الساعة السابعة مساء ، رأينا نيران الركب الاول ، ولكن تبين ان رجالنا الذين كانوا فى الطليعة قد مضوا الى ابعد ، وتعين علينا ان نمضى ساعة ونصف ساعة ايضا الى ان توقفنا قرب الماء ، فى جوار مرتفع .

٤ ايار (مايو) . يوم الاثنين . انطلقنا فى الساعة الثانية ليلا . بدأ مرتفع حجرى معتدل فى قاع المضيق ؛ بعد ساعة ونصف ساعة تقريبا ، ازداد المرتفع وعورة وصعوبة ، وازدادت الحجارة حجما . الجميع ترجلوا ، وهكذا مشينا ساعة ونصف ساعة ، الى ان بلغنا المعبر . المرتفع ليس صعبا على العموم ؛ واذا قامت اعمال ما ، فانه يصبح صالحا للعربات ايضا . فى اعلى ، ساحات افقية كتيرة منظفة من الحجارة ، وخزانات لاجل جمع مياه المطر ؛ النزول معتدل جدا ، بالكاد نلحظ. فجا فى القاع ، واسعا ، غير عميق ، مكسوا [باشواك] *** (٢١) كبيرة . بعد النزول نحو ٧ فرستات ، توقفنا للاستراحة وارسلنا لجلب ماء المطر .

رأيت كيف يطعم العرب خرفانهم . تمشى امرأة حاملة عصا طويلة ، وراءها نحو ٣٠ خروفا ، تسقط السنفات من الاشجار ، فتندفع الخرفان الى التهامها . الشكوى عامة من غياب المطر فى هذه السنة .

تبرعنا انا ويرزين بليرة واحدة لشراء الخرفان من اجل الشيخ والفقراء .

فى الساعة الثانية نهارا ، استأنفنا السير ؛ الطريق تمر باستمرار فى مضيق عريض فيه خمائل . سبقنا انا ويرزين ركبنا وانضممنا الى الركب الاول ؛ وحين حل الظلام تماما ، ارتفعت اشارة انذار قوى الى الامام ،ولم استطع ان اعرف ما اذا كان هذا هجوما ام انذارا كاذبا . توقفنا فى الساعة الثامنة والنصف مساء .

٥ ايار (مايو) — يوم الثلاثاء . انطلقنا فى الساعة ١٢ ليلا . كان من الصعب جدا التحرك فى الظلام . فى الساعة ٨ صباحا ، وصلنا الى بساتين متاخمة للمدينة المنورة . بصورة اصيلة [. . . .] * جدا ، يستحصلون على الماء . ما استخرجه البدوى تسنى للحجاج القادمين ومواشيهم ان يشربوه . ظل الاعرابى يعمل بدون تذمر . حوالى الساعة ٩ صباحا ، توقفنا فى جامع

بير علي . في هذا اليوم لا يدخل الحجاج من اهل المدينة المنورة الى مدينتهم ؛ يتوقفون على بعد نحو ٤ فرستات عنها ، حيث يستقبلونهم بالنقل ، ويقضون الليل مع اقاربهم في الخيام ؛ ولكننا نحن تعبنا كثيرا جدا من الطريق ، واستأذنا ، واكلنا نحو الساعة ٤ ووصلنا الى المدينة المنورة في الساعة ٦ مساء ، ونزلنا في بيت عمر الدليل . المدينة تقع وسط سهل عريض ؛ بساتين البلح تنطلق بشكل شعاعي ؛ السهل تتخلله التلال ؛ المدينة مطوقة بسور حجري متين مع بوابات محمية . في احد ابراج الزاوية توجد بطاريات مدفعية ، وفي السهل توجد هنا وهناك نقاط حراسة ترابط فيها عساكر تركية .

دخلنا من البوابة المصرية . في البدء شارع عريض تنيره المصابيح ، ثم بوابة اخرى امامها بازار ومقهى شاسع . بعد عبور البوابة — شوارع ضيقة مبلطة بصفائح حجرية مرصوفة ، ودكاكين مرتبة ؛ في احد الازقة الجانبية كان بيت عمر . واخيرا نحن في البيت .

اعدوا عشاء وفيرا استغرقنا بعده في النوم .

٦ ايار (مايو) . يوم الاربعاء . في الصباح الباكر استأجرنا حميرا ورحنا نستقبل رفاقنا . كان الركب قد دخل البوابة الاولى حين انضممنا اليه ، وسرنا مع الاغاني وطلقات النار ؛ والصبيان الذين جاؤوا الى مكة للمرة الاولى كانوا راكبين ظهور المواشي ، وفي البسة فاخرة . رحنا رأسا الى باب السلام حيث تفرق الركب .

رغم قصر المدة ، تسنى لي ان اعتاد على الركب ، وان اعرف الكثيرين شخصيا ، بدءا من الشيخ ، وان اقدر تماما بساطة موقفهم منا نحن الرحالة الغرباء بالنسبة لهم ؛ في الاماكن الخطرة تمتعنا جميعا بعناية خاصة ، وكل هذا كان يجري ببالغ اللطف والتهذيب ؛ وفي المدينة المنورة ، غالبا ما كنت اتلاقى في الشوارع مع رفاق قدماء في الطريق ، واحييهم وارحب بهم بفرح كبير .

اليوم ركعنا امام قبر النبي ؛ الحرم الشريف هنا مبني حسب احدث منجزات علم الهندسة ، ويحدث انطباعا عميقا . الاضرحة محاطة بشعيرية حديدية كنيفة ؛ والمدافن نفسها مغطاة بديباج غال . في وسط جنينة الحضرة صغيرة ، وبقربها بئر فاطمة . الشحاذون الذين يتسللون اثناء الصلاة ويفسدون المزاج يثيرون الملل الرهيب . المدينة تطوق الحرم الشريف لصقا . لاجل النساء مكان خاص مسيج .

٧ ايار (مايو) . زارنا كثيرون من مواطنينا ؛ وعددهم مع طالبي العلم

هنا حوالى ۱۰۰ شخص . بعض منهم شيوخ جاؤوا يموتون هنا ؛ وآخرون هاجروا الى هنا لظروف معيشية مختلفة ، قسم منهم يتعلم ، قسم آخر يتاجر . من المؤسف جدا انه يصعب على اولادهم ان يتأقلموا هنا ؛ كثيرون يموتون .

اليوم تناولنا الغداء عند مواطننا من محافظة بنزا ، عريف . البيت مفروش بنظافة ؛ الطعام قومى . من المؤسف ايضا ان مواطنينا يشكلون معسكرين ويتعادون بلا هوادة .

۸ ايار (مايو) . يوم الجمعة . اليوم شاهدت مع رشيد افندى مدرسة قازان الدينية المبنية حديثا وزرنا [. . . . . . .] * التعليمى . للمدرسة حوش صغير جدا ، حجراته فى طابقين ؛ اعتقد ان الجو فيها حار جدا . المسجد غير كبير ؛ هناك بيوت لاجل الشيخ ، والمدرّس ، والامام ، والناظر ، وخلافهم — وهى بيوت الاوقاف ؛ والدخل منها ينبغى انفاقه فى صالح المدرسة الدينية ؛ وهناك مكتبة غير كبيرة . كل شىء يبدو جديدا ، ونظيفا جدا . مواطنى متأدبون ومجاملون جدا معى .

اثناء صلاة الجمعة ، تستلفت الخطبة الانتباه . الخطيب يخاطب المصلين ، يتصرف بكل طلاقة ويلقى موعظة . انها خطبة حقا !

اليوم ، قبيل المساء ، زرنا مدرسة دينية معروفة ، واسعة الشعبية بين مواطنينا . السيد على ناظر المدرسة . وهو رجل كهل ، ذو وجه ذكى وطرائق كطرائق المثقفين . كان خارق اللطف ، وتذكر وطننا بكلمات طيبة ؛ فقد زاره منذ اربع سنوات ، واستقبلوه هناك بكل احترام واجلال .

۹ ايار (مايو) . يوم السبت . اليوم الاول من شهر محرّم . اليوم صباحا رحنا نركع امام مختلف النصب فى مسجد القبة . هنا يوجد المكان الذى توقف فيه جمل النبى لدن وصوله للمرة الاولى الى المدينة المنورة ، المكان الذى رأى منه مكة ، وغير ذلك .

جاء ملاّ نعمان وجلب مؤلفه .

مساء زرنا مواطننا ، الطبيب فى مستشفى الاوقاف المحلى ، عطالله افندى . انه من اهل قازان ، هاجر صبيا ، وتخرج من مدرسة طبية تركية . عمره الآن حوالى ٥٠ سنة . يتسع المستشفى لـ١٥ (حتى ٣٠) شخصا ، وهو وقف من والدة السلطان عبد المجيد . وعد بعرضه علىّ . وفضلا عن ذلك يوجد هنا ما يسمى بمحجر صحى يعمل فيه على الدوام طبيب واحد . المحجر الصحى يمكن ان يتحول موقتا الى مستشفى يفتح ابوابه اذا نشب وباء . ومع الطبيب يوجد صيدلى مناوب .

منذ الصباح رحنا اليوم نحو ٥ فرستات الى قبر حمزه ؛ وهو من انصار النبى ، وقد لقى مصرعه فى هذا المكان حين شن المكيون الكفار هجوما . هنا بقينا الى المساء فى ضيافة عمر الذى هو هنا فى قوام الركب القديم منذ امس . عدنا فى ساعة متأخرة .

١١ ايار (مايو) . نهارا تناولنا الغداء عند السيد على . الغداء فاخر ، من مآكلنا القومية . رب البيت لا يجلس معنا ؛ وهذا من قواعد الآداب العربية . يرافقنا الى البوابة . البيت الذى يشغله ، كما يقولون ، من خيرة البيوت ؛ هنا تغدينا فى حجرة السرداب ؛ الجو هنا بارد جدا بالفعل . فى كل مكان نظافة خارقة . يبنى بالتبرعات مدرسة دينية قرب الحرم الشريف بالذات .

قبيل المساء زرنا المقبرة المحلية «جنّة الباقى» . هنا رفات عثمان وكثيرين من انصار النبى الآخرين . المقبرة غير كبيرة ، زهاء ٤ ديسياتينات * ، يدفنون فى القبور القديمة .

بعد صلاة الختام زرنا مواطننا صالح بيغايف ؛ هرب المسكين من السكر . رجل لطيف جدا ، اسطى فى جميع المهن . يصلح الساعات وماكنات الخياطة ، — وهى كثيرة جدا هنا — يصنع الصابون ، وغير ذلك . يعيش فى بيت يخصه . ليساعده الرب !

١٢ ايار (مايو) . يوم الثلاثاء . فى الصباح زرنا على بعد ٦–٧ فرستات مسجد القبلتين ومسجدا آخر بنيا حيث كانت خيام النبى والائمة .

رحنا لتناول الغداء بدعوة من عزالدين افندى . عاش زمنا طويلا فى ستيرليتاماك . والآن يشرف هنا على تكيات الاوقاف . وعلى العموم توجد هنا ٦ او ٧ تكيات تترية للاوقاف ؛ وجميع التكيات التى رأيتها صغيرة جدا .

١٣ ايار (مايو) . اليوم تستحيل معرفة المدينة . فى الشوارع جموع كبيرة من الناس . على الاغلب من المصريين ومن العرب الافارقة ؛ وجموع من التجار الجدد فى الحرم الشريف . الضيق . امس مساء وصلت ٣ قوافل من مكة . الساحة امام [. . . . .] * البوابة مليئة بالشقادف والجمال . القوافل سارت مدة ١٤ يوما . وصلت بسلامة . يقولون ان ١٥ قرغيزيا وصلوا ، بينهم ٣ مرضى . قبيل المساء زرنا قبر والد النبى وبضعة جوامع قديمة .

عند العودة ، رأينا سرابا من الجراد تطير فى الجو فى اتجاهات مختلفة

---

* الديسياتين=١,٠٩٢ هكتار . المعرب .

وباعداد هائلة . عرفت ان العرب يأكلون الجراد ويعتبرونه مأكلا لذيـذا . فى المدينة المنورة عدد كبير جدا من القادمين من مختلف القوميات ، وبخاصة من السرت (٢٢) ؛ ويقولون ان هؤلاء زحزحوا جزئيا العبيد كخدم .

١٤ ايار (مايو) . يوم الخميس . اليوم صباحا جاء رشيد افنـــدى . تحدثت معه زمنا طويلا عن العرب . حسب مراقباته خلال سنوات عديدة ، يندثر العرب ، ويفسر ذلك جزئيا بالسيادة التركية . يرى التجديد فى نزوح البدو الى المدن . سلطة الشريف دينية ، روحية ، وجزئيا الوساطة بين القبائل .

رحنا معا الى مكتبة شيخ الاسلام التابعة للاوقاف . تشغل المكتبـــة عمارة ممتازة لمدرسة جيدة ، سجاجيد غالية ؛ مناضد مريحة . فرش رخوة لاجل الجلوس . فى اعلى العمارة شقة لاجل المدير . يوضع الكاتالوج بصورة جيدة جدا . على العموم يوجد حوالى ٧٠٠٠ مجلد . وهناك نسخ نادرة جدا ، بينها تفسير كشاف . الدخول حر ومجانى للجميع . ومن هنا عرّجنـــا على مكتبة مدرسة محمود الدينية . الوضع نفسه . الكاتالوج حسب النظـــام القديم ، ولكن سرعان ما وجد المدير الكتاب الضرورى لنا . تطل نوافـــذ المكتبة على الحرم الشريف .

زرت مدرسة الشفاء الدينية التابعة للاوقاف والتى تبرع ببنائها اتراك من القسطنطينية ؛ التلامذة يتقاضون مجيدية واحدة فى الشهر ومؤونـــة بالمبلغ نفسه تقريبا . هناك بالاجمال ١٢ غرفة ؛ فى الوسط جنينـــة ؛ طابق واحد .

عدد جميع تلامذتنا فى المدارس الدينية التى لا تخصنا حـوالى ٢٠ ، والعدد نفسه فى مدرسة قازان الدينية ، حيث يوجد متسع لاربعين تلميذا . جميع الحموديين-الحميديين يتقاضى الواحد منهم ليرة واحدة فى الشهـــر . منزل ضياء الذى زرته فى الشفاء ، ثث بشكل مريح ومناسب جدا ، ونظيف وانيق . قبيل المساء ، رحت مع حارث الى مقهى فيما وراء البوابة الاولى حيث تلاقيت مع بعض من مواطنينا . الساحة ملأى بالجمال والشقاديف . فى كل مكان يتحرك الباعة ذهابا وايابا بسرعة ، صائحين باسعار البضائع التـــى يريدون بيعها . وعلمت انهم يصيحون باعلى سعر من بين الاسعار التـــى يعرضها احد ما . الشارى يزيد ، البائع يمضى الى ابعد ؛ واذا لم يعـرض احد سعرا اعلى ، فانه يبيع مـن الشارى الاول . وهذا اشبه بمزاد علنى . رووا لى قصة محزنة مع الاشارة الى احد البيوت الكبيرة . صاحبه السيـد قتله البدو بالسيف عندما كان فى البستان بجوار المدينة ؛ بقيت ابنتـــه

الوحيدة ، واعلنت انها ستتزوج ممن ينتقم لها لدم والدها . تواجد فتى شجاع ، وقتل احد المذنبين وتزوج من الفتاة ، ولكنه سرعان ما جن ومات لخوفه الدائم من الانتقام . اثناء صلاة الختام بحثت مع يرزين مسألة الرحيل. قررنا ان ننتظر القافلة الثانية : المصريون ينطلقون غدا مساء . نحو الساعة ٩ مساء رحت مع عبد الملك الى اجتماع دراويش الرفاعى ، ولكن موسيقاهم التى لا تطاق والتى تتألف من دفوف كبيرة اجبرتنا على الفرار فى الساعة العاشرة والنصف . عرضوا علينا جامعهم والادوات التى يضربون بها انفسهم. يقولون ان هذا يجرى صباحا . ابراهيم افندى ، معاون الشيخ ، الشيخ فى القسطنطينية موقتا . بعد صلاة الختام جاءنى بضعة شكيرديين وعلى رأسهم عزالدين افندى . دار حديث شيق جدا عن واجب الهجرة . عزالدين افندى نصير عاقل ورزين جدا لهذه الفكرة ؛ قال انه راجع لحل هذه المسألة مفتيا مشهورا فأعرب هذا عن رأيه واصدر فتوى سلبية المآل [. . . . . .] ** بشكل قسرى عندها . لم يجد عزالدين افندى اى امر سيئ فى عمليات مسلمينا فى الحرب ضد مسلمين آخرين . مسألة طريفة جدا (٢٣) .

١٥ ايار (مايو) . منذ بضعة ايام نعتزم انا ورشيد افندى زيارة التكية المصرية حيث يوزعون الطعام مجانا على الحجاج الفقراء . واليوم ايضا لم نصل اذ علقنا فى مدرسة قازان الدينية عند رشيد الشكيردى . ومن جديد اقتنع بانه لا بدّ من ان يكون الجو حارا للغاية فى الحجيرات . غرفة رشيد مفروشة بغنى نسبى : كثرة من الكتب ، مفروشات لا بأس بها . تحدثت مع ظريف حلفا عن النسبة الكبيرة من الوفيات بين اولاد مهاجرينا ، وتبين ان التلقيح ضد الجدرى غير وارد ، فى حين يموت من هذا المرض كثيرون . حكوا بمزيد من التفصيل عن ايقاف قافلة فى السنة الماضية ، مؤلفة من ٣٥ جملا ، فى غضون ٤٥ يوما ، من قبل البدو فى جوار مستور . وعن القول المأثور — من جهة دينغيز ، من جهة اخرى دونغوز (٢٤) ، لأن البدو يصطادون و[. . . . .] * لقاء ٥ ليرات .

١٦ ايار (مايو) . يوم السبت . اليوم روى عبد الرشيد افندى تفاصيل عن الحجر الصحى فى السنة الماضية فى الطور . انزلوا خلال ١٢ يوما ، ولكن هذه الايام لم تدخل فى حساب الايام الـ١٥ من الحجر الصحى . الطعام ردىء ؛ المحلة مرعبة ؛ حريق الامتعة بدون تعويض ؛ الالبسة القذرة عند تعقيم البسة الشخص المعنى ؛ لاعقلانية الحجر الصحى التامة ؛ امكانية التمرير .

افادوا التفاصيل عن الهجوم على [. . . . .] * ؛ وقع فعلا ، ولكن انتهى بكامل السلامة بالنسبة للاتراك ؛ من البدو لقى واحد مصرعه . اليوم ،

بعد الظهر ، اختفى المصريون ؛ فان قافلتهم انطلقت ؛ وامتلأت المدينة المنورة بالسوريين . وصل [. . . . . .]* مع القافلة . غدا يجب ادخال المحمل في الحرم الشريف .

بقدر ما اسمع من الاحاديث ، بقدر ما ازداد احتراما لعثمان باشا من ابناء المدينة . هذا الرجل الجدير والشخصية البارزة كان الجميع يحبونه ويحترمونه ويخافونه بالقدر نفسه . وقد رغبت شديد الرغبة في الاعراب له عن تقديري في القسطنطينية .

تتوارد عن الحجر الصحى معلومات في غاية التباين – معلومات جميعها ذات طابع اكثر مدعاة للهدوء – اقل من ٢٤ ساعة بالاجمال . اليوم وصلت قافلة كبيرة جدا من الشرق موسوقة بالحبوب والسمنة . سعر السمنة هبط حتى ٥ روبلات للبود * . احيانا يبلغ سعره ثلاثة اضعاف . السمنة ، كما يقولون ، نقية جدا ؛ لتنقيتها ، كما يقولون ، يضعون بضع حبات من البلح . بعد صلاة الختام رحنا نحتسى الشاى ونتحادث مع عزالدين وضياء . وعدت ضياء باستعلام قضيته والكتابة بصددها . كلاهما لطيف . عموما يجب الاعتراف بسمات لطيفة مشتركة بين جميع التلامذة – المودة ، التهذيب ، البشاشة ، غياب التعصب الاعمى . يتحدثون عن تحريض الانجليز اليمنيين ضد حكومتهم الشرعية ، يقولون ان الانجليز يبيعون باسعار بخسة جدا بنادق سريعة الطلقات . هنا الجميع يكرهون ابناء البيون (انجلترا) واعتقد ان السبب هو مصر . وحالة المحمل البائسة ينسبونها ايضا الى الانجليز . يسترعى نمو المدينة الكبير في الآونة الاخيرة الانتباه ؛ الامكنة يتسابقون على شرائها ؛ وهناك انشاءات كثيرة بادئة ؛ البيوت غلا سعرها ؛ ينسبون هذا الى تدفق الناس من بلدان اخرى ، ويعتبرونه (دليلا على) اقتراب نهاية الدنيا . وهناك حكاية طريفة عن احد ائمة مكة – عن [. . .] * آخون دجان . هذا الرجل الفاضل سمع بظهور المهدى في السودان فطلق زوجته وراح الى السودان ، رغم تقدمه في السن ، ليعرف ما اذا كان هو المهدى فعلا . عاد بعد نحو ٥ سنوات على اقتناع بان الرجل ليس المهدى الحقيقى ، بل قديس . سمعت نكتة . في القسطنطينية ، اثناء صلاة الجمعة ، صاح احدهم انه المهدى المنتظر ، فاعتقلوه واوصلوه الى القاضى ؛ سأله القاضى عما تعنيه صيحاته وكيف يتظاهر بانه المهدى ، اجاب : أمكتوب في كتبكم انه سيظهر ، قبل المهدى الحقيقى ، بضعة مهديين كاذبين . «اجل ، ورد هذا في الكتاب» . انا احد هؤلاء المهديين الكاذبين . ذلك كان الجواب .

* البود=١٦،٣٨ كيلوغراما . المعرب .

١٧ ايار (مايو) . يوم الاحد . اليوم وصلت اخيرا القافلة من مكة ، ووصل ايضا مواطنونا . بقيت القافلة في الطريق ١٦ يوما ووصلت في الطريق الفرعي . في وادي فاطمة دفنوا الحاج صابر من قازان ، ودفنوا ٣ قرغيزيين ، وجميعهم غادروا مكة مرضى . وقعت قرابة عشر حالات نهب قام بها البدو ببث الذعر في نفوس الحجاج ؛ وفي احدى الحالات جن احد المنكودين . نقلوا الى هنا قرغيزيا مصابا بمرض خطير جدا ، فهل ابناء سهوبنا المساكين هؤلاء مصابون بالتيفوس ؟ ! ولا داعي الى التحدث عن كمية الاشياء الضائعة .

في شوارع المدينة ، وفي الحرم الشريف ضيق رهيب ؛ يستحيل المرور ، والغبار كثير جدا . هناك نقلوا اليوم المحمل صباحا الى الحرم الشريف ونصبوه بمصاحبة طلقات المدافع تحت صف الاعمدة .

اليوم زرنا مدرسة قورّا-باش الدينية ويسمونها قره باش . اردت ان ارى فخر الاسلام ، ولكننا لم نجده ، ثم رحت الى صاحبنا ظريف من ستيرليتاماك . الغرفة رحبة نسبيا ؛ للطعام يعتمدون مجيدية واحدة ، والمبلغ نفسه تقريبا للقمح . في طريق العودة رأيت ايضا فناء خاصا يكدسون فيه القمح المعد للتوزيع . كثيرون يفضلون الحصول عليه في ينبع ، لأن كلفة النقل على حساب الحاصل . في قره باش يعيش ايضا شيخ من ستيرليتاماك اواخر ايامه . البيت يتسع لـ٢٥ شخصا ، وهو من طابقين .

وكما في جميع المدارس الدينية ، يأخذون النزلاء في المدارس المحلية ، لا من عداد الشبان التلامذة وحسب ، بل ايضا من عداد الشيوخ الذين يتوافدون الى هنا لقضاء اواخر ايامهم . وهم يستفيدون ايضا من الاعانة المقررة . لأن هدف المدارس الدينية هو الصلاة في صالح واهب الوقف . الجميع ينتظرون باهتمام خارق الانباء عن الحجر الصحي ، عن حالة الطرق في ينبع .

١٨ ايار (مايو) . يوم الاثنين . مع قافلة البارحة ، وصل حوالى ٦٠ قرغيزيا وحوالى ٢٥ تتريا ، بينهم ٤ من بطرسبورغ (بينهم سيدة) . الجميع منهوكون للغاية ، بطون جميعهم [. . .] * ؛ بذعر يحكون عن الطريق . مسيرتنا كانت سهلة وآمنة جدا وسريعة ورخيصة بالمقارنة مع مسيرتهم . دفع كل منهم لقاء الجمل مع البخشيش زهاء ٨ ليرات . الجميع يتشكون من صفاقة سواقي الجمال ونحول الجمال في هذه السنة .

بعد الظهر ، تناولنا الغداء عند دليلنا عمر ؛ في المساء ، بعد صلاة الختام زرنا بيغايف ؛ حل عنده ضيفا مجاور شرف الدين [. . . . . .] *** من مكة ؛ تقابلت مع المدعو مرزا ، وهو ايضا عبد الله ، الفار ؛ اضجرني

بقصصه السخيفة — كيف كاد يحمل نائبا لاسقف ارثوذكسى على اعتنـاق الاسلام ؛ والقسيس افتدى نفسه بالنقود ؛ وخلاف ذلك مـن السخافات .
وجدت فى البيت احد مهاجرينا الشبان ، المدعو مصطفى . جاء الى مكة مع والده وامه واخيه ؛ بعد فترة وجيزة حـل وباء الكوليرا ، فقد اخـاه ، انتقلوا الى المدينة ؛ بسبب الفقر سافر الوالد الى روسيا سعيا وراء البدل ؛ بعد بضعة ايام ماتت الوالدة ؛ بقى الصبى وحده فى مدينة غريبة ، دون ان يكون له احد . بعد مجاعة طويلة ، ساعده احد المواطنين . الآن يملـك دكانا ، يطعم الوالد وزوجة الوالد ؛ تزوج . الوالد كان عريفا فى فصيـل تشيستوبول المحلى ، وكان ايضا مدير مزرعة . الآن يخدم ويقود مواطنيـه الحجاج .

عاد الوالد والابن من مكة مع قافلة البارحة . النسبـة الكبيرة مـن الاصابات بالامراض بين القرغيز يعزوها مصطفى الى مآكلهم غير العقلانية (المآكل المدهنة ، الكازى ، الكروت) والبخل الخارق اى حرمان النفس من الضرورى .

يحكون عن عمليات النهب والسرقة التى يقوم بها البدو فى رابغ فـى وضح النهار . تقدم قرغيزى بشكوى ضد سائق جمل من المسؤول فى رابغ ، ولكن عبثا ؛ واثناء التحقيق ، باع لص شهير من المسؤول الاشياء المسروقة بواحد من عشرين من ثمنها .

ما اروع ما يحبون الابقار والمواعز المحلية المتواجدة بكثرة فى الساحة بين [. . . . .] *** .

ما ان يخف [القيظ] حتى يتدفق جميع السكان الرجال الى هنا ويقضون الوقت حتى ساعة متأخرة من المساء . وهنا يعرفون جميع الاخبار . ادلتنـا قضوا هنا اياما بكاملها . يقدمون القهوة فى فناجين صغيرة ، والشاى فـى كؤوس صغيرة (الشاى الاسود والشاى الاخضر وكذلك النرجيلة حتمـا) . يرشون الماء فى كل مكان ، ولذا تسود البرودة . يروى قدماء السكان ان احتساء الشاى لم ينتشر الا فى الآونة الاخيرة . وغالبا ما اخذت تقع العين عند العرب على السماورات الروسية وآنية الشاى الروسية التى يستعملونها على الاغلب لتزيين الرفوف فى تجاويف الغرف . رأيت سماورات جيـدة جدا مطلية بالنيكل . روى احدهم انه عندما كان يتعلم هنا منذ ١٨ سنة ، كانت السماورات معدودة — ٦ سماورات ؛ وآنذاك ، كان الضيف العربى ، اذا عرضوا عليه كأسا من الشاى ، لا يشربها الى النهاية ، ويؤكد ان بطنـه انتفخ من الشاى ؛ اما الآن فيشربون الشاى على طريقتنا تماما ويحبون شاى

موسكو . وحين تعرض الشاى ، غالبا ما يسألونك عن نوعه ، ويقبلون الدعوة بفرح حين يكون الشاى روسيا . عدا الشاى والآنية والكاز ، لم ار اى شيء روسى.

١٩ ايار (مايو) . يوم الثلاثاء . السريان اليومى وقضاء الوقت دخلا نوعا ما فى مجرى معين .

اعيش كما من قبل عند الدليل عمر شاغلا غرفة غير كبيرة فى الطابق الثانى ؛ الغرفة السفلى — الانبوب يشغلها يرزين . هربت من هناك . هناك رائحة قوية من المرحاض . النافذة-الشرفة تطل على زقاق ضيق جدا فيه حركة كبيرة ، ولذا يكون الغبار شديدا فى النهار ، خصوصا وان الزقاق مغلق قرب البيت بالذات وان المدخل بصورة البوابة فى اسفل فقط . الحرارة صباحا ٢٢–٢٣ درجة ريومور ؛ اقصى الحرارة ٢٦–٢٧ درجة ؛ واكثر من ذلك لم ترتفع . حارث رفيقى وخادمى الدائم ؛ وقد تكشفت عنده موهبة كبيرة ؛ فهو يجيد تقليد كثيرين من الناس .

اثناء صلاة الفجر العامة (فى الساعة الرابعة صباحا) فى الحرم الشريف ، نقترف خطيئة النوم (لأن هذا افضل وابرد وقت) . اوقظ حارث فى الساعة الخامسة الا ربعا او فى الساعة الخامسة ، ونتوضأ ونصلى . بعد الصلاة اغفو ساعة ايضا ، بينما يغلى حارث الحليب ويهيئ السماور . فى الساعة السادسة نشرب الشاى . (بصعوبة وجدنا الشاى الروسى واشترينا رطلين من احد المواطنين) . بعد الشاى اعمل عادة ، ويهتم حارث بالشؤون المنزلية . عند الظهر ، بعد الصلاة نلتهم الغداء الذى حضّره حارث والذى يتألف عادة من مأكل واحد — الحساء . بعد الغداء ، الراحة حتى الساعة الثالثة ، ثم الشاى ، وبعده نخرج من البيت لنجلس فى المقهى . يتجمع ٥–٦ اشخاص من مواطنينا الذين نعرفهم ومن العرب ، ونشرب القهوة ، وادفع ثمنها قرشا واحدا (٨ كوبيكات) ويعطوننى على سبيل الردة بضع قطع نقدية معدنية محلية .

لا استطيع بعد ان اعتاد على شرب القهوة المحلية ؛ اتنازل عن فنجانى لشخص ما آخر ؛ الجمع المتنوع هو اكثر ما يهمنى . فيه تقع العين على مسلمين من شتى انحاء الدنيا ، وبينهم يتميز ، بلا ريب ، باكبر قدر من الذكاء ، العرب «البلديون» ، سواء من حيث مظهرهم والبستهم ام من حيث ادبهم ومجاملتهم .

البدو فى قمصان مقلمة سوداء (عباءات) ، مدججون بالسلاح ؛ على رؤوسهم المناديل (العقالات) ؛ حفاة [. . . .] *** يمشون مشية خفيفة خاصة . جميعهم بلون ضارب الى البنى ، بلون الحجر المحلى ؛ وجوههم صغيرة ؛ عيونهم حية جدا ؛ الجميع سمر ؛ الشعر قليل . كثيرون من الزنوج

ممن كانوا او لا يزالون عبيدا للبدو ، يرتدون البسة البدو . شيوخ البدو ، والملتزمون بتقديم الجمال لاجل الحج يجلسون بمهابة فى المقاهى . اليـوم يوجد ايضا عدد كبير من السوريين — وهم شعب طويل القامة فى عباءات مقلمة ومناديل سوداء (عقـــالات) على الرأس ، ملفوفة فى لفتين صوفيتيـــن سوداوين ؛ وقسم منهم شقر . ومنهم يتألف خفر المحمل الشامى . الخفر من الفرسان . قرابة ٥٠٠ رجل على الخيل . وهم حسنو السلاح والالبسة .

وهناك ايضا مصريون متأخرون (اى تأخروا عن رفاقهم فـى الطريق — ا. ر.) مع نسائهم . وجميعهم خرق ، طويلو القامة ، نحيلون ، فى شملات سوداء طويلة من قماش خفيف .على وجوه الرجال والنساء وفرة من الوشم .

وهناك ماليزيون سبق ان كتبت عنهم .

وهناك عدد كبير من الاتراك ، اغلبهم من ابناء الاناضول . وهم جميلون ، طويلو القامة ، ذوو البسة انيقة ظريفة .

وهناك ايضا كثيرون من الفرس . وهم بمعظمهم يعودون من هنا عبر السهب الى البصرة وكربلاء . ينقلهم بدو تلك الانحاء ، الذين هم ايضا من الشيعة . يروون انه توجد بين الفرس امرأة فائقة الغنى يتبعها ٤٠٠ جمل موسوق بشتى الاشياء بينها ٧٥ جملا موسوقا بالفحم لاجل السمـــاورات والنارجيلات . الفرس من الشيعة يشتركون فى الصلاة العمومية فى الحـرم الشريف ، سائرين وراء الامام ، ولكـن يقولون انهم غالبا ما يهينـــون القبرين المقدسين لخليفتينا الاولين ابى بكر وعمر ، تاركين قربهما الاقذار ، ويبصقون فى ثغرات الابواب . واذا رأوهم فى الجرم المشهود ضربوهم . واليهم يوجهون تهمة تدنيس الحجر الاسود وركن اليمن . وعلى كل حال ، يشيح الشيعة بوجوههم اثناء الطواف عن هذه الاشياء التى يجلها السنيون . وعندهم ادلتهم وتكياتهم ونظامهم ، وخلاف ذلك .

لقرغيزيينا ، لسبب ما ، اتعس هيئة . الضيق الرهيب ، والازدحام . والضجة ، والغوغاء ، واللغة المجهولة ، والحرارة غير المألوفة — كل هذا يفعل فعله فيهم بلا ريب بشكل مرهق . بدانتهم زالت ؛ منظرهم منقبض ، كئيب . وعدد ابناء الهند وجنوب افريقيا وزنجبار والسرت وافغانستـــان وقشغار قليل جدا . لا تقع العين البتة على صينيين . نحو صلاة الختـــام نذهب الى الحرم الشريف ، وبعد الصلاة نعود الى البيت حيث يعمد حارث الى تحضير سماورنا الضخم الذى يتسع لماء اربعة دلاء . يتجمع لشرب الشاى بضعة افراد فقط ، اغلبهم من التلامذة المحليين . وهم شعب لطيف جـــدا ومرح . ثم نذهب جميعنا معا الى الحرم الشريف لصلاة المساء ؛ ومن هناك

يمضى الشكيرديون الى بيوتهم لأن الباب يُغلق عندهم فى الساعة ٩ مساء، وليس من اللائق طرق الباب . يختل هذا النظام بسبب الدعوات الموجهة الينا لتناول الغداء او لاحتساء الشاى فى مكان ما .

اليوم ، بعد صلاة الختام ، رحنا انا ورشيد القاضى الى بيت مثقف محلى . وهو البيت الثانى الذى يرضى بالظروف الصحية الخارجية حتى فى كاتشا (عال ، ونظيف جدا) ، يخلو من كل رائحة (فى البيت الاول يعيش السيد على تكين) . ظهر سماور روسى صغير والشاى وكؤوس صغيرة . بصعوبة شربت كأسا . حكى رشيد القاضى بكآبة عن فشله فى عقد الصلح بين معسكرين متعاديين من مواطنينا ؛ ثم اقام حفلة غداء مع تلاوة «المولود النبوى» ودعا الجانبين . ولكن الجانب الاقوى الذى قبض على زمام السلطة (عبد الستار) رفض ان يحضر الغداء اذا حضره الخصوم . هذا سيئ جدا . وهذه سمتنا القومية المزمنة .

المدينة وضواحيها يديرها ممثل خاص للحكومة التركية ، هو العامل ؛ وهذا المنصب يشغله الآن عثمان برتبة لا تقل عن رتبة الجنرال ؛ وهو شركسى الاصل . غالبا ما ارى كيف يعود فى الساعة الخامسة مساء برفقة خفره فى عربة من مبنى الادارة الى شقته . وبين الشخصيات الكبيرة الاخرى تستلفت الانتباه شخصية غازى باشا ، ابن شميل (٢٥) ؛ ويقولون انه هنا بسبب النفى ؛ وهو حمو عامل المدينة ؛ ويقولون انه يتقاضى ١٢٠ ليرة كل شهر على سبيل المعاش ، وينفق الكثير على اعمال الخير . وهناك ايضا اخوه سازى باشا ، وهو شاب نسبيا . فى الظاهر لا يوجد احد تعتمد عليه السلطة ، رغم انى رأيت مرة واحدة موظفا بوليسيا يسير فى الشارع . فى الايام الاخيرة — حرس عسكرى موقت فى الساحة . اعتاد الشعب على مراعاة النظام بنفسه .

بين الاشخاص ذوى الالقاب شبه الدينية ، شيخ الحرم ، المشرف على الحرم المحلى ؛ وهو ضابط تركى سابق ، اشترك فى الحرب الاخيرة ضد الروس ، وكان مع عثمان باشا فى الاسر .

امس ، بعد صلاة الختام زرنا احد مواطنينا ، واسمه شريب . منذ ١٦ سنة غادر مسقط رأسه مدينة ترويتسك (محافظة اورنبورغ) ، بسبب تولعه فى الاسفار ، وراح الى تركستان ، وكان فى الصين وافغانستان والهند ، وذهب الى مكة المكرمة عبر بومباى ، ومنها الى المدينة المنورة ، حيث استقر وتزوج من ارملة عجوز تركية استثار عشقها ، كما يقولون ، مازحا ، باغانيه (يغنى ببراعة) ، واخذ بفضل هذا الزواج بيتا وعبدة ؛ والآن يعيش

بيسر ، مشتغلا بلا كلل على آلة . زار مكة ٦ مرات ، علما بأن وباء الكوليرا لـــم يكن منتشرا مرتين فقط . تذكر وقائع فظيعة . يتبين من مراقباته التى تؤكدها افادات اشخاص آخرين ايضا ، ان كل شىء ينتهى بسلامة اذا كان الطقس فى منى صحوا فى ايام تجمع الحجاج هناك ، وان المصائب تقع اذا تعتم الجو نوعا ما بسبب الغيوم واذا اخذت السماء ترذ . ذات مرة ، نشب الكوليرا فى القافلـــة التى كان ينطلق معها من هنا الى المدينة المنورة ؛ وصلوا الى مكة وسمحوا لهم بدخولها بدون عائق ، لأنه بقى وقت قليـــل جدا حتى الحج ولأن اصابات بالمرض كانت فى مكة ؛ فى مرة اخرى ، اخذوا يموتون فى طريق العودة ، ولم يسمحوا للحجاج بدخول المدينة الا للركوع امام القبر المقدس ؛ وبعد يوم انطلقت القافلة فى اتجاه ينبـــع . كانت نسبة الاصابات بالمرض رهيبة .

لم يستطع ان يتذكر السنوات جيدا . وهناك واقع غريب آخر من ميدان آخر . هنا يوجد كثيرون من الخصيان المنفيين من قصر السلطان والعائشين هنا بمعاش يكون احيانا ، كما يقولون ، كبيرا جدا ، مثلا ، ٣٠ ليرة . وتبين ان كثيرين منهم يتزوجون ؛ وظننت انهم يفعلون ذلك لاجل الخدمات البيتية فقط . ولكن كلا ، فلهذا الغرض توجد عبدات ؛ اما الزوجات فلا يفعلـــن شيئا غير ارتداء وتغيير الملابس الفاخرة . ولم يحدث مرة ، كما يقولون ، ان تذمرت امرأة تزوجت من مخصى من مصيرها ورغبت فى الطلاق .

النساء ، كما سبق ان قلت ، يتمتعن هنا بقدر من الحرية اكبر بكثير مما عندنا ، نحن التتر ؛ وهن يشتركن فى الصلاة فى الجوامع ، ويتاجرن بحرية ، ويقمن بامور اخرى ، ويتخطرن من زيارة الى زيارة ، وغير ذلك . النقل الاول للضيفة القادمة هو النارجيلة التى يدخنها الجميع بلا استثناء ثم فنجان القهوة .

تحادثت مع عزالدين افندى عن مهاجرينا المحليين . يستفاد من اقواله ان الذنب الرئيسى الذى اقترفه اتباع عبد الستار انما هو استملاك امـــوال المواطنين الذين يموتون هنا واهمال مشيئتهم الاخيرة . الاموال امّـــا لا يعرضونها البتة على السلطات التركية ، واما لا يعرضون غير قسم منهـــا يطلبونه بالحاح من الورثة فى صالحهم ؛ والوصايا لا تنفذ ؛ وقد روى حارث ان تلميذا قرغيزيا قد اوصى قبل وفاته بما يملكه [. . .] * فى صالح رفاقه الشكيرديين ولكن هؤلاء ، وكان بينهم آنذاك حارث ، لم يحصلوا على شىء . وبالروح نفسه يحكى كثيرون جدا عن مسلك عبد الستار وناظره ، فلا بد من التصديق سواء شاء المرء ام ابى . ولكن هذا الرجل يحظى بمكانة كبيرة

عندنا فى روسيا . فى السنة الاخيرة خاف ان يذهب بنفسه لجمع النقود فارسل حسين الملاّ وعبد الرحمن الشيخ وصدّيق الناظر .

٢١ ايار (مايو) . يوم الخميس . اليوم ، مات عدد كبير جدا من الناس . المدينة المنورة منفعلة لموت المدرّس المعروف عبد النذير الذى توفى فجأة ؛ ومات قرغيزى بارز من مقاطعة سيميبالاتينسك ، كان نائبا فى حفلة التتويج ، ومزينا بالاوسمة ، ورجلا محترما وفاضلا . مرض فى مكة ، نقلوه الى هنا مريضا ؛ فى الطريق التى استغرقت ١٦ يوما لم يأكل شيئا ؛ واخيرا توفى هنا . ومن عداد الذين مرضوا فى مكة ، توفى فى الطريق قرغيزيان وتترى من قازان . كذلك دفنوا اربعة جنود .

هنا تقع العين على كثرة كثيرة من البنادق التى تشحن من مؤخرة السبطانة ، ومزلاجها يشبه مزلاج بنادقنا القصيرة من طراز بردان رقم ٢ ؛ وهى من العيار نفسه تقريبا . يقولون ان الجيش اليونانى كان مسلحا بهذه البنادق .

جميع البدو مسلحون حصرا باسلحة قديمة ؛ اما سكان المدن فعندهم اسلحة كثيرة من انظمة محسنة ؛ وهذه الاسلحة يستعملونها احيانا لاجل اجراءات القمع . يروون ان عبدة قتلت سيدتها منذ عشر سنوات تقريبا . فحكمت المحكمة التركية عليها بالاشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة ؛ ولكن السكان طالبوا شاهرى السلاح باعدامها ؛ وكاد يحدث اصطدام بين العساكر والسكان ؛ واضطرت السلطات الى التنازل ، واعدموا المجرمة علنا ، امام الملأ .

٢١ ايار (مايو) . اليوم تدور جميع الاحاديث حول الرحيل ، ولكن القوافل لا ترتحل بعد ، بانتظار الاخبار من ينبع : أيسمح البدو للقوافل بالعبور ام يمنعونها عند عبور مضايق الجديدة ؟ لتأمين الحجاج نوعا ما ، تأخذ السلطات التركية من كل قبيلة رهائن وتحتفظ بهم فى السجن حتى لحظة معينة . اليوم ، فى الصباح الباكر ، جاءت من مكة قافلة الماليزيين الذين يملأون الآن كل المدينة المقدسة غير الكبيرة والحرم الشريف . يتحدث مهاجرونا كثيرا عن انعام الحكومة التركية على رئيسهم عبد الستار بمدالية لقاء تبرعه بعشرين ليرة فى صالح الحكومة لمناسبة الحرب ضد اليونان .

اليوم قمت بصلاة الجمعة ٣ مرات [. . . . .] *** .

مساء كنا عند تاجر محلى من مواطنينا ؛ رأيت هناك صدّيق ، ولى امر مدرسة قازان الدينية ؛ انه يشغل احد بيوت الاوقاف ؛ فى الايام الاخيرة كنت فى جامع قازانى . انهم يقلدون العرب فى التجويد .

خادمي ورفيقي حارث مريض منذ البارحة ؛ يبدو انه مصاب بالحمى . حرارته عالية جدا . يهذي . نعالجه بالكينا .

اليوم ارتحلت الى مكة قافلة الهنود .

ما من امة من الامم تعرض باجتهاد علائم الشعور الديني مثل الفرس ؛ فهم ينوحون ، وينحبون ، ويبكون ، ويبوسون عتبات البـــاب ، ومقابض البوابة ، وغير ذلك .

بفارغ الصبر ينتظر الجميع البريد من مكة ؛ وكان لا بد ان يصل يــوم الاربعاء ولكنه لم يصل بعد . جميع رفاق الطريق ينتظرون جوابا من قنصلنا عن رسالتي بصدد الحجر الصحي الذي يخافونه خوفهم مــن النار ؛ فهو شر لا يبرره بالفعل اي مبرر ، وشر لا لزوم له ، ومزعج الى اقصى حــد ، ولا يعود باي نفع .

٢٢ ايار (مايو) . يوم الجمعة . شيء ما عن تجارة المدينة المنـــورة . الضواحي لا تنتج شيئا تقريبا . كل شيء مستجلب .

القمح والشعير يستجلبونهما من جهة بغداد ومن مصر عبر ينبع ، والرز من البصرة والهند ومصر ، ومن [. . . . .] ، عبر ينبع ، البضائـــــع المستعمرية والصناعية ؛ والبقالة عبر ينبع . الخضراوات وبعض الاشيـــاء الاخرى تنبت في الضواحي . البن والملح يستجلبونهما من اليمن . المادة الوحيدة للبيع هي البلح الذي يشتريه الحجاج ويرسلونه هديّة من هنا الى مختلف الافراد في روسيا والقسطنطينية . وهنا يوجد ١٣ نوعا من البلـــح وافضلها الجلابي . يجب اعتبار كمية البلح المباع زهاء ٥٠ الف بود . السمنة من حليب الابقار يستجلبونها من جهة البصرة . لحم الغنم يستجلبونه مـــن مخيمات البدو الرحل المجاورة . الكاز اميركي ومــن باكو . يحدث ان تقطع القبائل البدوية العاصية الطريق الى ينبع ، فيصبح الوضع في المدينـــة المنورة صعبا ، وترتفع كل الاسعار كثيرا . ويشرف المحاسب مباشرة على البازار وعلى النظام في ساحة البازار ؛ وتحت تصرفه دورية عسكريـــة . الخرداوات يشتريها تجار الجملة في القسطنطينية . التجارة المحلية تشتد مع وصول الحجاج وتهدأ بعد رحيلهم .

٢٣ ايار (مايو) . يوم السبت . اليوم افادنا ادلّتنا ان رحيلنا الى ينبع غدا ، او بعد غد على الاكثر . استقبل جميع الحجاج الخبر بفرح كبيـــر لأن الحياة هنا بالنسبة للكثيرين ممن اعتادوا على الرحب والسعة مرهقة غايـــة الارهاق . ادوا جميع الطقوس والمراسم ، فليقبلها الله ؛ والآن آن اوان العودة .

٢٤ ايار (مايو) . يوم الاحد . ارجئ رحيلنا الى اجل غير مسمى ؛ تروج اشاعات مقلقة جدا .

في الحديث مع مختلف الافراد من غير العرب عن العرب ، عرفت بضع سمات طريفة من طبعهم . كل قادم يقدمون له القهوة فى الحال؛ والامتناع عن شرب هذه القهوة ، رفضها ، يعتبر اهانة مؤلمة خطيرة قد تعطى ذريعة لعداء لا نهاية له . مثلا . يأتى الوسطاء الشيوخ الى ممثلى قبيلة ما ، ويطلبون اما تمرير القافلة واما اعادة الاموال المنهوبة ، وما الى ذلك ؛ يقدمون للقادمين القهوة ؛ هؤلاء لا يشربونها كأنما لم يروها ؛ القهوة تبرد ، ويستعيضون عنها مرارا بقهوة جديدة ، ساخنة ؛ الضيوف لا يشربون ؛ اخيرا يطلب المضيفون تذوق قهوتهم ؛ الضيوف يرفضون بحجة عدم تلبية مطلبهم ؛ عادة تنتهى المشكلة حبيا ؛ وفى النهاية يشربون القهوة ، عربون المصالحة .

اثناء السفر ، لاحظت كيف يهيئ البدو القهوة لانفسهم . البن المحمّص يطحنونه فى هاون زمنا طويلا جدا ؛ ولا يدقون كيفما اتفق ، بل بايقاع وانقطاعات مختلفة ؛ ثم يسكبون الماء الغالى على البن ، ويضعونه على النار ، ولكن لا يدعونه يغلى من جديد . وحين تصبح القهوة جاهزة ، يبدأ تقديمها لجميع الحاضرين بلا استثناء . القهوة يشربونها ساخنة جدا ؛ ولهذا لا يسكبون فى الفنجان اكثر من جرعتين او ثلاث . القهوة من تحضير البدو مشروب ثقيل ومرّ جدا يستحيل شربه بدون الاعتياد عليه .

٢٥ ايار (مايو) . يوم الاثنين . فى الحديث مع ثابت ، سمعت منه قصة طريفة عن سفره للسنة الثالثة من ينبع الى جدّة. بما ان موعد سفر الباخرة لم يكن متوقعا عما قريب ، فقد سافر مع قرابة ٧٠ شخصا على متن زورق شراعى . (الزورق من هذا الطراز يسمونه «سمبك» ، وهو بلا متن وله شراع واحد . حمولته زهاء ٣٠٠٠ بود ، ويأخذ كذلك ركابا باجر قدره بورون واحد (الريال=٨٨ كوبيكا) بين المدينتين المذكورتين . تنطلق الزوارق بمحاذاة الشاطئ ، وترسو ليلا على البر) .

قرب رابغ اصطدم الزورق بصخرة تحت الماء وجنح كثيرا . رأى البدو من الشاطئ سوء احوال السمبك ، فاقتربوا باعداد كبيرة على زوارقهم الصغيرة ، ولكن شرعوا يساومون غير مستعجلين للانقاذ . طفق احد الركاب ، وهو شيخ جليل ، مصرى ، يحاول اقناع الرحل بنقلهم الى الشاطئ معلنا ان كل ما معهم يصبح ملكا لهم ، شرط ان ينقذوا حياتهم . وافق البدو على نقلهم جميعا ، لا الى الشاطئ حيث كانوا يخافون من ان يسلبهم ابناء قبيلتهم ، بل الى جزيرة صغيرة ، وتركوهم فيها وعكفوا على

ان يستخرجوا لانفسهم من الماء اكياس القمح التى كانت فى الزورق الذى غرق فور اقلاعه . دام هذا العمل طوال الليل كله . واخيرا جاء البدو فى الصباح الى الجزيرة حيث الركاب المنقذين . وهنا من جديد ، اصغوا الى وعود المصرى المذكور ووافقوا على نقلهم جميعا الى جدة باجر قدره مجيدية واحدة عن كل شخص . اركبوهم ، كل ٣ او ٤ ، فى زوارقهم الصغيـــرة ، واوصلوهم بسرعة الى المقصد ؛ واستبقوا لانفسهم جميع امتعة الركاب . يخيل الىّ ان البدو هم فى المقام الاول متوحشون ذوو ميول بربرية لا شك فيها ، وذوو مفاهيم فريدة بصدد حقوق الملكية ولكنهم يملكون قدرا معينا من حضور الضمير والوجدان ، ويتأثرون بالمثل الطيب . وهم على العمــوم متوحشون تعوزهم التربية .

٢٦ ايار (مايو) . يوم الثلاثاء . تقرر ان تاتى القافلة اليوم مساء وتبيت الليل قرب البوابة الانبارية للمدينة . فكرت فيما اذا كنت اسافر الآن مع هذه القافلة الاخيرة ام ابقى ، وقررت ان اسافر . البقاء ، حين يكون الحج قد انتهى ، قلما يتسم بالاهمية والطرافة ؛ واذا بقيت ، تعين علىّ ان ابقى حتى كانون الاول (ديسمبر) او كانون الثانى (يناير) ، لأنه لم يكن متوقعا وصول قافلة أخرى ، ولأنه لم يكن من الممكن ان تتسنى لى زيارة المراكز الهامة التى تمر بها حركة الحجاج . اذن ، لنذهب ، وان يكن يخوفوننى كثيرا بالسفر الى ينبع اذ يقولون ان البدو لا يمررون . امرت حارث بالاستعداد للرحيل . وعلى كل حال قررت ان آخذ معى ، كمرافق ومدّبر فى الطريق ، دليلنا اللطيف ابراهيم ، رغم ان هذا سيكلف مبلغا من النقود لا يستهان به . اراد ابراهيم ان يأخذ معه ابنه عبد الملك الذى يحظى بعطف الجميـــع لاستعداده لتقديم الخدمات ومرحه المتواصل . استعداداتنا تتألف من شراء زوج من الشقادف وسجادة لاجل التغطية من فوق ، والمؤن . وعد فخـــر الاسلام باعداد الشقادف اى بتغطيتها بالقماش ، وما الى ذلك . الشقادف والجمال لا يجيزون ادخالها الى المدينة ، من جراء الضيق ، ولذا كانت نقطة الانطلاق ضاحية المناخة .

بعد الغداء زارنا كثيرون من مواطنينا بحجة تمنى السفر الميمون ؛ ولكن الهدف الحقيقى كان الحصول على شيء ما ؛ القسم الباقى منهم رافقنا للهدف نفسه الى المناخة . فكان لا بد من توزيع قدر لا يستهان به من النقود . واخيرا ، حوالى الساعة ٥ مساء ، دفعنا للدليل عمر اتعابه ، وحمّلنا الامتعة على [. . .] ، وغادرنا البيت المضياف والادّلة ، واتجهنا الى المناخة . كانت الشقادف معدة ببالغ الاجتهاد . طرح فخر الاسلام فى اعلى سجادة ، كما خاط

جيوبا واعشاشا لاجل جرار الماء . وحين انتهى التحميل ، اتجهت الجمال الى البوابة الانبارية ، ورحنا وراءها برفقة جمع غفير من مواطنينا . خروج الجمال يجرى باذن خطى من العامل .

ما ان خرجنا من المدينة حتى تـوقفنا لمبيت الليل ؛ والى هنا توافدت تدريجيا جميع القوافل .

٢٧ ايار (مايو) . يوم الاربعاء . اليوم ، فى الساعة الخامسة والنصف صباحا انطلقنا فى اتجاه ينبع . قافلتنا تتألف من قسمين برئاسة مقوّمين . مقوّمنا محيسن المشهور . القسم الثالث المؤلف من الحجاج الفرس لا ينطلق اليوم ، لأن مفاوضاتهم لم تنته بعد بصدد دفع فدية للبدو ؛ القافلتـــان الاوليان تتألفان بمعظمهما من المصريين والمغاربة والسوريين والاتـــراك ومسلمينا . الاقسام الثلاثة جميعها تتألف من ١٥٠٠ جمل تقريبا يحمـــل ثلثاها الشقادف . للمرة الاولى تعين عليّ تسلق هذه الاداة البدائية لاجـــل الركوب . ركبنا انا وحارث ، وانطلقت قافلتنا تدريجيا فى ٤ خطوط .

كان الوداع مع عمر وديا للغاية . فى الصباح تسنى لرشيد القاضى ايضا ان يأتى لتوديعنا ؛ انه يفكر فى الذهاب الى جدّة بعد عيد المولد النبوى . يرى حارث ان مشية جملنا ناعمة ، رغم انه كان لى رأى مغاير تماما . وبما انه توجد قرب المدينة المنورة كثرة من المرتفعات والمنحدرات، فانه يتعين ، لاجل الاحتفاظ بالتوازن ، التحرك تارة الى الامام وطورا الى الخلف . وفى آخر الامر ، كنت استوى بنحو او آخر ؛ وواقع انه اصبح من الممكـــن التمدد كان بحد ذاته فرجا كبيرا .

كان حداة جمالنا من البدو ؛ رشيد ، وهو اكثرهم همة ، واوفرهـــم نشاطا ومبادرة ، يتكلم قليلا بالتركية ؛ ابراهيم ، او كما يسمونه ابرايم ، يمشى دائما برأس مكشوف ؛ انه شخص متوان ، وكائن حقير جـــدا ؛ واخيرا ، الزنجى سعيد ، العبد السابق لمحيسن الذى اعتقه ، وزوّجه ؛ وتبناه ؛ وسعيد قصير القامة ولكنه قوى البنية ؛ وهو يسوق مفرزتنا . ان الاحتفاظ على الدوام بالتوازن فى الشقدف ، وخاصة اذا كان احد الراكبين اثقل من الآخر ، امر صعب جدا ؛ ودائما كنت اسمع ، وبخاصة فى البداية ، صيحة البدو «حاجى متاعـــك» او «قدام» او «وراء» . بفضل الشقـــدف الجيد والوزن الواحد مع حارث ، لم يتسنّ لى ان اسمع هذه التعليمات .

على بعد نحو ٦ فرستات من المدينة المنورة ، تدخل الطريق فى مضيق عريض ذى جانبين منحدرين تدريجيا ، نمضى فيه حتى الحمرا . والطريق على طول امتداده هذا ملائم لاجل التحرك ، متساو ومنبسط تماما ، وذو تربة

ورملية صلبة ، وكمية كافية من الماء والوقود . في هذا اليوم سرنا في اوج القيظ حتى ساعة متأخرة من المساء ، ٨ ١/٢ ساعات ، وبالاجمال سرنا ١٤ ساعة ، وتوقفنا لمبيت الليل عند بئر درويش ، بينما سبقنا القسم الامامى من القافلة شوطا وتوقف عند بئر الشهداء .

في الليل ، دفنا شيخا من مواطنينا ! كان مريضا في المدينة المنورة ، ومريضا سافر . وعند الرحيل طلب عمر بالحاح من الشيخ ان يبقى قائلا له انه لن يتحمل مشقة الطريق ، ولكن المسكين كان يريد العودة الى الوطن بأسرع وقت ، فلم يبق ، ومات في الشقدف بعد الرحيل بساعتين ؛ كذلك ماتت امرأة من المغاربة . في القسم الامامى كانت ايضا بضع وفيات .

٢٨ ايار (مايو) . يوم الخميس . اليوم قطعنـــا مرحلة غير كبيرة من الساعة ١١ ١/٢ صباحا الى الساعة ٧ ١/٢ مساء ، بانتظار القافلة الفارسية لأن الطريق لاحقا محفوف بمخاطر كبيرة ؛ ومقوّمونـا لا يتجرؤون على السيـر وحدهم .

مكان قضاء الليل عند بئر اخرى . من الصعب ان يتصور المرء مبلغ صعوبة الانطلاق والسير في اوج القيظ ! في الليلة السابقة قتلوا في القسم الامامى ، بهدف السلب ، حاجين اثنين تخلفا لقضاء حاجة . لا نزال نسير في اراضي قبيلة مقوّمينا ، ولهذا لا نخشى الهجوم السافر .

قدم ابراهيم وابنه عبد الملك خدمات تفوق التقدير ، اذ يتخذان جميع التدابير لضمان سلامة سفرنا ناهيك عن شتى الاجراءات الاقتصادية . وبما اننا نصل في الليل الى مكان المبيت ، فلا يسمحان لنا بالنزول قبل انارة المحلة بالمشاعل اذ ان حوادث القتل والنهب تقع على الاغلب في هذا الهرج والمرج ؛ واذا راح شخص ما الى قضاء حاجته ، فان الاب اوالابن يراقبانه من المرتفع الاقرب . وعنهما احفظ اطيب الذكريات .

ملاحظات

١ – المادة المنشورة للمرة الاولى ترد فى المجموعة رقم ٧٠ (الملف ر . ١ فى ارشيف المستشرقين بفرع لينينغراد لمعهـــد الاستشراق لـــد اكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى ، «يوميات» أ . دولتشين – وهى عبارة عن دفترين (١٧٠×٢١٠) لكل منهما غلاف اسود من الجلد الاصطناعى. قسم من الصفحات فى الدفترين مقصوص من الكعب . على الغلافين اوراق ملصوقة مكتوبة عليها كلمات من قواميس باللغات الاجنبية . النص مكتوب بالحبر الاسود ، ما عدا الصفحات الاخيرة حيث استعمل الحبر الازرق . . فى الدفتر رقم واحد ، يشغل النص الصفحة كلها ؛ فى الدفتر رقم ٢ يشكل ٦٠ ميليمترا مربعا الهوامش التى اشير فيها الى تواريخ الكتابة . .وهذا ما يفسر اختلاف كبر النص المطبـــوع بكل صفحـــة فى القسمين الاول والثانى من «اليوميات» .

ان صعوبة نشر هذه المواد تتلخص فى كون دولتشين قد كتب اليوميات انطلاقا من انه سيكون قارئها الوحيد . النص مكتوب بخط سريع ، ويتضمن تلخيصات ، ومختصرات من اختراعه بالذات ، لا يمكن تفسيرها فى بعض الاحوال ، مثلها مثل بعض الكلمات . فى بعض المقاطع ، ترك المؤلف فى النص فراغات كان يخطط املاءها بعد الحصول على معلومات اضافية او بعد التحقق من صحة المعلومات المتوفرة ، الامر الذى يتعلق فى المقـــام الاول بالاسماء الجغرافية . وحين تستحيل قراءة كلمة بمفردها بعد هلالين مربعين مع عدة نقاط وضعنا العلامة * ؛ واذا استحالت قراءة بضع كلمات وضعنـــا العلامة ** ؛ واخيرا اذا ورد فى النص فراغ ، وضعنا العلامة *** .

٢ – بتروفسك بورت – مدينة (١٨٥٧–١٩٢٢) . مرفا على بحر قزوين . حاليا – محج قلعة ، عاصمة جمهورية داغستان .

٣ – ٢٠ ت . ب . – اللواء التركستانى (الكتيبة التركستانية ؟) .

٤ – غ . م . – مختصر غير مفهوم .

٥ – ساخاروف ف . ف . (من مواليد عام ١٨٤٨) – منذ سنة ١٨٩٨ رئيس الاركان العامة .

٦ – كوروباتكين ا . ن . (١٨٤٨–١٩٢٥) . فى سنوات ١٨٩٠–١٨٩٧ – رئيس مقاطعة قزوين . منذ سنة ١٨٩٨ وزير الحربية .

٧ – دفينسك – مدينة على نهر داوغافا . أسميت بهذا الاسم من سنة ١٨٩٣ الى سنة ١٩١٧ . حاليا ، داوغافبيلس (جمهورية لاتفيا) .

٨ – دينابورغ – قلعة فى دفينسك (داوغافبيلس) ، من نقاط الاستحكام على الحدود الغربية لروسيا .

٩ – فيلنو – حتى سنة ١٩٣٩ اسم مدينة فيلنوس . حاليا عاصمة جمهورية ليتوانيا .

١٠ – بيسارابيا – منطقة تاريخية بين نهرى الدنيستر وبروت .

١١ – شركة الملاحة والتجارة فى روسيا .

١٢ – نيجنى نوفغورود (من سنة ١٩٣٢ الى سنة ١٩٩٠ مدينة غوركى) – مدينة عند انصباب نهر اوكا فى نهر الفولغا . حاليا مركز مقاطعة نيجنى نوفغورود فى جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية .

١٣ – كتابة غير مفهومة . فى التقرير على ص ١٢٠ ، اشير الى باداخشان .

١٤ – المقصود هنا انتفاضة كريت (١٨٩٦–١٨٩٧) تحت شعار «الانضمام الى اليونان» . ادت الى نشوب الحرب اليونانية التركية سنة ١٨٩٧ . اسفرت هذه الحرب عن حصول كريت على الحكم الذاتى الادارى فى ظل سيادة السلطان (سنة ١٨٩٨) .

١٥ – هنا فى المخطوطة رسم كأسين من الحديد الصب وعارضة .

١٦ – نهاية الدفتر الاول . نواصل ترقيم الصفحات . فى الدفتر الثانى ، ترقيم جديد للصفحات .

١٧ – هنا رسم غير كبير فى المخطوطة .

١٨ – الاسماء المهملة عند دولتشين ترد هنـــا حسب النص المطبوع «للتقرير» .

١٩ – فى المخطوطة فراغ جرى املاؤه بموجب النص المطبوع «للتقرير» .

٢٠ – فى المخطوطة فراغ جرى املاؤه بموجب النص المطبوع «للتقرير» .

٢١ – فى المخطوطة فراغ جرى املاؤه بموجب النص المطبوع «للتقرير» .

٢٢ – السرت . القسم المتحضر من الاوزبكيين من قديم الزمان . قبل سنة ١٩١٧ ، كان القســـم المترحل على الاغلب من الاوزبكيين والكازاخيين يضيف الاســـم العرقى «السرت» الى الاوزبكيين المتحضرين واحيانـــا الى الطاجيكيين من سكان السهول . فى عدد من الانحاء (طشقنـــد ، فرغانة ، خوارزم) – التسمية الذاتية للاوزبكيين المتحضرين .

٢٣ – هذه المسألة كانت موضع نقاش واسع فى الصحافة الاسلامية فى روسيا ، وبخاصة قبل الحرب العالمية الاولى وفى بدايتهـــا . راجـــع س . ت . الكين . «رسالة الى جريدة «كازانسكى تلغراف» بتاريخ ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ ، العدد ٦٤١٧ ، ص ٢ ؛ اصحاب الغاموكى . مقالة فى جريدة «فى عالم الاسلام» ، بتروغراد ، ٤ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١١ ، العدد ٢٩ ، ص ٢ ؛ نداء مفتى اورنبورغ الى المسلمين – جريدة «كوياش» ، قازان ، ٢٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ ، العدد ٥٤١ ، ص ١ .

٢٤ – من جهة ، البحر ، من جهة اخرى ، الخنزير .

٢٥ – شميل (١٧٩٩–١٨٧١) – الامام الثالث لداغستان وشاشـــان (١٨٣٤–١٨٥٩) . قائد النضال التحريرى الذى خاضه جبليو القفقاس ضد المستعمرين القيصريين تحت شعارات «المريدية» . فى ٢٦ آب (اغسطس) ١٨٥٩ اسرته العساكر الروسية . توفى فى المدينة المنورة فى طريقه الى مكة المكرمة .

سرى

تقرير
النقيب دولتشين
عن المأمورية الى الحجاز

(سانت بطرسبورغ . المطبعة العسكرية (فى مبنى الاركان العامة)
سنة ١٨٩٩

الفصل الاول

معلومات تمهيدية موجزة عن الحجاز

الحدود

الحجاز الذى تتجه اليه حركة حج المسلمين انمـــا هو جزء من الجزيرة العربية يمتد شريطا ضيقا بمحاذاة ساحل البحر الاحمر ويبلغ طولـــه زهاء ١٥٠٠ فرستا ، ويتراوح عرضه بين ١٥٠ فرستا و٣٠٠ فرستا . الحجاز تحده فى الشمال فلسطين ، وفى الشرق نجد ، وفى الجنوب اليمن وفى الغرب البحر الاحمر . واسم «الحجاز» من فعل «حجز» ، أطلق ، حسب تفسير العرب ، نظرا لوجود هذه المنطقة بين نجد والبحر الاحمر . وبالنسبة لنا لا يتسم باهمية غير القسم الجنوبى (١/٣) من الحجاز حيث تقع مدينتا مكة المكرمة والمدينة المنورة المقدستان بنظر المسلمين وحيث فى زمن الحج تبلغ حركة الحجاج اوجها .

طوبوغرافية السطح

الحجاز بلد جبلى جدا . سلاسل الجبال المؤلفة من كتل حجرية عارية ، وغير العالية نسبيا (١٠٠٠-٣٠٠٠ قدم) ، تمتد بموازاة ساحل البحر ، متشعبة بكثرة من الذيول الجبلية الفرعية ، النازلة الى الغرب نحو البحر والى الشرق نحو سهل نجد . واحيانا ، تتواجد بين الجبال ، وبخاصة على مقربة من البحر ، صخور مميزة حادة الاطراف . والى الشرق من مكة ، تبلغ سلسلة الجبال المسماة هناك «السراة» ارتفاعها الاعلى ، - زهاء ٦٥٠٠ قدم فى جبل القرى .

والجبال تتقطعها فجاج رملية خالية من الماء يسمون الواحد منها هنا «وادى» ، واهمها تتجه نحو البحر . وفى قاع هذه الفجاج فقط توجد ينابيع

الماء النادرة فى الحجاز . فليس البتة فى الحجاز لا نهر ولا حتى نهير . وماء الينابيع الذى يسيل هنا وهناك فى قاع الوادى ينفقونـــــه فى الحال لرى البساتين ومباقل الخضراوات . والسكان الرحل يستعملون فى المعتاد الآبار والصهاريج التى تمتلىء بالماء السائل من الجبال اثناء الامطار الغزيرة .

واغنى الفجاج بالماء ومظاهر السيول * هـــى وادى فاطمـــة ، وادى الليمون ، السيل الكبير قرب مكة ، وادى الصفراء غربى المدينة المنورة .

ان منظر الحجاز هو على العموم واحد – كئيب وصارم ومرهق بقحله وانعدام الحياة فيه ؛ ففى كل مكان تلال حجرية ، عارية ، خالية من اى نبات ، وصخور متراكمة بوثوق وبلا نظام ، مكسوة دائما بعتمة رمادية ما ، واودية ضيقة ذات جوانب معلقة تقريبا ؛ اما الخلفية العامة للوحة ، فرمل اصفر فى كل مكان يشكل قاع الفجاج ويملأ الفجوات بين الصخور وغالبـا ما يبدو بصورة انهيالات قرب ذرى الجبال بالذات .

بين الجبال والبحر يمتد شريط ساحلى منخفض ، متساو ، عرضه ٥–١٠ فرستات ، اسمه «تهامة» ، وتتشكل تربته من رمل بحرى مكثف جدا . ومن جراء تسرب ماء البحر ، كانت مياه جميع الآبار فى تهامة مالحة نوعا ما ؛ وسكان الساحل يستخدمون فى المعتاد الصهاريج .

النباتات والحيوانات

الحجاز فقير جدا بالنباتات من جراء القيظ الخارق ونقص الرطوبة . ومن عداد النباتات الخشبية رأيت فى جميع الفجاج شجرة شائكة جدا من نوع الطلح (الاقاصيا) اسمها «الشوك» ، وتبلـــغ مقاييس كبيرة وتشكل الصنف الوحيد من المحروقات . فى اوائل نيسان (ابريل) ، فى طريقى الى مكة ، كانت هذه الشجرة لا تزال تحمل اوراقا ، ولكن فى حزيران (يونيو) لم يبق على الغصون سوى قرون ناضجة قوسية الشكل . وهذه القرون تباع فى البازارات لاجل علف الجمال وغيرها من المواشى ؛ والرحل يعلفون بها ايضا قطعانهم من الماعز والغنم ؛ ولهذا الغرض يسقط الراعى القرون بعصى طويلة ، وسرعان ما تتلقفها الماشية السائرة وراءه .

---

* كلمة «سيل» («سيول») – اسم محلى مستعمل ، مثلا ، فى تركستـــان ايضا للاشارة الى سيول ماء المطر العاصفـــة المتدفقة من الجبـال . **ملاحظة هيئة التحرير .**

وبصورة اندر تقع العين على اصناف اخرى من النباتات ومنها ام غيلان والسنط . واقرب الى البحر تقع العين على مجموعات كبيرة من نبات يشبه الايندرا كثيرا ، ولكن مقاييسه كبيرة ويسمى العُشَّر .

فى الشتاء ، حين تتساقط الامطار تظهر اعشاب ما يتسنى للبدو ان يخزنوا منها كمية ما من الهشيم .

فى ضواحى مكة ينمو باعداد كبيرة السنا المكى ؛ واوراقه معروفة فى البيع باسم «الورق الاسكندرى» .

الحجاز الفقير بالنباتات فقير ايضا بالحيوانات . ومن عالم الحيوان ، رأيت شخصيا ، بالشكل البرى ، نوعا صغيرا من القرود ، والثعالب ، ورأيت من الطيور الحمام والغراب ، والقنابر الكبيرة والحدآن . يقولون انه توجد ايضا ذئاب وضباع وظباء ، ومن الطيور اللقلق والهدهد ، وغيرهما . حياة الحشرات لا تتكشف الا فى وقت ابرد من السنة : فى اوائل نيسان (ابريل) ، ليلا ، على نور المصباح ، تطير من كل حدب وصوب اعداد غير كبيرة من الفراشات والجعلان . فيما بعد لم ار اية حشرة . يؤكدون ان حتى البراغيث ذاتها تختفى فى الوقت الحار من السنة . ومما له دلالته انه يوجد فى بعض جبال الحجاز ، رغم هذه الطبيعة الشحيحة ، نوع محلى من النحل الاصفر البرى الصغير جدا ؛ وعسل هذا النحل يقطفه البدو من الصخور ، ويظهر احيانا للبيع فى السوق فى مكة والمدينة المنورة .

وفى الحجاز اصناف متنوعة وكثيرة جدا من الافاعى والعقارب والعناكب السامة . وبين هذه العناكب يوجد فى مضيق وادى فاطمة نوع يسمى «اللادغ» وتعتبر لدغته مميتة حتما .

خلافا لليابسة ، يتميز البحر الاحمر بتنوع وغنى خارقين فى الحياة العضوية ؛ فعدا مختلف انواع الاسماك ذات الصفات غير الرقيعة جدا ، يعج بشتى النقاعيات وغيرها من العضويات الدنيا .

المناخ

مناخ الحجاز ، وبخاصة فى قسمه الجنوبى الواقع تحت خط الاستواء ، هو بلا ريب من احرّ المناخات فى الدنيا . الكتل الحجرية فى الجبال المتلاصقة بوثوق ، والتربة الرملية ، التى تتأجج بشدة تحت الشمس الاستوائية ، وغياب النباتات — كل هذا يجعل الحجاز احرّ من البلدان المجاورة ، ومنها اليمن ونجد . الحرارة على ساحل البحر ادنى نوعا ما ، ولكن التبخر الشديد

ورطوبة الجو الخارقة يخلقان هنا جوا منافيا جدا للصحة .

وبما ان زراعة بعض النباتات ، ومنها مثلا ، البطيخ والشمام ، تجرى طوال السنة كلها ، ويحالفها النجاح حتى فى احرّ اوقات السنة ، وبما ان الزهور تنمو حتى تحت الشمس المحرقة على سطوح البيوت ، فانه يخيل اليّ ان مناخ الحجاز خارق الرطوبة فى اقسامه الداخلية ايضا وانه من الصعب بالتالى على الناس غير المعتادين عليه احتماله .

تقلبات الحرارة ، بقدر ما استطعت ان اراقب ، ليست كبيرة فى سياق اليوم الواحد .

فى الطريق من مكة المكرمة الى المدينة المنورة ، فى النصف الاول من ايار (مايو) ، اسفرت المراقبات عن نتائج متنوعة ، تبعا للمحلة ؛ وكانت الحرارة بالمتوسط فى الخيمة ٣٥ درجة ريومور فوق الصفر كحد اقصى و٢٨ درجة فوق الصفر كحد ادنى .

وتسنى لى ان اراقب اعلى درجات الحرارة فى اوائل تموز (يوليو) بين المدينة المنورة وينبع ، قرب بير السيّد ، حيث اشار ميزان الحرارة الى ٤٤ درجة ريومور فوق الصفر فى الظل ؛ ولكن لم يتسن وضع ميزان الحرارة فى الشمس نظرا لقلة طول مقياس الحرارة .

ان ما هو رهيب بخاصة على الانسان فى الحجاز ليس الحرارة العالية ، بل الرياح الحارقة التى تهب فى حزيران وتموز (يونيو ويوليو) فى عموم الحجاز والتى تسمى هنا السأم . وهذه الرياح ليس لها اتجاه معين . والرياح التى اضطررت الى معاناتها كانت تتجه من الجنوب الغربى ؛ وهى لا تتسم بطابع زوبعة ما ، ولكن وجودها يتبدى دائما بشعور مؤلم مرهق تحدثه فى الجسم البشرى . وحين كانت تهب السأم ، كانت نظاراتى تتأجج الى حد انه كان يتعين عليّ نزعها ؛ والماء النازل عن غير قصد على الجسم يثير فى حال التبخر الما روماتزميا قويا .

يعرف البدو كيف يميزون السأم الخالصة عن السأم المختلطة مع رياح اخرى ، وكيف يميزون الريح الضارة جدا عن ريح اقل ضررا ، ويتنبأون ببداية الريح ؛ والاسم الرهيب «السأم» لا يطلقونه على جميع الرياح الحارة التى تهب فى الاوقات الحارة من السنة .

هذه الظاهرة ليست رهيبة على الغرباء وحدهم ؛ فان بدويينا سواقى الجمال قد عانوا هم ايضا من شعور القلق حين هبت السأم ، ودسوا فى مناخرهم وآذانهم النوم ، وتدثروا بكل عناية . والاسلوب الاخير ، اى التدثر من الرأس بالذات هو الوسيلة الوحيدة ، كما اقتنعت ، للتخفيف بعض الشيء

من العذاب حين تهب السأم . ويروون حوادث فتكت فيها السأم بعدد كبير من الناس ؛ وفى المرة الاخيرة ، فى سنة ١٨٩٥ ، اخذ الحجاج فى المدينة المنورة يعتزمون الذهاب الى مكة ، ونقلوا امتعتهم الى ضواحى المدينة ، واذا سأم تهب ؛ وبعد بضع ساعات ، لمّوا عشرات الموتى فى الشارع .

ويقول الاطباء ان نسبة الوفيات فى مكة والمدينة المنورة تزداد كثيرا حين تهب السأم . ولكن العرب يعتقدون ان هذه الريح ضرورية لاجل نضج البلح .

وللحجاز فصلان فى السنة : الشتاء البارد نسبيا ، من منتصف تشرين الثانى (نوفمبر) الى منتصف شباط (فبراير) ، حين تتساقط الامطار بين الفينة والفينة ويظهر العشب هنا وهناك ، والصيف الحار الذى يحل فورا محل الشتاء . ان الانتقال من البرد الى القيظ يكون حادا جدا فى المدينة المنورة حيث الحرارة الصيفية ادنى نوعا ما مما فى مكة ، نظرا لوقوعها ابعد الى الشمال وفى ارض عالية ،ولكن فى الشتاء ، كما يقولون ، يكون البرد احيانا قارصا جدا .

السكان (خارج المدن)

يتألف سكان الحجاز من مختلف قبائل البدو ، او كما يسمونهم هناك ، «الاعراب» (العرب الذين يعيشون فى المدن يسمونهم «بلدى») وهم ، حسب اسطورتهم ، اخلاف مباشرون لاسماعيل ، ابن ابراهيم . وبين البدو يوجد ايضا كثيرون من الزنوج والاحباش الذين صاروا بينهم بوصفهم عبيدا . وهؤلاء يشكلون طبقة دنيا خاصة ولا يختلطون مع السكان الاصليين .

مجمل عدد السكان فى الحجاز يقدّر بـ٧٠٠-٨٠٠ الف نسمـــــة (حسب المعلومات الرسمية التركية ٥ ملايين) . ينقسم البدو الى كثرة من القبائل التى يشرف على كل منها شيخها والتى تشغل كل منها منطقة معينة للترحل . وهناك قبائل غالبا جدا ما تتعادى فيما بينها ، وتهاجم بعضها بعضا ، ولها حسابات دائمة بصدد الدم .

البدو الرحل يربون الماشية ، ويتعاطون الزراعـــــة ايضا اذا سمحت الظروف . اثناء اشهر الحج الاربعة او الخمسة ، ينصرف كثيرون منهم بوجه الحصر الى نقل الحجاج وامتعتهم . وسكان السواحل ، بوصفهم بحارة ماهرين ، يمارسون النقل الساحلى على زوارقهم الشراعية التى لا متن لها ، والمسمى

الواحد منها «سمبك» ، كما يمارسون صيد السمـــك ، واستخراج المرجان واللؤلؤ والصدف والمحار ، وما الى ذلك من قاع البحر .

والبدو الذين تسنى لى مراقبتهم ، متوسطو القامة ، نحيلون خـــارق النحول ، وقسمات وجوههم متناسقة ، ولون جلدهم برونزى قاتم ، وقلما يختلف عن لون الحجارة التى يعيشون فى وسطها ؛ وارجلهم خالية تماما من بطات السيقان ؛ مشيتهم رشيقة اصيلة . ولكن اول ما يستلفت النظر عند رؤية البدو ، هو انهم اقوياء بدنيا ، وجلودون ولبقون جدا .

البسة البدوى بسيطة جدا – قميص حتى الركبة ، واسعة الكمين ؛ على الرأس دائما منديل قطنى كبير مثبت بحزام خاص مسمى «عقال» ؛ وبهـــذا المنديل يغطى اذنيه ، وكذلك انفه فى غالب الاحيان . فوق القميص يلقى عباءة صوفية سوداء عريضة باشرطة بيضاء نادرة .

يحمل البدو دائما الاسلحة – فى اليدين بندقية شطف (بقداحـة) او بندقية بفتيل او رمح ؛ على الكتف او على الظهر يتدلى سيف ذو حد واحد او سيف ذو حدين ؛ على حزام جلدى فرد وخنجر ، ولوازم معدنية مختلفة لحفظ البارود والرصاص .

ترتدى المرأة قميصا اسود طويلا ، ومنديلا على الرأس من اللـــون نفسه . وتغطى وجهها ادنى من خط العينين بقطعة من القماش الاسود .

كل لباس الاولاد يتألف من حزام ذى هدب جلدى من نوع الهدب الـذى يستعمله التركمان لحماية عينى الحصان من الذباب .

ومسكن البدو عبارة عن نموذج خفيف جدا من خيمة من نفس القمـاش الاسود الذى يخيطون منه العباءة . مفروشات الخيام فقيرة جدا – الآنيـــة المنزلية الضرورية ، رحل الجمل ، جلود غنم مدبوغة ومصبوغة لاجـــل المفـــرش ، قربة لاجل الماء . وكل شىء يـــدل على ان متطلبات هـؤلاء الرحل اقل بكثير من متطلبات القرغيز ، مثلا ، او التركمان فى بلادنا . والخيام تكون منصوبة مجموعات صغيرة جدا .

المواد الغذائية الرئيسية هى منتوجات تربية المواشى والبلح ، وعند عرب السواحل السمك . الغذاء الاكثر استعمالا اللبن (الحليب الـرائب) ؛ الطعام اللذيذ هو التمر مع السمنة ؛ يبدأ العرب أكل البلح عندما لا يزال اخضر تماما [. . .] «زحف» [؟] ؛ وحين يكتسب التمر لونا اصفر نوعا ما ، – «الرطب» – يظهر كذلك فى الاسواق لاجل البيع .

وحيث توجد مزروعات الذرة الصفراء والدخن ، يصنعون منهما ارغفة مثل الارغفة التركمانية . والقهوة المقدمة عند الاغنياء او عند حضور الضيوف

يعتبرها البدو مشروبا لذيذا . واغلبية البدو تدخن التبغ ، ولهذا الغرض يستعملون غلايين طويلة الشبق .

والبدو ، بوصفهم رحلا ، يربون المواعز والاغنام والجمال .

المواعز يستعملونها على الاغلب لاجل الحليب ، وثمن الواحد منها بنقودنا زهاء روبلين . ويربون الاغنام لاجل الحليب واللحم ، وثمن الواحد منها بنقودنا زهاء ٤ روبلات . لحم الاغنام والمواعز المحلية جاسئ جدا وغير لذيذ . الجمال نوعان . نوع اثقل واقوى مستعمل لنقل الاثقال - «الابل» - ثمن الواحد منها بنقودنا زهاء ٦٠ روبلا ، وجمال خفيفة ، دقيقة القوائم ، صغيرة الرأس ، صوفها اكثر اشراقا - «الهجان» ؛ وهي مستعملة حصرا لاجل الركوب ، وثمن الواحد منها زهاء ١٠٠ روبل . علاوة على الصفات المشتركة الملازمة للجمال يتميز هذا النوع وذاك بالوداعة الرائعة وغياب الرائحة الكريهة الملازمة لهذه المواشي . عدد الجمال عند البدو المترحلين بين مكة والمدينة المنورة يقدّر تقريبا بـ١٥٠٠٠ رأس .

وهم ، كزراع ، يزرعون في موسم الامطار ، في مرحلة الشتاء من السنة ، نوعا خاصا من الدخن ؛ ولهذا الغرض ينظفون من الحجارة رقعا غير كبيرة من الارض ويقيمون اسوارا ساندة لحفظ الماء ؛ وحيث يمكن الري يزرعون على الاغلب البطيخ والذرة الصفراء - «الذرّة» - والخضراوات (البصل ، البندورة ، والفول وما الى ذلك) ؛ وفي مثل هذه المحال ، يزرعون كذلك في المعتاد البساتين المؤلفة بصورة رئيسية من اشجار النخيل ؛ وتقع العين ايضا على اشجار الليمون التي تعطي ثمارا حلوة صغيرة جدا ، وعلى شجيرات البلسان التي يصنعون من عصيرها صبغ الحنّاء وشجرة «الفلسك» التي تعطي بلسما قيّما جدا بالنسبة للحجاج .

بدو الحجاز مسلمون سنيون جميعهم ، ولكن يوجد بين الرحل في الطرف الشرقي وهّابيون وكذلك بعض المتشيعين ، ومنهم ، مثلا ، الزيديون ، والاسماعيليون ؛ واكثر المذاهب السنّية انتشارا هو المذهب الشافعي ، ثم الحنفي ؛ وكثيرون من البدو ينتمون الى مختلف مدارس النساك وبخاصة الى التيار «الرفاعي» .

لا يتميز العرب الرحل البتة بالتدين الشديد ؛ وهم يخلطون الدين بكثير من العادات والاساطير والاقوال المأثورة التي تتناقض تماما مع تعاليم الاسلام ونادرا ما تتوافق فيما بينها .

ان حب الحرية التي يتمتعون بها من سحيق الازمنة والجهل المطبق يحملان البدو على اعتبار انفسهم اسمى من جميع الامم الاخرى ، وينظرون من

اعلى حتى الى اخوانهم المقيمين فى المدن تحت الحكم التركى . واعمال السلب والنهب والقتل ضد الغرباء ظاهرة عادية تماما ؛ وهم كل سنة يقتلون عشرات الحجاج لاجل النهب ؛ والحصول على الاموال بهذه الطريقة لا يعتبره احد امرا غير جائز . والكذب والقسم امر عادى تماما . ومن جهة اخرى تحظى الضيافة التقليدية باحترام مقدس ؛ ولحماية الضيف يضحى المضيف بنفسه دون تردد ؛ والسماح بنهب او بقتل الشخص الذى اخذه المضيف تحت حمايته عار لا يضاهيه عار ؛ الامر الذى تنتقم له القبيلة كلها .

يجرى ارسال مبالغ ضخمة من النقود فى الحجاز بواسطة البدو ، نظرا لعدم وجود دائرة حكومية معنية ؛ ويقولون ان هذه الارساليات لا تضيع ابدا ولا يستملكها البدو اطلاقا .

وعند البدو حكماؤهم واطباؤهم العرافون . وهم يلجأون اليهم فى حال المرض . واوسع الوسائل انتشارا الفصد ، والمحاجم ، والكى بالحديد المحمى . وبعد الولادة على الفور ، تعمد القابلة الى شق ثلاثة شقوق بالسكين على صدغى الطفل وظهره وغير ذلك من اجزاء الجسم لتحاشى الامراض المقبلة ؛ وآثار هذه الشقوق تبقى طوال العمر كله ؛ وفى جميع الامراض تقريبا ، يلجأ العرب الى فصد الدم او يستعملون المحاجم لاستخراج الدم ؛ وهم يعتقدون ان هذا يخلص الانسان من الدوخان والضعف الناجمين عن الحرارة العالية ؛ وحتى الجمال لا تتجنب هذه العمليات المكررة دوريا . والكى ، بوصفه وسيلة للصرف عن الالم ، يجرى باسلوب بربرى تماما ، ويترك آثارا عميقة . فى احد المواقف اسرع من قرية مجاورة الى سواق جمالنا ولداه ؛ احدهما صبى فى نحو الخامسة من العمر ، كان جرح كبير فاغرا قرب عينه بالذات ؛ وقد اوضح الوالد ، جوابا عن سؤالى ، ان احدى عينى الصبى قد انغلقت ، وانه (اى الوالد) قام بعملية الكى بيده ، وان حالة ولده افضل الآن .

وعند البدو اساليب اصيلة جدا لمعالجة عواقب السأم ؛ فالمريض يطعمونه السمنة ، ويدثّرونه بشدة وكثافة ، وطوال نحو ساعتين لا يدعونه يشرب ؛ وفى حالات اشد ارهاقا ، يحفرون حفرة بقامة الانسان ، ويشعلون فيها موقدا ثم يجعلون الموقد يبرد نوعا ما ، ويضعون فيها المريض ويطمرونه تاركين رأسه فقط طليقا ، ويبقونه فى هذه الحال اطول مدة ممكنة ، ثم يسحبونه ويدثّرونه ويدهنون جسده بالسمنة ، ولا يدعونه يشرب طوال نحو ثلاث ساعات .

وعلى العموم يشكل نمط حياة البدو خليطا من عادات بربرية تماما وبعض

سمات الفروسية والنبل . وهذا الشعب لا يزال بدائيا تماما ولم يتعـرض البتة لتأثير الزمن .

صحيح ان كلا من القبائل تشغل ارضا معينة ، ولكن مناطق بعض القبائل لا تشكل رقعا واحدة متواصلة ، بل هي متوزعة في عموم الحجاز ؛ وبعض القبائل التي كانت تقطن من قبل في الحجاز استقرت في بلدان مجاورة . وفي الوقت الحاضر تقيم في الثلث الجنوبي من الحجاز القبائل التالية من البدو (راجع الجدول على ص ١١٨) .

التجارة والصناعة عند السكان الرحل

للتجارة والصناعة عند البدو ، سواء بسواء ، مقاييس تافهة للغايـــة وذات طابع محلي فقط . سكان السواحل يبيعون من التجار الكمية التافهة من اللآلئ والمرجان والصدف وعظم السلاحف وما الى ذلك ، التي يستخرجونها من البحر . واصحاب البساتين الواقعة على طرق الحج الكبيرة يتعاطون بيع الحنّاء وبلسم «الفلسنك» والتمر من الحجاج . والتجارة الباقية كلها تتلخص في تزويد المدن بالمحروقات والخضراوات والمؤن وغير ذلك .

في الانحاء التي تتواجد فيها البساتين يجدلون ببالغ التفنن من اوراق النخيل الحصائر والمراوح والحبال ؛ وحيث تربية المواشي اكثر تطـورا ، يصنعون اقمشة صوفية سميكة لاجل المعاطف والخيام والاكياس ، ويحيكون رحالا كبيرة مزدانة بكثرة من الشراريب لاجل الهواجن . وهناك حرفيـــون حاذقون يصنعون الاسلحة وشتى الحلى الفضية . ولجميع هذه الاشياء تصريف محلي حصرا .

الوضع السياسي في الحجاز

دخل الحجاز في قوام الامبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليم ، عام ١٥١٧ ؛ وفي اواخر القرن الماضي وفي اوائل القرن الحـــالي ، كان الوهابيون من نجد يملكون ويحكمون هذا القطر ؛ وهم اتباع محمد ابن عبد الوهاب الذي دعا في سنوات ١٧٤٠–١٧٥٠ في نجد الى مذهب جديد فـــي الاسلام يرتكز على القرآن الكريم وحده . وفي سنة ١٧٩٩ احتل الوهابيون مكة ؛ وفي سنتي ١٨٠٣–١٨٠٤ استولوا على المدينة المنورة ولكن ابراهيم باشا المعروف طردهم وانزل بهم بضع هزائم بين سنتي ١٨١٠ و١٨٢٠ ؛ وفي سنة ١٨١٧ تسرب الى وسط نجد بالذات واستولى على عاصمتهم الدرعية .

اسم القبيلة	عدد الانفس	امكنة الترحل
بنى هاشم	٥٠ الفا	ضواحى مكة والمدينة المنورة وينبع النخلة وينبع البحر
عنزى	٣٥٠ الفا	القسم الاكبر على حدود فلسطين ؛ عشيرة تاوح بين مكة والمدينة المنورة
جهينة	٥٠ الفا	ضواحى ينبع النخلة وينبع البحر والى الشمال منهما على ساحل البحر
حشيم	الفان	ضواحى المدينة المنورة
نحاوله	١٢ الفا	ضواحى المدينة المنورة . بستانيون على الاغلب
حرب أو بنى حرب	٧٠ الفا	الى الغرب والجنوب من المدينة المنورة
مطير	٤٠ الفا	ضواحى المدينة المنورة
بنى سليم	الفان	على الطريق الشرقى ، بين مكة والمدينة المنورة
عتيبة	٢٠ الفا	ضواحى الطائف
قريش	الفان	فى جوار مكة . فيما مضى قبيلة جبارة منها تحدر النبى محمد (صلعم) . من جراء الحروب المتواصلة فى القرون الاولى من الاسلام ، تشتتوا
هذيل	١٠ آلاف	جبل القرى
ثقيف	٢٥ الفا	ضواحى الطائف
عدوان	الفان	جنوبى الطائف
ابى الحارث	٣ آلاف	شرقى الطائف
بنى لحيان	١ ١/٢ الف	بين مكة وجدة
بنى جحادله	١٠ آلاف	وادى اللملم ، جنوبى لحيان
عوف	٥ آلاف	بين المدينة المنورة ورابغ*

* كتاب « جزيرة العرب » .

ان سلطة الحكومة العثمانية لم ترتكز من قبل ولا ترتكز فى الوقت الحاضر الا على القوة المسلحة ، ولا تتبدى الا فى النقاط التى ترابط فيها القوات المسلحة . وهذا يعنى ان الاتراك لا يملكون غير المدن وكذلك ، بنحو ما ، الطريق بين مكة وجدّة ، التى تحميها مخافر متعددة ، ولكن سلطتهم فى هذه النقاط ايضا لا تحظى بالمكانة اللازمة ، الامر الذى تبيّنه الاحداث التى وقعت مؤخرا ؛ فمنذ زهاء عشر سنوات قتلت عبدة فى المدينة المنورة سيدتها ؛ وحكمت المحكمة التركية على القاتلة بالسجن ، ولكن سكان المدينة طالبوا باعدامها فورا ، مهددين بالهجوم المسلح اذا لم يلبّ طلبهم . تراجعت السلطات ، وتم اعدام القاتلة على الفور . وفى سنة ١٨٩٥ جرى فى مكة امام عيون السلطات هدم بناية يكرهها السكان ومعدة للاستعمال كمحجر صحى .

فى غضون اربعة قرون من امتلاك الحجاز لم يقم الاتراك اية صلات بينهم وبين السكان المحليين ولم يستطيعوا ان يهدئوهم ولم يكن لهم عليهم اى تأثير ثقافى . والعلاقات بين الطرفين لا تزال علاقات عداء وعدم ثقة ؛ فان الاتراك يعتبرون البدو كلابا ؛ فى حين ان البدو يعتبرون الاتراك كفارا غير مؤمنين . وجميع الاتراك الذين تسنى لى ان اتحدث معهم كانوا يضمرون خوفا وكرها خاصا حيال البدو ، وكانوا يحذروننى فى كل حال من انه يجب التخوف جدا من هؤلاء البرابرة . وعندما رحلت الطوابير العثمانية المرابطة فى مكة الى اليمن ، قال الجنود بشماتة كبيرة انهم يذهبون لضرب العرب .

كانت السلطات الادارية تتميز فى اغلبية الاحوال باعمال الابتزاز والاضطهاد ؛ اما اعمال العساكر ، فقد كانت على الدوام فى منتهى الميوعة والتردد ، ولذا لا يكنّ البدو حيالها ما يلزم من الخوف والاحترام . وبين حوادث السنة الجارية (١٨٩٨) ، يمكن التنويه بالهجوم فى شهر ايار (مايو) من قبل عدد غير كبير نسبيا من البدو على قسم من الرديف من ٨٠٠ فرد كان فى طريقه من المدينة المنورة الى ينبع ، وبالهجوم فى تموز (يوليو) على خفر قوى كان يرافق قافلة فى الطريق بين مكة والطائف ، علما بان ضابطين و١٦ جنديا لقوا مصرعهم . والاحداث من هذا النوع ، كما يقولون ، تحدث على الدوام ، ولا تثير دهشة احد ، ولا تستتبع اية تحقيقات وعقوبات . ولكن ، فى السنتين الاخيرتين ، كما يقول الجميع ، تفاقمت كثيرا اعمال النهب والسلب والاغتصاب من كل شاكلة وطراز ؛ ومرد ذلك ، كما يفسرون ، من جهة ، الوضع الاقتصادى الشاق الذى يعانيه الرحل من جراء انعدام المطر ، ومن جهة اخرى ، عدم دفع السلطات المحلية لبعض من اشد

القبائل اضطرابا وازعاجا الاعانات المالية المتفق عليها . ولتأمين سلامة حركة القوافل فى ربوع الحجاز لجأت الحكومة التركية من قبل الى بسط الحماية المسلحة على الطرق الكبيرة فى اخطر الانحاء والى مرافقة القوافل بخفر قوى . ولكن منذ سنة ١٨٦٤ لم يبق هذا الاجراء سارى المفعول الا فى طريق اشد انتعاشا ، هو طريق مكة – جدّة ؛ وعلى العموم تم تطبيق نظام آخر عنيت به دفع اعانات مالية لبعض القبائل لكى تمرر القوافل بلا عائق فى اراضيها .

فى عهد بعض من الحكام الاتراك هدأ الحجاز نوعا ما وساده نظام نسبى ؛ وقد ترك عثمان باشا الذى حكم هذه الولاية من سنة ١٨٨١ الى سنة ١٨٨٧ ذكرى طيبة خاصة . فان هذا الادارى المحترم قد ساق الماء الى جدّة وبنى خطوط الاتصال البرقى بين هذا المرفأ ومكة ، واشاع بعض النظام فى شوارع مكة ، واصلح مجارير الماء المتعطلة من زمان فى مكة ، وحسّن الحالة الصحيه فى منى ، وما الى ذلك .وفى عهده ، كما يروى سكان المدينة ، كان بوسع السكان ان يسافروا بجرأة بين مكة والمدينة المنورة على جملين او ثلاثة دون ان يتجرأ احد على مسهم . «كان البدوى على استعداد لذبح جمله الاخير فى حال وصول عثمان باشا» ، «كان والدنا» . هكذا يقول الرحل . ولكن هذا الرجل الذى كان يحترمه الجميع بالقدر نفسه والذى تميز بطبع صلب واستقامة رفيعة ، لم يتخذ اية تدابير قمعية لاجل بسط السكينة والهدوء بين البدو المشاغبين ؛ فقد كان يكتفي بأن يدفع لهم بدون اية مماطلة الاعانات المالية المتفق عليها ، وكان لا يتحيز لاى طرف ، وكان يلقى مسؤولية الأمن على شيوخ القبائل التى تشغل المنطقة المعنية .

الا ان عثمان باشا الذى برهن ان البدو ليسوا شعبا رهيبا كما كان الاتراك يصورونهم دائما ، لم يستطع ان يتعايش مع شريف مكة ؛ وبعد دسائس عديدة ، اقيل من منصبه .

التقسيم الادارى

كان الحجاز فى الازمنة الاولى من احتلاله من قبل الاتراك تابعا لمصر على الصعيد الادارى ، وكان حاكمه المسمى بك جدّة ، يقيم فى جدّة .

منذ سنة ١٥٥٤ ، صار الحجاز تابعا لليمن ، وصار حاكمه يسمى البيلار-بك الحبشى وبك جدّة .

منذ سنة ١٦٥٥ بدأ الوالى الحبشى يحكم الحجاز من سواكن .

فى السنة التالية انتقل مقر حاكم الحجاز من جديد الى جدّة ، واخذ

يتسمى حينا بوالى جدّة وحينا آخر ببك جدة ، وفى الوقت نفسه بشيـخ الحرم اى انه صار يشرف ايضا على المسجد الكبير فى مكة حيث توجد الكعبة.

منذ سنة ١٨٦٤ صارت مكة مركز الولاية الادارى الرئيسى ؛ وفى مكة يعيش حاكم هذا الاقليم ، والى الحجاز الذى هو ايضا شيخ الحرم * .

وفى الوقت الحاضر ينقسم الحجاز على الصعيد الادارى الى ثلاثة سناجق – سنجق مكة الذى يديره الوالى ؛ سنجق جدّة الذى يديره القائمقام ؛ سنجق المدينة الذى يديره العامل .

على رأس ادارة الولاية ، يوجد الى جانب الوالى الذى يعينه السلطان العثماني ، الشريف الذى يخضع له جميع سكان الحجاز . فى السنة الاولى من التاريخ الاسلامى ، عيّن النبى محمد (صلعم) لاجل ادارة مكة شخصا مميـزا بلقب «الامير» . وكان الامراء يعيّنون ايضا فى زمن الخلفاء الراشدين ؛ ومنذ القرن الخامس الهجرى اخذوا يسمونهم بالشرفاء ؛ وهذه الوظيفة المتواجدة بلا انقطاع حتى الوقت الحاضر صارت امتيازا وراثيا لقبيلة قريش . وللشريف مقر فى مكة . وعادة كان من النادر ان يتعايش الوالى والشريف بسـلام ووئام نظرا لتشابك وتشوش وظائفهما وصلاحياتهما .

القوات المسلحة

تحتفظ الحكومة التركية لدعم سلطتها فى الحجاز بالاعداد التالية مـن القوات المسلحة :

فى مكة	طابوران من الجنود النظامية (فى الطابور ٨٠٠ فرد)
	٣ طوابير من الضبطية الخيالة (الدرك)
	١ طابور من الضبطية المشاة
فى المدينة المنورة	٣ طوابير من الجنود النظامية
	١ طابور من الضبطية الخيالة
	١ طابور من الضبطية المشاة
فى الطائف	½ طابور من الجنود النظامية
فى جدة	½ طابور من الجنود النظامية
فى رابغ	½ طابور من الجنود النظامية
فى ينبع	½ طابور من الجنود النظامية

* كتاب «الحجاز» .

وفضلا عن ذلك ، يرابط فى النقاط المذكورة اعلاه فوج من مدفعية القلاع وفوج من المدفعية الجبلية . وفى منى رأيت بطارية ميدانية من اربعة مدافع . وفي البحر الاحمر توجد ست بواخر حربية * .

القوات المسلحة المرابطة فى الحجاز تدخل فى قوام الفيلق السابع الذى تتواجد اركانه فى اليمن (مدينة صنعاء) .

ان مد الوحدات العسكرية المرابطة فى الحجاز بالرجال يجرى على الاغلب من الاناضول . ومدة الخدمة ، نظرا للظروف المناخية الخارقة المشقة ، سنتان فقط ، رغم ان التسريح الى الرديف (الاحتياطى) ، كما سمعت ، لا يجرى فى حينه ، ولذا يخدم كثيرون ثلاث سنوات .

سلك الضباط ، من الاتراك والاكراد على الاغلب ؛ ولم اتلاق الا مع ضابط واحد من مواليد الجزيرة العربية . وبين الضباط من الرتب الدنيا ، عدد كبير جدا من الشيوخ ترفوا من رتبة الجنود العاديين .

بندقية «مارتينى» تشكل سلاح الرجال . المدافع فى البطاريات الجبلية نحاسية ، وتحشى من الخزنة ، وفى بطاريات الميدان ، فولاذية ؛ وفى القلاع مدافع قديمة من شتى الانظمة والعيارات .

وقد اضيفت الى تجهيز الرجال مناديل قطنية بيضاء سميكة ، مساحتها ١١/٢ ارشين ** مربع يلفون بها الرأس فوق الطربوش فى القيظ .

طعام الجنود ، كما سمعت ، مرضٍ ؛ واقول بالمناسبة انه تظهر فى بازارات مكة والمدينة المنورة اعداد كبيرة من ارغفة الجنود المخبوزة جيدا من طحين شبه ابيض ويشتريها الحجاج بطيبة خاطر .

اثناء اقامتى ، وزعت القوات المسلحة كما يلى : فى الرأس الاسود والبحرة ، حيث الطوابير ترابط موقتا حتى نهاية حركة الحجاج ، فى خيام سيئة جدا ؛ فى مكة ، ترابط العساكر فى ثكنات فى قلعتين صغيرتين ؛ فى رابغ ترابط فى منشآت ضمن القلعة ؛ وفى المدينة المنورة ، ترابط فى ثكنات حسنة المنظر ولكنها قذرة جدا فى الداخل كما رووا لى ؛ واخيرا ، فى ينبع ، تعيش فى الخيام .

نسبة الامراض ونسبة الوفيات بين الجنود ، كما يقول الجميع ، كبيرتان جدا ؛ فان المناخ غير المألوف يمارس تأثيرا فتاكا . ورأيت فى مكة والمدينة المنورة وجدة (فى خارج المدينة) مستشفيات عسكرية لعلاج المرضى .

---

* كتاب «الحجاز» .

** الارشين=٧١ سنتمترا . المترجم .

وقد سمعت من السكان المحليين شكاوى من السرقات الصغيرة التـى يقترفها الجنود من الدكاكين ومن المحال التجارية الاخـــرى . وقد فسّر السكان ذلك قائلين : «لا يعطونهم ما ينبغى ولذا يسرقون» .

والجنود لا يتحلون ابدا بهيئة عسكرية جيدة ، الامر الـــذى يفسره ضباطهم الذين تسنى لى ان اتحدث معهم بقصر مدة الخدمة وبالمناخ الحار الذى لا يتيح تدريبهم كفاية .

فى الطريق من الرأس الاسود الى مكة ، عرّجت على احد المخافر الواقعة على هذه الطريق والحديثة البناء . يشغل المخفر برجا مستديرا واحدا فقـط قطره وعلوه زهاء ٨ ارشينات . المدخل يسده باب خشبى سميك ؛ فى الجدران مزاغل ضيقة اى نوافذ يمكن استعمالها بشكل مريح ومناسب ، بالوقوف على الواح خشبية للنوم مبسوطة بمحاذاة الجدران . وداخل البرج يوجد مخرج الى سطح منبسط ينتصب عليه جدار ارتفاعه نحو ارشينين — وله ثغرات لاجل اطلاق النار . وعلى السطح منصة وسقيفة لاجل الحارس .

هذا الانشاء لاجل المخفر بدا لى عقلانيا جدا نظرا للظروف المحلية .

كان فى المخفر ٨ جنود (عادة ١٠—١٢) بامرة ضابط صف (جاويش) . وتبين من حديث هذا الجاويش الذى يخدم هنا للسنة الثالثة ان نهب المارة يجرى على الدوام ، واحيانا حتى على مرأى من المخفر . ونظرا لقلة الرجال ليس دائما يستطيع المخفر ان يهب الى النجدة . واحيانا تجرى عمليـــات الهجوم والنهب بدرجة من السرعة بحيث انه قبل ان يفلح رجال المخفر فـى تقديم المساعدة يكون الاشقياء قد تواروا فى الجبال ؛ وليس للمخفر اية وسائل للملاحقة .

ميزانية الحجاز

من المسلم ان الحجاز من افقر الولايات العثمانية ، وانه لا يتسم بجانب من الاهمية الا لأن المدينتين المقدستين بنظر المسلمين — مكة المكرمة والمدينة المنورة — تقعان فيه .

فى الطبعة الاخيرة لحولية «الحجاز» لعام ١٣٠٦ هجرى ، تبلغ الواردات لسنة ١٣٠٤ في الولاية ١٥٥٩٨١٥ قرشا ، منها :

رسم الانتاج	٢٥٠ ٢٠٠	قرش
رسم الوزن	٣٠ ٠٠٠	»
من استثمارات صيد السمك	٥٦ ٠٠٠	»
رسم الدخول	٩٨٦ ٦٢٩	»
الزكاة	١٣٩ ٠٤٥	»
رسم النقل	٣٩ ٥٠٠	»
رسم المرافئ	٣٦ ٣٠٠	»
واردات مختلفة	٢٢ ١٣١	»

النفقات فى السنة ذاتها :

الشؤون الداخلية	٥ ٧١٧ ٤٢٢	قرشا
المالية	٤ ٣٣٩ ٧٥١	»
العدلية	١٣ ٩١٦	»
التعليم العام	٥٢ ٧٦٨	»
التدابير الصحية	٧٦ ٧٠٠	»
البريد والبرق	٢١ ٦٤٠	»
القوات المسلحة	٦ ٩٦٣ ٤٥٠	»
الدرك	٥ ٥٥٧ ٤٧٧	»
البواخر الحربية	٧٦٥ ٢٠٨	»
الحاصل	٢٣ ٥٠٨ ٣٣٢	قرشا

الفصل الثانى

اساليب وسبل حركة الحج فى الحجاز

خصائص ظروف المواصلات

نظرا لمخاطر الطرق فى الحجاز ، تجرى المواصلات هنا فى ظروف خاصة . الطريق بين مكة وجدّة هى الطريق الوحيدة التى من الممكن عبورها فى اى وقت من السنة وجماعات غير كبيرة ، وان يكن ببعض الخطر ، ومرد ذلك الى حمايتها ؛ اما الطرق الاخرى ، فان حركة السير عليها لا تجرى الا بجماعات كبيرة وفى وقت معين من السنة وبتدابير احتراس خاصة .

القافلة والركب

لاجل النقل يستعملون فى المعتاد بعيرا — اما بعيرا للنقل (جملا) ، وفى هذه الحالة يشدون الى ظهره سلتين (قفتين) لهما ، لاجل التظليل ، ضرب من خصين ، ويسميان بالرحل ، واما بعيرا خفيفا (هجينا) يشدون على ظهره سرجا فقط . وعدا الرحال يوجد ايضا ما يسمى «التختروان» — اى اكشاك معلقة بين عريشين طويلين . وتختروان يتطلب جملين للنقل غالبا ما يستبدلونهما نظرا لثقل هذه المنشأة الكبير ، ولذا يكلف النقل عليهما غاليا جدا ، الامر الذى لا يستطيعه سوى كبار الاغنياء .

ومن الجمال يؤلفون قوافل كبيرة نوعا ما بقيادة «المقوّمين» (قافلة باشى) ؛ اما الهجائن ، فيشكلون منها ركبا يقوده على طول الطريق كله شيخ ينتخبه المسافرون انفسهم عند الانطلاق .

ونظرا لمخاطر الطريق ، تسير القوافل عادة فى النهار ، وتنطلق فى الصباح الباكر وتتوقف تبعا لطول المرحلة . وتشكل جمال كل مقوّم مجموعة منفردة تصطف وفقا لعرض الطريق ، فى ثلاثة او اربعة خطوط متوازية . وتسير المجموعات بحيث لا تكون بعيدة بعضها عن بعض . والمقوّم نفسه يمضى عادة على ظهر هجين ، اما سواقو الجمال ، فانهم يمضون دائما سيرا

على الاقدام مهما كان الطريق طويلا ، لأن الرحال (الشقادف) التى تشغل مكانا كبيرا من حيث العرض غالبا ما تتصادم ، فلا يندر ان يتعرض الجالسون فيها لانقلابات غير مستطابة ابدا . وفى اوقات القيظ من السنة ينطلق الركب بحكم الضرورة ليلا وذلك فى الساعة الواحدة او الثانية ، ويتوقف حوالى الساعة السابعة ، ثم ينهض حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ويسير حتى الساعة ٨ او ٩ مساء .

وكما فى القوافل ، كذلك فى الاركب لا يطلقون الجمال للرعى اثناء الوقفة ، بل يقعدونها فى الحال ويقدمون لها العلف ، وذلك حوالى ١٥ رطلا فقط فى اليوم الواحد بكل جمل موزعة على ٣ مرات ؛ ويسقونها حسب الامكان مرتين فى اليوم .

السير على الهجائن يجرى بسرعة نسبية — ٥٠ — ٨٠ فرستا فى اليوم ، ولكن السفر عليها متعب للغاية ، ولا يجرى الا بين مكة والمدينة المنورة ، ومن المدينة المنورة باتجاه بغداد والبصرة ؛ اما سفر القوافل ، وان يكن بطيئا جدا — ٣ — ٣١/٢ فرستا فى الساعة ، ناهيك بان قطع المرحلة يدوم احيانا ٢٠ — ٢٥ ساعة ، فهو على العكس اسهل اذ ان الشقادف تعتبر مكيفات مريحة نسبيا يمكن ان تتوفر فيها الحماية من الشمس او ان يتمدد فيها المرء تماما .

عادة تجرى حركة القوافل والركب فى غضون ٤—٥ اشهر من الحج وفى شهر رجب حين يقوم سكان مكة بالحج الى المدينة المنورة ؛ اما فى الوقت الباقى ، فيتوقف كل اتصال .

حين تنطلق قافلة من مكة او من المدينة المنورة او من ينبع ، فان السلطات التركية تأخذ احيانا من المقوّمين رهائن خاصة تبقى قيد الاعتقال الى ان يأتى نبأ عن وصول القافلة الى مقصدها ، ثم يطلقون سراحهم بصرف النظر عما اذا كانت قد حدثت فى الطريق حوادث نهب وسلب فريدة ام لا .

البدو وعمليات النهب والاعتداء

خطر السفر يتلخص امّا فى عمليات النهب الصغيرة التى يقوم بها البدو ، وامّا فى اعتدائهم السافر على القوافل ، واما فى المقاومة المسلحة التى تبديها بعض القبائل لمرور القافلة فى اراضيها .

فى الطريق بين مكة وجدّة ، حيث الحركة دائمة ، تشكلت من شتى الاوباش عصابات كاملة من قطاع الطرق تنهب وتسلب على الدوام رغم وجود

المخافر . امّا فى الطرق بين مكة والمدينة المنورة وينبع ، فان هذا الشر يتطور اثناء حركة الحجاج ؛ فان قبائل برمتها تتعاطى السلب والنهب ، دون ان تعتبر البتة ذلك جريمة ، وتبيع علنا وبكل حرية ما تحصل عليه من الاشياء بهذه الطريقة . واثناء احدى الوقفات فى الطريق بين مكة والمدينة المنورة ، ظهر بدوى من بطن لحابة واخذ يتنقل على الركب كله عارضا بيع سلاح وحزام والبسة حج وغير ذلك ، وبدلة حاج قتله قبل ذاك ، الامر الذى اعترف به بنفسه على المكشوف . ورغم السعر التافه الذى طلبه ، لم يعمد احد من الركب الى شراء المعروض . لقد اصبح نهب الحجاج حرفة مفيدة ؛ وكما كان التكنيون * يقولون فى الازمنة الغابرة لدائنيهم : — «انتظر قليلا ، سأذهب الى بلاد الفرس لاجل نهب المال وادفع دينى» ، كذلك البدو يطمئنون دائنيهم قائلين : «اصبر حتى وصول الحجاج ، انهب احدا منهم وادفع دينى» .

ان البدو الذين يتعاطون النهب والسلب يتتبعون القافلة كما تتتبع الذئاب الجائعة القطيع ، متخفين نهارا فى مكان ما فى الجوار ، ملاحظين المسافرين المتخلفين ، وخارجين الى القيام بعملهم عند هبوط الليل . وحين تتوقف القافلة فى الظلام لاجل الراحة ، ويحدث فى هذه الحال الهرج والمرج العادى ، يتسنى لهؤلاء الضوارى ان يختلطوا مع اهل القافلة ويقطعوا الزنانير التى تحفظ فيها النقود عادة ، صاعقين مسبقا بضعة اشخاص بضربات على القفا بالهراوة ، الامر الذى غالبا جدا ما يسفر عن الموت . وعندما تكون القافلة قد وقفت وهدأ الهرج والمرج ، واضيئت المحلة بالمشاعل ، يترصد هؤلاء الاشرار المسافرين الذين يتنحون لقضاء حاجتهم ويبتعدون بدون احتراس ، ونادرا ما يعودون . وفيما بعد ، حين تغفو القافلة ، يعمد هؤلاء البدو الى السرقة ، متسللين خفية ، ويسلبون كل ما تقع عليه ايديهم . وهناك كثيرون يعتقدون ، وليس دون مبرر ، ان مقترفى اعمال النهب والسلب هم سواقو جمال القافلة بالذات الذين ، كما يقال ، يعرفون جيدا جدا الاشرار ، ويعطونهم التعليمات بصدد من ينهبون وكيف ، وما الى ذلك ؛ ولهذا يحاول المسافرون بجميع الوسائل ان يستميلوا سواقى الجمال فى قافلتهم ، باعطائهم يوميا البخشيش ، وبقايا الطعام ، وما شاكل .

والاتراك هم ، لسبب ما ، اكثر من يعانون من عمليات السلب والنهب هذه ؛ وفى هذه السنة ، بلغ عدد القتلى من الحجاج ، اثناء سير قافلة من

---

* احدى القبائل التركمانية الكبيرة . الناشر .

الحجاج من المدينة المنورة الى مكة المكرمة زهاء ٥٠ شخصا ، وبلغ فى طريق العودة ١٠ اشخاص ، والقتلى جميعهم تقريبا من الاتراك . ومرد ذلك ، كما يفسرون ، الى ان الاتراك المسلحين دائما يتنحون بلا احتراس عن القافلة آملين فى سلاحهم ، ويرفضون التكرم بالبخشيش على سواقى الجمال فى قافلتهم ، ويحملون ، لما فيه اغراء البدو ، زنانير ضخمة جدا ؛ ولكن كره العرب العام للاتراك يلعب هو ايضا ، اغلب الظن ، دورا معينا فى هذا المجال .

فى هذه السنة ، لم يتضرر سوى مسلم واحد من رعايا روسيا ؛ ففى الليل ضربوه بحجر اثناء الوقفة فى جوار رابغ . ولكنه اصيب بخدش بسيط فقط ؛ وفى الليل نفسه سرقوا منه كيسا كان فيه كل ما يملكه . وقد عرفت بهذه الحادثة فى الطريق من المدينة المنورة الى ينبع ؛ صحيح ان المتضرر تقدم من القائمقام بشكوى عند وصوله الى ينبع ، ولكن الشكوى لم تلق قبولا لأنها لم ترد فى الوقت المناسب . وهذا الحاج اكمل الطريق الباقى باموال مواطنيه . وعمليات نهب المسلمين من رعايا روسيا نادرة جدا على العموم ، وذلك جزئيا بفضل المقوّم العجوز محيسن الذى يقوم منذ اكثر من ٤٠ سنة بنقل الحجاج الروس ويعرف كيف يردع بدويّيه ؛ ولربما ايضا بفضل سحر الاسم الروسى .

وهناك امثلة على الاعتداءات السافرة على القوافل . وهذا ما يحدث عندما يمرّ المقوّم عبر منطقة القبيلة المعادية له . وفى مثل هذه الاحوال تتلخص مهمة المقوّم ، اما فى عقد الصلح او فى شق طريق له بالسلاح عبر الارض المعادية . وفى شهر نيسان (ابريل) من السنة الجارية وقع فى جوار رابغ اعتداء من هذا النوع على قافلة محيسن المذكور اعلاه ؛ وقد تسنى لرجاله المتفوقين عددا صد الاعتداء . ولم يسمع الحجاج غير صفير الرصاص ؛ وكان نصيبهم الخوف وحسب . وفى سنة ١٨٩٥ ، وقع اعتداء مماثل ؛ ولكن بعد تبادل اطلاق النار زمنا طويلا ، تجمع المتعادون فى حلقة وعقدوا الصلح .

وهناك ظاهرة اخطر ، هى حجز جميع القوافل بسبب عدم دفع الاعانة المالية التى وعدت بها الحكومة التركية لبعض القبائل المشاغبة التى تشغل الطريق بين المدينة المنورة وينبع . ان البدو ، كما سبق ان اشرنا ، يعتبرون انفسهم الاسياد الحقيقيين لمناطقهم ، ويعتقدون على هذا الاساس انه يحق لهم ان يجيزوا او يمنعوا ان تمر فى اراضيهم القوافل التى للسلطات مصلحة بهذا النحو او ذاك فى سلامتها . وفى هذه الاحوال يرسلون لاجل

التفاوض وسطاء من ممثلى القبائل المجاورة المحترمين ، ولكن ليس دائما يبلغ هؤلاء الهدف المنشود . وفى سنة ١٨٩٧ ، ابقى بنو حرب الطريق بين ينبع والمدينة المنورة مغلقة طوال ثمانية اشهر ، فارتفعت اسعار جميع سلع الضرورة الاولية — الشاى ، السكر ، الطحين ، الكاز ، وخلافها — بضع مرات فى المدينة المنورة .

ويعتبر العرب انفسهم ان الشريف الحالى ووالى الحجاز الحالى مسؤولان عن الاساءات المذكورة اعلاه ، اذ انهما لا يعطيان البدو ما يحصلان عليه لاجلهم ولا يتخذان اجراءات اخرى اشد فعالية لوضع حد لنزواتهم .

المحملان السورى والمصرى

نظرا لمخاطر الطريق ، يلجأون من سحيق الزمان الى ارسال قوافل الحجاج كل سنة الى مكة والمدينة المنورة لمناسبة زمن الحج ، بحيث تكون قوافل كبيرة جدا ، ويحميها خفر قوى ، ويسير على رأسها محمل . وباسم المحمل كان يسمى من قبل البعير الذى كانت اسرة النبى (صلعم) تقوم عليه بفريضة الحج من المدينة المنورة الى مكة المكرمة ؛ وفيما بعد ، اخذوا يطلقون هذا الاسم على خيام مزينة ببالغ الغنى محمولة باحتفال خاص على جمال معدة خصيصا لها .

احد المحامل — المحمل السورى — ينطلق من دمشق ، حيث يتجمع قبيل انطلاقه عدد كبير من الحجاج ، سواء من سوريا ذاتها ام من الاناضول وبلاد فارس المجاورتين . وتخصص لحماية القافلة فصيلة خاصة تألفت فى سنة ١٨٩٨ من ٥٥٠ شخصا من الخيالة بينهم ١٥٠ شخصا على الهجائن و٢٠٠ من الضبطية الخيالة ، بصحبة مدفعين جبليين ، وبرئاسة باشا خاص يعهد اليه بان ينقل الى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، عدا مختلف الاشياء لاجل الحرمين فى هاتين المدينتين ، مبالغ مالية لكل نفقة الولاية السنوية . وعادة يقطع المحمل السورى الطريق الى المدينة المنورة فى غضون ٢٧—٣٠ يوما ، ومن المدينة الى مكة فى غضون ١٢ يوما ؛ وبعد انتهاء المراسم ، يعود فى الحال الى دمشق بالطريق ذاته .

المحمل الآخر — المصرى — ينطلق من القاهرة . قبل ان يحتل الانجليز القطر المصرى ، كان المحمل ينطلق فى طريق البر عبر السويس والعقبة والوجه وينبع ورابغ الى مكة ويعود بالطريق ذاته ، معرجا على المدينة المنورة . اما الآن فينقلون المحمل المصرى من السويس الى جدّة بالباخرة ،

ويعيدونه عبر المدينة المنورة الى الوجه حيث تنتظره باخرة خاصة . ومع المحمل المصرى ينقلون «الكسوة» المهيئة كل سنة فى القاهرة ، وهي غطاء حريرى اسود لاجل الكعبة . وفى سنة ١٨٩٨ وصل المحمل المصرى الى جدة ودون اية حماية لأن الانجليز ، كما شاع ، لم يوافقوا على اعطاء العساكر ؛ ولذا خفرته فصيلة تركية فى ربوع الحجاز .

فى القرن العاشر الهجرى كان ينطلق محمل آخر من مدينة حيس (١) فى اليمن ،ولكنه توقف فيما بعد .

قبل تطورالملاحة بالبواخر وشق قناة السويس كانت المحامل تتسم باهمية هائلة بالنسبة للحج. فآنذاك كانت دمشق والقاهرة تشكلان نقطتى التجمع الرئيسيتين بالنسبة لجميع الذاهبين الى الحجاز من الشمال ومن الغرب ؛ ولكن اذا كان المحمل قد احتفظ فى الوقت الحاضر ببعض الاهمية ، فهو المحمل السورى فقط .

سبل الحجاج فى الحجاز

ان السبل فى الحجاز هى بوجه الحصر دروب لمطايا الحمل ؛ اما الحركة على العجلات ، حتى ولو توفرت المركبات ، فيحول دونها الرمل الواعس فى بعض الانحاء واحيانا انهيالات الحجارة . والسبيل الوحيد الممكن لاجل حركة العجلات هو السبيل بين جدّة ومكة ومنها حتى عرفات ؛ وفى هذا الاتجاه ينطلق الشريف والوالى اللذان يملكان وحدهما المركبات فى الحجاز ويسافران بالعربات المكشوفة .

تربة جميع الطرق رمل خشن جدا ، مكثف فى المعتاد ، ونادرا ما يكون وعسا جدا . والطرق فى كل مكان ، بجوار الجبال ، تتناثر فيها احجار متفاوتة الكبر ؛ اما الفجاج الضيقة والمعابر ، فتعترضها كسور من الصخور تصعّب الحركة كثيرا .

وعلى الاغلب يستعملون فى الطريق ماء الآبار ؛ والآبار تختلف كثيرا من حيث العمق - من ٥ ساجينات الى ١٥ ساجينا ؛ وهى اسطوانية الشكل ، وقطرها كبير ٢/١-٣ ارشينات ، وجميعها ملبسة جيدا بالحجارة ومزودة فى غالب الاحيان بمزاريب من المادة نفسها لاجل السقاية . ويستقون الماء بقرب جلدية كبيرة يعلقونها بالحبال ، علما بان عرض الآبار يتيح لبضعة اشخاص العمل فى آن واحد . ونادرا ما تقع العين على ادوات من نوع البكرات الخشبية .

وبحكم العادة عند البدو ، يستطيع جميع المارة ان يستقوا الماء من الآبار بلا عائق ومجانا ؛ اما الماء من الصهاريج ، فلا يمكن الحصول عليه الا بالشراء ، بدفع الثمن .

وقد تسنى لى شخصيا ان اسافر من الرأس الاسود (وتقع على ساحل البحر جنوبى جدّة على بعد زهاء ٢٠ فرستا) الى مكة ومنها الى عرفات ثم من مكة فى طريق غاير الى المدينة ومنها الى ينبع . اما الطرق الاخرى ، فكنت استفيد بصددها من المواصفات التى وضعها محمد صادق باشا الذى قاد مرارا المحمل المصرى والذى عبر جميع الطرق الرئيسية فى الحجاز .

الطريق من جدّة الى مكة ومنها الى عرفات

الطريق بين جدّة ومكة هو اكثر السبل انتعاشا وانسبها فى الحجاز ؛ طوله زهاء ٧٠ فرستا ؛ وتحرسه على كل امتداده مخافر يضم كل منها ١٠–١٢ رجلا ، ويبعد الواحد منها عن الآخر ٥ فرستات تقريبا . وفى النقاط التى يتوفر فيها الماء ، توجد سقائف من القصب ، وهى ضرب من خانات قهوة اى مقاه يمكن الحصول فيها على القهوة والشاى . وعلى طول الطريق ، يستخرجون الماء من الآبار ؛ وطعم الماء فى النصف الاول من الطريق حتى حدة غير مستطاب فى كل مكان . وبمحاذاة الطريق ينطلق الخط التلغرافى الواصل حتى مكة على اعمدة جيدة من الحديد الصب ، ومنها عبر عرفات الى مدينة الطائف على اعمدة خشبية .

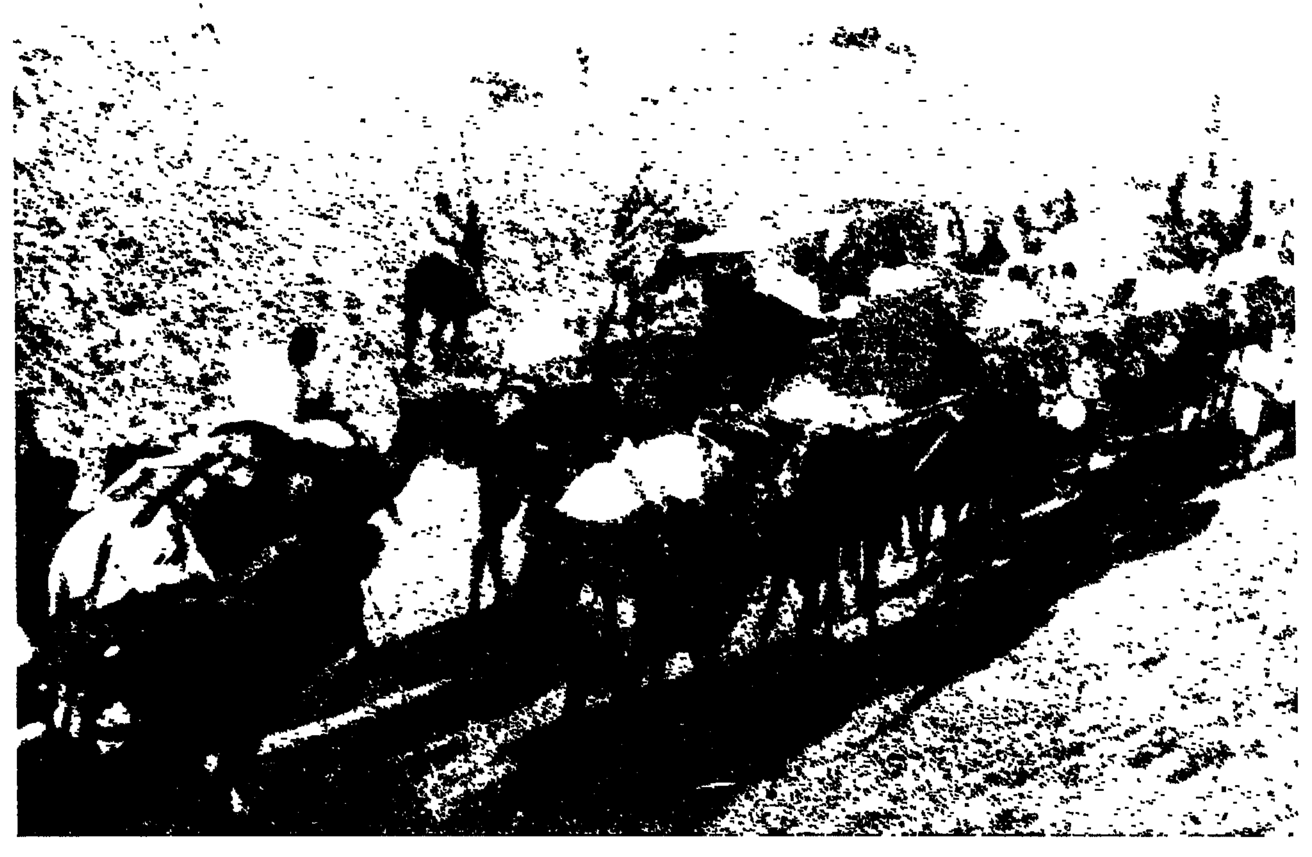
من جدّة الى البحرة ، تتجه الطريق شرقا ، وتتصاعد بصورة غير ملحوظة ، وتعبر قاعا منبسطا لواد عريض محاط بجبال غير عالية ، مغطاة هنا وهناك باجمات من العشب القاسى والشجيرات الشائكة «الشوك» ؛ والتربة صلبة فى كل مكان . وعلى بعد ٦ فرستات تقريبا عن نقطة الانطلاق ، تقع اول قهوة فى الرأس القائم ، وتقع «القهوة» التالية فى رغامه ، على بعد ٤ فرستات تقريبا ، ثم ، على البعد ذاته ، قهوة جراده ، ثم على بعدين متساوين ، زهاء ٢١/٢ فرستا ، قهوة فرقاد وقهوة عوض ؛ وعلى بعد ٦ فرستات تقريبا من عوض يدخل الطريق وادى فاطمة العريض وينعطف الى الشمال الشرقى ، متواجدا دائما فى وسط الوادى المذكور . وعلى بعد ١٥ فرستا من عوض تنع بلدة البحرة العربية ، فى وسط الطريق الى مكة تقريبا ؛ وفيها مقر الطابور الذى يحرس الطريق . ويحتفظ الطريق بالاتجاه الشمالى الشرقى ، فى وادى فاطمة ويصل على بعد ٧ فرستات عن البحرة الى

حدّة ، — وهذه اول بلدة فيها بساتين . صحيح ان الماء فى حدّة عـذب نسبيا ، ولكنه يعج بحشرات ما . وعلى بعد ٢ فرستا تقريبا عن هذه النقطة الاخيرة ، يمضى الطريق فى الرمال ثم ينعطف من الوادى صوب الشرق ، ويحتفظ عموما بهذا الاتجاه حتى مكة بالذات ، ويتلوى بين الجبال ، متحاشيا المرتفعات والمنحدرات ؛ وبدءا من حدّة ، تتزايد الجبال علوا بصـــورة تدريجية ، وتتزايد الفجاج ضيقا ، ويصبح الماء اعذب . وعلى بعد ٤ فرستات تقريبا عن حدّة ، تقع سالم ، ثم على بعد ٩ فرستات ، تقع شميسى ؛ وبين هاتين النقطتين توجد علامة بصورة اعمدة مركبة من الحجارة تشير الى حدود الحرم . ثم تأتى مقتله على بعد ٤ فرستات ، ثم على بعد ٣ فرستات تأتـى بستان ، وعنها تبعد مكة زهاء ٥ فرستات ؛ فى المرحلة الاخيرة يتميز قاع الفجاج ، الذى تمر به الطريق بتعرجات كبيرة لا يمهدها الماء ؛ ومرد ذلك الى ان التربة صخور بصخور . وفى مثل هذه الاماكن ، نحت الناس من قديم الزمان على كل عرض المضيق درجات عريضة تصعّب التحرك على العجلات ولا تسهل التحرك على مطايا الحمل ايضا ؛ وعلى مثل هذه الدرجات تقع العين فى كثير من الطرق فى ضواحى مكة والمدينة المنورة .

المسافة بين جدّة ومكة تقطعها القوافل عادة فى غضون يومين ، مع وقفة لمبيت الليل فى البحرة او فى حدّة ؛ اما المسافرون على ظهور الحمير فانه يتسنى لهم قطع المسافة فى يوم واحد .

وبعد مكة ، تنطلق الطريق ، مع احتفاظها بالاتجاه السابق ، ولكن مع تميزها بارتفاع اكبر ، فى قاع فج عميق وضيق ، هـو وادى المنـى ؛ الجبال المحيطة ، التى تبلغ علوا كبيرا ، تخلو من اية نباتات ، وتتـــألف حصرا من كتل صخرية . وعلى بعد زهاء ٧ فرستات من مكة ، يضيق الفج كثيرا (حتى ٢٠—٣٠ ساجينا) ، ثم يبدأ يتسع من جديد تدريجيا بشكـل قنينة ؛ وفى هذا الموقع المحصور بين جبال عالية ، تقع بلدة منى المؤلفة من زهاء ٢٠٠ بيت غير كبير ، لا يسكنها الناس الا فى غضون ٣ ايام مـن السنة ، اثناء الحج .

ومن منى يتسع الفج ، ويقل ارتفاع الجبال ؛ ويستمر طابـع المحلة هذا زهاء ٦ فرستات حتى المزدلفة التى لا تتميز الا بمسجد وحيد لا شأن له الا فى زمن الحج . وعلى بعد زهاء فرستا اثنين من النقطة الاخيرة ،يضيق الفج من جديد حتى ٤٠—٥٠ ساجينا ، وتمتد الطريق زهاء ثلاثة فرستات بين جدارين جبليين متوازيين وتخرج على وهدة رملية شاسعة ينتصب على طرفها الشمالى الشرقى جبل عرفات . والتربة على امتداد الطريق كله رملية ،



ـ قافلة من الحجاج بين جدة ومكة المكرمة.

وتغدو واعسة بدءا من منى . ويستعملون الماء من مجرور مكة الذى يمتد فى هذا الفج .

ان طريق الحج تنتهى فعلا عند عرفات ولكن الدرب الذى لا يجيز غير تحرك الحمير يستمر الى ابعد ، حتى مدينة الطائف ، عابرا جبل القرى فى محلة على علو ٥٨٢٠ قدما . وهذا الدرب هو فى الصيف اقصر السبل واكثرها انتعاشا بين مكة والطائف .

السبل بين مكة والمدينة المنورة

بين مكة المكرمة والمدينة المنورة توجد اربع طرق ، احداها تتلوى حول جبال الحجاز من الشرق ، والاخرى من الغرب . واختيار هذه الطريق او تلك عند الانطلاق من مكة يجرى عادة باشارة من الشريف الذى يعرف العلاقات بين مختلف القبائل كما يعرف على العموم وضع الامور بين البدو . وهناك طريق خامسة هى السبيل البحرى ولكن نظرا للمصاعب المذكورة اعلاه فى المواصلات بين ينبع والمدينة ، لا يستفاد فى السنوات الاخيرة من هذا الاتجاه مع انه اسهل .

فيما يلى اسوق اسماء النقاط التى تجد فيها القوافل المواقف فى المعتاد ؛ ولكن لا بد من الاشارة الى ان البدو الذين يملكون ما يكفى من القرب لاجل الماء ليس دائما يمضون فى هذه المسيرة ، وغالبا جدا ما يأخذون احتياطيا من الماء ويتوقفون ايضا ، حسب الظروف ، فى اماكن خالية تماما من الماء .

ان **الطريق السلطانى** هو بين الطرق الثلاثة الغربية انسبها واسهلها .

جميع القوافل والركب التى تنطلق الى المدينة المنورة تجتمع قرب جامع عمر الواقع على نحو خمسة فرستات الى الشمال الغربى من مكة المكرمة .

المرحلة الاولى حتى وادى فاطمة ؛ حوالى ٢٥ فرستا من مكة . يتجه الطريق الى الشمال الغربى بين كثبان الرمال التى تتخللها مرتفعات ومنحدرات طفيفة ، ويدخل قبل النقطة النهائية بزهاء فرستا اثنين الى مضيق وادى فاطمة الواسع الذى يتواجد قرب طرفه الغربى نبع كبير ذو ماء عذب وبساتين بالاسم نفسه تتوقف القوافل قربها .

المرحلة الثانية ، حوالى ٥٠ فرستا ، حتى آبار وبلدة اسفان وبئر الطفلة . التربة فى هذه المرحلة رمل وعس فى كثير من الاحيان ؛ والجبال الصخرية العالية التى تحيط بالطريق غالبا ما تفترق وتشكل سهولا رملية عريضة . وهناك كثرة من الاشجار ، واعشاب قاسية ، والسنا المكى . وقبل

اسفان توجد مزروعات شاسعة من الذرة الصفراء والقرعيات . الماء فى الآبار ممتاز ، ووفير . وفى القرية يمكن شراء البيض والحليب والخبز . وهنـــاك اكواخ بناها السكان من الاغصان والعشب الجاف يؤجرونها من عابرى السبيل لقاء مبلغ معين .

المرحلة الثالثة ، حوالى ٣٥ فرستا ، حتى نبع خليص . الطريق فـــى الفرستات الاربعة الاولى صعبة جدا ، وتمر فى شق ضيق جدا تسده الحجارة مع تربة رملية وعسة . على السفوح المجاورة تظهر ساحات كبيرة من قطاعات مطهرة من الحجارة ومعدة لاجل الزرع والسقاية بماء السماء . ثم يتجه الطريق بين مجموعات متفرقة من الجبال . التربة فى كل مكان رملية جدا ؛ النباتات كثيرة . فى خليص مزارع من النخيل والقرعيات .

المرحلة الرابعة ، حوالى ٣٥ فرستا ، حتى بئر وبلدة قضيمة . الطريق من خليص تنحرف ابعد الى الشمال ، وتتجه فى الفرستات الـ١٠ الاولى فى رمال وعسة . الجبال اقل ارتفاعا واكثر تفرقا . ثم يخرج الدرب الى شريط ساحلى مسطح ، متساو (تهامة) ، ويتجه بموازاة ساحل البحر ، بعيدا عنه زهاء ٦—٧ فرستات . التربة فى تهامة مناسبة جدا فى كل مكان لاجل الحــركة — رمل بحرى مرصوص دون نتوءات ووهاد واوقاط وما الى ذلك . غالبا ما تقع العين على شجيرات العُشَّر والاعشاب . قبل الوصول الى البلدة ، تنبسط مزارع القرعيات على جانبى الطريق . الماء فى الآبار مالح نوعا ما . وفـــى البلدة ، كما فى اسفان توجد اكواخ لاجل عابرى السبيل .

المرحلة الخامسة ، حوالى ٦٠ فرستا ، حتى بلدة رابغ . تنطلق الطريق دائما على ساحل البحر ؛ وهى مستوية تماما ومناسبة جدا لاجل الحركة . رابغ بلدة غير كبيرة تقع على بعد نحو فرستا اثنين من ساحل البحر . نظرا لموقعها فى عقدة طرق بين مكة والمدينة المنورة ، ونظرا لوجود اكثر البدو ميـــلا للشغب والتمرد بين الرحل ، واكثرهم تعديا وسلبا لقوافل الحجاج ، تعلق السلطات التركية عليها اهمية خاصة وتحتفظ هنا على الدوام بنصف طابور من القوات المسلحة المرابطة فى قلعة خاصة . وفى هذه البلدة ٣٦٩ نسمـــة و١١٦ بيتا مبنية من الطوب الاخضر . اثناء تحرك قوافل الحجاج يفتحون هنا زهاء ٦٠ دكانة تتاجر على الاغلب بالمؤونة . وفى البلدة سبع آبار ذات مـاء مالح نوعا ما ؛ ولذا يستقون الماء عادة من الصهاريج المقامة خارج البلدة . القوافل التى تعبر رابغ تتوقف عادة فى خارجها . من الجانب الشمالى والغربى تقع بلصق البلدة مزارع شاسعة من النخيل .

المرحلة السادسة ، حوالى ٢٥ فرستا . حتى بئر مستوره . تنطلـــق

الطريق باستمرار على شاطئ البحر ؛ وهي ملائمة جدا لاجل الحركة . بين آبار مستوره بئر واحدة فقط يصلح ماؤها للشرب .

المرحلة السابعة ، حوالى ٤٠ فرستا . حتى آبار بير الشيخ . تستمر الطريق على شاطئ البحر ، وتنعطف الى الشمال قبل الوصول الى الآبار المذكورة ، وتدخل الجبال . ماء الآبار عذب .

المرحلة الثامنة ، حوالى ٤٥ فرستا . حتى بلدة الصفراء . تنعطف الطريق صوب الشمال الشرقي وتستمر صعُودا في مضيق وادى الصفراء . في هذه البلدة زهاء ٥٠٠ نسمة ؛ وبفضل الينابيع توجد بساتين ومزارع ، وعلى الاغلب من النخيل ومن اشجار الليمون والحناء والفلسنك .

المرحلة التاسعة حتى آبار بير العباس ؛ حوالى ٤٠ فرستا . تنطلق الطريق في الفج نفسه الذى يزداد ضيقا بعد الصفراء . على بعد زهاء ١٠ فرستات من نقطة البداية تقع بلدة شبيهة ببلدة الصفراء ؛ اسمها الحمراء وهي بلدة ذات بساتين وماء عذب . على البعد نفسه عن النقطة الاخيرة ، بلدة الجُدَيْدة — وهي عبارة عن مجموعة من البيوت من الطوب الاخضر ، ولها نبع ذو ماء غير لذيذ وغير صحى ، وبضع مزارع من النخيل . قرب هذه النقطة ، يضيق الفج كثيرا ، حتى ٧ ساجينات في بعض الاماكن ، مع صخور عالية رأسية تقريبا ؛ واحد هذه الافاجيج يقع ادنى من البلدة بقليل ويسمى «بوغاز الجُدَيْدة» ، ويحظى بسمعة سيئة جدا من جراء قيام رجال قبيلة بنى حرب باعتراض طريق القوافل العابرة هنا . والبلدات الثلاث المذكورة آنفا تسترعى الانتباه بواقع انه يوجد بين اصحاب البساتين عدد كبير من الزنوج ، العبيد السابقين . وقرب بير العباس تشكل الجبال سهلا عريضا توجد في وسطه البئر ؛ وقرب البئر تنتصب قلعة مهملة كانت ترابط فيها فيما مضى حامية تركية لاجل حماية القوافل العابرة . وتوجد قلاع مماثلة في النقاط السابقة — الحمراء — الجديدة ، الصفراء . الماء في البئر جيد .

المرحلة العاشرة ، حوالى ٤٠ فرستا ، حتى آبار الشهداء . على بعد نحو فرستا واحد من بير العباس تدخل الطريق من جديد في مضيق ، هو هنا اقل عمقا ، واعرض ؛ ثم تتصاعد بشكل ملحوظ وتمر قرب آبار بير الراحة العذبة الماء الواقعة تقريبا في منتصف هذه المرحلة ، وتصل الى آبار الشهداء .

المرحلة الحادية عشرة ، حوالى ١٥ فرستا ، حتى آبار بير الشربوفي . تحتفظ المحلة بالطابع نفسه . الماء في الآبار عذب .

المرحلة الثانية عشرة حتى المدينة المنورة ؛ حوالى ٥٠ فرستا . منذ منتصف الطريق يتوارى المضيق ، وتتلوى الطريق بين جبال غير عالية . قبل

المدينة بنحو ١٠ فرستات ، تدخل الطريق من جديد فى مضيق واسع تظهر لمحاذاته آبار فى جوارها بساتين . ومجموعة من هذه الآبار تقع على بعد نحو ٥ فرستات من المدينة المنورة وتسمى بيار العلى ، وتشكل مكانا لاجل جمع القوافل المنطلقة من المدينة المنورة الى مكة او الى ينبع . النصف الثانى من الطريق المذكور اعلاه شحيح النبات ، باستثناء الساحل . ونادرا ما تقع العين على اشجار الشوك ، ومنها يقتطع سواقو الجمال العيدان لاجل الوقود اثناء الوقفات .

يبلغ الطريق السلطانى زهاء ٤٦٠ فرستا ، وهو ملائم لاجل حركة القوافل لخلوه من المرتفعات والمنحدرات الشديدة ، ولوفرة الماء الجيد فى الآبار ولكن غالبا ما يقع الاختيار على سبيل آخر اقصر ولكنه اصعب ، هو الطريق الفرعى ، تخوفا من ان يمنع رجال قبيلة بنى حرب من اجتياز الطريق السلطانى عبر بوغاز الجديدة .

ان الطريق الفرعى ينفصل عن الطريق السلطانى فى رابغ ، متجها الى اليمين صوب الشمال الشرقى ، ويدخل فى الجبال على بعد نحو ١٥ فرستا ؛ ثم يتجه بمحاذاة مضيق خرشان ويتصاعد حتى آبار رضوان (ذات الماء العذب) . طول هذه المرحلة السادسة ، اذا حسبنا بدءا من مكة ، حوالي ٥٠ فرستا .

المرحلة السابعة ، حوالى ٣٠ فرستا ، حتى بلدة ابو دباغ حيث يوجد نبع ومزارع من النخيل ؛ الطريق فى هذه المرحلة ضيق جدا بين الجبال ويجتاز افاجيج ضيقة .

المرحلة الثامنة ، حوالى ٢٥ فرستا ، حتى بلدة الريّان حيث يوجد نبع وبساتين . فى هذه المرحلة توجد كثرة من الينابيع تجاورها مزارع النخيل وبلدات صغيرة للبدو من قبيلة عوف .

المرحلة التاسعة ، حتى مضيق وادى الغدير العريض والخالى من الماء ؛ حوالى ٢٥ فرستا ؛ من الريّان يزداد الانحراف بروزا . على بعد ١٥ فرستا تقريبا مرتفع ضيق وصعب فى معبر رى الهيف ثم منحدر معتدل حتى الغدير .

المرحلة العاشرة ، حتى بئر الوايا ، حوالى ٣٥ فرستا . الطريق يتحاشى الجبال ، ينعطف بحدة صوب الشمال الغربى ، ثم يتجه شمالا بعد نحو ١٠ فرستات قرب بئر العظم ، حتى نهاية المرحلة .

المرحلة الحادية عشرة ، حوالى ٥٥ فرستا ؛ حتى المدينة المنورة . من الوايا يتجه الطريق الى الشرق حتى نقطة بئر الماشى الواقعة وسط سهل عريض تنتصب فيه قلعة تركية كبيرة مهجورة توجد فى جوارها بئر عذبة الماء . من هنا تنطلق الطريق بمحاذاة وقط عريض ، وتنعطف تدريجيا صوب

الشرق وتصل الى آبار بيار العلى حيث يتحد الطريق الفرعى مع الطريق السلطاني .

طول الطريق الفرعى زهاء ٤٢٥ فرستا ؛ والطريق غنى بالماء فى السفح الغربى من الجبال . بفضل كثرة القرى تتوفر كثرة من احتياطيات العلف . قبيلة عوف التى يمر هذا الطريق فى اراضيها اكثر مسالمة من قبيلة بنى حرب ، ولكن المرتفع من جهة رابغ حجرى جدا وعسير جدا .

الطريق التالث اقصر ايضا بعض الشيء ، ولكن نظرا للمعبر الصعب لا يصلح للحركة الا على ظهور الهجائن الخفيفة — اسم هذا الطريق طريق الغاير ، وهو ينفصل عن الطريق السلطانى ، مثل الطريق الفرعى ، فى رابغ .

المرحلة السادسة ، حوالى ٤٥ فرستا ؛ حتى آبار مُبَيْرِك . على امتداد ٨ فرستات تقريبا ، يتجه الطريق صوب الشمال الشرقى ويجتاز شريطا ساحليا ، مستويا ، ثم يدخل تلالا سفحية ، ويعبر افاجيج صغيرة ، ويدخل واديا عريضا دون ان يصل الى الآبار . فى هذه المرحلة تتواجد نتوءات حجرية غير ملائمة للعبور . الماء عذب تقريبا .

المرحلة السابعة ، حوالى ٤٥ فرستا ؛ حتى آبار الرصفة . الطريق يمر دائما فى مضيق متصاعد ذى انحدار طفيف . الماء غير لذيذ اطلاقا .

المرحلة الثامنة ، حوالى ٢٥ فرستا ؛ حتى اسافل جبال الغاير . الطريق يتجنب الفج الى اليمين ، وينحرف الى الشمال ويعبر بضعة نتوءات عالية ؛ وقبل زهاء خمسة فرستات من وصوله الى الجبال ، ينحدر الى سهل عريض رملى يتاخم الغاير ، ويمتد فى هذا السهل ، وينعطف بمحاذاة الجبال صوب الشمال الغربى . لا ماء .

المرحلة التاسعة ، حوالى ٧٠ فرستا ، حتى بئر الماشى . يبدأ صعود الجبال فى الاتجاه الشمالى الشرقى بمحاذاة مضيق غير كبير ؛ طول الصعود زهاء ١٠ فرستات ؛ الطريق فى البدء ينحدر تدريجيا ، ثم ، فى الفرستات الستة الاخيرة ، يشتد انحداره ، ويتلوى بين كتل كبيرة من الحجارة . الصعوبة الكبرى لا تشكلها المنحدرات الكبيرة (لا تربو على الخُمس) ، بل تشكلها هذه الحجارة المتراكمة فى بعض الاماكن بصورة حيود ، والتى تترك فى اماكن اخرى ممرا ضيقا جدا بحيث ان الجمل ينقل قوائمه بصعوبة . ولا يمكن الصعود الا بالترجل ، سيرا على الاقدام . والمعبر نفسه بصورة نتوء يفترق من جانبيه فجان ؛ وفى المعبر ، آبار عميقة محفورة فى الصخر لاجل تكديس ماء المطر . النزول فى المضيق الواسع معتدل جدا ؛ وهناك كثرة كثيرة من اجمات اشجار الشوك الكبيرة ، وكذلك كثرة من الساحات الافقية

المحضرة بواسطة جدران داعمة والمعدة لاجل المزروعات . اثناء الوقفـة ، تستعمل الركب ماء المطر من الخزانات القائمة على بعد نحو فرستا اثنين من الطريق . فى بئر الماشى تلتقى طريق الغاير مع الطريق الفرعى .

المرحلة العاشرة ، حوالى ١٥ فرستا ؛ حتى المدينة المنورة . طـول طريق الغاير زهاء ٤٠٠ فرستا . والطريق — عدا الصعود الصعب فى المعبر من جهة رابغ وبعض النتوءات الحجرية عند دخول الجبال — مناسب جدا لاجل الحركة على كل امتداده الباقى . الجانب المطل على البحر غنى باجمات الشوك ؛ امـا الماء فقليل ، وسيىء جدا . وهذا اقصر طريق بيـن مكة والمدينة المنورة ، ويمكن اجتيازه بدون صعوبة خاصة على الهجائن فى غضون خمسة ايام . يقولون انه يمكن فى الحالات الاستثنائية قطع هذه المسافـة على الهجائن ذاتها فى يومين . الغاير طريق تاريخى ؛ فعليها هاجر محمد (صلعم) فى سنة ٦٢٢ من مكة الى المدينة المنورة .

الطريق الرابع بين مكة والمدينة المنورة يدور حول الجبال من طرفهـا الشرقى ويمتد على الحدود بين الحجاز ونجد ؛ وهو يسمى الطريق الشرقى .

المرحلة الاولى ، حتى بلدة وادى الليمون ، حوالى ٣٥ فرستا . الطريق يمتد بين جبال عالية فى الاتجاه الشمالى الشرقى . ولهذا الوادى ، كما لوادى فاطمة ، ماء جار بفضله يتعاطـى البدو المحليـون زراعـة الخضراوات والقرعيات ، مزودين مكة بالبطيخ والخضراوات .

المرحلة الثانية ، حوالى ٣٠ فرستا ، حتى بئر المضيق ذات الماء المالح نوعا ما .

المرحلة الثالثة ، حوالى ٥٠ فرستا ، حتى وادى البركة . على بعـد زهاء ١٥ فرستا عن البئر السابقة ، عند الخروج من الجبال ، توجد حفـرة يتجمع فيها ماء المطر ، اسمها الحفائر ومنها تأخذ القوافل احتياطيات المـاء لاجل مواصلة الطريق ، لانه لا وجود للماء فى البركة .

المرحلة الرابعة ، حوالى ٥٠ فرستا ، حتى بئر الحاضه الطريق ينعطف صوب الشمال بدءا من النقطة السابقة ؛ وبما ان الحاضه تقع فى الجبال ، فان الطريق ينعطف صوب الشمال الغربى ويصل الى هـذه الآبـار ذات الماء العذب .

المرحلة الخامسة ، حوالى ٦٠ فرستا ، حتى الآبار ذات الماء العذب فى سفيان . يخرج الطريق من جديد الى طرف الجبال ويتجه شمالا .

المرحلة السادسة ، حوالى ٧٥ فرستا ، حتى آبار الحجرية .

المرحلة السابعة ، حوالى ٣٠ فرستا ، حتى آبار غراده ؛ لماء هـذه

الآبار رائحة الكبريت ، ولكنه يتواجد فى كل مكان على عمق غير كبير — مقدار ارشين او ارشينين .

المرحلة الثامنة ، حوالى ٦٠ فرستا ، حتى حفرة «حنك» او «غدير» ، التى يتجمع فيها ماء المطر . فى هذه المرحلة يتجه الطريق صوب الشمال الغربى .

المرحلة التاسعة ، حوالى ٣٥ فرستا ، حتى المدينة المنورة . ينعطف الطريق الى الغرب ، ويدخل الجبال ، ويمضى فيها حتى المدينة المنورة بالذات .

الطريق الشرقى البالغ طوله زهاء ٤٠٠ فرستا يمر فى محلة اكثر خلوّا من الماء ، ولذا يستعملونه بصورة نادرة نسبيا ، وذلك حين تكون الطرق الاخرى فادحة الخطورة بسبب اعتداءات البدو ، رغم انه توجد فى هذا الطريق ، كما يقولون ، كثرة من الاعشاب لاجل الجمال ، ورغم ان الحر هنا فى الصيف اخف .

الطريق بين المدينة المنورة وينبع

بين المدينة المنورة وينبع يوجد طريق كبير للقوافل يتطابق اتجاهه حتى بلدة الحمراء مع اتجاه الطريق السلطانى .

على بعد زهاء ٣ فرستات عن الحمراء ، تخرج الطريق من مضيق وادى الصفراء وتنحرف الى الشمال الغربى وتمضى فى هذا الاتجاه حتى بئر السيّد ، وغالبا ما تقطع نتوءات حجرية غير عالية . من الحمراء الى بئر السيد حوالى ٣٥ فرستا ، الماء فى الآبار جيّد .

من البئر المذكورة آنفا تمتد الطريق فى الاتجاه ذاته وبطابع المحلة ذاته زهاء ٣٠ فرستا ، وتخرج على شريط ساحلى مستو ، ثم تتصل بالسبيل المنطلق بمحاذاة شاطئ البحر وتنعطف فى الاتجاه الشمالى الغربى بموازاة الشاطئ ، وتصل على هذا النحو الى ينبع بالذات . طول هذه المرحلة الاخيرة زهاء ٧٥ فرستا .

طول الطريق كله من المدينة المنورة الى ينبع زهاء ٢٣٠ فرستا . والقوافل تقطعه عادة فى خمسة ايام ؛ وكما سبق ان قلنا ، غالبا ما يقطع رجال قبيلة بنى حرب هذا الطريق فى افاجيج الجُدْيدة ، ولهذا يفضل الحجاج فى بعض السنين العودة من المدينة المنورة الى مكة لكى يغادروا الحجاز عبر جدّة . وان احتياطى الحبوب الذى ارسلته الحكومة المصرية لاجل «التكية» فى المدينة المنورة قد تم تفريغه فى خريف هذه السنة (١٨٩٨) فى جدّة ، ومنها نقلوه على ظهور الجمال الى المكان المقصود .

مسيرة المحمل السورى

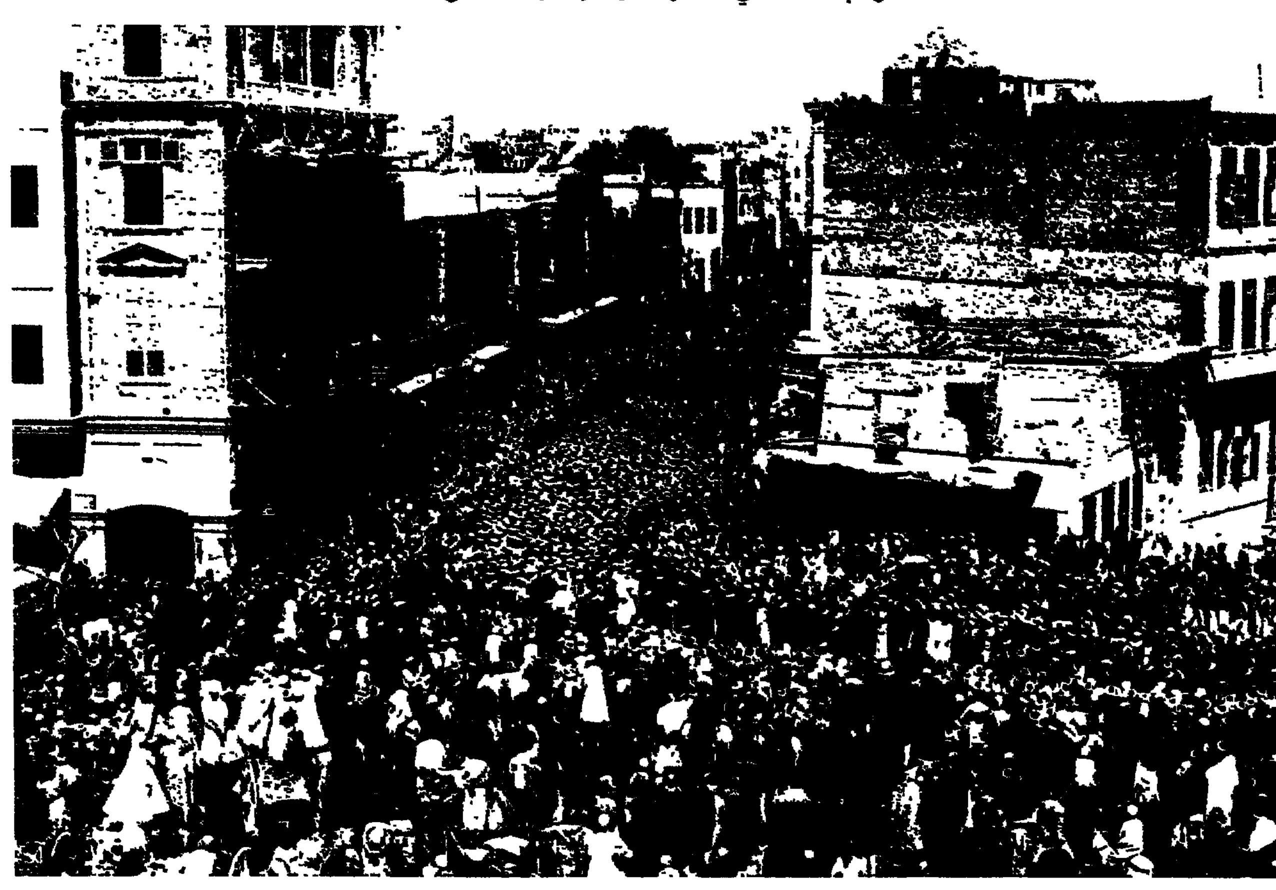
٨٨ وقفة على التوالى	اسم مكان الوقفة	عدد ساعات السير لاجل الجمال
٠	دمشق	—
١	الكسوة	ساعة ١
٢	الكتيبة	ساعة ٢
٣	المضاربه	ساعة ٣
٤	الرمة	ساعة ٥
٥	المفرق	ساعة ١٠
٦	الزرقاء	ساعة ١٣
٧	البلقاء	ساعة ١٦
٨	الكسنا	ساعة ١٤
٩	الحسا	ساعة ١٣
١٠	عنيزه	ساعة ١٣
١١	مصان	ساعة ١٩
١٢	مدورة	ساعة ١٨
١٣	العقبة	ساعة ١٨
١٤	زياد الحج	ساعة ٨
١٥	قاع الصغير	ساعة ١٣
١٦	آسى حرمه	ساعة ١٢
١٧	الاخضر	ساعة ١٨
١٨	معدم	ساعة ١٤
١٩	دار الحمراء	ساعة ١٦
٢٠	مدائن صالح	ساعة ١٨
٢١	بيار الغنم	ساعة ١٠
٢٢	بئر الزمرد	ساعة ١٦
٢٣	بئر الجديد	ساعة ٨
٢٤	حضيبنه	ساعة ١٨
٢٥	فحل التين (ملالح)	ساعة ١٨
٢٦	بيار ناصيف (داينى)	ساعة ١٠
٢٧	المدينة المنورة	ساعة ١٠
٢٧		ساعة ٣٣٤

مسيرة المحمل المصرى

(من المدينة المنورة الى الوجه)

٠	المدينة المنورة	ساعة ١٠	٦	فقير	ساعة ٨
١	دايني	ساعة ١٠	٧	عقاله	ساعة ١٣
٢	ملالح	ساعة ١٠	٨	مطير	ساعة ١٥
٣	شجيوه	ساعة ١٢	٩	حوسيله	ساعة ٨
٤	آبار الحلوه	ساعة ١٠	١٠	ام حرز	ساعة ١٥
٥	حفاير	ساعة ١٠	١١	الوجه	ساعة ٩

ـ موكب المحمل في القاهرة ـ أواخر القرن التاسع عشر.



الفصل الثالث

مكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرهما من النقاط الآهلة في الحجاز واهميتها من حيث الحج

مكة المكرمة

مكة او بكه ، او كما يسمونها عند المسلمين ، خارج الحجاز ، مكة المكرمة ، تضم مقدسات الاسلام الرئيسية ؛ وهي الآن المركز الاداري والتجاري الرئيسي في الحجاز .

موقع المدينة

تقع المدينة على بعد ٧٠ فرستا تقريبا شرقي جدّة ، في محلة تحفل كثيرا بالجبال الصخرية ، ضمن فج ضيق ، متشعبة في تفرعاته ، متصاعدة الى السفوح المجاورة حيث يتيح انحدارها . ومكة غير مطوقة بسور مثل سائر مدن الحجاز ، ولكن تنتصب في مرتفعين مهيمنين قلعتان غير كبيرتين تشغلهما الحامية التركية .

البيوت

البيوت في مكة مبنية في المعتاد من ثلاثة طوابق ، مع انه توجد كذلك بيوت من ٤ او ٥ طوابق . الهندسة المعمارية اصيلة جدا . جميع الجدران تحفل بصفوف من نوافذ ناتئة تسمى «مشربية» . اما مادة البناء فهي الحجر والآجر المحروق ، المرصوصان في الاغلب على الطين ؛ وكذلك الخشب ، المستورد على الاغلب من جزر الزوند ، والخشب الروسي (الالواح) المستورد من القسطنطينية . والبيوت مبنية الواحد بلصق الآخر ، دون فجوات ، سواء من حيث الواجهة ام من حيث الجانب الخلفي ، دون ان تترك اي فناء .

٩*

- الحرم الشريف ومكة المكرمة، أواخر القرن التاسع عشر.

الطابق الاسفل ليس معدا فى المعتاد للسكن ، ويقوم جزئيا مقام الفناء ويستعملونه لاجل ايداع الاشياء الضخمة ؛ والطوابق العليا تتشكل من شقات غير كبيرة ، كل شقة من غرفتين او ثلاث ومعزولة تماما عن الشقات الاخرى ، ومزودة بالمرافق اللازمة . فوق السقف تنتصب الجدران نحو ثلاثة ارشينات مشكلة بالتالى طابقا مكشوفا آخر ، يستعملونه للراحة الليلية . ولاجل مجرى الهواء يتركون فى هذه الجدران فتحات عديدة فيها شبكة من آجر محروق ملون بارز بسطوع على خلفية الجدران البيضاء ، والسلالم ، وكذلك الارضية فى بعض الاماكن مغطاة باسمنت خاص مجبول من الكلس والرماد والرمل ، ويتميز بقدر كبير من الصلابة . ومن هذه المادة يبنون فى بعض البيوت خزانات لاجل المياه ايضا .

الخاصة الرئيسية التى تختص بها البيوت المكية الغنية الى هذا الحد او ذاك انما هى المشربيات المبنية على طول الجدار الواجهى . هذه النوافذ تقام فى الاطراف الناتئة لعوارض الارضية وتشكل بالتالى ضربا من شرفات مغلقة تبرز من وراء جدران المبنى مقدار ارشين ونصف ارشين تقريبا ، وتغلقها صفوف من حصائر صاعدة ونازلة . والمشربيات تزينها من الخارج نقوش بديعة الرقة والاناقة احيانا . ونتوء المشربيات يضعون فى داخله دواوين واطئة ومخدات ؛ وبما انه ابرد مكان فى الغرفة فانه يشكل زاوية مفضلة . وفى بيوت اقل غنى ، يصنعون مشربيات صغيرة او نوافذ بسيطة ؛ وفى مكة لا يعرفون زجاج النوافذ .

المباني العامة

بين المبانى العامة ، عدا الحرم الشريف الذى سنحكى عنه فى الفصل التالى ، يبرز مبنى السراي الكبير ، الوحيد الطابق ، اى مبنى ادارة الولاية ، بهندسته المعمارية الاوروبية الجميلة . والى جانبه ينتصب مبنى التكية المصرية الشاسع حيث يقدمون ، من مال الاوقاف الواصل سنويا من مصر ، وقدره ١٦٠٩١٢ قرشا * (حوالى ١٦ الف روبل) ، اثناء الحج ، فى كل صباح ، للحجاج المعدمين ، طعاما مؤلفا من رغيفين غير كبيرين ومن الحساء . وابعد قليلا ، توجد مؤسسة خيرية دينية مماثلة تمولها الاوقاف

* كتاب «دليل الحج» .

التركية . ولكن خير مبنى فى مكة انما هو ، بلا ريب ، المبنى الضخم من طابقين المنتصب عند المخرج ، والمكتمل بزينة ، والمعد ، كما اوضح لنا بانيه ، لاجل ايواء الحجاج الذين لا مأوى لهم ؛ وهذا المبنى مربع الشكل ، وفى داخله حوش ، وطول واجهته زهاء ٧٠ ساجينا ؛ وهو بالفعل مبنى متين جدا فيه قاعات عالية شاسعة ، وسلالم مريحة ، وحمامات ، وخلاف ذلك . ونظرا لموقعه فى طرف المدينة وترتيب الغرف المطلة على رواق مشترك ، يمكن ان يقوم بدور مستشفى ممتاز . اما الحجاج الفقراء ، فهو بالنسبة لهم بذخ مفرط ؛ ونظرا للبعد عن الحرم حيث يتوفر لهم الغذاء والمبيت ، من المشكوك فيه ان يذهبوا اليه طوعا واختيارا . ويستفاد من اقوال البانى ان الحكومة التركية اعتمدت للبناء ٤٥ الف ليرة (حوالى ٣٨٠٠٠٠ روبل) ؛ ولكن نظرا للتأخير فى تقديم التسليف ، يدوم البناء للسنة السادسة .

بين مجموعة البيوت الخاصة فى مكة ، توجد ايضا كثرة من بيوت الاوقاف تبرع بها الحجاج الاغنياء لاستعمالها بصفة مدارس دينية او على الارجح ، بصفة «تكيات» اى بصفة مساكن فى زمن الحج للحجاج من ابناء القومية التى ينتسب اليها المتبرع . وهكذا توجد تكيات هندية وماليزية وقشغرية وافغانية وقازانية وقرغيزية والخ . .

الشوارع

لا تتميز شوارع مكة ، لا باستقامة التخطيط ولا بدقته . الشوارع الرئيسية على ما يكفى من العرض بوجه عام ، ٦–٨ ساجينات بالمتوسط . ولكن البيوت تتقدم تارة ، وتتأخر طورا عن الخط العام ولذلك يختلف عرض الشارع الواحد ذاته فى مختلف الاماكن . وعدا هذا ، تنتصب فى الشوارع اكشاك خشبية ملتصقة بالمبانى ويحولونها فى زمن الحج الى دكاكين ؛ واحيانا تحفل الشوارع بشقادف لا عدّ لها تابعة للقوافل القادمة ؛ كذلك يصف هنا التجار طاولاتهم ، ولذا تبدو الشوارع اضيق ، ونظرا لعدم وجود الاحواش والافنية يرمون كل الزبالة والنفايات فى الشارع رأسا . وللسبب ذاته ، يحفظون هنا كل الدواجن ؛ وهنا ايضا يحلبون الابقار والعنزات . والشوارع هنا ، كما فى القسطنطينية ، هى مرتع اسراب كبيرة من الكلاب الشاردة . ولا وجود فى مكة للشوارع المرصوفة ؛ ولا وجود للرش ؛ وللانارة ، يعلق السكان انفسهم هنا وهناك مصابيح الكاز .

السكان

تحسب السلطات التركية ان عدد السكان يتراوح بين ١١٠ و١٢٠ الف نسمة ، بينما يحسب السكان انفسهم ان عددهم يتراوح بين ٧٠ و٨٠ الف نسمة ؛ وهذا الرقم الاخير يبدو لى اقرب الى الحقيقة .

ان سكان المدينة الدائمين هم خليط مبرقش من ابناء جميع القوميات التى تدين بالاسلام ؛ وعدا السكان المحليين العرب الذين يؤلفون زهاء ثلاثة اخماس عدد السكان الاجمالى ، يوجد هنا عدد كبير من الماليزيين والزنوج والاحباش والمصريين والهنود والعرب الافارقة والاتراك وكذلك السرت والفرس والتتر والقرغيز وغيرهم . ومن بين العرب المحليين ، كما اوضحوا لى ، ينتمى قليلون الى سكان البلد الاصليين ؛ فهم بمعظمهم قادمون من الخارج ، واستعربوا كليا مع مر الزمن ولذلك تتنوع قسمات وجوههم ، وبشرتهم من جميع التلاوين بدءا من الابيض تماما كما عند الاوروبيين حتى الداكن البرونزى كما عند الاحباش . والشريف واولاده وكثيرون من الاسياد الذين يعتبرون انفسهم عربا يسيل فى عروقهم دم عربى اصيل تماما انما لون وجوههم ابيض نقى لا عيب فيه . ولا ريب فى ان المحظيات من شعوب القفقاس يلعبن دورا كبيرا فى هذا المجال .

احدث عرب مكة فى نفسى على العموم انطباعا جيدا جدا ؛ فهم اذكياء ، لطفاء جدا فى التعاشر والتخاطب ، متأدبون ومجاملون مع مسحة من بعض الاعتزاز ، مضيافون ، انيسون ، مع احتفاظهم دائما بشعور الكرامة الشخصية ؛ وهم منعّمون كبار ، يطيب لهم ان يرتدوا الثياب الفاخرة ، ويفرشوا بيوتهم بالمفروشات الجيدة ، ويأكلوا جيدا ، ويستقبلوا الضيوف ويحلوا ضيوفا فى احيان كثيرة .

تتألف البسة العرب من قميص تيلي طويل وضيق ، ذى طوق قائم يرتدون فوقه صدرة حريرية يزررونها بكثرة من الازرار الصغيرة ؛ وفوق الصدرة يلبسون ما يشبه البشمت (العنترى) وعلى الرأس طاقية بيضاء مستدقة . وحين يغادرون البيت ، يشدون العنترى بزنار حريرى ؛ وفوق الالبسة يرتدون رداء ضيقا او «الجبّة» ، ويستعيضون عن الطاقية بعمامة غير كبيرة ملفوفة حول التاج ؛ وفى الاقدام يلبسون احذية خفيفة فوق الكلسات .

بدلة الطبقة الفقيرة من نفس التفصيل ، ولكن بدون جبة وعنترى .

يفرشون الغرف فى البيوت بتخوت واطئة ومخدات لاجل الجلوس ؛ الارضية يغطونها كليا بالسجاجيد والحصائر ؛ زينة الجدران تتألف من آنية

مختلفة — ، من البورسلين والمعدن ، والسماورات الروسية الجديدة الموضوعة فى فجوات خاصة او على رفوف — ومن مرايا معلقة عديدة ، ومن مختلف الاقوال المأثورة المكتوبة على ورق ملون ومركبة فى اطر .

لوازم النوم يخفونها بعناية فى غرف خاصة ، لانهم يعتبرون عرضها تبذلا كبيرا .

والمطبخ هو فى المعتاد عبارة عن غرفة من الغرف الامامية يضعون فيها المناقل لتحضير الاطعمة ؛ وقد اذهلتنى كثيرا وفرة الطعام الدهنى ، المؤلف ابدا ودائما من الرز المحمّر مع اللحم والتوابل ومن المآكل اللحمية الثقيلة الاخرى ، علما بان العرب يقبلون على هذا الطعام الدهنى ، رغم المناخ الحار ، مرتين فى اليوم ، — حوالى الظهر ، وفى المساء ، بعد غياب الشمس ؛ والماء ، المبرّد فى اباريق وجرار مسامية موضوعة فى مجارى الهواء فى المشربيات هو المشروب العادى . وفى ساعات معينة من اليوم او فى حال مجىء الضيوف ، يقدمون القهوة المحضرة على الطريقة الشرقية . وفى الآونة الاخيرة ، بدأوا يستعملون الشاى (الاسود) كثيرا الذى يشربه العرب ، مثل الفرس ، ثقيلا جدا وحلوا جدا ، وبمقادير صغيرة جدا . والجميع تقريبا يدخنون التبغ ، وعلى الاغلب بالنارجيلة .

والنساء عند العرب ، كما عند الشعوب الاسلامية الاخرى ، يرتدين الحجاب ، ولكنهن يتمتعن بقدر من الحرية اكبر بكثير ، مثلا ، مما عند التتر . وهن يترددن على الجوامع على قدم المساواة مع الرجال ، ويشغلن فيها مكانا مخصصا لهن ، ويذهبن وحدهن الى السوق لشراء الحاجيات ؛ وهناك نساء عديدات يتعاطين فى الشوارع التجارة بالمفرق ، وغالبا ما تقع العين عليهن فى المحكمة امام القاضى ، حاملات الشكاوى احيانا على ازواجهن .

الحياة الفكرية عند هذا الشعب الجدير واللطيف لم تتقدم منذ ذلك العهد المجيد الذى كان فيه العرب يسيرون فى طليعة الحضارة ، وليس هذا وحسب ، بل على العكس تراجعت ايضا ؛ وتلك العلوم التى ابتدعوها وطوروها فيما مضى لفها النسيان تماما فى الوقت الحاضر . بل ان التعليم الاولى البسيط — مجرد القراءة والكتابة — محصور ضمن حلقة ضيقة جدا ؛ واشراف مكة الذين يقومون بدور قادة الحجاج اثناء القيام بمراسم الحج لا يعرفون باغلبيتهم الساحقة لا القراءة ولا الكتابة . وفى المدارس الدينية المحلية ، كما فى جميع المدارس الدينية فى اى مكان آخر ، يعلمون العلوم الرتيبة الدينية ذاتها بتفاصيلها الدقيقة جدا وغير الضرورية ، مزدرين

المواد الضرورية كالحساب والجغرافية مثلا . ولكن المدارس الدينية ايضا تحفل بالناس القادمين ، غير المحليين ، بينما المحليون استثناء فيها .

يرد الى مكة عدد تافه جدا من الجرائد المصرية وعدد اقل من الجرائد التركية ؛ وفي الحال يصبح مضمونها معروفا في المدينة كلها ، نظرا لشدة تحرقها الى الانباء وبالغ اهتمامها بالحياة السياسية للشعوب الاخرى .

عرب مكة سنّيون جميعهم ، واغلبهم من انصار الشافعي ، ولا يتميزون كثيرا بالتقوى والتديّن . ويترددون على المساجد بحماسة وغيرة طالما الحجاج لم يعودوا الى ديارهم . واذ ذاك ، يبدأون يفضلون المقاهي وغير ذلك من الاجتماعات . وكثيرون منهم ينتسبون الى مختلف شيع النساك ، وبخاصة الى انصار الرفاعي ؛ وما يجتذبهم الى هذه الشيع ، بقدر ما استطعت ان الاحظ ، ليس الشعور الديني بل احتمال الاشتراك ، اثناء حقبة السكون ، اى بعد رحيل الحجاج ، في مختلف المواكب والاجتماعات وما الى ذلك . وبما ان سكان مكة الاصليين ليسوا مفرطين في التدين والتقوى ، فهم كذلك براء من التعصب ؛ وان دورا كبيرا في ذلك ، وايضا في تطورهم الفكري العام ، يعود ، كما يخيّل اليّ ، الى اسفار اغلبية سكان هذه المدينة الى البلدان الاخرى ؛ فبعد رحيل الحجاج ، يقومون برحلاتالى جميع البلدان التي يعيش فيها المسلمون لكي ينالوا «البدل» اى التكليف بالقيام بفرائض الحج بالنيابة عن احد ما لقاء مكافاة معينة ؛ وبما انهم شعب محب للمعرفة والاستطلاع وحساس جدا ، فانهم يهتمون بكل شيء ويتفحصون كل شيء ، واحاديثهم عن الامم الاخرى غالبا ما تكون صحيحة وصائبة ودقيقة جدا .

يبقى ان اقول ان العرب حرفيون ممتازون في الشغل على الحجر وعلى الخشب ، ويملكون ذوقا رفيعا جدا . ومباني الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة تتميز بعمل بارع جدا . والمباني بالاسلوب الاوروبي مبنية جميعها بايادي الاساطين العرب .

المرتبة الثانية من حيث العدد يشغلها في مكة الماليزيون او «جاوه» كما يسمونهم هنا نقلا عن اسم جزيرة جاوه . وهم يبرزون جدا بملامحهم المتميزة ، ولذا من الممكن معرفتهم من النظرة الاولى رغم انهم باغلبيتهم يرتدون الالبسة العربية . ويقدّرون عدد الماليزيين بخمس عدد السكان الاجمالي في مكة اى قرابة ١٤-١٦ الف نسمة ؛ وقد علمت من الاحاديث

ان «جاوه» شرعوا يتوافدون الى مكة فى السنوات العشرين الاخيـــرة على الاخص بعضهم بدافع الشعور الدينى وبعضهـــم الآخر بدافع المصالـــح التجارية . ويبلغ عدد الماليزيين الشبان الذين يتعلمون هنا قرابة الفين ؛ وهناك بضع عشرات من المعلمين الماليزيين يتعاطى ثلاثة منهم خصيصـــا ترجمة الكتب العربية الى لغتهم . ويتصف الماليزيون بسمة مميزة ، هـــى الطبع الهادئ ، المسالم ، الذى دخل هنا فى الحديث العادى ، اذ يقولون «طيب ومسالم مثل جاوه» ، وكذلك التضامن المذهل فيما بينهم ؛ فان الجاوه المحليين يعيشون جميعهم مشاعيات كبيرة ، باشراف مدبّر-سيّد مشترك واحد منتخب لكل الجالية . ابناء القوميات الاخرى ، وبخاصة العـــرب ، يعاملون الماليزيين ببعض التعالى .

والاتراك هم على الاغلب مستخدمون فى مختلف المؤسسات الخيريـــة والتعليمية التى تتشكل بمعظمها من الاوقاف التركية ولا تقبل السكـــان المحليين .

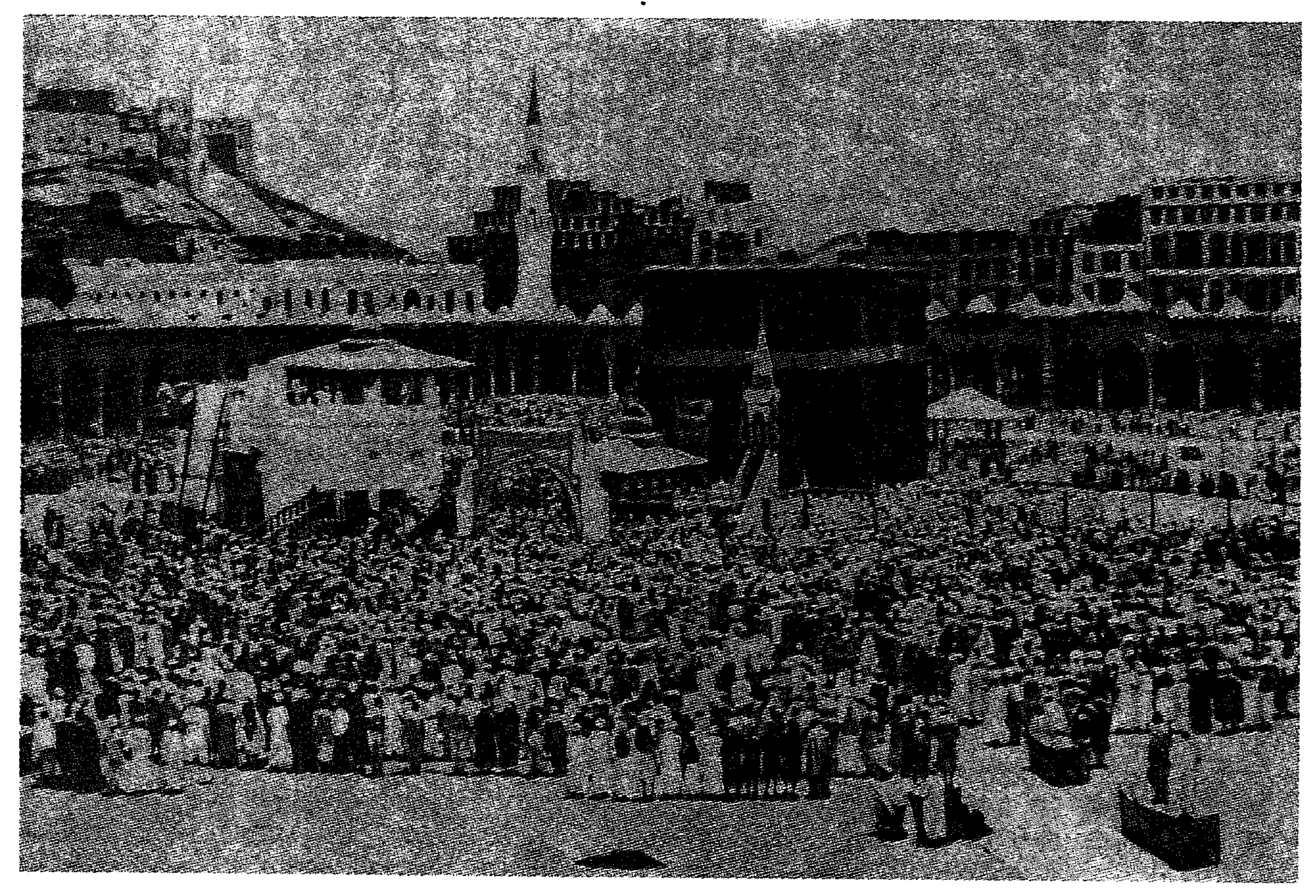
ابناء القوميات الاخرى هـم بوجه الحصر تجـــار او نظار فى تكيات قومياتهم ؛ ومن عداد المسلمين من رعايا روسيا الذين يعيشون دائما هنا ويشرفون على التكيات ثمانى عائلات تترية ، وعائلتان من القرغيز وسبعة تلامذة فى مدرسة دينية .

اشغال سكان مكة

يمكن وصف اشغال سكان مكة بايجاز بالغ – يعيشون على الحجاج وقبل الاسلام ايضا ، كانت مكة مركزا تجاريا لعموم الجزيرة العربية ، وكان زمن الحج فى الوقت نفسه زمن السوق التجارية السنوية . وهذا الطابع بقى حتى الآن ؛ واثناء توافد الحجاج ، تتحول المدينة الى بازار هائل ينتشر من ابواب الحرم بالذات فى جميع الشوارع والازقة .

علاوة على استيراد كمية كبيرة من المنتوجات المعيشية ، لتلبية حاجات جموع الحجاج البالغ عددها اكثر من مائة الف ، يستجلبون الى هنا كميـــة كبيرة من شتى البضائع من القسطنطينية ومصر والبلدان المجاورة فى آسيا ، وذلك مع قوافل الحجاج او بالبواخر الى جدّة . والقسطنطينية هى الوسيط الرئيسى فى تجارة البضائع الاوروبية ؛ ومنها تحصل مكة على كل الاحتياطى من الاقمشة القطنية والصوفية والاحذية والخردوات والبقالة والطحين الروسى وكاز باكو وخلافها .

ـ الكعبة.



مصر تقدم على الاغلب المنتوجات المعيشية : الحنطة ، الفول ، الشعير ، الذرة الصفراء ، العدس ، الرز ، السكر ، زيت الزيتون ، وما الى ذلك .

سوريا ترسل مع المحمل الدمشقي وبحرا ، عبر بيروت ، كمية كبيرة من البضائع الحريرية ، والالبسة الحريريـــة الجاهزة ، والمناديل المطرزة بالحرير ، والفواكه المجففة ، والفالوذة .

بغداد والبصرة ترسلان مع قوافل الحجاج البضائع الحريرية والصوفية ، والرز ، والسمنة البقرية والسمنة الغنمية .

بلاد فارس ترسل السجاد والحصائر والعباءات وغير ذلك من البضائع الصوفية .

الهند ترسل البضائع المستعمرية ، والآنية من النحاس والبورسلين ، والمطبوعات والمرجان والمواد العلاجية والمواد العطرية ، وخلافها .

اليمن ترسل البن ، وعين الشمس ، والعقيق .

جزر السند ترسل الكندر .

فى مكة ينتجون كمية تافهة جدا من الاشياء التى يجرى تصريفهـــا بين الحجاج القادميـــن ؛ والمقصود هنا المسابح المخروطة مـن الصدف وغير ذلك من المواد ، والخواتم الفضية المرصعة باحجار عين الشمس اليمنى : كذلك يصنعون الخواتم مـــن الزخـارف الفضية المنتزعة كـل سنـــة من الحرم ، كما يصنعون آنية من الصفيح لاجل نقل مياه زمزم ، ومـــا الى ذلك .

ثم ان سكان مكة يكسبون مبلغا كبيرا من النقود بتأجير الحجاج الغرف والشقات وقيامهم بمراسم الحج بتكليف من الحجاج او بالنيابة عن اقاربهم الغائبين ، وقيامهم بدور المرشدين فى حال اداء الفرائض والمراسم ، وتأجير الحمير التى تحظى دائما بطلب كبير نظرا لعدم وجود عربات الحوذيين ، وما الى ذلك .

اثناء الحج ، لا يتعاطى السكان المحليون وحدهم التجارة ، بل يتعاطاها كذلك تجار قادمون كثيرون . وهناك تجارة اكبر ، كما قالوا لى ، فى ايدى الهنود ؛ ولم يتسنّ لى ان اعرف مقدار التبادل التجارى . من الممكن بصورة تقديرية جدا تخمين المبلغ الذى يخلفه الحجاج سنويـــا فى مكة بين ٥ و٨ ملايين روبل .

اسعار السلع المعيشية اثناء تجمع الحجاج تتقلب كثيرا تبعا لحركـــة الاستيراد وعدد القادمين ، مثلا :

في سنة ١٨٩٨ ، سعر رطل واحد من	اثناء الحج	في الوقت العادي	في سنة ١٨٩٨ ، سعر رطل واحد من	اثناء الحج	في الوقت العادي
	بالكوبيكات			بالكوبيكات	
الضأن	١٢	١٨	الشاى الاخضر	١٠٠	١٠٠
الطحين من الصنف الثاني	٢٥	٢٧	السكر	١٧	١٨
السمنة البقرية	٤٠	٣٥	الشمع الستيريني	٢٦	٢٥
زيت الزيتون	٥٥	٥٠	الكاز	٦	٦
الدهن	١٥	١٨	الخبز شبه الاسمر	٩	٦
الشاى الاسود	٧٠	٧٠			

النظام النقدى

جميع العمليات التجارية فى الحجاز تجرى عدا ونقدا ؛ والليرة التركية الذهبية هى الوحدة النقدية الاساسية ، وتبلغ قيمتها حسب نقدنا ٨ روبلات و٥٠ كوبيكا ؛ ولكن اقيم هنا لاجل الحسابات الصغيرة نظام نقدى معقد ومشوش الى حد ان التجار والصرّافين انفسهم يرتبكون ، ولا يستغنون عن القلم والورق عند اجراء الحسابات . فان الليرة تتألف من ١١٠ قروش كاملة ، ولكن يوجد ايضا الى جانبها قرش ناقص تحتوى الليرة منه ١٤٩ قرشا . سعر الليرة يتغير باستمرار ، ويختلف باختلاف النقاط فى الحجاز . وليس فى كل مكان يقبلون النقود النحاسية التركية .

عدا النقود التركية ، يشمل التداول هنا النقود الذهبية والفضية ، لا من البلدان التى جاء منها الحجاج وحسب ، بل ايضا من دول لا وجود فيها لاى مسلم ، مثلا ، الين اليابانى . واوسع النقود استعمالا ، القرش الفضى الهولندى والقرش الفضى المكسيكى او ، كما يسمونهما هنا «الريال» او «البورون» ؛ وقيمة كل منهما هنا ١٠-١١ قرشا كاملا تركيا .

لا يقبل البدو غير هذه النقود ، ويرفضون الذهب ، ولذا تحسب بدلات ايجار الجمال ، وكذلك جميع الاثمان غير الكبيرة فى البازار بالريالات بوجه الحصر .

كذلك توجد قيد التداول سنداتنا المالية التى تحظى هنا بالثقة الكبيرة والتقدير الرفيع ؛ فبمقابل مائة روبل من السندات المالية تقاضيت هنا زهاء ٩٠ روبلا ذهبيا . وسعر العملات ، كما سبق ان قلت ، يتقلب دائما . فى سنة ١٨٩٨ تواجدت الارقام المتوسطة التالية :

النقود الذهبية	اثناء تجمع الحجاج	فى الوقت العادى	النقود الفضية	اثناء تجمع الحجاج	فى الوقت العادى
	(بالقروش الكاملة)			(بالقروش الكاملة)	
الليرة التركية	١١٠	١١٠	المجيدية	٢٠	٢٠
الجنيه الاسترليني	١٢٠	١٢٠	الريال الهولندى	١١	١١
نصف الايمبريال	٩٦	٩٦	والمكسيكى		
النابليون الذهبى	٩٦	٩٦	الروبل الفضى الروسى	١٢	١٣

تجارة الرقيق

يوجد فى الحجاز نوع آخر من التجارة ، نادر فى الوقت الحاضر ، وينتعش كثيرا اثناء تجمع الحجاج ، هو تجارة الرقيق (النخاسة) .

الارقاء الذين يباعون فى الحجاز ينتمون بوجـــه الحصر الى قوميتين : الزنوج السود تماما من السودان الذين يعتبرونهم فى الحجاز افضل الكادحين ، والذين يشترونهم ، سواء منهم الرجال ام النساء ، لاجل العمل فقط ، ثم الاحباش ، وهم اقل سوادا ؛ ويشترون النساء منهم كمحظيات .

يستجلبون الارقاء من الساحل الافريقى للبحر الاحمر ؛ وهناك ، اغلب الظن ، نظام متكامل لايصالهم الى السوق الرئيسية فى مكة . والارقاء الحاليون هم بمعظمهم اولاد مخطوفون يشتريهم فى محالهم تجار محتكرون يجلبونهم الى الساحل ثم ينقلونهم بحرا وخفية على سمابك الى سواحل الجزيرة العربية ، حيث يشتريهم بسعر يتراوح للواحد منهم بين ٥ و١٠ ليرات تركية وسطاء يتعاطون نقلهم لاحقا .

لم استطع الحصول على معلومات دقيقة نوعا ما عن مقادير هذه التجارة ، ولكن يقال ان عدد الارقاء المباعين فى السنوات المؤاتية حين يحالف التوفيق

اعمال السرقة ، ولا تعترض السلطات فى مرفأ سواكن مجموعاتهم فى الطريق ، يبلغ زهاء ٢٠٠٠ شخص . سعر الفتاة الزنجية الراشدة حوالى ٢٠ ليرة ، وسعر الفتاة الحبشية الراشدة ٣٠-٤٠ ليرة ؛ وسعر الكادح الجيد الزنجى او الحبشى ٣٠-٤٠ ليرة ايضا ؛ وسعر الاولاد ذكورا واناثا ١٠-١٥ ليرة .

اما الشراة فهم ، على العموم ، سكان الجزيرة العربية ، وبخاصة سكان الحجاز ، سواء منهم السكان الاصليون ام القائمون هناك موقتا . وفى مكة والمدينة لا يوجد اى بيت ليس فيه عبد وعبدة يقومان بجميع الاعمال البيتية ، ومنها جلب الماء ، وتحضير الطعام ، وغسيل البياض ، والعناية بالاطفال ، وما الى ذلك . كذلك الرحل يعهدون الى الارقاء بعمل اصعب . ومعاملة الارقاء حيث تسنى لى ان اراقبها ، طيبة ، انسانية .

كذلك يشترى الحجاج العبيد لكى يعتقوهم ، لكى يعيدوا اليهم الحرية ، لان اعتاق العبد يعتبر ، بموجب تعاليم الاسلام ، من اكثر انواع الاحسان ارضاء للرب . وفى جميع مدن الحجاز وفى جميع القبائل البدوية يوجد عدد كبير من الارقاء السابقين الذين اعتقهم اسيادهم او افتداهم الحجاج ؛ وبلدة خيبر الكبيرة الواقعة فى جوار المدينة المنورة تتالف حصرا من الارقاء السابقين . والاعتاق ترافقه وثيقة خطية خاصة ينظمها القاضى المحلى ؛ واذا كان الرقيق المعتق قاصرا ، فيوضع تحت وصاية شخص ما حتى بلوغه سن الرشد .

وعلى طرق القوافل يجرى ، اغلب الظن ، توريد الأمات الى البلدان المجاورة . وفيما يخص السبل البحرية ، تسنى لى ان اسمع ان هذه العملية نادرا ما يحالفها النجاح اذ ان السلطات الانجليزية او المصرية تنتزع الأمة بموجب تصريحها الاول . وبالفعل ، شاهدت فى الطور امرأة مسافرة مع مغربى ؛ واذا بها ، بعد انتهاء الحجر الصحى ، تعلن ان هذا المغربى اشتراها فى مكة وانه يقودها الآن بالعنف ؛ ورغم جميع احتجاجات سيدها وزعمه انه قد تزوج منها ، انتزعوها منه .

يشغل سوق النخاسة فى مكة حوشا مفتوحا غير كبير ، تطل عليه ابواب غرف يحبسون فيها المباعين لقضاء الليل . وعندما زرت هذا السوق ، كان هناك زهاء ٨٠ شخصا معظمهم شابات حبشيات مع اثنتين او ثلاث منهن اطفال رضع ، وجميعهن مزيّنات ومصفوفات فرقا على دواوين طويلة ؛ وكان هناك مقعدان يجلس عليهما كادحون راشدون من الزنوج ، لابسون بعناية ومقصوصو الشعر ؛ والباقون كانوا اولادا من ذكور واناث يلعبون بمرح وهناء فى اماكنهم . اشرف على البيع تاجر عربى نشيط راح يمدح بصوت مدو مزايا

بضاعته . اختار بعض الشراة من البدو النساء ، وتفحصوا عيونهن وافواههن ، واجبروهن على خلع ملابسهن . وقد تركت زيارة هذا السوق فى نفسى انطباعا كئيبا ومرهقا جدا .

ان الشريعة ، كما هو معلوم ، لا تجيز الا استعباد اسرى الحرب ، ولذا ليس لهذا النوع من امتلاك العبيد الموجود فى الحجاز ، اى مبرر على الاطلاق من وجهة نظر الشريعة ايضا ؛ والذرائـــع التى يسوقها السكان المحليون للدفاع عن انفسهم — ، ومفادها ان الناس المباعين هم من ذريـــة عبيـــد سابقين ، وانهم يبيعونهم كعبيد ، وان الشارى لا يعرف باى طريقة تم الحصول على هؤلاء العبيد — انمـــا هى تناقض فى منتهـــى الجلاء . ولكن الحجازيين انفسهم يشكون ، على ما يبدو ، فى شرعية حقوقهم ؛ وبما انهم لا يملكون القوى والشجاعة للتخلى كليا عن هذا الكدح الرخيص ، فانهم يعتقون بعد مرور عدد معين من السنين الارقاء الذين اشتروهـــم ، ويعقدون عقود الزواج مع النساء تخوفا من لاشرعية المعاشرة .

ذات مرة ، قامت الحكومة التركية بمحاولة لاغلاق سوق النخاسة ، فصدر ، اثر ذلك ، فى سنة ١٨٥٥ ، فرمان سلطانى خاص ؛ ولكن هذا الفرمان استثار انتفاضة فى عموم الحجاز . وفى سنة ١٨٥٨ قتلوا فى جدّة جميـــع الاوروبيين الذين كانوا يعتبرونهم عن حـــق وصواب مسؤولين عن صدور القانون الجديد ، كما قتلوا القنصل الفرنسى فى جدّة ؛ وفى السنة التالية ، ١٨٥٩ ، أُلغى الفرمان وبقى امتلاك العبيد قائما على اسسه السابقة .

الظروف الصحية فى مكة . الماء

تستعمل مكة الماء من نوعية جيدة وبكمية كافية . ولا يحدث نقص فى الماء حتى اذا كان تجمع الحجاج كبيرا .

والماء يساق من على بعد ٧٠ فرستا ، من نبع عين [. . .] يقع فى التلال السفحية من جبل القرى ، ثم يلتقى مجروره مع ساقيـــة تنطلق من وادى النعمان ، فيطلق عليه اسم عين الزبيدة ، باسم زوجة خليفة بغداد الشهير هارون الرشيد التى سيق الماء للمرة الاولى فى عام ٨٢٧ بفضل اموالها حتى جبل عرفات ؛ وفى عام ١٥١٩ ، فى عهد السلطان سليمان القانونى ، تم تمديد مجرور الماء حتى مكة ، ولكن الامطار الوابلة كانت تفسده دائما ، ولذا كان يتعطل فى غالب الاحيان . وللمرة الاخيرة جرى اصلاحه باموال

ـ مكة المكرمة وتبدو الكعبة إلى يسار الصورة / أواخر القرن التاسع عشر

مجموعة من الحجاج وتبرع بها مختلف الناس فى عهد والى الحجاز عثمان باشا ؛ وبهذا النحو لا يزال يؤدى وظيفته فى الوقت الحاضر .

يتألف مجرور الماء من انبوب واسع مركب من احجار مشدودة بالكلس وممدود على القطاع الاكثر انخفاضا فى فج وادى منى ، بمحاذاة الطريق المنطلقة من مكة الى الطائف ؛ وفى بعض الاماكن ، يمتد الانبوب بصورة غير عميقة جدا بحيث تظهر قبته العليا ؛ ولكن متوسط العمق يتراوح بين ساجين وساجينين ؛ وفى بعض الاماكن انشأوا منافذ هواء بصورة آبار مكشوفة مبلطة بالحجر ويستفاد منها فى الوقت نفسه لاستخراج الماء . وعند جبل عرفات يمر الماء عبر بضعة احواض مكشوفة طويلة مبنية لاجل استحمام الحجاج . ولاستعمال الماء ضمن حدود المدينة ، انشئت احواض خاصة بشكل حفر واسعة مبلطة بحجر منحوت يتراوح عمقها بين ساجين و٣ ساجينات ، ومزودة بسلالم حجرية عريضة وبارضية مفروشة بالبلاط . يمر الماء عبر مزراب منحوت من الحجر ، ممدود قرب احد جدران الحفرة على علو ارشين واحد تقريبا من الارضية ؛ يستقون الماء من هذا المزراب ببواط مربعة الزوايا من الصفيح لان اى شكل آخر للاناء لا يصلح نظرا لان علو سيل الماء تافه . وعدا ذلك ، انشئت فى اعلى فى الجدران بضع آبار ذات بكرات معدنية لاجل استقاء الماء بالدلاء ، دون النزول الى اسفل ، الى المزراب . عدد جميع نقاط استقاء الماء فى مكة ٤٠ . يجرى توزيع الماء على البيوت فى قرب كبيرة ؛ وهذا العمل المرهق يقوم به الارقاء ، الحقيقيون او المعتقون ، الذين يكسبون رزقهم بهذه الطريقة . وفى البيوت يحفظون الماء فى قلل طينية خاصة تتسع كل منها لزهاء ١٠ دلاء .

حالة البيوت

البيوت فى مكة نظيفة جدا ؛ الجدران مبيّضة دائما من الداخل ومن الخارج ؛ الغرف والسلالم مكنّسة بعناية ؛ بيوت الخلاء الواقعة فى السلالم او فى احدى الغرف الامامية لها دائما ارضية من الاسمنت ، وتتصف ببالغ النظافة ، ولكن بنيان ونظام تنظيف البالوعات رهيبان للغاية ؛ فقرب جميع البيوت توجد فى الشارع خنادق ذات مقاييس متنوعة ، مفروشة بالحجر ومسدودة من فوق باحكام ؛ والى الخندق يتجه الغائط من جميع بيوت الخلاء فى البيت واليه تنسكب ايضا عبر بيوت الخلاء ذاتها كل الغسالة ؛ ومرة فى السنة ، وعادة بعد رحيل الحجاج ، يجرى تنظيفها ؛ ولهذا الغرض

يستأجرون الزنوج ؛ وهؤلاء يحفرون سلفا على مقربة في الشارع حفـرة جديدة ، وينقلون اليها كل مضمون البالوعات ثم يطمرونها ؛ وليس من المتبع استعمال الكلس او وسائل معقمة اخرى . في البيوت الخاصة ، لا يحس المرء في بيوت الخلاء برائحة شديدة ، ومرد ذلك على الارجح ، الى ان الناس لا يسكنون في الطوابق السفلى القريبة من الحفرة . ولكن بيوت الخلاء العامة تطلق رائحة كريهة رهيبة ، فلا يمكن المرور بقربها دون سد الانف .

حالة الشوارع والبازارات

الشوارع ، كما قيل اعلاه ، تشكل مكانا لرمي كل ضرب من الزبالة ونفايات المطابخ ؛ وفي الحال تنقض الكلاب المتشردة والمواعز على كل ما يصلح للاكل منها . مرة في اليوم يكنسون الشوارع الرئيسية ، ولكن الزبالة تتكوم في الازقة طوال اشهر ، وتهترئ الحيوانات الميتة ، ويعتبر السكان كل هذا امرا طبيعيا تماما ، ولا يرتبكون البتة من الرائحة الكريهة ؛ وفي هذه السنة بقي جمل ميت ٦ ايام في احد الشوارع الرئيسية ، قرب قصر الشريف ، ورفعوه ونقلوه حين جف كليا تقريبا .

ومفهوم ان تكون الشوارع مغبرة جدا من جراء الحركة الكبيرة ومن جراء عدم رشها ابدا ، ولانها غير مزفتة وغير مبلطة .

وعن البازارات ينبغي ان نقول الشيء نفسه ؛ فهي في كل مكان قذرة ، ومغبّرة جدا .

المسلخ

يقوم المسلخ خارج المدينة ؛ وهو قذر جدا ، كما كان يصح ان اتوقع . وطمر البقايا يجري ببالغ الاهمال وبرمي شريحة طفيفة من التراب .

المقبرتان

توجد في مكة مقبرتان غير كبيرتين ، تقعان على طرف المدينة . وبما ان المحلة لا تتيح توسيع المساحة التي تشغلها المقبرتان ، فانهم يحفرون مدفنا فوق آخر ، ويستخرجون عظام المدفونين سابقا ويجمعونها في حفر

ترابية مهيأة خصيصا تسمى الواحدة منها «مخزن» . واذا اخذنا بالحسبان النسبة الكبيرة على العموم من الوفيات بين الحجاج والاوبئة المتكررة ، فلا بد من الافتراض ان عدد المدفونين هنا يبلغ رقما ضخما جدا . واداء لمراسم الجنازة ، يحملون الموتى الى الكعبة ، ثم ينقلونهم بعد مرور بضع دقائق الى المقبرة حيث توجد دائما بضع حفر جاهزة لاجل الدفن . عمق الحفرة حتى صدر الانسان . ولا وجود البتة لنقل الموتى من خارج المدينة ،ولا حتى من اماكن قريبة مثل منى (٦-٧ فرستات) .

الظروف المناخية فى مكة

المناخ الحار فى الحجاز تشتد وطأته فى مكة من جراء انحصار المحلة بشدة بين الجبال ، وتزاحم البيوت ، وعدم استقامة الشوارع ، والغبار الدائم ، رغم ان مناخ هذه المدينة يعتبر صحيا بالنسبة لمن اعتادوا عليه .
وحسب مراقباتى ، كان متوسط الحرارة فى مكة (علوها ٩٣٠ قدما فوق سطح البحر الاحمر) فى نيسان (ابريل) واوائل ايار (مايو) ، فى غرفة من طابق متوسط محمى جيدا من الشمس ٣٠ درجة ريومور فوق الصفر وكانت ترتفع نهارا الى ٣٢-٣٣ درجة ، وتهبط قبيل الصباح الى ٢٧-٢٨ درجة ؛ وفى تموز (يوليو) ، كما افادونى ، بلغت الحرارة فى النهار هناك ٣٧ درجة ريومور فوق الصفر .
ويستفاد من المعلومات الواردة فى كتاب «الحجاز» ان متوسط الحرارة فى مكة هو التالى : كانون الثانى (يناير) ١٨ درجة فوق الصفر ، شباط (فبراير) ٢٠ درجة ، آذار (مارس) ٢٣ درجة ، نيسان (ابريل) ٢٤ درجة ، ايار (مايو) ٢٧ درجة ، حزيران (يونيو) ٢٩ درجة ، تموز (يوليو) ٢٩ درجة ، آب (اغسطس) ٣٠ درجة ، ايلول (سبتمبر) ٢٨ درجة ، تشرين الاول (اكتوبر) ٢٥ درجة ، تشرين الثانى (نوفمبر) ٢٤ درجة ، كانون الاول (ديسمبر) ٢٠ درجة .
ويستفاد من احاديث الطبيب عثمان افندى الذى تسنى لى ان اتحادث معه احيانا كثيرة ان المرض الاكثر انتشارا فى زمن القيظ ، وبخاصة بين الحجاج القادمين من الشمال هو «ابو الركب» وهو ضرب من الانفلوانزا (اصلها انف العنزة) وكذلك اختلال فى اعضاء الجهاز الهضمى يتخذ احيانا شكل الزحار (الدوسنطاريا) ؛ وسبب المرض الاخير الذى ذكره الطبيب قد اعاده جزئيا الى استهلاك الماء من بئر زمزم بدون اعتدال والى الطعام

النقيل الذى يستجلبه الحجاج معهم من اوطانهم ؛ وغالبا جدا ما يحدث مرض الحصوة ؛ وفى الشتاء غالبا ما تصاب اعضاء التنفس .

المستشفى والصيدليات

لتوفير العلاج فى المستشفى والمستوصفات لاجل الطبقة الفقيرة ، وتوزيع الادوية مجانا ، يوجد مستشفى من ٣٠ سريرا ،ويعمل فيه طبيبان وصيدلى واحد على حساب اموال الاوقاف التى تبرعت بها والدة السلطان عبد المجيد . يقع المستشفى فى وسط المدينة فى مبنى خاص به ؛ ومفروشاته جيدة نسبيا ؛ فتحت تصرف المرضى اسرّة ملائمة ، ولوازم فراش نظيفة وطعام جيد ؛ ويلقون عناية جيدة . وحين زرت المستشفى كانت جميع الاماكن مشغولة . وكان المرضى يعانون باغلبيتهم من امراض التهاب المعدة . وقد قال الطبيب ان هذه المؤسسة العلاجية تستطيع فى اقصى الضرورة ان تقبل حتى ٦٠ مريضا .

وتوجد فى المدينة صيدليتان خاصتان صغيرتان جدا وفقيرتان وصيدلية حكومية واحدة ؛ وهذه الصيدليات لا تملك غير الادوية الاكثر استعمالا .

السلطات الادارية والقضائية فى المدينة

المدينة يحكمها مباشرة الوالى والشريف ، ولا توجد البتة اية سلطات مدينية (بلدية) حقا . ولاجل حل الخلافات والدعاوى ، يوجد ضرب من قاض مدينى (بلدى) هو «المحتسب» . وللنظر فى القضايا الشرعية ، يرسلون كل سنة من القسطنطينية الى مكة المكرمة والمدينة المنورة قضاة خاصين ؛ وفضلا عن ذلك ، يوجد اربعة مفاتى ، اى مفتى واحد بكل من المذاهب السنّية . ولحفظ النظام فى الشوارع لم ار سوى دورية عسكرية واحدة ، قرب الحرم . اما فى الاماكن الاخرى ، فان امر المراقبة على النظام متروك للسكان انفسهم ؛ والسكان يقومون بالفعل جزئيا مقام رجال الشرطة ؛ ففى حال الشجار ، الامر الذى غالبا ما يحدث بين صبيان الشوارع العرب ، يتراكض التجار من الدكاكين المجاورة او يتراكض المارة ، ويفرقون فورا بين المتشاجرين ؛ واذا ما تهاوى جمل فى الشارع ، او اذا ما حدثت سرقة ما ، — وهذه ظاهرة نادرة نسبيا هنا رغم تقاطر الناس من كل شاكلة وطراز باعداد كبيرة — يحرص الناس انفسهم على انهاض الجمل ، وعلى اعتقال

السارق وايصاله الى السلطات . اما النظم التى تتطلب الرقابة الدائمة ، فلا وجود لها هنا ؛ مثلا . لا ضبط ولا تنظيم لحركة القوافل فى الشوارع ؛ ومن جراء ذلك تتوقف الحركة ساعات وساعات ، وتمتلئ الشوارع بالجمال ، دون ان تترك مكانا حتى لسير المشاة .

البريد والبرق

توجد فى مكة مؤسسة للبريد والبرق تحفل دائما بالعمل اثناء تجمع الحجاج . والبريد المحلى لا يقبل الطرود ولا الارساليات النقدية ، ولا حتى الرسائل المسجلة ؛ واثناء الحج يقتصر عمله كله فى قبول وتسليم الرسائل البسيطة فقط . ونقل البريد على ظهور الحمير الى جدّة فى اتجاه ، والى الطائف فى اتجاه آخر ، يقوم به احد السكان المحليين . اما النقل الى المدينة المنورة ، فيقوم به البدو على الهجائن . وغالبا ما سمعت الشكاوى من ان الرسائل البسيطة ، وبخاصة فى زمن الحج ، تضيع بكثرة .

ومكة موصولة بخط برقى (تلغرافى) مع جدّة والطائف . واثناء اقامة الحجاج فى منى يفتتحون فيها محطة موقتة . وجدّة تعمل بكبل يمتد الى سواكن – وهى بلدة مصرية على الساحل المقابل من البحر الاحمر . وختاما للكلام عن هذه المسألة ، يبقى ان اقول انه لا توجد فى الحجاز مؤسسات للبريد والبرق الا فى النقاط الثلاث المذكورة اعلاه – مكة ، وجدّة ، والطائف . وفى المدينة المنورة لا يوجد سوى مركز بريدى يقبل الرسائل البسيطة والمسجلة فقط ، ويعمل بصورة غير منتظمة ؛ فان الرسائل تصل من مكة تارة مرة فى الاسبوع ، وطورا مرة فى كل اسبوعين ؛ ولا وجود للاتصال المباشر مع ينبع حيث توجد ايضا مؤسسة بريدية . ونقل البريد فى البحر الاحمر تقوم به شركة الملاحة الخديوية السابقة التى تدخل سفنها فى الوقت الحاضر كل اسبوع الى مرفأ جدّة ، ومرتين فى الاسبوع الى مرفأ ينبع . وفى غضون ٣–٤ اشهر فى السنة ، حين يجرى نقل الحجاج من ينبع الى اوطانهم ، لا تدخل سفن البريد الى هذا المرفأ اطلاقا نظرا لمضايقات الحجر الصحى .

مدينة الطائف

ان القيظ الذى لا يطاق صيفا فى مكة يجبر سكانها على الذهاب الى مدينة الطائف الواقعة على بعد ٧٠-٨٠ فرستا تقريبا الى الشرق من مكة .

تقول اسطورة عربية ان ابراهيم خاطب الله حين بنى الكعبة قائلا : «يا الله ! بامرك بنيت مذبحا واسست مدينة ،فيماذا سيتغذى سكانها من الآن وصاعدا ؟» . آنذاك ارسل الله رئيس الملائكة جبرائيل الى سوريا ودار دورة (قام بالطواف) حول قطعة كبيرة من الارض وحملها الى الطائف . ولذا ، كما يقول العرب ، كان المناخ فى الطائف والنبات ايضا سوريين حقا . وبالفعل تختلف مدينة الطائف وضواحيها ، بفضل موقعها العالى (على ارتفاع ٥١٥٠ قدما فوق سطح البحر) ، اختلافا شديدا عن سائر انحاء الحجاز ، وتتميز بمناخ اكثر اعتدالا ، وبغياب رياح السموم ، وبوفرة الماء الجارى ، وبهطول الامطار احيانا كثيرة نسبيا ؛ ولذا تتواجد تبعا للظروف المذكورة اعلاه ، نباتات مغايرة تماما ؛ فهنا توجد الكروم وبساتين الموز والبرتقال والدراق والمشمش والرمان وغير ذلك . والطائف تزود مكة بخضراوات لا تنبت فى انحاء الحجاز الاخرى .

تقع مدينة الطائف فى محلة مكشوفة ، على السفح الشرقى من جبل القرى ، وتحيط بها بساتين كثيرة يخص قسم منها سكان المدينة وقسم آخر بدو الضواحى . والطائف تشبه مكة من حيث الشوارع والبازارات ومعمارية البيوت . وحول الطائف ينتصب سور حجرى له ٣ بوابات يغلقونها ليلا وعدد السكان الدائمين فى الطائف الف وخمسمئة .

المدينة المنورة

المدينة المنورة او مدينة النبى هى المدينة الثانية من حيث الكبر فى الحجاز ومن حيث الاهمية فى العالم الاسلامى .

تقع المدينة على بعد حوالى ٣٥٠ فرستا بخط مباشر الى الشمال من انقاض مدينة يترب القديمة ، وسط سهل عريض يحيطه جبل أُحُد من الشمال وجبل خيبر من الجنوب ويضيق السهل الى الغرب وينفتح الى الشرق . والمدينة مطوقة بسور حجرى تنتصب ابراج فى زواياه ، وقرب بواباته الاربع ؛ وقد بنى السور فى عام ١٥٣٥ وتم تجديده عند انتهاء حركة الوهابيين . والمدينة بالذات تشغل رقعة صغيرة جدا من الارض ، حوالى فرستا مربع واحد ؛ من الجهة الغربية تلتصق بها ضاحية «مناخة» التى نشأت

فى الآونة الحديثة والمسيجة بدورها بسياج يلتصق فى اطرافه بسور المدينة المنورة .

الشوارع

اذا دخلنا عبر البوابة الغربية للضاحية المسماة «الانبارية» ، التـــى لا يجيزون الا عبرها دخول وخروج القوافل والركب ، فان العين تقع على شارع عريض ، مخطط باستقامة ، وتنتصب فيه اعمدة للمصابيح من كلا الجانبين وبيوت كبيرة . من الجانب الايسر فى هذا الشارع ، قرب البوابة بالذات ، يقوم المبنى الشاسع للتكية المصرية التى تتفق وظيفتها مع وظيفة التكيـــة المماثلة فى مكة ؛ من الجانب الايمن ، مقابل التكية ، تقوم ثكنات كبيـــرة ، وبقربها مستشفى عسكرى ، والى ابعد ، دار الحاكم المحلي — المحافظ . ينتهي الشارع بساحة شاسعة تتوقف فيها القوافل وتقوم فيها اسواق الحبوب والحطب والماشية . وضاحية مناخية تتصل بالمدينة عبر بوابتين ، اهمهما البوابة السورية التي تؤدي الى شارع ضيق لا يربو عرضـــه على ٤—٥ ساجينات ، ولكنه اكثر شوارع المدينة المنورة انتعاشا وحركة ؛ وهـــو يعبر المدينة كلها وينتهى عند بوابة الحرم . وهناك شارع رئيسى آخر ، اوسع بقليل وتقوم فيه افضل البيوت فى المدينة المنورة ؛ وهو يتجـــه شمالا ، بموازاة الشارع الاول ، وينتهى الى بوابة اخرى من الحرم . القسم الباقى من المدينة تتقطعه فى اتجاهات مختلفة ازقة ضيقة موزعة بشكل شبكة مشوشة خارق التشوش .

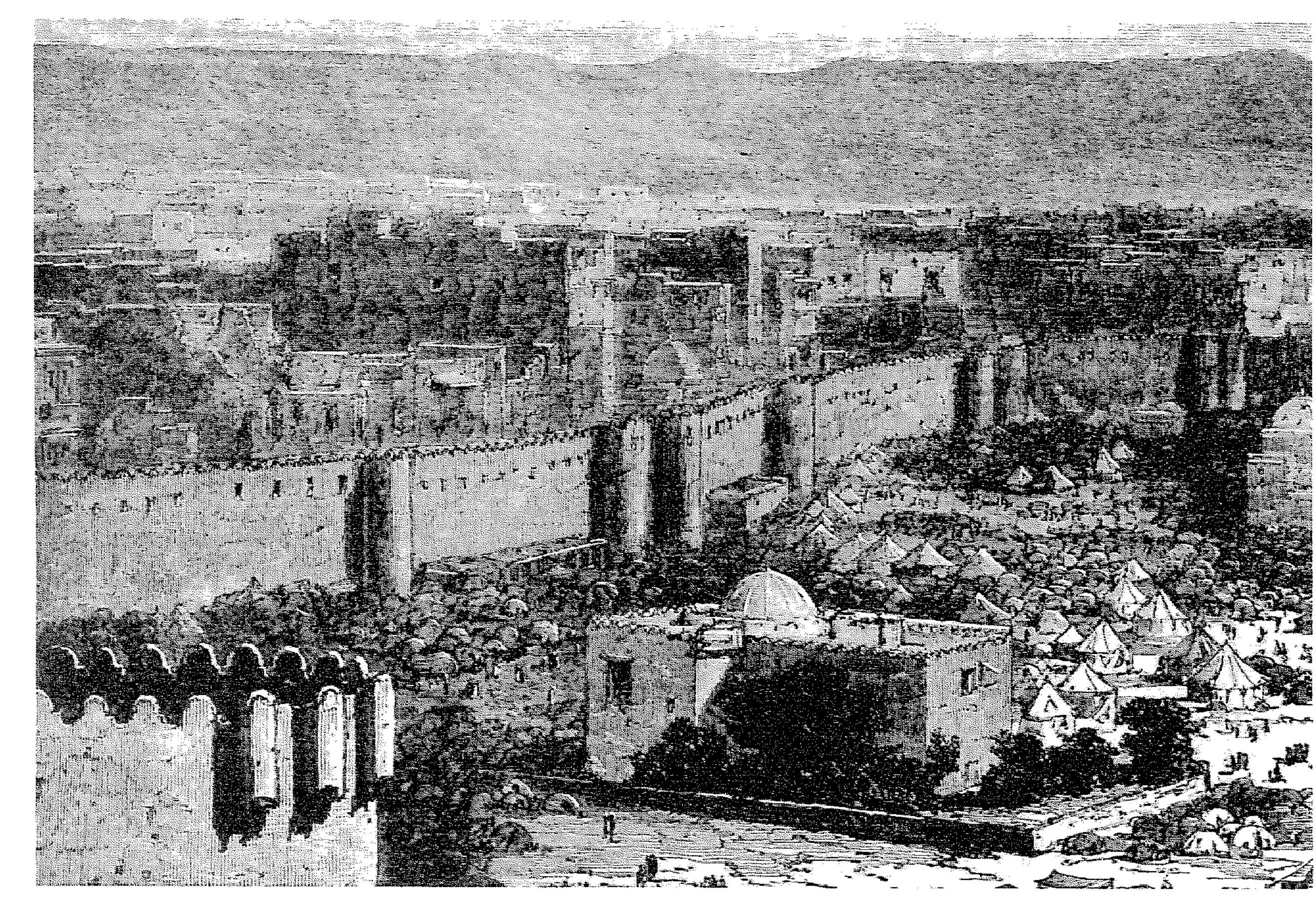
البيوت

الحجر هو مادة بناء البيوت هنا كما فى مكة . كذلك يستعملون الحمم (السائل البركانى) المتجمدة التى تغطى كل السهل فى جوار المدينة المنورة . ومعمارية البيوت كما فى مكة ، ولكن يبنون ايضا فى الطوابق السفلى غرفة خاصة بدون نوافذ مزودة بمدخنة عريضة متصاعدة الى اعلى ، وتجوز جميـــع الطوابق العليا . هذه الغرفة المسماة «القاعة» هـــى غرفة الاستقبال عنـــد اهل المدينة لانها ابرد من غيرها . وفى الطوابق العليا يبنون مشربيات ؛ وعلى السطح يوجد مكان لاجل راحة الليل صيفا والتدفؤ فى الشمس شتاء .

سكان المدينة واشغالهم

بموجب المعطيات التركية الرسمية ، يبلغ عـــدد السكان الدائمين فـــى المدينة المنورة ٨٠٠٠٠ نسمة ، ولكنه ، نظرا لابعاد المدينة ، بالكاد يربو

ـ منظر بانورامي للمدينة المنورة (حفر من صورة بعدسة محمد صادق) سنة ١٨٨٨.



على نصف هذا العدد . والسكان انفسهم يعتبرون هم ايضا ان عددهم يبلغ زهاء ٤٠٠٠٠ نسمة .

يتألف السكان من عناصر متنوعة كما فى مكة . وسكان الحجاز الاصليون هم هنا ، فى المدينة المنورة ، اقل ايضا مما فى مكة ؛ وجميع الافراد الذين يقولون عن انفسهم انهم عرب ، فيما عدا استثناء طفيف ، غرباء تجنسوا من زمان بالجنسية الحجازية . ويتألف نصف السكان من قادمين من زمن غير بعيد — من اتراك وجزائريين وتونسيين ومصريين وسرتيين وتتر وغيرهم .

وقد بدا لى عرب المدينة المنورة الطف من سكان مكة ؛ فهم بشوشون جدا ، مضيافون ، ودودون ، مستعدون دائما لمد يد العون عند الاقتضاء ، رفاق ممتازون فى الطريق ؛ وسكان الحجاز الآخرون يفسرون على طريقتهم هذه السمات من طبع اهل المدينة المنورة قائلين ان بركة النبى لا تزال تشملهم لانهم كرموه بعد الهجرة من مكة .

فى عداد السكان القادمين يوجد بضع مئات من السرت ؛ وهم هنا على الاغلب فعلة عاديون ، غير ماهرين ، ينافسون الارقاء بنجاح . والاتراك والمصريون وغيرهم يلعبون هنا نفس الدور الذى يلعبونه فى مكة .

وفى المدينة تعيش ٣١ عائلة من التتر من رعايا روسيا ، هاجرت الى هنا فى ازمان مختلفة ولاسباب مختلفة ، واحبت هذه المدينة وشكلت هنا جالية صغيرة فى ضاحية مناخة . وهذه الجالية يرأسها عبد الستار ، الذى استقر هنا منذ ٤٠ سنة والذى نزح من محافظة استراخان .

والتتر المحليون نزحوا باغلبيتهم من روسيا بعد الاضطرابات التى نشبت بينهم فى سنة ١٨٩٢ ؛ وقسم منهم حرفيون وتعساء جاؤوا يبحثون عن السعادة ؛ وهناك بينهم ايضا تلامذة فى المدارس الدينية المحلية تزوجوا واستقروا هنا للاقامة الدائمة . واعضاء هذه الجالية يكسبون جميع موارد رزقهم من الحجاج من ابناء قوميتهم ؛ فهم يستقبلون القوافل القادمة من جهة ينبع ويحاولون ان ينزلوا الحجاج فى بيوتهم ، ويقدمون لهم الطعام ويحاولون ان يستحصلوا على «بدل» ؛ وحين تعتزم القوافل مواصلة السير ، يتجمع جميع اعضاء الجالية لتوديع القوافل لكى يحصلوا من مواطنيهم على صدقة هى عادية فى مثل هذه الاحوال ؛ وان من يفلحون فى الحصول على بدل ، يذهبون مع الحجاج لاجل اداء فرائض الحج فى مكة ؛ ومن مكة يعودون مع حجاج آخرين ، وينزلونهم فى البيوت ويودعونهم بموجب النظام نفسه . وعند انتهاء الحج ، يذهب بعض من التتر المحليين الى روسيا لزيارة اقربائهم ، والاهم ، لجمع الصدقات التى يقدمونها لهم بطيبة خاطر بوصفهم من سكان المدينة المقدسة ، وللحصول

على بدل اذا سنحت الفرصة . وقد رأيت بين المهاجرين المحليين واحدا فقط كان فيما مضى تاجرا ميسورا وفر الى المدينة المنورة بسبب ادمان الخمر ، وهو الوحيد الذى لا يهتم بالحجاج ، ويكسب رزقه بعمله . ومنذ حوالى ٢٩ سنة ، بدأ عبد الستار المذكور اعلاه يجمع فى روسيا النقود لبناء مدرسة دينية ومسجد فى المدينة المنورة . ولجمع التبرعات سافر اولا بنفسه ؛ وعندما منعوه من دخول روسيا ، شرع يرسل اقرب معاونيه مع الرسائل ؛ وعلى هذا النحو ، كما يقال ، تم جمع ٥٠ الف روبل تقريبا . وبهذا المبلغ بنوا مدرسة دينية مرفقة باربعين منسكا ضيقا جدا ينزلون فيها ايضا ، فى زمن الحج ، بعضا من الحجاج ، كما بنوا مسجدا غير كبير وستة بيوت يعيش فيها جامعو النقود انفسهم . وفى الوقت الحاضر يستمر جمع النقود وتشييد المبانى .

وقد تسنى لى ان اسمع مرارا من افراد مختلفين انه اذا توفى حاج توقف عند عبد الستار او عند انصاره الستة او السبعة او فى المدرسة الدينية ، فان امواله ونقوده تختفى باوقح شكل ، بلا ذمة ولا ضمير ؛ كذلك يتصرفون باموال التلامذة فى المدرسة الدينية ، ويتخاطفون ويسرقون امتعتهم ، ويستبدلون كتب الاوقاف بكتبهم ؛ وبعد ذاك فقط يعلمون السلطات بموت التلميذ .

ان عبد الستار واقرب اعوانه ، سعيا منهم الى نشر نفوذهم وزيادة عدد اتباعهم حولهم ، يحاولون بجميع الوسائل ان يوحوا لمواطنيهم العائشين فى روسيا بان «الهجرة» اى النزوح الى دولة اسلامية هى من اهم واجبات كل مؤمن . وفى سنة ١٨٩٧ وضع الشيخ عبد القادر الذى كان يتمتع بالشهرة فى المدينة المنورة (المتوفى حاليا) ، بتكليف منهم ، كراسا خاصا يحتوى جميع آيات القرآن المتعلقة بتلك المرحلة من نضال النبي ضد الوثنيين المكيين التى طلب فيها من اتباعه النادرين آنذاك من عداد سكان مكة اللحاق به . وكان من المرتأى ، بعد طبع الكراس فى القاهرة ، ارسال ١٠٠٠ نسخة الى روسيا حيث كان من الممكن ، باعتبار انها ترتكز على القرآن الكريم وحسب ، ان تستثير الاضطراب والغليان وسط قسم معين من السكان المسلمين . وحين غادرت القاهرة فى شهر كانون الثانى (يناير) من السنة الجارية ، لم يكن الكراس قد طبع بعد ، نظرا لمرض الشخص الذى عهد اليه بطبعه .

ومع ذلك لا يتزايد عدد التتر فى المدينة المنورة من جراء الظروف المناخية المرهقة ومن جراء النسبة الكبيرة من الوفيات . واذا ماتت الزوجة ، راح الارمل للتزوج من جديد الى روسيا ؛ ومنها يحاول ان يجلب ايضا زوجات لاولاده الراشدين واخوته وغيرهم ، متجنبا بكل اجتهاد القران

بالعربيات المحليات اذ يجد انهن مفرطات فى تطلباتهن ومتقلبات الاهواء .

اشغال السكان فى المدينة المنورة تشبه اشغال السكان التى رأيناها فى مكة – جزئيا التجارة ؛ واساسا مختلف موارد الرزق من خدمة الحجاج .

البازارات فى المدينة المنورة عبارة عن نسخة غير كبيرة عن بازار مكة ، وهى تتاجر بالبضائع ذاتها تماما ، ولكنها تبيع باسعار اغلى بكثير ونادرا ما تطرأ عليها التقلبات ، نظرا لان استجلاب البضائع اصعب ولأن العرض غير كبير . وبدرجة كبيرة جدا ترتفع اسعار مواد الضرورة الاولية المستجلبة من ينبع ومنها مثلا الشاى والسكر . اما القمح والرز فان المدينة المنورة تحصل عليهما جزئيا بفضل القوافل القادمة من منطقة ما بين النهرين ؛ بينما تـــرد سمنة البقر والضأن والدهن من نجد . وفى سنة ١٨٩٨ ، تشكـــى الناس بخاصة من غلاء اسعار المنتوجات المعيشية المحلية ، الناجم عن انقطاع المطر فى الشتاء السابق والنقص العام في العلف . وكانت اسعار سلع الضرورة الاولية بالمتوسط للرطل الواحد كما يلى :

	فى زمن تجمع الحجاج	فى الوقت العادى		فى زمن تجمع الحجاج	فى الوقت العادى
	(بالكوبكات)			(بالكوبكات)	
لحم الضأن	٥	٦	الشاى الاخضر	١٠٠	١٠٠
الطحين المحلى	١٤	١٢	السكر	١٩	١٨
السمنة البقرية	٣٥	٣٥	الشمع الستيرينى	٢٧	٢٧
زيت الزيتون	٥٥	٥٠	الكاز	٨	٧
الدهن	١٣	١٣	الخبز شبه الاسمر	١٠	٧
الشاى الاسود	٧٠	٧٠			

الظروف الصحية فى المدينة المنورة

الظروف الصحية فى المدينة المنورة افضل مما فى مكة ، بفضل توفـر بعض المرافق العامة ، والاهم بفضل عدم تجمع الحجاج فى آن واحد باعداد كبيرة .

الماء

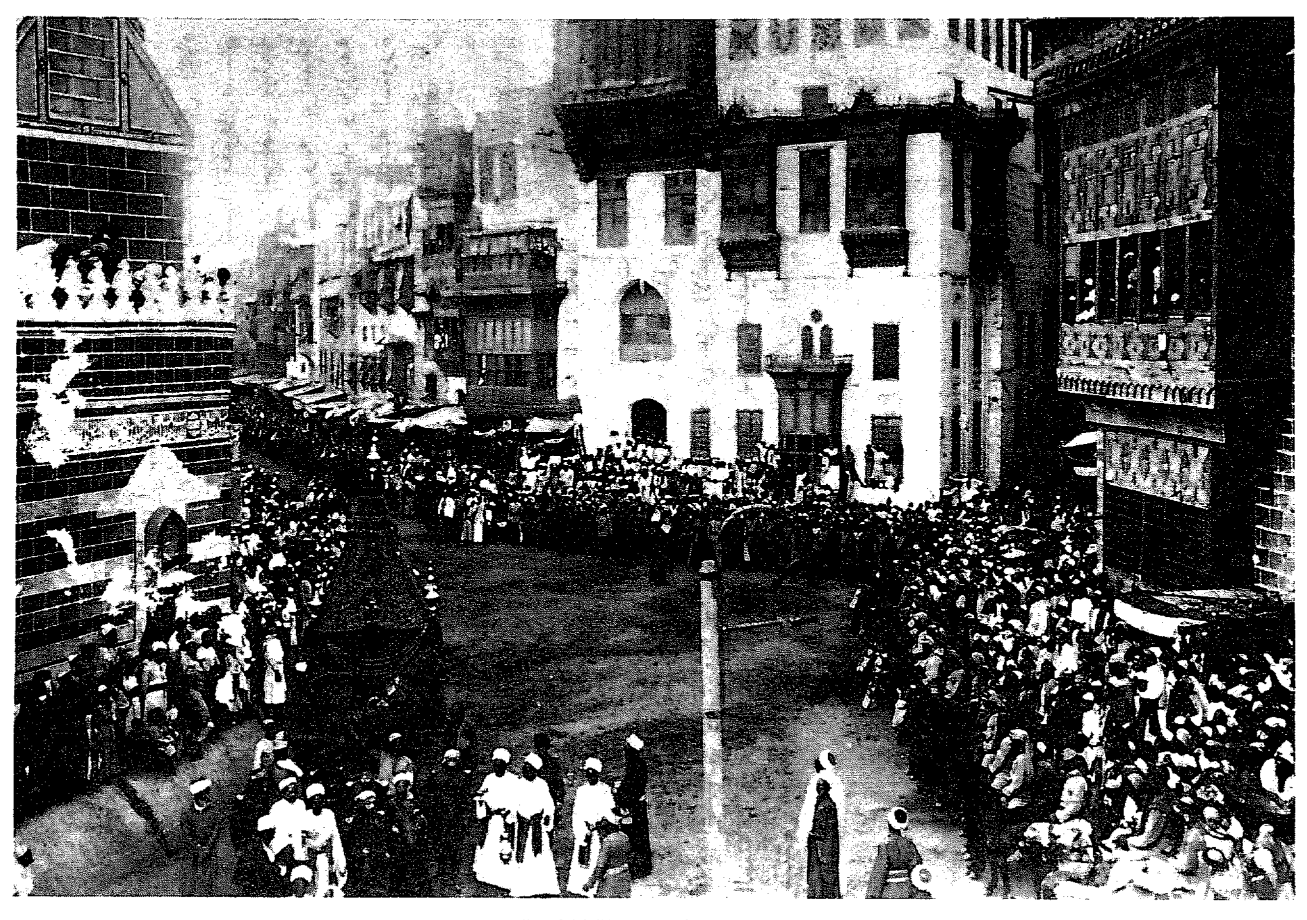
حصلت المدينة المنورة على الماء فى سنة ١٥٩٠ وذلك من آبار عين الزرقة الواقعة على بعد زهاء خمسة فرستات عن المدينة ، قرب جامع القبّة . ونظام توزيع مجارير الماء كما فى مكة . الانبوب الحجرى يمتد على عمق زهاء ساجينين وله كثرة من منافذ الهواء — الآبار المرفوعة كثيرا تخوفا من ظاهرات السيول فوق سطح الارض . ولاستعمال الماء توجد احواض مبلطة بالحجر ، ولكن الناس لا يستقون الماء من المزراب ، بل يمررونه بواسطة حنفيات نحاسية عبر خراطيم خاصة الى القرب مباشرة . ونقل الماء وتوزيعه على البيوت وحفظه كما فى مكة . وهذا الماء لا يستعملونه فى المدينة المنورة الا لاجل الشرب والطعام ؛ اما الحاجات الاخرى فتلبيها الآبار القائمة فى كل بيت . والماء فى المدينة المنورة جيد ، ولا نقص فيه .

حالة البيوت

تتصف البيوت ببالغ النظافة والترتيب ، ولكن بيوت الخلاء كما في مكة ؛ وفى بعض البيوت تفوح رائحة كريهة فى الطوابق السفلى ، وبخاصة اذا كان عدد السكان كبيرا . وتنظيف البالوعات يجرى على الاغلب مرة واحدة فى السنة . وبعض اصحاب البيوت لا يقومون بهذه العملية الا مرة واحدة كل سنتين او ثلاث . ومحتوى البالوعة ينقلونه الى خارج المدينة .

حالة الشوارع

المدينة نفسها تقع ضمن سور وفى رقعة اضيق مما فى مكة ؛ والشارع الافضل الذى ينطلق من باب الشام وتشغله كليا الدكاكين من جانبيه لا يبلغ عرضه اكثر من ٤—٥ ساجينات . والازقة خارقة الضيق ، وعرض بعضها ارشينان ونصف ارشين فقط . وهناك عمارات تطل على الشارع لكسب مكان ، تاركة فى اسفل ممرا غير عال ، الامر الذى يعيق كثيرا ، بالطبع ، حركة الهواء . وترتيب البيوت فى ضاحية مناخة ارحب بكثير رغم انه لا وجود هنا للاحواش ورغم ان المبانى تلتصق بعضها ببعض على الشارع وفى العمق . والشوارع تشكل مكانا لرمى الزبالة والنفايات من كل شاكلة ، ويجرى تكنيسها مرة واحدة فى اليوم .



ـ المحمل في المدينة المنورة.

ولكن الشارعين الرئيسيين في المدينة المنورة مرصوفان بالبلاطات الحجرية ؛ ورش الشوارع يقوم به في كل مكان تقريبا اصحاب البيوت انفسهم . اما السبب الرئيسي لكون شوارع المدينة المنورة انظف ، هو ان المدينة ذاتها لا تجيز دخول الجمال وسائر الحيوانات ، فتتوقف القوافل العابرة خارج المدينة او في ساحة بمناخة ؛ وجميع الحمير والاحصنة التي تخص السكان يزربونها هي ايضا في هذه الضاحية .

المسلخ

يقع المسلخ خارج المدينة ، على مقربة من سورها ؛ وهو قذر جدا .

المقبرة

للمدينة المنورة مقبرة صغيرة واحدة تقع وراء سور المدينة بالذات ، ويطوقها سور غير عال . اسلوب دفن الموتى هنا كما في مكة : يحفرون حفرا عميقة كفاية ، لا اقل من ارشين ونصف ارشين ، وفي المدافن القديمة نظرا لضيق المكان . كذلك لا وجود هنا لعادة جلب الموتى من غير اهل المدينة .

الظروف المناخية

تقع المدينة المنورة ابعد الى الشمال وفي محلة مكشوفة ، ولذا تتمتع بحرارة ادنى بعض الشيء في فصل الصيف ؛ وفي الشتاء يكون البرد ، كما يقولون ، محسوسا جدا . وحسب مراقباتي في شهري ايار (مايو) وحزيران (يونيو) ، كان متوسط الحرارة في اليوم في غرفة غير كبيرة ، ولكنها محمية جيدا من الشمس ، ٢٧ درجة ريومور فوق الصفر ، ولكنها كانت ترتفع في النهار الى ٢٩ درجة وتهبط في الليل الى ٢٥ درجة . وفي الشتاء تهبط الحرارة في الغرفة ذاتها ، كما قالوا لي ، الى ١٣ درجة فوق الصفر .

ولربما بسبب الفرق الكبير بين حرارة الصيف وحرارة الشتاء ، او بسبب وفرة وقرب المياه الجوفية المتواجدة في كل مكان على عمق ساجينين او ثلاثة ، او بسبب انشاء الآبار في البيوت بالذات ، تتخذ الملاريا في المدينة المنورة شكلا خطيرا جدا ،فاتكة بكثيرين من المرضى . وعدا ذلك ،

توجد ، وان اندر مما فى مكة ، امراض مختلفة لاعضاء جهاز الهضم . ونسبة الوفيات ، وبخاصة بين السكان الدخلاء ، كبيرة جدا ؛ ويموت على الاخص عدد كبير من الاولاد . وعند التتر المقيمين هنا ، كما يقولون ، لا يعيش سوى عدد تافه من المواليد الجدد . كـــذلك نسبة الوفيات كبيرة بيـــن العساكر .

المستشفى

لا صيدلية فى المدينة المنورة ؛ ولكن المرضى يحصلون على الادوية مجانا من المستشفى المبنى على نفس الاسس كما فى مكة ، باموال الاوقاف التى كانت تتبرع بها والدة السلطان عبد المجيد ؛ وهذا المستشفى يشغل مبنى رحبا جدا من ثلاثة طوابق عند بوابة الحرم بالذات ويملك ثلاثين سريـرا دائما . ويعمل فى المستشفى طبيب واحد وصيدلى واحد .

المدارس الدينية فى المدينة المنورة

تسنى لى ان اطلع بمزيد من التفصيل على المدارس الدينية فى المدينة المنورة ، حيث الدروس لا تتوقف حتى فى زمن تجمع الحجاج . وكل مـــا اقوله هنا عن هذا النوع من المدارس يصح كذلك على المؤسسة التعليمية من هذا الطراز فى مكة ، التى لا تختلف الا من حيث قوام التلامذة ؛ ففـى مكة يشكل الماليزيون الاغلبية ، وفى المدينة المنورة الاتراك والسوريون والتتر وغيرهم .

فى المدينة المنورة ١٧ مدرسة دينية تضم قرابة ٢٥٠ تلميذا . وجميع المدارس الدينية تشكل اوقافا تركية بوجه الحصر ، ويؤمن لها دخل معين يجرى انفاقه على المعلمين وعلى منح التلامذة النقود لاجل الطعام . واغنـى المدارس الدينية مدرسة المحمودية حيث يتقاضى التلميذ ليرة تركية واحدة فى الشهر ؛ وفى المدارس الباقية ينال التلميذ بالمتوسط فى كل شهـــر مجيديتين (حوالى ٣روبلات و٥٠ كوبيكا) . اما العائشون فى مدرسة قازان ، فيعيشون على حسابهم .

جميع مبانى المدارس الدينية مبنية حسب طراز واحد – عمارة مربعة الزوايا من طابق او من طابقين مع حوش فى الوسط تطل عليه جميع ابواب غرف غير كبيرة – اى مناسك معد كل منها لايواء شخص واحد . وعدد هذه

الغرف لا يربو عادة على ١٠–١٥ ؛ وعددها فى المحمودية ٢٦ ، وفى مدرسة قازان ٤٠ ؛ وفى مدارس دينية اغنى تبلغ مساحة الغرفة حوالى ٢٠ ارشينا مربعا ؛ وفى كل من الغرف توجد نافذة غير كبيرة ؛ اما فى مدرسة قازان فان مساحة الغرف ١٢ ارشينا ، والنوافذ موجودة فى غرف الزوايا فقط . وفى المدارس الدينية جميعها تقريبا توجد مكتبات وغرفة اوسع هى صالـة للمحاضرات . ولكل مدرسة دينية ناظرها ؛ وهو يعيّن وفقا لمشيئة صاحب الوقف ، كما انه يشرف على قبول وصرف التلامذة واعطائهم النقود الواجبة ، والتقيد بالنظام ، وخلاف ذلك . وعدا الناظر ، ينبغى ان يكون ثمة معلم ، اى مدرّس يعيّن كذلك باشارة من صاحب الوقف او ورثته .

فى عداد التلامذة يقبلون ابناء جميع القوميات ما عدا السكان المحليين ، ومن جميع الاعمار ، وفقا لعدد الغرف الفارغة ، دون السؤال عن المعارف التى يملكها طالب العلم . وعدد سنى الاقامة فى المدرسة غير محدد .وهناك من يعيشون فيها ٢٠ سنة . ولا تتخذ اية تدابير للاجبـــار او الحث او التشجيع فى الدراسة او للتحقق من النجاحات . ولا يصرف التلامذة خـلافا لارادتهم الا فى حال اقترافهم اعمالا غير لائقة جدا ، – وليس ثمة تقريبـا مثال على ذلك – وكذلك فى حال زواجهم . ونظرا لهذه النظم ، يعيش على الدوام فى المدارس الدينية عدد عديد من شتى الافراد الذين لا مأوى لهم والذين لا علاقة لهم البتة بشؤون الدراسة ، وذلك لمجرد الرغبة فـــى الانتفاع من الشقة الجاهزة والنقود للعيش . وفى كل مدرسة دينية تقـــع العين على بضعة شيوخ هرمين جاؤوا الى المدينة المنورة لكى يقضوا هنا اواخر ايامهم ولكى يدفنوهم على مقربة من قبر نبيّهم .

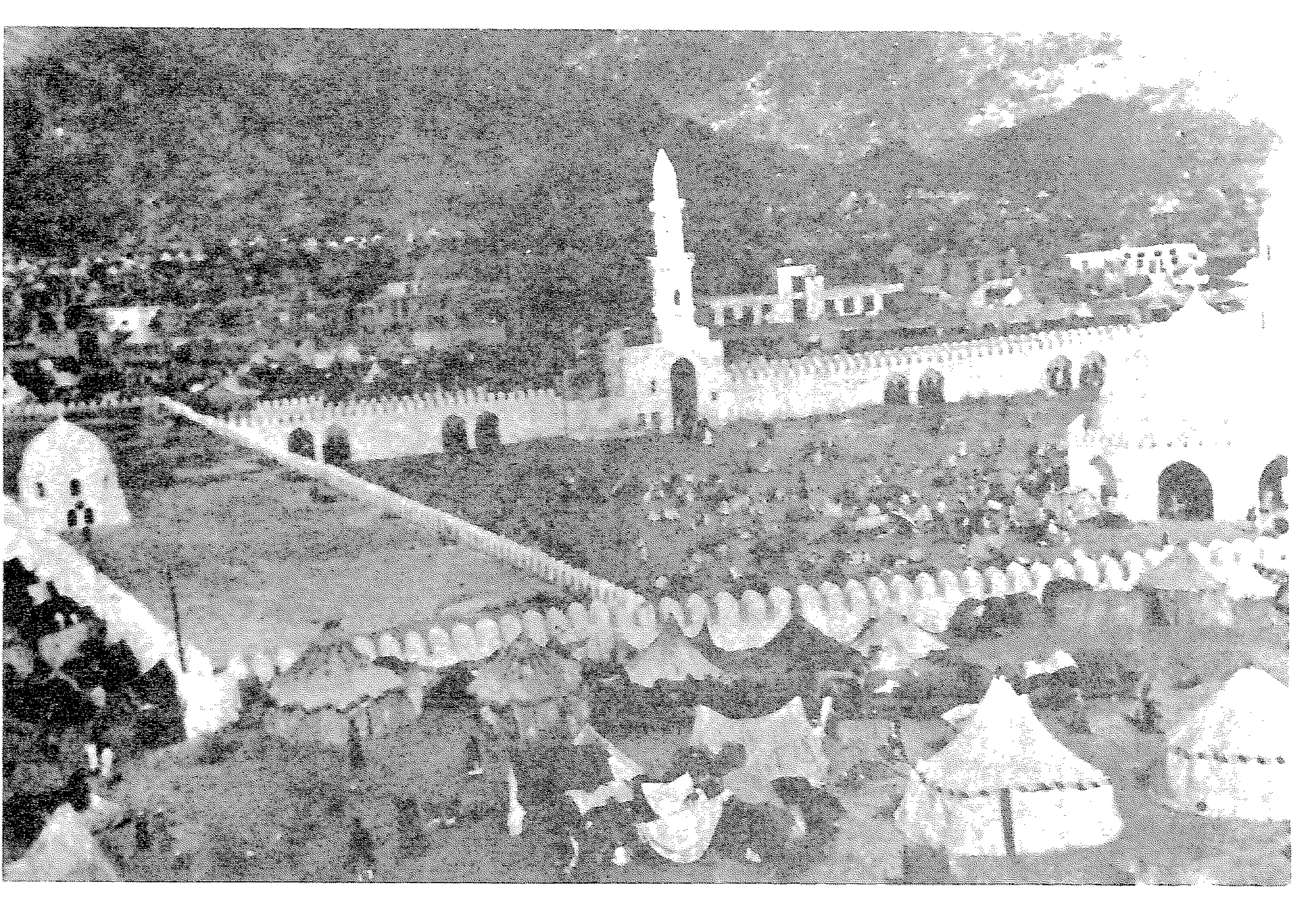
تبدأ الدروس فى المدرسة فور صلاة الصبح ، مع طلـوع الشمس ؛ وجميع التلامذة والعائشين فى المدرسة ملزمون بالاستماع الى محـــاضرة واحدة من مدرّسهم ، ثم يتصرفون بوقتهم كما يطيب لهم ، دون اية رقابة . وعادة ، يذهب الراغبون فى تحصيل العلم الى الحرم حيث يلقى ائمـــة المدينة المنورة ، الواسعو الشهـرة ، الخطب فـى ساعات معينة مـــن النهار ، وكل منهم فى موضوعه ؛ ويتجمع حوله عدد كبير من المستمعين . وحين يجد التلميذ انه يملك ما يكفى من المعارف فى الموضوع المعنـى ، ينتقل الى امام آخر ، وهكذا دواليك .

ومن عداد مواضيع الدراسة ، باستثناء العلوم الدينية المدرّسة في جميع المدارس الاسلامية ، اشتهر ائمة المدينة المنورة بتفسير القرآن الكريم وبخاصة تفسير الاحاديث النبوية . وكثيرون من التلامذة يتوافدون الـــى

المدينة المنورة لسنة او لسنتين خصيصا لتحصيل هذه العلوم من معلميها.
ولكل من يعيش فى المدرسة الدينية مفروشاته ولوازم منزلية بسيطة ؛ وهو يهتم شخصيا باعداد الطعام لنفسه. وحوالى الساعة ٩ مساء تقفل المدرسة ابوابها ؛ وقبل ذاك يعود الجميع فى المعتاد الى غرفهم.

حين كنت فى المدينة المنورة كان فيها ٤٢ تلميذا تتريا من رعايا روسيا موزعين فى مدارس دينية مختلفة، ولكن اغلبيتهم كانت فى مدرسة قازان لانه يوجد دائما هناك عدد كبير من الغرف الفارغة. وعدد هؤلاء الشبان ازداد كثيرا فى السنوات الاخيرة بالانتقال الى هنا من المدارس الدينية فى القاهرة والقسطنطينية (فى اواخر سنة ١٨٩٧ بقى فى القاهرة ٧ اشخاص وفى القسطنطينية ١٥ شخصا من السفط (٢) من رعايا روسيا) وذلك جزئيا بدافع الرغبة فى الاستماع الى خطب ائمة المدينة المنورة، وبصورة رئيسية، بامكان العيش بصورة اقل حقارة وفقرا، بفضل امكانية جمع الصدقة والاحسان من الحجاج من ابناء الوطن والحصول احيانا على ابدال مفيدة.

وقد اقتنعت بان تلامذتنا هنا يتميزون بصورة ايجابية عن زملائهم فى مدارس بخارى ؛ فلا يلحظ المرء فيهم ذلك التعصب الاعمى المتطرف وذلك الازدراء الجاهل بكل ما لا يدخل فى اطار الشريعة وبجميع من لا يسيرون بكل دقة فى طريقها المرسوم ؛ ويتميز ارباء المدينة المنورة بافق اوسع بكثير، ونظرات اصح ؛ ويهتمون بكل شيء. وقد بدا لى ان سبب ذلك، بصورة رئيسية، هو روح سكان المدينة المنورة الاصليين، وهى روح مغايرة تماما، اوفر حرية الى ما لا قياس له ؛ وانه يجب ان ننسب جزئيا هذا التأثير الى السفرة الطويلة التى تحمل الى الشبان الصحو وصفاء الذهن ؛ وجزئيا الى نفوذ العالم الديني السيّد على الزاهر الواسع الشعبية فى الحجاز ؛ وهو رجل لا ريب فى انه ذكى جدا ورأى الكثير فى دهره، وذو وجهة ليبيرالية نادرة جدا بين العلماء. وهذا العالم يلقى تفسيرات للاحاديث النبوية ؛ ومحاضراته فى الحرم تجتذب دائما عددا كبيرا من الناس. ان التفسيرات التى يعطيها عن اقوال النبى تتميز عن تفسيرات العلماء الآخرين ؛ فهو يرى فى كل شيء مغزى داخليا اوسع. وقد تسنى لى ان حضرت احدى المحاضرات فى تفسير الاحاديث المتعلقة بالهجرة (اى عن النزوح من دولة غير اسلامية الى دولة اسلامية) ؛ وقد قال السيّد على ان واجب كل مسلم ان يحب الوطن الذى يعيش فيه، وان يحترم السلطة القائمة هناك، ايا كانت العقائد هناك، وانه لا مبرر للنزوح لا فى القرآن ولا فى



ـ مسجد الخيف في المدينة المنورة (تصوير ابراهيم رفعت) سنة ١٩٠٨.

الاحاديث ، اذا كان الايمان لا يتعرض للعنف . وهذا العالم المحترم هو من كبار انصار روسيا ؛ وغالبا ما يحكي لزواره العديدين من الحجاج من جميع البلدان ، عن زيارته لموسكو حيث شاهد بالتفصيل جميع الطرائف ، ويمدح كثيرا نظمنا واوضاعنا ؛ وهو يقول : «ايماننا صحيح ، ولا شك في هذا ، ولكن العدالة غائبة في الدول الاسلامية ؛ ويجب البحث عنها عند الروس» .

المكتبات

عدا المكتبات غير الكبيرة الموجودة في كل مدرسة دينية توجد في المدينة المنورة مكتبتان عامتان غنيتان نسبيا : مكتبة شيخ الاسلام ومكتبة المحمودية ، وفي كل منهما قرابة ٦٠٠٠ مجلد ، اغلبها كتب مخطوطة دينية المضمون ، وبينها نسخ نادرة جدا . والمكتبات ، مثلها مثل المباني التي تقوم فيها ، تمولها الاوقاف ؛ ومن اموال الاوقاف يتقاضى قيمو المكتبات رواتبهم .

سلطات المدينة

ادارة المدينة يرأسها العامل ، اي حاكم سنجق المدينة المنورة ، وللبت في الدعاوى القضائية يوجد قاض تجرى الاستعاضة عنه سنويا من القسطنطينية ، ومحتسب . وهناك مفتيان لاجل المذهب الحنفي والمذهب الشافعي . ولحفظ النظام تقام في زمن اقامة قوافل الحجاج دورية عسكرية خاصة في ساحة ضاحية مناخة . اما في الوقت الباقي فلا يظهر في الشوارع اي من حراس الامن والنظام . وجميع بوابات المدينة يحرسها حراس ؛ وفي الليل يغلقونها ؛ ولا يسمحون بالخروج لقوافل الحجاج الا نهارا وشرط ان يقدم البدو ترخيصا خطيا من العامل .

البساتين في ضواحي المدينة المنورة

ضواحي المدينة عبارة عن سهل رملي عريض ، تتخلله الحجارة والسائل البركاني المتجمد ، ويكسوه السباخ . ولا وجود البتة للماء الجاري ، ولكن الشريحة المنطوية على الماء تمتد على عمق غير كبير جدا ، على عمق ساجينين

او ثلاثة ، ومن جراء ذلك تكثر البساتين واحواض الخضراوات فى ضواحـى المدينة المنورة ، وبخاصة فى جانبها الشرقى ؛ وهى تخص البدو جزئيا ، وجزئيا الطبقة الميسورة من سكان المدينة . تتألف البساتين بوجه الحصر تقريبا من اشجار النخيل ؛ وتمر المدينة المنورة يعتبرونه ، من حيث وفرة السكر فيه ، افضل تمر فى العالم ، ويشكل المادة الوحيدة للتصدير مـن هذه المنطقة ؛ والى شراء التمر يتوافدون من ابعد انحاء الحجاز ؛ كذلـك يبيعونه فى محله او عبر مكة من الحجاج . وتبلغ الصادرات قرابة ٥٠٠٠٠ بود * . وسعر خيرة الاصناف ، حين يشتريها الحجاج ، زهاء ١٠ كوبيكات للرطل الواحد . وهنا يحسبون انه يوجد اكثر من ٧٠ نوعا من اشجار النخيل المختلفة من حيث صفات ثمارها . تعيش شجرة النخيل حوالى مائة سنة ، وتبلغ اقصى مردودها حين يتراوح عمرها بين ٥٠ و٦٠ سنة ، ثم تبـدأ تشيخ تدريجيا ؛ وحين تقل كمية الثمار كثيرا ، يقطعون الشجرة من جذعها ويستعيضون عنها بشجرة فتية . تعطى شجرة النخيل فى موسم جيد وفى افضل اوقاتها زهاء ٣٠٠ رطل من التمر ؛ ويجنون بالمتوسط من كل شجرة زهاء ١٨٠ رطلا . ويعتبرون ان خيرة الانواع هى : الجاليابى ، الحلـوه ، البرنى ، الحتلايه ، الجادى ، البيض ، اللبانه ، العجوة . السقاية تجـرى ببالغ الوفرة ؛ واثناء نضوج الثمار تجرى احيانا كثيرة جدا — مرة كل ٥ او ٦ ايام ، بل اكثر من ذلك اذا توفرت الامكانيات . يستخرجون الماء من الآبار بقرب كبيرة خاصة وبمساعدة دواب الجر . فتحات الآبار واسعة جدا ، قطر كل منها ساجين ونصف ساجين او ساجينان ؛ من طرف ينتصب عمودان حجريان بينهما يضعون بكرات خشبية على درجتين . القربة المليئة بالماء يرفعونها بواسطة حبلين موصولين بطرفى القربة ، وممررين عبر البكرات الخشبية . حين ينبسط الطرف المفتوح من القربة على البكرة الدنيا ، يواصل الطرف المقابل الصعود ويجعل القربة فى وضع عمودى ، فينسكب الماء كله منها . وعادة تعمل قربتان بصورة متوازية ، يرفعونهما بواسطة دابتين ، وعلى الاغلب بواسطة جمال فتية تدور الى الوراء والى الامام فى ساحـة منحنية قرب البئر . بهذا الاسلوب يستخرجون بالمتوسط زهاء ليتر واحد فى الثانية .

عدا اشجار النخيل يتعاطون فى البساتين زراعة نوع صغير من اشجار الليمون الحامض ، والكروم والحنّاء والفلسنك وغير ذلك . والفسحـات الحرة بين الاشجار يزرعونها بالفصفصة . ومن الخضراوات يزرعـون ،

* البود — ١٦،٣٨٠ كيلوغراما . المترجم .

فيما يزرعون ، البطاطا . وبعض من سكان المدينة المنورة ينتقلون الى البساتين لقضاء الصيف كله اذا توفرت لهم الاسباب لعدم التخوف من اعتداءات البدو . اما بالنسبة للآخرين ، فان البساتين تشكل مكانا للنزهة ؛ فيأتون جماعات كبيرة ، ويختارون بستانا ما حرا ، علما بان صاحبه لا يحول ابدا ، بحكم العادة ، دون دخول الغرباء الى بستانه ، فيبقون لبضعة ايام ، مستفيدين كذلك من الثمار مجانا .

المدينة المنورة بوصفها منفى

المدينة المنورة ، مثلها جزئيا مثل مكة والطائف ، تشكل فى عهد السلطان العثماني الحالى منفى للاشخاص المستبعدين لاسباب سياسية ، وللنساء والخصيان المطرودين من الباب العالي . وبين الاشخاص من الفئة الاولى ، يمكن ذكر غازى محمد باشا ، وهو من ابناء الامام شميل المعروف .

ينبع . موقع المدينة والبيوت

مدينة ينبع او ، كما يسمونها تمييزا لها عن ينبع اخرى واقعة على بعد ٢٥ فرستا تقريبا فى الجبال ، ينبع البحر ، هى اقرب مرفأ الى المدينة المنورة . تقع ينبع على بعد ٢٠٠ فرستا تقريبا ، اذا حسبنا بالخط المباشر ، الى الجنوب الغربى والغرب من المدينة المنورة ، وعلى بعد ١٩٠ فرستا تقريبا الى الشمال من جدّة ؛ تنتصب ينبع على ساحل رملى مستو من البحر الاحمر ، ويحيط بها من جهة البر سور حجرى ذو بوابتين . بيوت ينبع من الهندسة المعمارية المتواجدة فى مكة ، ولكن مع فارق وحيد هو ان جميع الطوابق السفلى فى ينبع مأهولة كذلك وان حطام الشعب المرجانية التى تقوم عليها المدينة تشكل مادة لاجل البناء ايضا . والبيوت متزاحمة فى الجانب الجنوبى من المحلة المحاطة بالسور حيث يوجد شارع واحد وبازار وبضعة ازقة . اما فى القسم الشمالى من المدينة فان المبانى موزعة على نطاق واسع ودون اى نظام ؛ وفى الطرف الشرقى تقوم بنايات غير سكنية يستعملونها لجمع الماء وحفظه .

السكان واشغالهم

فى ينبع يعيش ٥٠٠٠ نسمة من السكان الدائمين ؛ وهم اساسا من السكان المحليين ، الاصليين . وشغلهم فى زمن الحج ، ممارسة التجارة ؛

اما فى الوقت العادى ، فيتعاطون صيد السمك والملاحة الساحلية ، وما الى ذلك .والتجار القادمون من مصر وجدّة والمدينة المنورة فى زمن تدفـــق الحجاج هم تجار اكبر من تجار ينبع . سلع التجارة هى كالتى فى المــــدن المذكورة ، ولكن بمقادير اقل بكثير . ومن سلع التصدير التمر المستجلب الى هنا من ينبع النخلة والصفراء والحمراء وكذلك الصدف على انواعهـــا والسلاحف ، وغير ذلك من المواد المستخرجة من البحر .

وهناك ملاحة اكثر انتعاشا على السنابك – وهى زوارق شراعية غيـــر كبيرة بلا متون يصنعونها فى جدّة – تجرى فى اتجاه هذه المدينة . واثناء اقامتى فى ينبع كان يأتى اليها ويغادرها كل يوم بضعة سنابك ناقلـــة الركاب وتلك البضائع التى تفرغها البواخر فى جدّة لانها لا تعرج على ينبع . تمضى السنابك بمحاذاة الساحل ؛ ونظرا لمخاطر الملاحة بسبب الشعـــب التحتمائية ، تتوقف ليلا ويستغرق الطريق بين الميناءين المذكورين يومين او ثلاثة ايام اذا جرت «الرياح بما تشتهى السفن» . كذلك ينطلق سكـان ينبع الى مرافئ البحر الاحمر الاخرى بما فيها السويس والحديدة ضمنا . ويوجد فى ينبع مكلأ صغير ولكنه محمى جيدا من جميع الرياح ؛ والمكلأ عميق الى حد ان السفن ترسو على بضعة ساجينات فقط من الشاطئ . ولكن الدخول الى المكلأ الذى تتخلله الشعب والذى لا يملك انارة ، غير ممكن الا نهارا .

الظروف الصحية فى ينبع

الظروف الصحية فى ينبع اسوأ مما فى جميع النقاط الاخرى فى الحجاز . ينقصهـــا الضرورى جدا فـــى المناخ الحار اى المـــاء الجيد . وهنـــا يستعملون ماء المطر ؛ ولاجل جمعه يبنى السكان ضمن حدود المدينة اقبية غير كبيرة من الحجر سعة الواحد منها ٥–٨ ساجينات مكعبة ، مع مبني فى اعلى القبو بشكل عنبر . فى احد جدران العنبر ، يتركون قرب سطح الارض فتحة ينسكب منها فى القبو ماء المطر السائل فى الشوارع . وللعنبر باب يغلقونه بالقفل . ولاخذ الماء يدخلون الى العنبر ويستقون الماء بالدلو . خارج سور المدينة ، على بعد نصف فرستا تقريبا ، تقع صهاريج عامـــة مقاييسها اكبر . وفضلا عن ذلك يستجلب البدو من خزاناتهم الماء على ظهور الجمال لبيعه .

منـــذ ٤ سنوات هطل الوابل الاخير الذى مــــلأ جميع صهاريج ينبع وضواحيها ؛ ولذا كانت جميع الاقبية فى المدينة اثناء اقامتى فيها فارغة من

زمان . وبعد فترة وجيزة شرب الحجاج كل مضمون الصهاريج العامة ايضا . كما نفد احتياطي الماء عند البدو ، ولذا شرعوا بحكم الضرورة يستجلبون الماء من على بعد ٢٥ فرستا من منابع ينبع النخلة ويبيعونه بـ٦٠ كوبيكا للدلو الواحد . وكان ماء الصهاريج كثيفا ، وغير مستطاب الطعم ، وكان يبـاع بنحو ٥٠ كوبيكا للدلو الواحد .

وبسبب رداءة الماء القصوى اغلب الظن لم ار اثناء اقامتي مدة اسبوع في ينبع انسانا واحدا لم يتذمر من ألم في البطن ومن انحطاط القوى العام . وكان عدد الوفيات كبيرا . وكانوا كل يوم يدفنون ٥–٦ اشخاص من الحجاج البالغ عددهم حوالى ٣٠٠٠ .

وفي المدينة يسود قذر فظيع وعلى الأقل في زمن تجمع الحجاج . ونظرا لقلة البيوت يعيش الحجاج في الاراضي الخالية والساحات على مقربة مـــن البحر . وهنا بالذات يرمون كل النفايات . والاماكن المخفية المعزولة الى هذا الحد او ذاك والمضحل العريض تستعمل لقضاء الحاجة . والمضحـــــل يغطيه الماء على عمق تافه اثناء المد ويتعرى اثناء الجزر فتفوح منه اذ ذاك رائحة كريهة رهيبة . ولم يتسنّ لي ان أرى في اى مكان وزمان مثل هذه الكثرة من الذباب كما في ينبع .وهنا لا يمكن السير في الشوارع ، ناهيك عـن البازار القذر ، دون ان يكون في اليد شيء ما لطرد الذباب على الدوام ؛ وفي النهار يستحيل كليا الجلوس للأكل ؛ وفي البازار لا يمكن ايجاد اى شيء من المآكل لم يترك عليه الذباب آثاره .

الظروف المناخية

المناخ في ينبع ابرد قليلا مما في المدينة المنورة بفضل تأثير البحر والرياح الشمالية المتكررة ؛ ولكن التبخرات الخارقة الوفرة من البحر تخلق رطوبة غير مستطابة اطلاقا ؛ ففي الصباح ينهض المرء من الفراش كأنمـا مبلل بالماء ؛ وجميع الالبسة وسائر الاشياء لا تجف ابدا ؛ والتربة تترطب في الليل كما بعد مطر قوى . والريح من البحر ، وان تكن باردة نوعا ما ، لا تمارس فعلا منعشا وتحمل رائحة ما ثقيلة وكريهة ناجمة ، اغلب الظن ، عن تفسخ البقايا العضوية .

ومن جراء هذا المناخ الرطب غالبا جدا ما تقع اصابات الحمى في ينبع .

الاسعاف الطبى

فى ينبع حيث يتكدس احيانا ، بانتظار القوافل او البواخر ، زهاء عشرة آلاف حاج ؛ لا مستشفى ، ولا صيدلية ولا طبيب خاص لاجل الحجاج .

سلطات المدينة

تدخل ينبع فى قوام سنجق المدينة المنورة ويديرها قائمقام خاص .

جدّة

جدّة اهم مرفأ على ساحل البحر الاحمر ؛ وعبره تمر حركة الحجـــاج الرئيسية ، سواء عند نزولهم على ساحل الجزيرة العربية ام فى طريق العودة الى الوطن . ولم أرَ شخصيا جدّة الا من البعيد ، لأنها كانت مغلقة بسبب الحجر الصحى لدن ذهابى الى مكة ؛ اما فى طريق العودة من الحجاز ، فقد رحت عبر ميناء آخر هو ميناء ينبع ، ولذا كانت المعلومات المساقة ادنـاه عبارة عن اجوبة عن اسئلة طرحتها على الناس .

تشبه جدّة مكة شبها كبيرا من حيث طابع عماراتها ومواقع الشوارع والبازارات والحالة الصحية .

يعتبرون ان عدد السكان يبلغ زهاء ٢٠٠٠٠ نسمة ، بينهم زهاء ٥٠ اوروبيا . يتعاطى السكان على الاغلب التجارة ثم صيد السمك واستخراج اللآلئ والمرجانات من البحر ، والملاحة الساحلية ، وبناء السفن ، والقيام بوظائف المرشدين ، والخ . .

يعتبر مناخ جدّة سيئا جدا ، غير صحى ، من جراء التبخرات الشديدة من البحر . والحمّى هى المرض السائد .

فى الوقت الحاضر تستعمل جدّة مياه نبع مجرورة الى المدينة من الجبال القريبة ، ولكن المياه لا تتميز بطعم مستطاب .

مرفأ جدّة خطر جدا على السفن بسبب كثرة الشعب التحتمائية ، ولذا لا تدخله البواخر وتخرج منه الا نهارا ، وترسو على بعد ٤-٥ فرستـــات تقريبا من الشاطئ ؛ وتجرى الاتصالات معه بواسطة زوارق شراعية كبيرة .

على مقربة من جدّة يعرضون مدفن جدتنا الاولى ، حواء ؛ واليه يمضى كثيرون من الحجاج للسجود والصلاة .

الفصل الرابع

عن الحج عموما

ما هو الحج

الحج هو زيارة مكة المكرمة لاداء الفرائض التى تنص عليها الشريعة وادائها فى وقت معين .

والحج مرة فى العمر واجب من الواجبات الرئيسية الخمسة (الايمان — التشهد ، الصلاة خمس مرات فى اليوم ؛ الصوم ؛ الزكاة اى تخصيص قسم معين من الاموال فى السنة فى صالح الفقراء ؛ الحج) المترتبة على كل مسلم ذى اهلية ، سواء من الذكور ام من الاناث ، ولكن شرط كفاية المال لاجل السفر ولاجل تأمين العائلة حتى العودة ، وشرط أمن الطريق . والامتناع عن الحج فى حال توفر الشروط المذكورة ، تهدده الشريعة بعقوبات شديدة جدا فى الآخرة وتجعل المزدرين بهذا الواجب فى مستوى الكفار ؛ اما الذين يقومون بالحج ، فانها تعدهم ، على العكس ، بغفران جميع الخطايا المقترفة قبل ذاك . ومن لا يملك الامكانية البدنية بهذه السفرة يُسمح له بارسال اشخاص آخرين بالنيابة عنه ويسمى هذا «البدل» . يجرى الحج لكى يؤدى المؤمن واجبا من اهم الواجبات من وجهة نظر الاسلام . وفريضة الحج الرئيسية يؤديها المؤمنون فى مسجد مكة الكبير ، المسجد الحرام ، او الحرم الشريف كما يسمونه عادة ، الذى توجد فيه اكبر المقدسات الاسلامية ، الكعبة .

المسجد الكبير فى مكة

حرم مكة الواقع فى قاع الوادى وفى وسط المدينة تقريبا مبنى بنفس التصميم الذى بنيت به جميع المساجد القديمة فى دمشق والقاهرة ؛ وهو عبارة عن ساحة شاسعة مربعة مخططة ، محاطة من جميع الجهات برواق

مسقوف ؛ ولكن هناك فرق واحد ، هو ان الوجه الموجه الى مكة فى المساجد العادية يكون اوسع ، ويقام فيه محراب ومنبر ؛ اما فى الحرم ، فان جميع الجهات متساوية من حيث العرض ، والمحراب تحل محله الكعبة ، والمنبر مقام فى مكان مكشوف فى وسط المسجد . الرواق الذى يحيط بالمسجد يتألف من اعمدة اغلبيتها منتصبة فى ثلاثة صفوف ، وموصولة بعضها ببعض بالاقواس ومغطاة بقبب غير كبيرة مخروطية الشكل . ارضية الرواق مرصوفة بصفائح حجرية ؛ اما القسم المكشوف منه ، فهو مغطى بالرمل فقط . فى الزوايا الاربع ، وفوق الوجه الشمالى والوجه الشرقى ، تنتصب سبع مآذن مبنية فى ازمان مختلفة وباساليب هندسية معمارية مختلفة . وللدخول الى المسجد توجد اربعة ابواب كبيرة – من الواجهة الشرقية باب السلام ؛ ومن الواجهة الجنوبية باب الصفا ، من الواجهة الغربية باب ابراهيم ، من الواجهة الشمالية باب الزنده ؛ وعداها ، يوجد ١٨ مدخلا صغيرا . الرقعة التى يتشغلها المسجد ادنى من سطح الشوارع المحيطة ، ولهذا يجب النزول بضع درجات مبنية تحت الابواب لاجل الدخول الى الحرم .

فى وسط الحرم تقريبا ، تنتصب الكعبة ، او كعبة الله ، او بيت الله .

ويستفاد من اقوال العرب ان الكعبة – ومعناها فى اللغة العربية القديمة «المربّع» – قد بناها جدنا الاول آدم بصفة محراب لاجل الصلاة ، ثم بناها النبى شيت ثم ابراهيم .ويستفاد من اساطير اخرى ان ابراهيم هو اول من بنى هذا المعبد . ان الكعبة التى كانت من قبل ايضا معبد العرب فى مرحلتهم الوثنية ، اى الجاهلية ، قد اعيد بناؤها غير مرة ، وبقيت حتى ايامنا بالصورة التى جددها بها منذ ٣٠٠ سنة السلطان العثماني مراد الرابع . والكعبة فى الوقت الحاضر موشور سداسى عال (حوالى ٧ ساجينات) ذو اوجه متوازية السطوح غير صحيح الشكل تماما ، مبنى من احجار ضخمة منحوتة من الغرانيت ، وله بابان متواجدان على علو ساجين واحد تقريبا عن سطح الارض .

فى الزاوية الجنوبية من الكعبة ، من الخارج ، على علو ارشينين تقريبا عن سطح الارض يوجد حجر يكرمه المسلمون تكريما خاصا هو الحجر الاسود . ويستفاد من الاسطورة ان رئيس الملائكة جبرائيل هو الذى حمل هذا الحجر الى ابراهيم عندما بنى الكعبة . فى سنة ٩٢٩ نقلوا الحجر الاسود الى اليمن وفى سنة ٩٥١ اعادوه من جديد الى مكة ؛ وفى سنة ١٨٧٣ وضعوه فى اطار فضى ضخم مستدير وثبتوه فى الجدار فى المكان المذكور اعلاه * . القسم

* كتاب «الحجاز» .

المنظور من الحجر يبلغ قطره زهاء نصف ارشين ، ولونه قاتم مع تلوين ضارب الى الاحمر ، وعليه آثار شقوق ، ونقر فى الوسط .سطح الحجر مملس جدا من جراء لمسه من قبل الحجاج على مر القرون .

فى الزاوية الغربية ، وعلى العلو ذاته ، يوجد حجر مثبت آخر يكرمه المسلمون هو ايضا ، ويسمى باسم هذه الزاوية — ركن اليمن .

جدران الكعبة مكسوة من الخارج على كل علوها بقماش اسود يسمى الكسوة او كسوة السعادة . وللمرة الاولى اخذ احد حكام اليمن ، ابو كرب اسعد ، يغطى جدران المعبد دليلا على الاجلال والتكريم الخاص . وفى عهد خليفة بغداد المشهور ، المأمون ، كانوا يغيّرون هذه الكسوة المصنوعة آنذاك من قماش فاتح اللون ثلاث مرات فى السنة ؛ ولكن الملك المصرى الصالح اسماعيل شرع فى سنة ١٣٤٩ يرسل الكسوة من قماش اسود ويغيرها مرة واحدة فقط فى السنة ؛ وهذه العادة بقيت حتى الوقت الحاضر * .

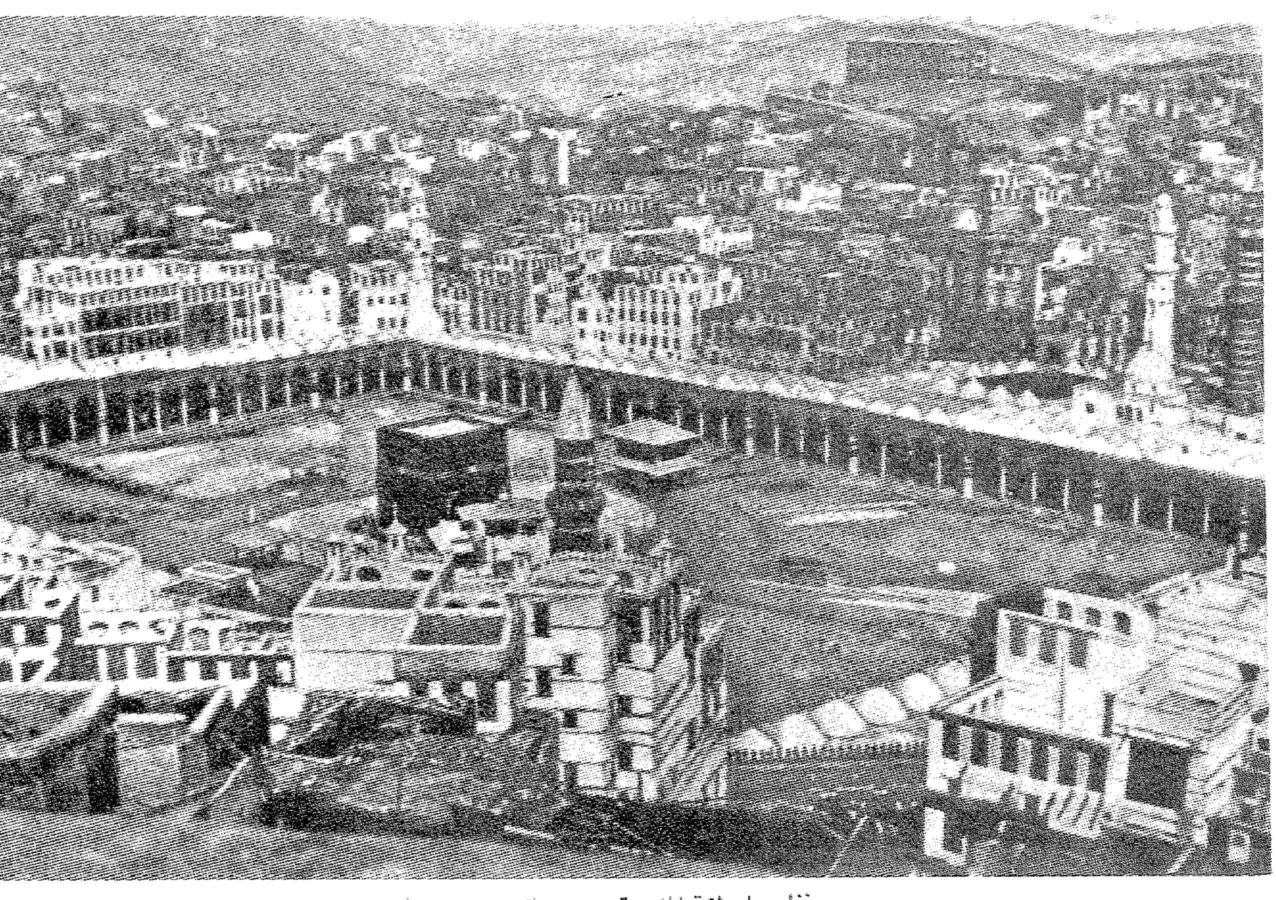
والكسوة عبارة عن قماش اسود حريرى سميك جدا مخيط من ٨ قطع ومطوق ثلثها الاعلى بآيات من القرآن الكريم موشاة بالذهب . وهذا القماش يصنعونه كل سنة فى مصر بمبلغ خاص من اموال الاوقاف قدره ٤٥٠٠ ليرة مصرية (حوالى ٤٥٠٠٠ روبل) ، ويرسلونه الى مكة المكرمة مع المحمل . وكل سنة يجرى تغيير الكسوة فى اليوم العاشر من شهر ذى الحجة ؛ وتوضع الكسوة القديمة تحت تصرّف نظار الكعبة ، فيبيعها هؤلاء قطعا من الحجاج ؛ اما الكتابات بخيوط الذهب ، فتوضع تحت تصرف الشريف ؛ وفى السنوات التى يصادف فيها اليوم العاشر من شهر ذى الحجة يوم الجمعة ، يرسلون الكسوة الى السلطان فى القسطنطينية .

من بابى الكعبة ، يفتحون الباب الشرقى المزين بوفرة من الفضة ، فى ايام معينة ، عشر مرات فى السنة ؛ واذ ذاك يسمحون بالدخول الى داخل المعبد لجميع من يرغبون فى الصلاة هناك . وداخل الكعبة عبارة عن قاعة بسيطة ، خالية من اى زخرف وزينة ، وجدرانها مكسوة بقماش حريرى يرسله السلاطين الاتراك عند صعودهم الى العرش .

من الوجه الشمالى ، يلتصق بمبنى الكعبة حاجز غير عال ، بشكل حدوة ، يطوق مكانا للصلاة يسمى الحطيم . والكعبة والحطيم مطوقان على بعد ٧ ساجينات تقريبا بدرابزين اهليلجىّ الشكل ؛ وعبر هذه الفسحة

---

* كتاب «الحجاز» .



ـ منظر عام لمكة المكرمة، ويبدو الحرم الشريف.

المبلطة ببلاطات من المرمر يطوف الحجاج سبع مرات حول الحرم ، قائمين بفريضة الطواف . من الجهة الشرقية ، يوجد فى الدرابزين المذكور بـاب الشيبة . واذا دخل المرء عبر هذا الباب الى مكان الطواف ، فانه يجد الى اليمين ، فى خط الدرابزين ، مقام ابراهيم – وهو عبارة عن هيكل مـن مصبّع برونزى كثيف فى داخله ، ضمن صندوق حديدى مكســو بقماش حريرى مطرز بالذهب ، مرسل من مصر مع الكسوة ، حجر بقامة الانسان ، كان سقالة لابراهيم عند بناء الكعبة ، كما تقول الاسطورة ، وبمقدووره ، حسب رغبة البانى ، ان يزداد ويقل علوا . والى جانب مقام ابراهيم ، منبر من المرمر من صنع اليد يلقى الامام من عليه الخطبة اثناء صلاة الظهر فى ايام الجمعة .

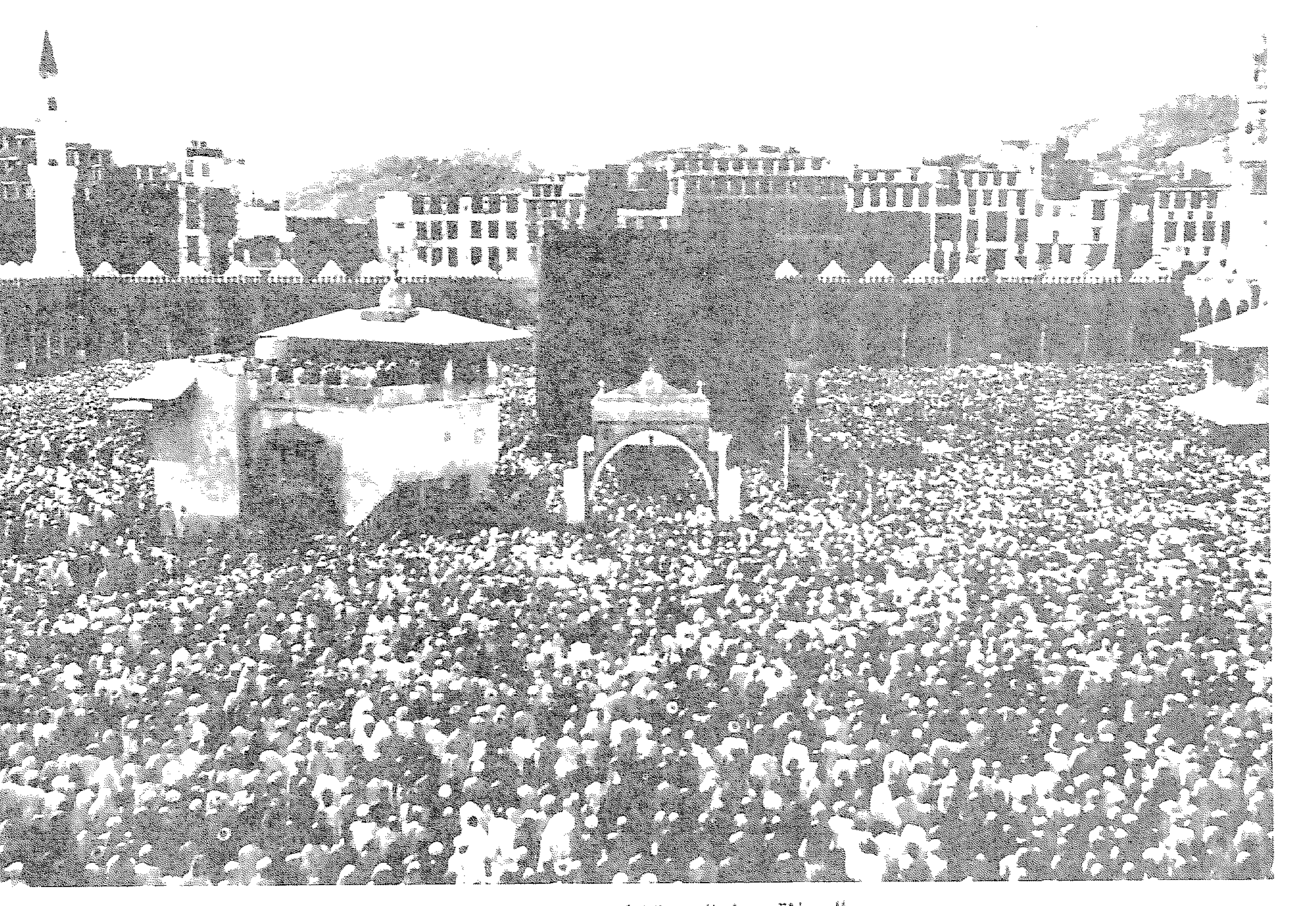
الى شمال الباب ، توجد تحت عمارة خاصة بئر زمزم المقدسة . فعندما ضل اسماعيل وامه هاجر متضورين من العطش وباحثين عن الماء ، كما تقول الاسطورة ، تفجر فجأة فى المكان الذى توجد فيه البئر الآن ، نبع غزيــر رويا منه عطشهما . وفى سنة ٧٦٢ ، وفــى عهد الخليفة ابــى جعفــر المنصور ، بنيت عمارة فوق البئر . وفى سنة ٨٣٨ جفت البئر ؛ وبأمر من الخليفة المأمون جرى تعميقها فظهر الماء من جديد . واخيرا فــى ١٦١١ ، بنى حول فتحة البئر حاجز حجرى عال ، لأنه تواجد متعصبون كانوا يرمون بانفسهم هناك قصد الانتحار .

عمق البئر فى الوقت الحاضر زهاء ٥٠ ارشينا وقطرها ارشينان . يستقى الماء معا اربعة اشخاص خصوصيين ؛ يقفون على الحاجز ويعملون بـــدلاء جلدية موصولة بحبال طويلة ممررة عبر بكرات معدنية مثبتة فى اعلى .

لماء زمزم طعم مرّ نوعا ما ؛ وهو يؤثر فى اناس كثيرين ، كمسهّـــل خفيف وهو ساخن جدا عند استخراجه من البئر .

على خط الدرابزين ، من جانبه الخارجى ، توجد ، مقابل كل من واجهات الكعبة ، اربعة انشاءات من طراز خفيف ، هى ضرب من تعاريش يقف عليها ، اثناء الصلوات العامة ، مؤذنون من المــذاهب السنية الاربعة – مذاهب الحنفيين ، والشافعيين ، والمالكيين ، والحنبليين .

من الجانب الشرقى من الحرم يمتد شارع المسعى ، وطولـــه نصف فرستا ، ويصل بطرفه الشمالى الى جبل المَرْوَة وبطرفه الجنوبى الى جبل الصفا ، وينتهى عند الجبلين ببضع درجات واسعة فى اعلاها ساحة صغيرة . بين هذين الجبلين ، كما تقول الاسطورة ، فتشت هاجر ، وقد اضناهـا العطش ، عن الماء راكضة من جبل الصفا الى جبل المروة ذهابا وايابـا .



- الصلاة حول الكعبة / أواخر القرن التاسع عشر.

وعلى ذكرى هذا الحدث يقطع الحجاج هذه المسافة سبع مرات ؛ وهذا الفرض يسمى «السعى» والمكان الذى يؤدى فيه «المسعى» . فى المساء ينيرون الحرم وبعض امكنة المسعى بعدد هائل من المصابيح ؛ وهذه عبارة عن انصاف كرات زجاجية معلقة فى سلسلة ؛ وفى قاعها يسكبون الزيت ويضعون عوامات فيها فتيل .

وهكذا يشكل حرم مكة مكانا لاجل فريضة الحج ، ومسجدا جامعا يؤمونه لاجل الصلاة خمس مرات ؛ وهو ، فضلا عن ذلك ، قاعة شاسعة للمحاضرات لاجل جميع المدارس الدينية فى مكة ، ومأوى شاسع لقضاء الليل ، يتوافد فيه مساء جميع الحجاج الذين لا مأوى لهم .

يُعتبر والى الحجاز قيّما على الحرم . وهناك مجموعة كبيرة من الخصيان الذين يرتدون بدلات بيضاء خاصة ويقومون بدور الخدم .

شعائر الحج الرئيسية ، ومنها الاحرام ، والطواف ، والسعى ، كانت قائمة ، كما هو معلوم ، عند العرب قبل محمد (صلعم) ايضا . وقد أكد القرآن بعضا من عادات العبادة هذه . اما بعد محمد ، فقد تم على اساس القرآن كما على اساس اقوال النبى ومثاله الشخصى ، وضعت جملة من قواعد الحج التى يتقيد بها جميع الحجاج بكل دقة .

الآيات القرآنية
المتعلقة بالحج

فيما يلى جميع آيات القرآن المتعلقة بالحج ، كما وردت فى تسلسل السور .

سورة البقرة . الآية ١٢٥ : «واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابرَهيم مصلّى وعهدنا الى ابرَهيم واسمَعيل ان طهّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركّع السجود» .

الآية ١٢٧ : «واذ يرفع ابرَهيم القواعد من البيت واسمَعيل ربنا تَقَبَّلْ منّا انك انت السميع العليم» .

الآية ١٥٨ : «ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فَمَنْ حَجَّ البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يَطَّوَّفَ بهما ومن تطوّع خيراً فان الله شاكر عليم» .

الآية ١٩٦: «واتمّوا الحج والعمرة لله فان احصرْتمْ فما استيسر من الهَدْى ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهَدْى ، محلّه فمن كان منكم مريضا او به اذى من رأسه ففدية من صيام او صَدَقَة اوْ نُسُك فاذا آمنتم فمن تَمَتّع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلَثة ايام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عَشَرَةٌ كاملةٌ ذلك لمن لم يكن اهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب» .

الآية ١٩٧ : «الحج اشهر معلومات فمن فَرَضَ فيهنّ الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزوّدوا فان خير الزاد التقوى واتّقون يا اولى الالباب» .

الآية ١٩٨ : «ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم فاذا أفَضْتُمْ من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قَبْله لَمِنَ الضالّين» .

الآية ١٩٩ : «ثم افيضوا من حيث افاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم» .

الآية ٢٠٠ : «فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم او اشدّ ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلائق» .

الآية ٢٠٣ : «واذكروا الله فى ايام معدودات فمن تعجّل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخّر فلا اثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا انكم اليه تُحْشَرون» .

سورة آل عمران . الآية ٩٦ : «ان اول بيت وُضعَ للناس لَلذى ببكة مباركا وهدى للعالمين» .

الآية ٩٧ : «فيه آيات بيّنات مقام ابرَهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنىّ عن العالمين» .

سورة المائدة . الآية ١ : «يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود احُلّتْ لكم بهيمة الانعام إلاّ ما يُتْلى عليكم غير مُحِلّى الصيد وانتم حرم ان الله يحكم ما يريد» .

الآية ٢ : «يا ايها الذين آمنوا لا تُحِلّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهَدْى ولا القلائد ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا واذا حَلَلْتُمْ فاصطادوا ولا يجرِمَنّكم شنآن قوم ان صدّوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب» .

الآية ٩٤ : «يا ايها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله ايديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم» .

الآية ٩٥ : «يا ايها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حُرُم ومن قَتَله منكم متعمدا فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة او كفارةٌ طعامُ مساكين او عدل ذلك صياما ليذوق وبال امره عفا الله عمّا سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام» .

الآية ٩٦ : «أحِلّ لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحُرِّم عليكم صيد البر ما دمتم حُرُماً واتقوا الله الذى اليه تُحْشَرون» .

الآية ٩٧ : «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض وان الله بكل شىء عليم» .

الآية ٩٨ : «اعلموا ان الله شديد العقاب وان الله غفور رحيم» .

سورة الحج . الآية ٢٥ : «ان الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والبادِ ومن يُرِدْ فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم» .

الآية ٢٦ : «واذْ بَوّأنا لابرَهيم مكانَ البيت ان لا تُشرِكْ بى شيئا وطهّر بيتى للطائفين والقائمين والرُكّعِ السجود» .

الآية ٢٧ : «وأذّنْ فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» .

الآية ٢٨ : «ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى ايام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير» .

الآية ٢٩ : «ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وَلْيَطّوّفوا بالبيت العتيق» .

سورة الصافات . الآية ١٠٠ : «ربِّ هب لى من الصالحين» .

الآية ١٠١ : «فبشرناه بغلام حليم» .

الآية ١٠٢ : «فلما بلغ معه السعى قال يا بنىّ انى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبَتِ افعل ما تؤمَر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين» .

الآية ١٠٣ : «فلمّا اسلما وتَلّهُ للجبين» .

الآية ١٠٤ : «وناديناه أنْ يا ابرَهيم» .

الآية ١٠٥ : «قد صَدّقت الرُءْيا إنّا كذلك نجزى المحسنين» .

الآية ١٠٦ : «ان هذا لهو البلاؤ المبين» .
الآية ١٠٧ : «وفديناه بذبح عظيم» .

شعائر الحج

يجرى الحج مرة فى السنة من اليوم التامن الى اليوم الثانى عشر من الشهر الاخير من السنة القمرية ذى الحجة ؛ واذا صادف اليوم العاشر من هذا الشهر يوم الجمعة ، فان الحج يسمى «الحج الكبير» ، ويعتبر اصلح واقرب حج الى الله ويجتذب عددا كبيرا جدا من الحجاج .

ان اداء الحج يقتضى اداء ثلاث شعائر هى :

١ – على الحجاج الذين يعتزمون الحج ان يرتدوا لباسا خاصا ويتوجهوا بجميع افكارهم الى الله العلى القدير ؛

٢ – على الحجاج ان يقوموا بالطواف مرة واحدة ؛

٣ – على الحجاج ان يبقوا عند جبل عرفات طوال اليوم التاسع من الشهر المذكور .

واذا لم يتحقق شرط واحد من هذه الشروط الرئيسية الثلاثة ، فان الحج يعتبر لاغيا ؛ ومن قام به لا يُعفى من اداء هذه الفريضة .

وهناك ايضا شعائر اقل شأنا يؤديها جميع الحجاج الزاما وان تكن لا تشكل اعمالا جوهرية . وسندرس جميع الشعائر معا حسب الترتيب الذي تتحقق به عادة ، وكما تأتى لى شخصيا ان اقوم بها .

قبل ٤–٥ مراحل من مكة ، يخلع الحجاج جميع ملابسهم فى النقاط المؤشرة خصيصا لاجل كل وجهة ، ويرتدون لباسا خاصا يسمى «الاحرام» ويتألف من قطعتين كاملتين (غير مخيطتين) من القماش الابيض . من قطعة يتشكل ضرب من تنورة مثبتة على الخصر بزنار ؛ والقطعة الاخرى تغطى القسم الاعلى من الجسم (رداء) . ان ارتداء الجميع بلا فرق لهذا اللباس الواحد ، المتماثل الذى يشبه الكفن قد تقرر ، كما يفسرون ، لتذكير الحجاج بيوم الحساب وبالمساواة بين جميع الناس امام الله ؛ وعدا هاتين القطعتين من القماش لا يسمح الا بلبس خفين مفتوحين فى القدمين . اما النساء فيبقين فى البستهن العادية . ومنذ ارتداء «ثوب الاحرام» ، يتعين على الحجاج الاستنكاف عن كل دنيوى ، والانصراف الى الصلاة حصرا . وممنوع عليهم فى هذا الوقت حلق الرأس وحلق الذقن وانتزاع الشعر من الجسم ، والصيد ، وذبح الحيوانات ايا كانت ، وخلاف ذلك . وعند الوصول الى مكة ، يتجه الحجاج

رأسا من الطريق الى الحرم للقيام بالطواف الاول والسعى الاول . وهاتان الشعيرتان يؤديهما الحجاج عادة بقيادة من يسمون «بالمطوّفين» او «الادلة» – وهذه وظيفة وراثية لفرد معين من كل قومية . وهؤلاء القادة يقومون على رأس حجاجهم بهاتين الشعيرتين ، رافعين بصوت مدو الابتهالات المقررة ، فيرددها الحجاج وراءهم .

تتلخص شعيرة الطواف فى واقع ان الحجاج يدخلون الى الحرم من باب السلام ويقتربون من الزاوية الجنوبية من الكعبة التى يتواجد فيها الحجر الاسود ؛ ومع تلاوة الابتهالات يبدأون الطواف حول الحرم شرط ان يكون دائما من جهة اليد اليسرى ، ويتوقفون كل مرة امام الحجر الاسود ويقبلونه (علامة) ويسعون فى المطافات السبعة الى تقبيله بالشفتين ولو مرة واحدة ، ويمدون اليد مرة واحدة الى لمس ركن اليمن . وبعد انتهاء الطواف يؤدون صلاة وجيزة فى مقام ابراهيم ، ويخرجون من الحرم عبر باب الصفا لاجل اداء الشعيرة الاخرى ، شعيرة السعى .

هذه الشعيرة تتلخص فيما يلى . فى البدء يتجه الحجاج الى جبل الصفا ، ويصعدون على درجاته ، ويذهبون ، مرددين الابتهالات المفررة ، الى طرف الشارع المقابل نحو جبل المروة ، قاطعين قسما غير كبير من الطريق المعلّم بعلامات خاصة ركضا ، ويستريحون عند جبل المروة ويرجعون الى جبل الصفا ، وهكذا دواليك . والناس الضعفاء يؤدون الشعيرة الاخيرة على ظهور الاحصنة او الحمير ؛ اما المرضى ، فيحملونهم على الحمالات سواء فى الطواف ام فى السعى . وبعد اداء هاتين الشعيرتين ، يحلق الحجاج قسما من شعر الرأس او يقصونه ويرتدون ، عادة ، البستهم العادية (حج العمرة) ؛ اما الذين يؤدون الشعائر بمزيد من الدقة ، فيبقون فى ثوب الاحرام حتى نهاية الحج .

واولئك الحجاج الذين لبسوا ثيابهم العادية يرتدون من جديد ثوب الاحرام فى اليوم الثامن من ذى الحجة ، ويقومون للمرة الثانية بالطواف ، ويمضون جميعهم الى جبل عرفات .

تقول اسطورة عربية ان ابا البشر ، آدم ، تقابل مع حواء للمرة الاولى عند جبل عرفات بعد طردهما من الجنة وانهما عاشا فى عرفات فى الآونة الاولى ورزقا ولدهما الاول فى عرفات . وعلى ذكرى هذا الحدث ، يبقى الحجاج عند هذا الجبل طوال اليوم التالي ، التاسع ، من شهر ذى الحجة . وتتلخص الشعيرة كلها بنظر الحنفيين فى انه يتوجب عليهم فى هذا اليوم ان يلجأوا الى التوبة والصلاة فى خيامهم .إما اتباع الائمة الثلاثة الآخرين ،

فانهم يغطون جميع سفوح الجبل قبل ثلاث ساعات تقريبا من غروب الشمس لكى يستمعوا الى جملة من الابتهالات التى يتلوها قاضى مكة من على ظهر هجين على قمة الجبل . وعند غروب الشمس ينهى القاضى التلاوة بالقول ان خطايا جميع الذين تابوا حقا وصدقا قد شملها الغفران ؛ ويتجه الحجاج جميعهم الى جمالهم لكى ينطلقوا فى اتجاه مكة .

ويقضى الحجاج ليلة التاسع الى العاشر من شهر ذى الحجة فى المزدلفة ، وينطلقون منذ الصباح الباكر من اليوم العاشر الى منى لكى يبقوا هنا حتى مساء اليوم الثانى عشر .

فى منى ، عند سفح جبل عال ، يشيرون الى المكان الذى اراد فيه ابراهيم ، عملا بمشيئة الله ، ان يضحى له بابنه الوحيد (واسمه اسماعيل ، كما يقول العلماء المسلمون) ، الذى جلب الملاك حملا عوضا عنه ، ويشيرون الى الحجر الذى انشق عندما رمى ابراهيم سكينه التى لم تطاوعه ؛ وعلى ذكرى هذه الاحداث ، يذبح الحجاج هنا الخرفان على سبيل تقديم الضحية ويصلون عند الحجر المذكور . ومع تقديم الاضاحي ، يقص الحجاج او يحلقون قسما آخر من شعر رؤوسهم ، ويخلعون ثياب الاحرام نهائيا ويرتدون البستهم العادية .

وفى اليوم نفسه يتوجه بعض الحجاج الى مكة ليقوموا بالطواف الثالث والسعى الثانى ، ولكن اغلبية الحجاج تؤجل هاتين الشعيرتين حتى العودة من منى .

فى شارع منى توجد ثلاث نقاط معلّمة باعمدة حجرية بيضاء ومحاطة بحائط واطىء ، رمى منه ابراهيم ، كما تقول الاسطورة ، حجرا على الشيطان حين رآه . وعلى ذكرى هذا الحدث ، يرمى الحجاج اثناء تلاوة الابتهالات الى الامكنة المذكورة عددا معينا من الحصى الصغيرة التى سبق ان جمعوها قرب المزدلفة .

ونحو مساء اليوم الثانى عشر ، يعود جميع الحجاج الى مكة ويبدأون يستعدون للرحيل ؛ وقبل الرحيل يقومون بالطواف الاخير ، طواف الوداع . وبهذا تنتهى جميع شعائر الحج الذى يتوافد لادائه مئات الآلاف من المسلمين من شتى ديارهم . ومن المدهش ان هذه الشعائر لا تنطوى على اى شىء خاص بالاسلام او بمؤسسه ؛ فهى جميعها شعائر عبادة العرب القديمة ، من العصر الجاهلي ، وقد دخلت بكليتها فى الدين الجديد .

وهناك شعيرة اخرى غير الزامية تؤدى فى مكة فى اى وقت كان من السنة ، وبصورة مستقلة تماما عن الحج ؛ وهذه الشعيرة يعهد الحجاج

الميسورون الى هذا الحد او ذاك الى شخص ما من مواطنيهم الفقراء بالقيام بها بالنيابة عنهم وعن اقاربهم الغائبين لقاء مكافأة معينة ، واسم هـــذه الشعيرة «العمرة» ومفادها ان الحجاج يمضون على ظهور الحمير او الاحصنة الى خارج المدينة الى مسجد «العمرة» الواقع على بعد خمسة فرستات تقريبا عن المدينة ، ويرتدون ثوب الاحرام ، ويؤدون هناك صلاة قصيرة ويعودون الى الكعبة لكى يقوموا بالطواف ثم بالسعى .

زيارة الآثار
فى ضواحى مكة

يزور كثيرون من الحجاج فى مكة المقبرة التى دفنت فيها زوجة النبى، خديجة الكبرى ، وبعض الصحابة الاوائل ، والبيت الذى ولد فيه النبى ، ويصعدون الى جبل ابو قبيس الواقع ضمن حدود المدينة ، والى جبل النور الذى يقع على بعد ستة فرستات تقريبا الى الشمال من جبل ابـو قبيس ، والذى كان يعتزل فيه النبى لاجل الصلاة ، ويمضون الى جبل يقع على زهاء عشرة فرستات الى الجنوب من المدينة ، كان النبى يتخفى فيـــه مـــن ملاحقات وثنيى مكة . والجبلان الاخيران لا يزورهما الحجاج ، نظرا لبعدهما ، الا فى الشتاء ، اى فى وقت ابرد .

السجود امام قبر النبى
فى المدينة المنورة

ولكن ضريح محمد (صلعم) فى المدينة المنورة هو اكبر آثار الاسلام فى الحجاز . صحيح ان السجود امامه ليس فريضة على المسلميـــن ولا يمت بصلة الى الحج ، ولكن الحجاج القادميـن الى الحجاز يقومون بـــه جميعهم تقريبا ، حسب الظروف ، قبل الحج او بعده .

والضريح موجود فى المسجد الكبير بالمدينة المنورة المسمى كذلك ، على مثال مكة ، بالحرم الشريف .

المسجد الكبير
فى المدينة المنورة

الحرم فى المدينة المنورة الواقع فى الطرف الشمالى الشرقى من المدينة والذى يشغل المكان الذى كان فيه فيما مضى بيت النبى ومسجده بنى من

جديد للمرة الاخيرة فى عهد السلطان عبد المجيد الذى اعتمد لهذا الغرض ٧٥٠ الف ليرة تركية (اكثر من ستة ملايين روبل) ؛ وهو عبارة عن مسجد غير كبير ، من طراز المسجد فى مكة ، ولكن هندسته المعمارية اضخم واغنى ، وحوله صف اوسع من الاعمدة ، وبخاصة من الجانب المواجه لمكة ؛ وزينته الداخلية اغنى . وقد استعملوا الغرانيت المحلى الضارب الى الاحمر ، الجميل جدا بعد الزينة ، مادة لاجل البناء . من الحجر ذاته نحتوا الاعمدة ايضا . والارضية تتألف من بلاطات مرمرية مستجلبة من مصر . وتتميز تزيينات الجدران الداخلية ببذخ بالغ اذ انها مغطاة بفسيفساء غنية وكتابات انيقة بالذهب من آيات القرآن الكريم والاحاديث النبوية . ومكان مسجد النبى السابق الذى يشغل وسط القسم الجنوبى من الرواق ، يتميز بتزيينات ذهبية خاصة على الاعمدة . وهنا يوجد المحراب والمنبر المتميزان بنقش دقيق رائع ، والمقامان فى مكانيهما السابقين ،كما كان الحال فى المسجد الاولى . والى جانب مكان المسجد القديم ، يوجد من جهته اليسرى اذا وقف المرء مواجها الجنوب ، مكان البيت السابق للنبى محمد ، المحاط بمصبع برونزى عال ، كثيف ، مرفق بستائر حريرية ، والمكلل فوق الحرم بقبة خضراء عالية . وفى هذا السياج المسمى الحجرة الشريفة او الروضة المطهرة توجد قبور النبى محمد وخليفتيه الاولين ابو بكر وعمر ، المغطاة بغطاء حريرى مشترك ، اخضر اللون مطرز بالاحجار الكريمة والخيوط الذهبية .

من الجانب الشمالى يلتصق بالحجرة الشريفة انشاء آخر مماثل يوجد فيه قبر ابنة النبى فاطمة . وفى ساحة مكشوفة فى وسط الحرم توجد روضة صغيرة وفيها بئر ، هما جنينة فاطمة وبئر فاطمة .

وللحرم خمس مآذن ، اربع في الشوارع وواحدة في الواجهة الشرقية . وللمدخل خمسة ابواب ، اكبرها – وعبره يدخل الحجاج – باب السلام ذو التلبيس الرائع الغنى .

في المساء ، ينيرون الحرم وجوانية الهجرة بمصابيح كالتي في مكة . وهناك ايضا شموع كبيرة مثل الشموع المستعملة في الكنائس ؛ وفضلا عن ذلك تتدلى في مختلف الاماكن ثريات بلورية تبرع بها الاغنياء .

ولادارة الحرم ، المتواجد هنا ايضا في قبضة الاتراك ، يعينون شخصية محترمة بخاصة من عداد الجنرالات الاتراك المتقاعدين ؛ وتحت تصرفها ملاك كبير من الخدم المخصيين . اضف الى ذلك ان بعض الافراد ينالون ، من باب التكريم الخاص ، الحق في الاشتراك في تنظيف الحرم والهجرة .

والحجاج القادمون الى المدينة المنورة يدخلون عبر باب السلام ؛ وحين

يقتربون من مصبع الهجرة ، يتخذون وضعة الصلاة ويرددون بعد الدليل الصلوات العادية طالبين تدخل النبي في يوم القيامة . ثم يطوفون بالتتابع على مدافن ابي بكر وعمر وفاطمة ، وبهذا تنتهي الشعائر كلها .

زيارة الآثار الاخرى
فى ضواحى المدينة المنورة

فى الايام التالية يقوم الحجاج برحلة على بعد خمسة فرستات تقريبا الى الشمال من المدينة ، وذلك الى سفح جبل أُحد حيث يوجد قبر الشخصية المكرمة جدا سيدنا الحمزة الذى كان من اوائل اتباع الاسلام واشدهم غيرة وحماسة ، والذى قتل هنا فى معركة مع المكيين . ثم يزورون مسجد الكعبة الذى يقع على نفس البعد من المدينة ولكن من الجهة المقابلة ، والذى توقف فيه النبى عند وصوله الى المدينة المنورة بعد الهجرة . ويقطـــع البعض مسافة اربعة فرستات تقريبا الى الشرق للذهاب الى مسجد القبلتين حيث يوجد محرابان ، احدهما موجه الى القدس ، كما صلـّى محمد فى البـــدء ، والثانى موجه الى مكة التى كانت قبلته عندما كان يصلى فيما بعد . ويزور الحجاج مقبرة المدينة المنورة حيث دفن عثمان ثالث الخلفاء الراشدين ؛ واخيرا ، يذهبون ضمن حدود المدينة الى قبر عبد الله ، والد النبى ، وقبر واحد من الائمة السنيين الاربعة ، مالك .

الفصل الخامس

حج المسلمين الروس وظروفه الصحية

عدد الحجاج المسلمين الروس سنة ١٨٩٨

بسبب منع اعطاء جوازات السفر للحج ، وصل فى هذه السنة الى مكة عدد قليل جدا من المسلمين الروس (من روسيا) ، ٤٥٠ شخصا فقط ، اى زهاء عشر العدد الذى يتوافد ، كما يقول الادلة ، فى السنوات الموفقة .

اصناف الحجاج

من حيث القوميات ، كان العدد المذكور يتالف من ٢٥٠ قرغيزيا اغلبيتهم من مناطق سيبيريا ، وحوالى ١٠٠ شخص من سكان ما وراء القفقاس اغلبيتهم من محافظة يريفان ، وحوالى ١٠٠ تترى من مختلف محافظات روسيا الاوروبية – وبالضبط من بطرسبورغ ٦ اشخاص ، من محافظة ريازان ٢١ شخصا ، من محافظة بنزا شخصان ، من محافظة قازان ١٦ شخصا ، من موسكو شخصان ، من محافظة نيجنى نوفغورود ٨ اشخاص ، من محافظة سيمبيرسك ١٤ شخصا ، من محافظة اوفا ١٢ شخصا ، من محافظة سامارا ٧ اشخاص ، من محافظة اورنبورغ ٩ اشخاص ، من محافظة استراخان (عدا اورطة بوكييف (٣)) ٧ اشخاص ، ثم شخص واحد من محافظة توبولسك . ولم يكن هناك حجاج من تركستان ومن مقاطعة ما وراء قزوين ومن القرم .

من حيث الاشغال والمراتب – جميع القرغيز بايات * محليون من الرحل ؛ ولم ار بينهم سوى اثنين من رجال الدين سافروا لقاء اجر لاداء فريضة الحج بالنيابة عن الآخرين («البدل») . وسكان محافظة يريفان الذين

* الباى يعنى الغنى .



ـ قبيل رحيل الحجاج. رسم كاريكاتوري في المجلة الروسية «الملاّ نصر الله» ديسمبر ١٩١٣.

تظاهروا بانهم داغستانيون لكى يتخلصوا ، اغلب الظن ، من دفع رسوم خاصة تستوفى فى الحجاز من اهل الشيعة كانوا جميعهم بلا استثناء زراعا ميسورين ، والقادمون الآخرون من سائر انحاء ما وراء القفقاس كانوا على الاغلب تجارا اغنياء . وكان بين التتر ١١ ملاّ (من ائمة المساجد) ، سافر منهم ٩ على سبيل «البدل» ؛ اما الباقون فقد كانوا جميعهم من مرتبة التجار الميسورين الى هذا الحد او ذاك .

من حيث العمر – كان جميع الحجاج ، باستثناء قلة تافهة ، من المتقدمين فى السن – كانت اعمارهم تتراوح بين ٥٠ و٦٠ سنة .

اما القادمون مع **عائلاتهم** ، فكانوا اربعة فقط من التتر ، وكان مع احدهم خمسة اولاد ، اصغرهم سنا فى الرابعة عشرة من العمر .

الاسباب الرئيسية التى تحمل على الحج

الاسباب الرئيسية التى تحمل على الحج كانت اساسا ، بقدر ما استطيع ان اكوّن فكرة عنها ، الرغبة فى اداء فريضة من فرائض الدين الالزامية الرئيسية ، والايمان فى الخلاص من الخطايا – الامر الذى يشكل بنظر المتدينين ، ولاسيما فى سنوات الشيخوخة ، سببا هاما جدا يجبر على القيام بهذه السفرة الصعبة ، والمحفوفة بالمخاطر . ومن جهة اخرى ، يعود بلا ريب بعض الدور الى الغرور ورغبة المرء فى ان يكتسب فى وسطه بعض الوزن والوقار المتعلقين بلقب «الحاج» ، رغم ان هذا اللقب بين المسلمين فى روسيا الداخلية لابعد من ان يحظى الآن بذلك الاحترام الذى كان يحظى به منذ ٤٠–٥٠ سنة ، حين كانت الطريق صعبة جدا وحين كان السفر يتطلب ما لا يقل عن سنتين ، وحين كان لا يقدم على الحج غير عدد قليل جدا ممن يحدوهم شعور دينى عميق ويملكون ما يكفى من الاموال ؛ وهذان العاملان نادرا ما يجتمعان عند مسلمينا . ومع تطور البواخر والسكك الحديدية اصبح من الممكن القيام بالسفرة كلها فى غضون شهرين او ثلاثة وبنفقات غير كبيرة ، فتكاثر الحجاج كثيرا جدا ، وبينهم لا يندر ان يتواجد افراد لا يتمتعون بسمعة طيبة .

وهدف اولئك الحجاج الذين يذهبون الى الحج من باب «البدل» هو بالطبع كسب بعض المال .

وفى هذه السنة كان ثمة مثال آخر ايضا ؛ فان تاجرا غنيا قد ارسل

ابنه بامل ان تخلصه زيارة الاماكن المقدسة من الادمان على المشروبات الروحية .

مقدار المبلغ الضرورى لاجل الحج

الحد الادنى من المبلغ الضرورى للقيام بالحج فقط ، اى بدون زيارة المدينة المنورة ، هو فى السنوات التى لا يقتضى فيها الحال الحجر الصحى ٣٠٠ روبل . اما فى حال الرغبة فى زيارة قبر النبى (صلعم) ، فينبغى حوالى ٥٠٠ روبل . وعلى العموم يأخذ حجاجنا من ذوى اليسر المتوسط حوالى ١٠٠٠ روبل فى الطريق . واذا افترضنا انه ينبغى على الراغب فى الحج ان يبقى فى بيته مبلغا مماثلا لتأمين عائلته حتى عودته ، فان فريضة الحج تكون الزامية من وجهة نظر الشريعة على جميع المسلمين الذين يستطيعون انفاق مبلغ الفى روبل . وعادة يأخذ «البديل» مبلغا يتراوح بين ٥٠٠ و١٠٠٠ روبل .

الاستعدادات للسفر

يتخذ مسلمونا القرار بالسفر الى مكة المكرمة بصورة مستقلة او بناء على نصيحة الملّا (امام المسجد) قبل موعد الحج بسنة كاملة ؛ ومذ ذاك تبدأ الاستعدادات تدريجيا : يستعلمون عن الاشخاص الآخرين الذين يعتزمون الحج ، يؤلفون فرقا من اقرب الاشخاص من حيث مكان الاقامة او من الاقارب ، يدبرون الشؤون البيتية ، يصفّون جميع الحسابات النقدية ، يكتبون الوصايا ، وما الى ذلك . وجميع الحجاج على العموم ، والذاهبون من روسيا على الخصوص يأخذون معهم كمية كبيرة من شتى الاشياء لانهم يستفيدون من نقل قسم منها مجانا فى البواخر وفى السكك الحديدية المصرية . اما الاشياء الضرورية لهذه السفرة فهى فى المقام الاول السماور ، وآنية الشاى والمطبخ ، والشاى الروسى الذى يصعب الحصول عليه فى الخارج ، ومختلف المأكولات بما فيها بضعة اكياس مليئة بأرغفة مجففة من خبز الجودار ، يقدرها حجاجنا فى الحجاز خاص التقدير ، وعنب الثعلب الاسود المجفف ، والفالوذة ، وما شاكلها : ولكن قرغيزيينا يأخذون المؤن معهم اكثر من الجميع ، بما فى ذلك لحم الخيل المملح ، واصناف السجق المدهن ، وجبنة الغنم المملحة الجافة (الكروت) ، والخ . .

واخيرا ينطلق الحجاج عند نهاية رمضان بالذات ، اى قبل موعد الحج بشهرين ، ويودعهم بمهابة واحتفال جميع اقاربهم ومعارفهم الى نقطة التجمع المعينة سلفا ، وعادة الى اقرب مدينة او الى محطة كبيرة للسكة الحديدية .
فى السنوات غير الموفقة ، يعرف الراغبون فى الحج ، وعادة قبل فترة وجيزة من السفر ، بأمر الحكومة بعدم اعطاء جوازات سفر للحج ، ويقرأون الرسائل السيارة التى تصدرها جمعيات المسلمين الدينية بنصائح الامتناع هذه السنة عن السفر الى الحجاز .
وفى هذه الاحوال تؤجل الاغلبية السفر الى سنة اوفق ، ولكن البعض لا يرى فى هذا الامر سوى التضييق على ممارسة الشعائر الدينيـــة ، ولا يصدقون البتة فى وجود الاوبئة ويسافرون ، وذلك استنادا الى انباء مـــن اقاربهم فى الحجاز الذى يعنى الامتناع عن الحج بالنسبة لهم الحرمان مــن كل كسب فى زمن الحج . وهناك اشخاص ، وبخاصة ممن ارجأوا فى السنوات السابقة سفرهم ، يفترضون انه قد يقوم فى السنوات القادمة منع اشـــد صرامة ، وانه لن يتسنى لهم ابدا القيام بالحج اذا ما انتظروا ازمانا ملائمة ، وانه لا مفر من القدر ، وما الى ذلك ، فيقررون هم ايضا السفر .

الحصول على جوازات السفر

حجاج هذه السنة من منطقة ما وراء القفقاس اخذوا بمعظمهم جـوازات السفر حسب اماكن اقامتهم ، والتتر فى موسكو على الاغلب ؛ ستة اشخاص فقط منهم اخذوا جوازات السفر فى بطرسبورغ ، واثنان فى سيمبيرسك (٤) وثلاثة فى فرصوفيا (٥) ؛ والقرغيز فى موسكو واوديسا .
يحصلون على التأشيرات من القناصل الاتراك للسفر حتى القسطنطينية حيث الحجاج ملزمون بأخذ جوازات السفر التركية التى لا يصلح غيرهـــا لمواصلة السفر ، ولذا يترك بعض من المسافرين الى مكة جوازات السفر الوطنية فى القسطنطينية ، ولا يعرضونها فيما بعد وفى اى حال من الاحوال فى اى مكان تخوفا من المصاعب اثناء العودة الى روسيا . وعلاوة على ذلك يستحصل البعض فى الاسكندرية او فى السويس جوازات سفر مصرية لا يقبلون بدونها الركاب ، فى حال العودة ، على بعض بواخر الشركة الخديوية التى لا تنقل غير سكان مصر .
يستغرق تحرك حجاجنا بالمتوسط ٦ اشهر — فى السنوات الاخيرة من شباط (فبراير) الى آب (اغسطس) ؛ ولكن التحرك بدأ باكرا جدا لسنة

١٨٩٩ ؛ ففى كانون الاول (ديسمبر) تقابلت فى مصر مع بعض مجموعات من المسافرين الى الحجاز ممن غادروا ربوعهم باكرا ، قبل ان يصعب الحصول على جوازات السفر .

من الصعب الاشارة الى اجراءات فعالة يمكن بها ، عند الاقتضاء ، الحؤول دون سفر مسلمينا الى الحجاز . لربما اعطاء جوازات السفر حسب مكان الاقامة فقط ، او لربما المطالبة الزاما بان يقدم الراغبون فى السفر شهادات من سلطاتهم البوليسية حتما بعدم وجود موانع للسفر الى الخارج ، من شأنهما ان يخفضا عدد الراغبين فى الحج ؛ ولربما يتعين كذلك تحذير جميع المسافرين الى تركيا من المصاعب التى تترصدهم عند العودة الى روسيا .

الخروج من حدود روسيا

الابواب التى يخرج منها حجاجنا هى اوديسا وسيباستوبول بالنسبة لروسيا الداخلية وسيبيريا ، وباطوم بالنسبة للمسافرين من آسيا الوسطى واقليم ما وراء قزوين ، وفى هذه السنة ، كان هناك ثلاثة من رعايا روسيا اخذوا جوازات سفر فى فرصوفيا وسافروا الى القسطنطينية بالسكة الحديدية عبر فيينا .

فى جميع الموانئ الواقعة سواء ضمن حدود روسيا ام فى تركيا ومصر ، والتى تجرى عبرها حركة الحج الرئيسية ، يوجد عملاء يستقبلون الحجاج ويعمدون الى انزالهم عادة فى بيوتهم ، ويستحصلون لهم على الوثائق الضرورية ، ويقودونهم لاجراء مختلف الشروات ، ويستغلون باوقح نحو الناس غير المطلعين .

القسطنطينية بوصفها نقطة متوسطة هامة

تذاكر السفر لا تؤخذ فى البدء الا الى القسطنطينية ، النقطة المرحلية الرئيسية بالنسبة لجميع المسافرين من روسيا . وفى القسطنطينية يبقى الحجاج اسبوعا تقريبا ويتزودون بجوازات السفر التركية . ويبادلون قسما من النقود بالنقود التركية لنفقات الطريق ، ويشترون مستلزمات الاحرام ، ويستعلمون عن البواخر الذاهبة الى جدّة ، وما الى ذلك .

- استراحة الحجاج الروس.

السفر الى جدة

تقوم اربع شركات للملاحة بنقل الحجاج لاحقا الى جدّة او الى ينبع .

١ - الشركة الروسية للملاحة والتجارة التى تنقلهم الى الاسكندرية فقط ، وتسلمهم الى عميل شركة الملاحة ماغرى رينى وشركاه فينقلهم بالسكة الحديدية الى السويس لاجل نقلهم لاحقا على بواخر الشركة .

٢ - الشركة الصغيرة ماغرى رينى وشركاه التى لا تملك سوى باخرتين سيئتين ، وقديمتين جدا تعملان بين مرافئ البحر الاحمر .

٣ - البواخر الخديوية المصرية السابقة التى اشترتها الشركة الانجليزية Khedivial Mail Steamship and Graving Dock ؛ وهذه الشركة تملك ١١ باخرة غير كبيرة يعمل بعض منها خصيصا على نقل الحجاج فى زمن حركة الحج ، فتقوم برحلات مباشرة من القسطنطينية عبر قناة السويس الى جدّة ذهابا وايابا . ١

٤ - البواخر الحكومية التركية ، وهى اسوأ البواخر واقذرها ، وتنقل الحجاج هى ايضا برحلات مباشرة معرّجة على اصغر المرافئ كافة فى آسيا الصغرى وسوريا .

وعلى جميع البواخر التى تقوم بنقل الحجاج ، يوجد اطباء تحت تصرفهم صيدليات صغيرة .

الاشخاص المسافرون فى حجرة من الدرجة الاولى او من الدرجة الثانية يتواجدون بمثابة استثناء نادر جدا ؛ والحجاج العاديون يشغلون فى المعتاد اماكن على المتون او فى العنابر دافعين لقاء السفر الى ينبع او الى جدة ليرتين تركيتين (حوالى ١٧ روبلا) بالفرد الواحد ، ولكن البواخر التركية تنقل كذلك مجانا جمهور الحجاج الفقراء ذهابا وايابا .

تأخذ بواخر الشركات الثلاث الاخيرة عددا من الركاب كبيرا الى حد ان تكتظ الباخرة كلها بهم حقا وفعلا ، غير تاركين اية ممرات على الاطلاق . وقد تاتى لى ان اسافر من السويس الى جدّة على سفينة صغيرة لشركة ماغرى رينى وشركاه ؛ كان عدد الركاب ٨٥٠ شخصا فاحتشدوا فيها بضيق لا يوصف . وبسبب قلة الاماكن ، شغلوا كل متن الدرجة الاولى ونصف مركز الربان ، وحتى ملأوا زوارق الانقاذ . وكانت اكشاك مركبة كيفما اتفق من الواح خشبية ومعلقة خارج المتن بمثابة مراحيض ؛ ولاجل الوصول اليها كان ينبغى التسلق فوق سياج عال ، الامر الذى كان بالنسبة للكثيرين عملية صعبة ؛ وعشية الوصول الى جدة ، هبت فى المساء عاصفة قوية ودامت الليل

كله ؛ ومن الصعب ان يتصور المرء ما حدث آنذاك على هذه الباخرة المكتظة بالناس . ومن الاحاديث مع الطبيب علمت انه تحدث بين الصغار اثناء الانتقال مختلف الامراض الوبائية وان ولدين ماتا فى الرحلة السابقة من الدفتيريا (الخناق) . ولا يجرى التطهير الوقائى فى الباخرة .

فى طريق العودة سافرت من ينبع على باخرة افضل تابعة للشركة الخديوية سابقا ، ولكن الضيق هنا ايضا لم يكن اقل رعبا ، بل كان اشد واقسى من جراء القيظ الرهيب . وفى العنبر وفى الحجرات لم يكن ثمة قطعا اى هواء للاستنشاق ، وكان الركاب هنا متمددين مرضى باغلبيتهم بسبب القيظ وكتمة الهواء . وجعلت قيادة الباخرة من قسم الدرجة الاولى درجة خاصة ؛ فلقاء مبلغ اضافى قدره ليرة ونصف ليرة ، انزلوا هنا ركاب الدرجة الثالثة ، وسرعان ما اكتظ القسم كله بالفرس . واثناء الرحلة يطبخ جميع الحجاج لانفسهم المآكل على مناقل يضعونها فى كل مكان من العنبر ومن المتن ، ويشعلون النار تحت السماورات فى كل مكان ، ويشعلون النارجيلات ، وكل هذا لا يحسبون انه يشكل خطرا . يبقى ان اضيف انه غالبا ما تنشب فى قلب هذا الجمع المتعدد القوميات خلافات ومجادلات بسبب الاماكن تنتهى احيانا بالشجار ، علما بانه ليس بمقدور افراد طاقم الباخرة ان يفعلوا شيئا بسبب قلة عددهم .

النزول فى جدّة او فى ينبع

ينزل حجاجنا عادة فى ينبع اذا سافروا فى الوقت المناسب الباكر ، ومنها يتوجهون الى المدينة المنورة ، ومنها الى مكة المكرمة . هذا الخط انسب فى الوقت الحاضر اذ يجرى الحج فى شهر نيسان (ابريل) لأنه لا يتعين السفر بالقافلة فى وقت حار جدا . واذا وصلوا بعد ذلك ، فانهم ينطلقون رأسا الى جدّة ؛ وقبل الوصول بقرابة ١٢ ساعة الى المرفأ المذكور ، يخلع جميع الحجاج كل البستهم ويكشفون رؤوسهم ويلتفون بثياب الاحرام . اما الذين يمضون من المدينة المنورة فيقومون بذلك فى رابغ . ولا ريب فى ان هذا اللباس الخفيف وتعرية الرأس الذى يغطيه المسلمون على الدوام يضرّ ان كثيرا بصحة الحجاج الذين لم يتعودوا على المناخ الحار المحلى . ويحاول بعض منهم ، ممن هم اوفر تجربة ، ان يقللوا من تأثير ثوب الاحرام الضار ، فيطلقون الشعر الطويل فى الوقت المناسب ، ويشترون هذا اللباس من قماش اسمك . وحين ينزل الحجاج فى جدّة ، يتوزعون على الشقات

بحيث يستأجر بضعة اشخاص غرفة واحدة، ثم ينطلقون مع القافلة الاولى الى مكة . ولكن جدّة كانت مغلقة فى السنة الجارية بسبب الحجر الصحى ، فانزلونا على بعد ٢٠ فرستا تقريبا الى الجنوب منها فى محلة الرأس الاسود المحاطة ، مثل جدّة ، بسلاسل من الصخور قرب سطح الماء لا تسمح باقتراب البواخر من الشاطئ فترسو على بعد منه يتراوح بين ٧ و٨ فرستات . وفى اليوم التانى من وصولنا اقترب من الباخرة زهاء عشرين زورقا شراعيا كبيرا واخذت تستقبل الركاب ؛ وبما انه حدث قبل ذلك بزمن قصير حادث مؤسف ، كان زورق يأخذ الامتعة والطاقم فقط ، بينما كان زورق آخر يأخذ الركاب ، وكان الزورق الاول يقطر الثانى . تقطع الزوارق المسافة الى الشاطئ فى اكثر من ساعة ، متموّرة على الدوام بين الصخور التحتمائية ، وناطحة اياها احيانا كثيرة بقاعها .

الراس الاسود

الرأس الاسود عبارة عن شاطئ رملى منخفض مزود برصيف مبنى كيفما اتفق تلتصق به سقيفتان مركبتان من الواح خشبية ؛ وابعد قليلا نصبوا خياما لاجل الحجاج القادمين ، ويتواجد بازار صغير ، وكل هذا محاط بحواجز خشبية يسير بمحاذاتها حراس . وراء الحواجز اقيمت فساطيط بشكل نصف دائرة لاجل الطابور الواقف هنا لحراسة الحجاج ومرافقتهم . والى ابعد ، كان البدو مع جمالهم وشقادفهم وحميرهم ينتظرون من يستأجرهم .

قبل الوصول الى الشاطئ ببضع ساجينات ، توقفت الزوارق واخذوا مسبقا من كل منا نصف مجيدية (حوالى ٨٠ كوبيكا) فى صالح المحجر الصحى ؛ وبعد ذلك فقط سمحوا لنا بالنزول الى الرصيف . وهنا ، تحت السقيفتين ، يوجد صندوقان يأخذون بقرب احدهما مرة اخرى فى صالح المحجر الصحى نصف مجيدية من كل حاج ، ويتحققون بقرب الآخر من الوثائق ، ومن ليس معهم جوازات سفر تركية يزودونهم بها ، ثم يتفحصون الامتعة ، واخيرا يسمحون بالخروج الى الشاطئ .

وعشية النزول ، اخذنا انا وكثيرون من الحجاج القادمين من الشمال نعانى من اختلال قوى فى المعدة وبعطش معذّب ولا يرتوى وبضعف غير عادى لم استطع انا شخصيا ان اتخلص منه تماما طوال اقامتى فى الحجاز .

فى الرأس الاسود ، اصطدمت للمرة الاولى بالانظمة التركية غير المعقولة اطلاقا ، بدءا من مسألة الماء . فان ماء الشرب يستجلبونه الى هنا من جدّة

على زوارق شراعية لا تستطيع ان تبحر الا نهارا بسبب من وفرة الصخور التحتمائية والا اذا هبت ريح مؤاتية الى هذا الحد او ذاك . والماء المستجلب يبقى فى الزوارق ، وليس على الشاطئ اية خزانات او اية احتياطيات . وفى يوم وصولنا نفد كل احتياطى الماء حوالى الظهر ، وراحت الزوارق الى المدينة لجلبه . وحوالى الساعة الرابعة نفد كل الماء عند الحجاج ، فأخذوا ينتظرون عودة الزوارق متجمعين جمعا ضخما جدا على الرصيف ، ولكنهم عبثا انتظروا حتى ساعة متأخرة من الليل وسافروا فى اليوم التالى دون ان يحصلوا على الماء .

كذلك لم افهم الواقع التالى ؛ ففى يوم وصول البواخر ، جاء بحرية من جدّة ، رغم الحجر الصحى ، باعة بالمفرق طفقوا يبيعون بين الحجاج شتى التوافه ؛ وكثيرون من التجار ممن كانت لهم هنا دكاكين كانوا يواصلون الاتصال مع المدينة بلا عائق ؛ واخبرنى سواقو الحمير انهم ، فى طريقهم من مكة ، عرجوا على جدّة ثم على البحرة وحدّة ؛ وقد رأيت شخصيا بضع جماعات من الجنود جاؤوا مباشرة ، كما قالوا ، من المدينة الموبوءة .

فى الرأس الاسود ، كان القنصل الفارسى يعمل على الدوام فى هذه السنة وكان فسطاطه الغنى الذى تنيره فى المساء المشاعل من كل الجوانب يسترعى انتباه جميع الحجاج .

الانتقال الى مكة

قررنا انا وثلاثة رفاق ان ننتقل الى مكة على ظهور الحمير ، واردنا ان ننطلق فى اليوم نفسه قبيل المساء ، ولكن لم يسمحوا لنا ، قائلين انه ، نظرا لمخاطر الطريق ، سينطلق الجميع معا غدا بحراسة خفر خاص . وبالفعل رافق القافلة فى اليوم التالى خفر قوى من الخيالة ولكن المسافرين على ظهور الحمير تفرقوا جماعات صغيرة ومضوا فى طرق مختلفة ، كل جماعة على هواها .

قرب البحرة ، حيث تدخل الطريق وادى فاطمة العريض ، ينفصل الى اليسار درب اقصر ؛ وكثيرون ممن راحوا فى هذا الدرب تعرضوا ، كما تبين ، لهجوم البدو . فى البدء رأينا جنديا تركيا راكضا صوبنا من جانب الدرب المذكور ، وملوحا بيديه ، وصائحا ، واوضح لنا ان رفيقيه الاثنين الذاهبين معه فى الحج من جدّة الى مكة قد قتلوهما للتو بالاحجار . نقلناه الى البحرة وهناك اغمى عليه . وبعدنا اخذت تصل جماعات الحجاج الاخرى

الماضية على ظهور الحمير وتتشكى من انهم سلبوا احدهم ٣٠ ليرة وسلبوا آخر ٤٠ ليرة وهكذا دواليك ؛ واخيرا ظهر جندى آخر كان ، كما تبين ، عازفا فى الطابور المرابط فى جدّة وابلغ الضباط الاتراك الجالسين هنا فى المقهى ان البدو قتلوا رفيقه . وقابل الضباط الاتراك جميع هذه البيانات والشكاوى ، كما يقابلون ظاهرات عادية ، ببالغ اللامبالاة ، رغم ان كل هذا حدث على مقربة قريبة من البحرة ؛ تأسفوا على القتلى والمسلوبين ، وشتموا البدو ، وطفقوا يتجادلون بصدد من منهم يرسل جملا لأخذ الجنود القتلى .

ان كثيرين ممن يمضون على ظهور الحمير يصلون الى مكة فى يوم واحد لأن هذه الحيوانات تتميز هنا بالجلد الكبير والقامة الضخمة والمشية الجيدة ، ولكنا نحن قضينا الليل فى حدّة بسبب مرضي ، ووصلنا في اليوم التالى صباحا بدون اية مغامرات ؛ الاّ اننا سمعنا على الدوام عن اعمال السلب والنهب تارة هنا وطورا هناك .

الوصول الى مكة والاقامة

عند دخول المدينة يتلاقى حجاجنا مع مطوّفيهم ، ولكن قلّة منهم يكون بمقدورها ان تمضي وراءهم فى الحال الى الحرم للقيام بالطواف والسعى ، كما تقتضى الشعائر ، والاغلبية تؤجل عادة اداء هذه الشعائر الى بضعة ايام ، وذلك لأن المناخ المحلى يحمل الذين لم يألفوه على التراخي . وللمسلمين الروس فى مكة ثلاثة مطوّفين : احدهم لاجل القادمين من القفقاس ، والثانى لاجل القادمين من القرم ، والثالث لاجل جميع الباقين .

ولاقامة حجاجنا فى مكة مجانا توجد ثمانى تكيات ، اشتراها مسلمونا وقدموها هدية للاوقاف . وهذه التكيات هى فى المعتاد بيوت غير كبيرة من الطراز المحلى يعيش فيها دائما ويشرف عليها باشارة من الهادى احد ما من مواطنى روسيا ممن استقروا هنا . والغرف لاقامة الحجاج فى هذه التكيات ليست بمعظمها على ما يكفى من النظافة والترتيب ، رغم ان المشرفين على هذه البيوت يجمعون كل مرة من الحجاج النقود لاجل التصليح . وهناك قسم من الحجاج يستأجر على حسابه الشقات فى البيوت الخاصة ؛ وفى هذه الحالة وتلك سواء بسواء ، يسكنون بخارق الضيق لمجرد ان يكون على الارضية مكان للتمدد عليه . وعموما تجدر الاشارة الى ان حجاجنا ، وحتى اولئك الذين يملكون مبالغ كبيرة من المال ، يتميزون فى زمن السفر الى الحجاز ببخل خارق ويحرمون انفسهم ابسط وسائل الراحة والرفاهية .

الاقامة فى مكة قبل الانطلاق الى عرفات

فى الحال يتوافد الى الحجاج القادمين حديثا مواطنوهم المحليون (من مكة) او القادمون من المدينة المنورة ليستعلموا ما اذا كانوا يكلفونهم باداء الحج (البدل) او العمرة او ليحصلوا على الصدقة ؛ ويأتى «السقّاؤون» الملتزمون بجلب الماء من بئر زمزم الى الحجاج طوال اقامتهم فى مكة . وينقضى الوقت قبل الانطلاق الى عرفات فى زيارة الحرم لاجل صلاة الصباح والمساء ، وفى السجود امام مدافن مختلف الاولياء ، وفى الصعود الى جبل ابو قبيس ، وفى التردد على البازار ، وفى شرب الماء المقدس المذكور اعلاه باجتهاد وحمية .

الانطلاق الى عرفات

الرحلة الى عرفات ارهب مرحلة بالنسبة للحجاج فى كل زمن الحج . والذكريات والاقاصيص عن اوبئة الكوليرا الرهيبة التى غالبا ما تنشب لدن اداء هذه الشعائر تثير فى نفوس الحجاج رعبا خاصا ، شديدا .! وجميع الاحاديث قبل الانطلاق تدور بوجه الحصر حول عرفات ومنى ؛ وجميع الافتراضات يرافقها التحفظ : «ان شاء الله اعود سالما من عرفات» ؛ ويوصى الرفاق بعضهم بعضا بكيفية التصرف بالاموال المتواجدة فى حال الوفاة ، وما الى ذلك . وفى اليوم التامن من ذى الحجة ، يبدو كل الطريق الى عرفات ، البالغ طوله ٢٠ فرستا ، كتلة متحركة بلا انقطاع من حجاج مرتدين بثياب الاحرام البيضاء ، راكبين فى الشقادف او على الهجائن والحمير ، او سائرين مشيا على الاقدام . وجميع العساكر المرابطة فى مكة ، والمحملان مع الخفر ، والوالى ، والشريف ، وجميع سكان المدينة ، ما عدا النساء والاطفال ، ينزحون فى هذه الايام الى عرفات بعضهم لاداء الشعائر ، والبعض الآخر بدافع المصالح التجارية . كذلك ينطلق الفريق الطبى المرسل فى مأمورية لزمن الحج ، مع صيدليته ومع لوازم التطبيب والاستشفاء .

الاقامة فى عرفات

موقف الحجاج عند عرفات عبارة عن سهل رملى عريض من الجانب الجنوبى لجبل عرفات ؛ وفى هذا السهل ينصبون مخيمهم الهائل الخارق

الضيق ، والخالى من اى نظام . والحجاج باغلبيتهم يجلبون معهم من مكة خياما يقيم فيها اكبر عدد ممكن منهم رغبة فى التوفير . وبعض الحجاج يدبرون لانفسهم بصورة اصطناعية ظلا بغرس بضع عصى فى الارض ومدّ قطعة من الخيش فوقها . والفئة المعدمة تأوى هنا قرب المسجد وتحتمى من الشمس تحت الصخور والشجيرات .

اثناء الاقامة فى عرفات يأخذون الماء من مجرور المياه المكى ، وذلك بجلبه بواسطة آبار-منافذ للهواء مقامة هنا ، او بأخذه من الاحواض المعدة لاستحمام الحجاج ؛ الماء الذاهب الى مكة يمر عبر هذه الاحواض ، وينصبّ من جديد فى المجرور العام ، ولكن السكان المحليين لا يخامرهم اى قلق او شك من واقع انهم سيشربون ماء استحم فيه بشر من كل شاكلة وطراز . وهم يقولون : «بموجب تعاليم الشريعة ، لا يتلوث هذا الماء ، وشربه مسموح حتى ولو كانت فيه جيفة» .

عند اقدام الجبل يتشكل فى الاخصاص بازار موقت يتاجرون فيه بالمؤونة حصرا ؛ وهنا بالذات يذبحون الاغنام لاجل البيع . وغير بعيد عن البازار ، يستقر البدو ويبيعون الاغنام والبطيخ والشمام والخضراوات والحطب والتبن ، وما الى ذلك . وقرب كل خيمة يحجزون مربعا صغيرا ملفوفا بالخيش بحيث يقوم بدور المرحاض. وبين الخيام بالذات ، ترتع الجمال مع سواقيها ؛ وهنا بالذات تتراكم بقايا الاغنام التى يذبحها الحجاج لانفسهم ؛ ولذا انتشرت قبيل مساء اليوم التالى (التاسع من ذى الحجة) من كل مكان رائحة نتنة قوية ؛ وقرب البازار لم يكن من الممكن اطلاقا المرور دون سد الانف . ومن حسن الحظ ان الحجاج ملزمون بالبقاء هنا يوما واحدا فقط .

يشتهر عرفات كنقطة حارة جدا فى الحجاز . والمراقبات التى قمت بها فى ١٩ نيسان (ابريل) قرب هذا الجبل (وعلوه ١٠٥٠ قدما فوق سطح البحر) اعطت النتائج التالية : الحرارة العليا فى الخيمة ٣٤ درجة ريومور فوق الصفر ؛ فى الوقت نفسه تحت الشمس ٤٦ درجة فوق الصفر ؛ الحرارة الدنيا ليلا ٢٦ درجة فوق الصفر .

المزدلفة

عند غروب الشمس ، يتحرك مخيم الحجاج الهائل كله دفعة واحدة صوب المزدلفة حيث يكون قد اقيم قبل ذلك بقليل صف طويل من الاكشاك

لبيع الماء والمؤونة . وفى اليوم التالى (العاشر من ذى الحجة) ينطلق الحجاج فى الصباح الباكر الى منى .

منى

تقع منى فى فج عميق وضيق جدا ، قاعه رملى ، وعلى جانبيه كتل حجرية عارية رأسية تقريبا ؛ وهى عبارة عن صف ممتد فى قاع الفج من بيوت مبنية حسب طراز بيوت مكة ، ومسكونة فى ايام الحج الثلاثة فقط . ولهذا المقام شارع رئيسى واحد يتشعب فى الطرف العريض (الشرقى) من الفج ، وبضعة ازقة قصيرة تمتد بالعرض . وفى وسط المقام ينتصب مبنى غير كبير من طابقين يقوم فيه «المحجر الصحى» اثناء اقامة الحجاج فى منى ، وهو عبارة عن لوازم المستشفى الموقت والاطباء المرسلين فى مأمورية الى هنا فى زمن الحج .

يأخذون الماء ، كما فى عرفات والمزدلفة ، من منافذ الهواء لمجرور مكة الذى يملأون من مائه ايضا الاحواض الضرورية جدا ، كما قالوا لى ، فى زمن تجمع الحجاج الكبير . وفى كثير من الاماكن ، اقيمت مراحيض عامة هى عبارة عن صف من معالف واطئة ، مركبة من الحجر ، بدون حفر ، وبدون ابواب . وعند الطرف الشرقى من المقام يحفرون سلفا فى مكان عريض من الفج عددا من الحفر ، مساحة الواحدة منها زهاء ٤ ارشينات مربعة وعمقها ارشين ونصف ارشين . وهذه الحفر هى مكان لذبح وتقديم الاضاحى .

تقع منى على ارتفاع ٩٧٠ قدما فوق سطح البحر ، وبما انها مطوقة من جميع الجوانب بكتل حجرية ضخمة ، فانها تتميز بحرارة خارقة العلو ؛ كما تتميز بانحباس الهواء بلا حركة . ومرد ذلك ، اغلب الظن ، الى بنية الجبال الخاصة . ومن المراقبات التى اجريتها فى غرفة محمية جيدا من الشمس ، استخلصت ما يلى : فى ٢٠ نيسان (ابريل) الحرارة العليا ٣٢ درجة ريومور فوق الصفر ، الحرارة الدنيا ٣٠ درجة فوق الصفر ؛ فى ٢١ نيسان الحرارة العليا ٣٣ ، الحرارة الدنيا ٣٠ ؛ فى ٢٢ نيسان الحرارة العليا ٣٣ ، الحرارة الدنيا ٣٠ .

قبيل الحج ، يسوقون الى منى عددا هائلا من رؤوس الغنم والماعز ، وكذلك جزئيا من الجمال لبيعها من الحجاج ولذا كانت اسعار هذه المواشى تبقى غير عالية جدا نسبيا رغم الطلب الكبير . ويبدو انه يوجد بين البدو من قديم الزمان اعتقاد مفاده انهم اذا لم يرسلوا قطيعهم او قسما منه لبيعه

فى منى فى زمن تقديم الاضاحى، فان جميع مواشيهم تهلك حتما من شتى الاوبئة ؛ وهذا ما يفسر العرض الهائل وسوق المواشى من ابعد انحاء الجزيرة العربية ، كما ، مثلا من الحدود مع فلسطين ، ومن ضواحى بغداد ، وما الى ذلك .

وفى منى ، كما عند عرفات ، يقيم الحجاج فى الخيام ناصبين معظمها فى الطرف الشرقى من منى ، فى الاماكن العريضة من الشوارع ؛ والبعض ينصب خيامه فى احواش خاصة محاطة بسور عال ومرفقة بابواب سميكة ، هى عادة ملك المطوّفين . ونادرا جدا ما ينزل حجاجنا (وفى هذه السنة اثنان فقط) فى البيوت نظرا لبدل الايجار الرفيع . والطبقة المعدمة تقيم فىالمعتاد على جانبى الفج بين الصخور او فى الشوارع تحت الاسيجة .

بعد ان يستقر الحجاج بنحو او آخر ، يمضون الى الحفر المعدة لذبح المواشى المذكورة اعلاه ، ويشترون هناك الخرفان ، ويذبحونها على طرف حفرة ، ويتركونها هناك ؛ ولكن اذا كان الخروف المذبوح مدهنا الى هذا الحد او ذاك ، فيتوافد الحجاج المعدمون ، ويطلبون التصدق عليهم بالذبيحة ، ويقصون منها افضل القطع لكى يهيئوا لانفسهم ، كما علمت فيما بعد ، احتياطيا من اللحم المقدد . وحوالى الظهر ، يدفعون جميع المواشى المذبوحة مع جلودها الى الحفر ويطمرونها بشريحة رقيقة من التراب . وفى المساء تتكرر هذه العملية بالنسبة للاضاحى الجديدة . وجميع الاعمال قرب الحفر يقوم بها الجنود .

كل حاج يضحى ببضعة خرفان او مواعز ، منها واحد على نيّته ، والاخرى بتكليف من اقاربه ، ولراحة نفوس الموتى ، او ايفاء بوعد ، وهكذا ذبح احد مسلمينا فى هذه السنة اكثر من ٦٠ خروفا . ولكن كثيرين من الفقراء غير ملزمين بهذا الواجب . واذا اخذنا العدد الادنى فقط ، وحسبنا ان كل حاج يذبح بالمتوسط خروفا ونصف خروف فقط ، فان عدد المواشى المذبوحة بهذه الطريقة بدون اى نفع يبلغ رقما هائلا — ١٥٠ الفا ، نظرا لعدد الحجاج فى هذه السنة وهو ١٠٠ الف . وهذا الذبح يجرى فى جميع الايام الثلاثة من اقامة الحجاج فى منى ، الامر الذى يشكل خطرا رهيبا يهدد بنشوء بؤرة للاوبئة نظرا للمناخ الحار ولغياب الشروط الصحية .

فى اليوم التالى (اليوم الحادى عشر من ذى الحجة) ، طفت فى منى وفى مخيم الحجاج فلاحظت ان الشارع الرئيسى فى منى بقى غير قذر جدا ، ولكن حين تنحيت جانبا ، بين الجبال والمبانى ، ذهلت من حال هذه المحلة الرهيب . كانت التربة كلها مكسوة بالعظام مع بقايا اللحم المسودّة

والمتفسخة ؛ فان الحجاج الذين اعدوا لانفسهم اللحم المقدد ، قصّوا كيفما اتفق الاقسام اللينة ، ورموا الباقى ليهترئ نظرا لوفرة اللحم . وكانت هناك بضع جيف منتفخة لخرفان بكاملها. وجميع الاماكن قرب الاسيجة كانت مغطـــاة بالبراز البشرى ؛ وفى كل مكان ، نفايات مختلفة وزبالة رهيبة ؛ وفى كل مكان رائحة نتنة لا تطاق ، وبخاصة فى جوار المراحيض العامة التى لم يطمروها باى شيء . وقرب الحفر ، ما وراء منى ، آلاف مـــن المواشى المذبوحة التى قد بدأت تتفسخ وتتعفن ؛ وقرب تلك الحفر التى قد امتلأت وطمروها ، تتناثر مختلف البقايا من الجيف . تلاقيت مع طبيب من الاطباء طاف راكبا فى مكان ذبح الاضاحى وامر بطمر الحفر . وقد افادونى ان احد الحجاج احيل الى المحاكمة لأنه ذبح الخروف قرب خيمته ، رغم ان الكثيرين ، نظرا لنقص الرقابة هنا ، يذبحون خفية فى اماكنهم لكى لا يمضوا بعيدا ولا يرتبكون البتة من الرائحة النتنة التى تنتشر فيما بعد ؛ وعلى العموم ، ينظر الحجاج باغلبيتهم الى هذا الطلب البسيط – ذبح الاضاحى فى المكان المعين فقط – كما الى تضييق نافل تماما ؛ ولولا القسر ، لرجعوا فورا بلا ريب الى النظم القديمة ولطفقوا يذبحون الخرفان ويتركونها تتفسخ كما من قبل بين الخيام . ونحو مساء ذلك اليوم ، زرت بضعة من الاحواش التى ذكرتها آنفا . والحجاج يفضلونها نوعا ما ، لأنهم يغلقون الابواب فى الليل ويجدون انفسهم بالتالى فى بعض الأمان من اللصوص الذين يتجمع عدد كبير جدا منهم فى منى أملا فى الابتزاز السهل (وخاصة فى حال نشوب الاوبئة ، حين يعكفون بكل حرية على السلب والنهب) . ولكن ، نظرا للاسيجة والابواب المغلقة ، ولشدة الضيق بين الخيام المنصوبة ، ولانشاء المراحيض قربها بالذات ، ولوجود الجمال ، ينشأ هناك جو مرهق جدا . ومن الافضل بكثيـر نصب الخيام فيما وراء منى ، حيث المكان ارحب وانظف الى ما لا قياس له .

ونظرا للظروف الصحية السيئة المذكورة اعلاه تكون نسبة الاصابات بالامراض والوفيات بين الحجاج عند عرفات وبخاصة فى منى ، كما يقال ، اكبر بكثير مما فى مكة . ولكن عدد الذين ماتوا طوال الرحلة كلها الــــى عرفات بلغ فى السنة الجارية حوالى ٤٠ شخصا فقط .

العودة الى مكة ورحيل الحجاج

بعد العودة الى مكة يسرع الحجاج الى اعلام اقاربهم فى الوطن بسلامة نهاية الرحلة الى عرفات ؛ وفى هذه الايام يكون التلغراف ، رغم التعريفـة

العالية – خمسة فرنكات عن كل كلمة – غارقا فى العمل ؛ ويستعد الحجاج للرحيل . وجميع الحجاج يحملون معهم الى اوطانهم لاجل تقديم الهدايا كميات متفاوتة من ماء زمزم والتمر المحلى ، تبعا لاحوالهم المالية . يأخذون ماء زمزم فى اوعية خاصة من الصفيح يبيعها سمكرية مكة من الحجاج الراحلين بعد ان يملأوها بانفسهم ويلحموا رقابها ، والتمر يشترونه عادة فى المدينة المنورة . وفضلا عن ذلك ، يشترون على سبيل الهدايا مسابح من صنع محلى او من صنع القسطنطينية ، وسجادات صغيرة لاجل الصلاة ، وخواتم فضية مصنوعة من بقايا الزخارف المتغيرة كل سنة فى مقام ابراهيم ، وخواتم فضية مرصعة بالصرد اليمنى وقطعا من الكسوة ، والكندر وما الى ذلك ويأخذ كل منهم ايضا معه ثوب الاحرام الذى التف به فى زمن الحج ؛ ويأخذون ايضا لانفسهم وبتكليف من معارفهم قطعا من الخيش مبللة بماء زمزم لاجل الاكفان . وجميع هذه الاشياء يدسونها فى صناديق ويسلمونها لعملاء خصوصيين هم السماسرة ، لاجل ايصالها الى القسطنطينية .

واولئك من حجاجنا الذين سبق ان كانوا فى المدينة المنورة قبل الحج او لم يحسبوا ان يزوروها ، بدأوا هذه السنة ، فى اليوم الثانى او الثالث بعد العودة من عرفات ، بالسفر قوافل صغيرة الى جدة ، حيث كان الحجر الصحى قد رفع قبيل عودة الحجاج ، وحيث تجمعت ١٢ باخرة لنقل الحجاج الى السويس وبيروت وازمير والقسطنطينية .

وفى السنة الجارية كان عدد الحجاج الذين قرروا زيارة المدينة المنورة ايضا بعد الحج قليلا جدا نظرا لمخاطر الطريق الكبيرة ؛ ولذا انطلقت من مكة الى المدينة المنورة ، عدا المحملين السائرين معا فى الطريق الشرقى ، قافلتان وركبان فقط . وجميع الحجاج المرضى ، مهما كانت صحتهم واهية ، لا يرغبون البتة فى البقاء فى مكة ، ويرحلون مع رفاقهم فى الطريق . وهذا ما يفسر ، اغلب الظن ، واقع انهم يدفنون دائما كثيرين من الناس فى المواقف الاولى بعد مكة ، مثلا ، فى حدة او البحرة او وادى فاطمة . . .

الانتقال الى المدينة المنورة

انضممت الى سكان المدينة المنورة العائدين ، ورحت مع احد الركب فى طريق الغاير ، اما حجاجنا الباقون ، فقد انتقلوا مع القافلة فى الطريق الفرعى . وقد وقعت فى القوافل بضع حالات من عمليات السلب والقتل ذهب ضحيتها مسافرون ابتعدوا عن الموقف ، علما بان واحدا فقط من

رعايا روسيا ، كما ذكرنا آنفا ، قد تضرر . اما الركب ، فقد اجتازت السبيل بكامل السلامة . صحيح ان اشارات الانذار كانت تنطلق فى الليالى وكانت تسمع طلقات الرصاص واننا توقفنا فى الطريق ، ولكنى لم ار خطرا حقيقيا .

الاقامة فى المدينة المنورة

توجد فى المدينة المنورة ايضا خمس تكيات لمسلمينا ، ولكنهم ، كما قيل اعلاه ، يفضلون النزول عند اقاربهم او فى مدرسة قازان الدينية ؛ وهذه السنة ظلت جميع التكيات فارغة . وعموما لا وجود فى المدينة المنورة لذلك الضيق فى المساكن وفى المدينة كما فى مكة ، وذلك لأن الحجاج يتوافدون الى المدينة المنورة تدريجيا ويبقون عادة وقتا قصيرا جدا – ٣–٥ ايام . وفى المدينة المنورة ، يوجد ايضا ادلة يقودون الحجاج حين يزور هؤلاء الحرم وضواحى المدينة ، كما انهم يؤدون الصلاة بالنيابة عنهم .

الذهاب الى ينبع

فى السنة الجارية تأخر الذهاب من المدينة المنورة الى ينبع بسبب الاضطرابات فى قبيلة بنى حرب، وتأخر كثيرا جدا ؛ ولم تنطلق القافلة الاولى الا بعد مرور زهاء اربعة اسابيع على وصولها من مكة . ثم انتظروا زمنا طويلا الانباء عن مصير هذه القافلة ، وسرت اشاعات مفادها ان البدو قد نهبوا القافلة كلها ، ونصحوا بالذهاب الى جدّة ؛ ولكن بعد مرور زهاء اربعة اسابيع ، قرروا تسيير القافلة الثانية دون انتظار الانباء من ينبع ، ومع اخذ الرهائن من المقوّمين . ومع هذه القافلة الثانية والاخيرة مضى جميع حجاجنا الباقين بمن فيهم انا .

تم الانتقال الى الجديدة بطلاقة لأننا سرنا فى ارض مقوّمينا ؛ ولكن فيما بعد ، فى منطقة بنى حرب ، سارت القافلة باحتراس بالغ ؛ بيد اننا وصلنا الى ينبع بسلامة ودون تأخر ، اذا لم نأخذ بالحسبان ٥–٦ حالات من النهب والسلب ، وقطعنا هذا الطريق فى سبعة ايام . عند الخروج من الجبال فقط ، وقع حادث اظهر كيف يتصرف فى مثل هذه الاحوال البدو الذين يسوقون القافلة . كانت القافلة تسير فى ثلاثة اقسام – فى القسم الامامى كان العرب الافارقة (المغاربة) ؛ فى الاوسط ، حجاج من شتى القوميات ، بمن فيهم مسلمونا ؛ فى القسم الخلفى ، الفرس . وفجأة سمعنا

طلقات مترددة من جانب القسم الامامى الذى لم يكن مرئيا فيما وراء الجبال . اخذ مقوّمنا سلاحه ، وركض الى امام القافلة ، وسرعان ما تجمع حوله جميع سواقى الجمال الآخرين وفى ايديهم السلاح . وفى هذه الاثناء ظلت القافلة تواصل السير كما من قبل وفى مقدمتها جميع البدو . خلال ربع ساعة ، انعطف الطريق عدة مرات وبعد خروجه من الجبال ، اخذ ينزل الى الشريط الساحلى المستوى (تهامة) ؛ وفى الحال تكشفت للانظار كل المحلة المجاورة مع ابعاد البحر الزرقاء . وكانت مقدمة القافلة تبدو بوضوح ، وكانت الطلقات لا تزال تتعالى من هناك ؛ وقد تبين ان المغاربة اعربوا بذلك عن فرحهم لدن رؤية عنصرهم الطبيعى العزيز ، البحر .

اثناء هذا الانتقال من المدينة المنورة الى ينبع ، اضطررت الى معاناة عواقب ريح السأم التى كانت تهب بلا انقطاع تقريبا . وعند بئر السيّد اشار ميزان الحرارة فى الظل الى ٤٤ درجة ريومور فوق الصفر ، وهى اعلى درجة من الحرارة رأيتها فى الحجاز . المرحلة الاخيرة من هذه البئر الى ينبع كانت اطول المراحل ؛ وقد سارت القافلة بلا توقف ٢٠ ساعة بالضبط .

الاقامة فى ينبع

لقد سبق ان تحدثت عن الحالة الصحية الخارقة السوء فى ينبع . وليس ثمة مكان فى الحجاز يواجه فيه الحجاج مثل الظروف المرهقة القائمة فى هذه المدينة . وعند عرفات ، او فى منى او فى جدّة ، يوجد على الاقل ماء جيد ضرورى جدا فى مثل هذه الحرارة العالية ؛ اما هنا ، فان الماء الذى يبلغ ثمن الدلو منه حوالى ٥٠ كوبيكا لا يمكن شربه الا فى اقصى الاحوال . ولحم الغنم المحلى المباع هنا بسعر ١٥ كوبيكا للرطل الواحد يتميز بقساوة غير عادية وغياب الدهن . ومن جراء كل هذه الظروف ، عانى جميع الحجاج اثناء الاقامة فى ينبع باختلال المعدة ؛ كان حسب المرء ان يقترب من شاطئ البحر حتى يقتنع بان الجميع مصابون بالاسهال . وقد ازداد عدد الموتى بشكل ملحوظ ، وكل يوم كانوا يدفنون ٥-٦ اشخاص (كان عدد الحجاج زهاء ٣٠٠٠ شخص) . ولسوء حظ الحجاج غالبا ما يتعين عليهم ان ينتظروا طويلا فى هذا المرفأ الرهيب اقلاع الباخرة او انطلاق القافلة ؛ ففى هذه السنة بقى الذاهبون الى المدينة المنورة ما لا يقل عن اسبوع ، وبقى الراحلون من الحجاز زهاء ٨ ايام ؛ ومن وصلوا مع القافلة الاولى بقوا اكثر من شهر .

وحجاجنا يبيتون هنا ايضا كما فى جدّة مستأجرين غرفة واحدة لعدة اشخاص ؛ اما حجاج القوميات الاخرى ، كالمصريين والمغاربة ، فانهم يدبرون لانفسهم ظلا ما فى الشارع وعلى الساحل المنخفض ويعيشون فى وسط القذر الرهيب والرائحة النتنة الكريهة .

تصل البواخر الى ينبع بعد ان تقوم فى البدء برحلة لنقل الحجاج من جدّة ؛ ونظرا للحجر الصحى ، حملت الحجاج على انتظارها فى هذه السنة زمنا طويلا جدا . واخيرا اخذت تقترب ، وفتح العملاء مكاتبهم ، وبدأت المفاوضات بصدد اسعار التذاكر . فى البدء طلبوا عن الدرجة الثالثة الى القسطنطينية ٧١/٢ ليرات اى اكثر من ٦٣ روبلا . ولكن بما ان عدد الراغبين فى السفر بهذا السعر العالى كان قليلا جدا ، فقد خفضوا سعر التذكرة بعد يومين حتى ٦ ليرات (٥١ روبلا) ، واذ ذاك فقط شرع الحجاج يشترون التذاكر . والباخرة التى سافرت على متنها كانت قد اخذت ٧٠٠ راكب ؛ ولكن رغبة فى زيادة عددهم ، ارجأوا الاقلاع من يوم الى يوم ، الى ان احتشد الركاب اخيرا ، وقد فرغ صبرهم ، فى جمع ضخم امام مقر القائمقام وطفقوا يعربون باصوات مدوية عن احتجاجهم ، متشكين من نقص المؤن والماء ، وشرعوا يطالبون باقلاع الباخرة ؛ وسرى مفعول الاحتجاج ، وبدأت الباخرة تولّد البخار ، وتأخذ الركاب ، واقلعت فى ذلك اليوم بالذات . وقد قالوا لى ان القائمقام والعميل وربان الباخرة يحصلون على مداخيل كبيرة بفضل هذه الطريقة لبيع التذاكر . واولئك الحجاج الذين صبروا طويلا اشتروا التذاكر بالسعر العادى المطبق فى السنوات التى يقوم فيها الحجر الصحى اى بخمس ليرات للتذكرة . وعدا الركاب الذين يدفعون ثمن التذاكر ، تركّب السلطات المحلية على متن كل باخرة ٢٠-٣٠ شخصا من الحجاج المعدمين .

المحجر الصحى فى الطور

اهتم الحجاج كثيرا ، عندما كانوا فى المدينة المنورة ، وعندما وصلوا الى ينبع ، بمسألة هامة جدا بالنسبة لهم – هى مسألة فرض الحجر الصحى فى الطور ؛ وفى هذا الصدد انتشرت فى المدينة شتى الاشاعات . قال البعض ان الحجر الصحى سيدوم ١٠ ايام ، وقال آخرون انه سيدوم ٥ ايام فقط ؛ ولكن الاغلبية كانت على يقين بان الحجر الصحى لن يفرض ولا يمكن فرضه ، لأن الحجاج ، كما كانوا يحاكمون ، لم يكونوا فى جدّة حيث وقعت

اصابات بمرض الطاعون ، بل نزلوا فى الرأس الاسود ، وانهم اقاموا بعد ذلك اكثر من شهر فى مكة حيث لم يكن اى وباء ، وبقوا اسبوعين فى الطريق بين مكة والمدينة المنورة ، واقاموا فى المدينة المنورة ايضا مدة كبيرة على خير ما يرام ، ثم ساروا اسبوعا الى ينبع حيث بقوا فى انتظار الباخرة اسبوعا ايضا ؛ وطوال هذا الوقت كله لم تحدث اية حالة مشبوهة . فما الداعى الآن الى الحجر الصحى ؟ لقد تكونت عند الحجاج عن الحجر الصحى اسخف المفاهيم . يقولون بالاجماع : هدف الحجر الصحى ليس البتة المقتضيات الصحية بل رغبة الدول غير الاسلامية فى تصعيب وصولهم الى الحجاز واضعاف دينهم بذلك ؛ ولهذه الاهداف ابتدعوا الحجر الصحى حيث يميتون الحجاج التعساء بل وحاولوا ان يسمموهم . انزلوا ٢٠٠٠ شخص فى جزيرة (المقصود هنا ، اغلب الظن ، جزيرة كمران) فأخذ الطبيب الانجليزى يعطيهم سما بذريعة انه دواء ، ولكن احد الحجاج حزر ذلك فقتل الطبيب ؛ وآنذاك فقط ، وقد رأوا ان هذه المعاملة لا تخلو من الخطر ، أصعدوهم الى متن الباخرة وواصلوا السفر . يقول كثيرون من الحجاج : «البواخر الانجليزية المنطلقة من الهند الموبوءة تمر بدون اى توقيف . بينما نحن المسافرين من اماكن سليمة يعرضوننا لمثل هذه العذابات . وحين يعانى الحجاز من الكوليرا او من وباء آخر ما ، فليفرضوا الحجر الصحى . اما فى السنوات الطيبة ، فهذا ظلم جلى» .

وفى ينبع ايضا لم ترد معلومات دقيقة عن الحجر الصحى ؛ وبارتياب بالغ قابلوا تصريحات طاقم السفينة باننا سنتوقف ١٢ يوما فى الطور ؛ وفى اليوم الثالث اقتربنا من هذه النقطة ونحن على كامل اليقين باننا سنواصل السفر بعد وقفة قصيرة ، يقتنع فيها الاطباء ان كل شىء على ما يرام .

الطور بلدة صغيرة على الساحل الآسيوى من خليج السويس ، تتألف من عشرة بيوت حجرية من طابقين . على بعد زهاء فرستا اثنين الى الجنوب ، تقع مجموعة من الخيام على ساحل البحر ، ومجموعات صغيرة من اشجار النخيل هنا وهناك . وهذا هو المحجر الصحى فى الطور الذى يكرهه الحجاج بالغ الكره . الساحل واطئ ، الرمل وعس ، ويشكل بعيدا عن البحر جملة من كثبان مستطيلة ؛ فى الافق ترتفع كتل حجرية معدومة الحياة من الجبال ؛ المنظر اشد كآبة مما فى الحجاز .

اقتربت باخرتنا على بعد زهاء ٢٠٠ ساجين من الشاطئ ورمت المرساة . وكانت ترسو هنا بضع سفن اقلعت من ينبع قبلنا وفرضوا عليها الحجر

الصحى . بعد ساعة انطلق من الساحل زورق بخارى صغير ونقل الينا طبيبين اختصاصيين في الحجر الصحى ؛ وهذان تفحصا اوراق الباخرة ، ثم عادا بعد فترة وجيزة الى الساحل . وفى هذه الاثناء نشر احد المازحين اشاعة مفادها ان الحجر الصحى لن يفرض ؛ وصدق الجميع هذه الاشاعة حقا وفعلا واعربوا بصور مختلفة عن فرحهم العظيم . ولكن سرعان ما عاد الزورق قاطرا ثلاثة زوارق كبيرة ؛ وفى الحال بدأ انزال الركاب ونقل كل امتعتهم الى الساحل ، الامر الذى استغرق يومين ، لانه لا يتسنى فى اليوم الواحد تعقيم اكثر من ٣٠٠-٤٠٠ شخص . وكل الامتعة الثقيلة الموضوعة فى العنبر انزلوها هى ايضا من الباخرة . وكثيرون من الركاب ابقوا حقائبهم اليدوية وغير ذلك من اشياء اوفر قيمة لاجل الحفظ عند المسؤول عن مطعم الباخرة ؛ وهذا الاخير اخفاها فى مكان ما لقاء مكافأة .

ترسو الزوارق عند الرصيف الراسخ الاسس ؛ وعلى طول الرصيف مدوا القضبان الفولاذية لاجل سكة حديدية من طراز خفيف جدا . وقبيل رسو الزوارق ، تصل عربتان حديديتان صغيرتان ، واحدة بصورة عربة مستشفى ، وعليها ينقلون المرضى الى مستشفى الحجر الصحى ؛ والاخرى من طراز عربة الشحن لاجل نقل الامتعة الى مبنى التعقيم . وعلى ابعاد قصيرة يجر الناس العربتين وعلى مسافات ابعد ، يفرنون البغال ؛ وهناك ايضا قاطرة صغيرة .

على بعد زهاء ٢٥ ساجينا من الرصيف ، توجد تخشيبتان مسقوفتان طويلتان لاجل غرف التعقيم ؛ وقربهما سقيفة ينتظر الحجاج تحتها دورهم . ولتغطية نفقات الحجر الصحى ، يأخذون من كل حاج ٦٤ قرشا مصريا (زهاء ٦ روبلات و٤٠ كوبيكا) ؛ اما المعدمون ، فيسمحون لهم بدخول المحجر الصحى مجانا ، ولكن بعد الانتهاء من تعقيم الحجاج الذين دفعوا الرسم .

انتظرت دورى ودخلت احدى التخشيبتين المذكورتين ، واذا بى ارى نفسى فى غرفة رحبة كفاية ارضيتها رطبة ومفروشة بالاسفلت ؛ على هذه الغرفة تطل ابواب ثلاث مقصورات بخارية تعقيمية ؛ وهنا ايضا تنتصب الخوابى والبراميل المليئة بشتى السوائل المعقمة . اخذوا يفكون صرر الامتعة ويصنفونها . وكل امتعتى المؤلفة من كيس للسفر فيه البياض ولوازم الفراش ، ومن سرير للسفر ، ومن صندوق فيه الآنية والمؤونة ، نقلوها الى الحوش ؛ اما امتعة خادمى ، فقد ادخلوها كلها فى مقصورة . ثم طلبوا منّا ان نتعرى تماما ونلبس بياض الحجر الصحى ، البعض لبسوا الكلاسين ، والبعض الآخر القمصان الطويلة . ونحن ، ركاب الدرجة الاولى الثلاثة ،

حاولنا ان نحتج ، لعدم رغبتنا فى ارتداء البسة قذرة ، الله يعلم عمّن نزعوها ، وطلبنا اعطاءنا البسة انظف على الاقل ، ولكن طلبنا قوبل بالرفض القاطع ؛ فتعين علينا ان نتعرى ، ونربط كل البستنا معا ، ونعطيها الى المقصورات ، ونرتدى قمصانا كريهة ، نتنة . ولم يسمحوا لنا الا بان نبقى معنا محافظ الطريق التى تحتوى النقود والوثائق ، والمظلات والاحذية .

وحين بلغ عدد مرتدى هذا اللباس زهاء ١٠ اشخاص ، جاء الطبيب وفحصنا ، متلمسا الغدد اللوزانية ، وتحت الابطين ، وفى المغبن (المنطقة الاربية) . واثناء فحص الطبيب ، خلعوا حذائى وبللوه ببالغ الاجتهاد فى خابية تحتوى ، على الارجح ، سائلا معقما ثم انتزعوا عند الخروج الى الحوش المظلة من يدى وقطروا عليها من مرشة نحو ٢٠ قطرة ، ولكن لا اكثر ، ثم دخلنا الى التخشيبة ذاتها ، ولكن من طرف آخر ، متجنبين وسطها ، حيث تقوم المقصورات والمراجل . وقد اضطررت الى انتظار البستى زمنا طويلا نسبيا ورؤية مشاهد طريفة جدا . ها هم يرمون من قسم التعقيم عبر باب واسع الصرر والرزم المطهرة من كل مسبب للامراض ؛ هذه الصرر والرزم يتلقفها فى الحال اصحابها الذين ينتظرونها ويفكونها ويبدأون تفحصها — جميع الطرابيش تحولت الى قلبقات كريهة المنظر وتغيرت الوان الاشياء الاخرى او انصبغت باصباغ غريبة ؛ بعض الاصباغ فى السجادات بهت لونها هى ايضا . ويجلس الفرس عليها مستغرقين فى التأمل ؛ عند البعض تبين ان غلافات الاشياء قد احترقت ؛ ومن لم يسحب الاشياء الجلدية ولم يضعها جانبا بسبب جهله للامر تلقى بالطبع مجرد مزق مدعوكة . ومن هم اوفر طيبة ولطفا يضحكون ، ولكن تتعالى على الاغلب التذمرات واللعنات . وحين امعنت النظر فى الحجاج العارين من مختلف القوميات ، ذهلت : يا للشعب النحيل والمنهوك القوى ! هذه الرحلة الى الحجاز ترهقهم جميعا ! وما ان يتلقوا امتعتهم حتى يرتدوا ثيابهم ، بينما يرمون بياض المحجر الصحى بحنق على الارضية القذرة والرطبة ؛ ومن هذه الارضية يأخذ الخدم هذا البياض وينقلونه لاجل الاستعمال لاحقا . ارتديت ثيابى من جديد وخرجت الى الحوش ووجدت عند الباب كل امتعتى بدون اى اثر لاى تعقيم . ثم شرعوا ينقلون الامتعة الى ما وراء البوابة ، لكى ينقلوها الى المخيم حيث يفرضون الحجر الصحى على الحجاج .

اقيم هذا المخيم على بعد زهاء ٤٠٠ ساجين عن الساحل ، وهو عبارة عن صف واحد ، بموازاة ساحل البحر ، من احواش مربعة صحيحة التخطيط (اقسام) مفصولة بعضها عن بعض بشبكة عالية من الاسلاك ، ولها بوابة

واحدة تطل على الواجهة ؛ وقرب هذه البوابة يتواجد المخفر الذى يرسلون منه حراسا الى جميع انحاء المخيم . وداخل السياج ، خيام صغيرة واطئة تتسع الواحدة منها لـ٥–١٠ اشخاص . وقرب البوابة توجد خيمة الطبيب ومعاونيه الاثنين ؛ وهنا بالذات يتواجد تحت السقيفة دكان وضرب من بوفيه ؛ وفى الخط الخلفى تقوم مراحيض منقولة مصنوعة من الواح خشبية . ومن يملكون خياما خاصة يفرزون لهم ايضا امكنة . يجب قول الحق ، فان منظمى المحجر الصحى فى الطور قد انشأوا هنا نظاما ظاهريا معينا ؛ ففى كل مكان مدوا الخطوط الحديدية ، وعليها ينقلون امتعة الحجاج ، ويستجلبون عليها الماء ٣–٤ مرات فى‌اليوم ؛ ولهذا الغرض يستخدمون ثلاث عربات حديدية صغيرة على كل منها ثلاثة براميل خشبية مزودة بحنفيات وخراطيم ، ينسكب الماء بواسطتها بصورة مناسبة ومريحة وسريعة جدا فى صهريجين حديديين موضوعين قرب البوابة . والماء نقى ، ومن نوعية مرضية ، ويستخرجونه من بئر بمحرك هوائى . وكل يوم يجمع الحراس بين الخيام الزبالة وشتى النفايات ، ويراقبون بحيث لا يذهب الحجاج لقضاء حاجاتهم الطبيعية الا الى بيوت الخلاء التى يحافظون على نظافتها ويغسلونها على الدوام ، ويسكبون عليها منقوع الكلس . وجميع الحجاج المعدمين يتلقون كل يوم على حساب الحكومة المصرية طعاما يتألف من رغيفى خبز صغيرين وزن كل منهما زهاء رطل ، وحساء مطبوخ مرة باللحم ، ومرة اخرى بدون اللحم . يبقى ان اضيف ان ساعى البريد يحضر كل يوم لاجل قبول الرسائل العادية والمضمونة وكذلك البرقيات ، وان بواخر البريد التى تقوم برحلات بين موانئ البحر الاسود تأتى الى هنا فى زمن الحجر الصحى. ولكن الغلاء هنا رهيب ويشمل جميع المأكولات الضرورية ، وغالبا ما يستحيل كليا شراؤها . مثلا ، سعر رطل لحم الضأن ٣٠ كوبيكا ؛ رغيف الخبز من الطحين الاسود ، وزنه نصف رطل ، وهو دائما قاس وعتيق ، سعره ٨ كوبيكات ؛ سعر الدجاجة ٨٠ كوبيكا . سعر البيضة ٣ كوبيكات ، سعر الحطب (٣ ارطال) ٤ كوبيكات ، سعر الفحم الحجرى ٥ كوبيكات للرطل الواحد .

منذ الايام الاولى بالذات ، تبين ان عددا كبيرا جدا من الحجاج يعانون من الاسهال . اضعفهم ارسلوهم قسرا الى المستشفى الذى يخافه الحجاج خوفهم من النار . وقد حاول بعض ممن مرضهم اقل وطأة ان يطلبوا النصيحة والدواء من الطبيب ، ولكن تبين ، لما فيه دهشة الجميع ، انه لا يجوز هنا اعطاء النصائح والادوية . فاذا كنت مريضا ، فعليك ان تتعالج فى المستشفى .

ولكن الخدم انفسهم كانوا ينظرون الى العزلة الصارمة جدا بالنسبة للحجاج ، بدون اى تنازل فى صالحهم نظرة مغايرة تماما وبذلك كانـــوا يستثيرون على الدوام دمدمة الخاضعين للحجر الصحى ؛ فان الحراس كانوا يمضون بحرية لاداء شتى تكليفات الادارة ؛ وصاحب الدكان كان هو ايضا يتعامل بدون اى عائق مع بقية العالم . وحين اخذ الفرس يبيعون سجاداتهم ، افتتح بازار حقيقى قرب خيمة الطبيب ، وعكف الاطباء اليونانيون القادمون عادة من خارج المخيم على الشراء .

دام الحجر الصحى فى الطور ١٢ يوما ؛ وطوال هذه المدة سادت بين الحجاج كآبة عميقة عامة وهبوط شديد فى المعنويات ، الامر الذى يمكن تفسيره بادراك الحرمان من الحرية وبالتخوف من امكان استطالة هذا الاعتقال زمنا طويلا غير محدد فيما اذا ظهر مرض ما مشكوك فيه . اغلب الظن ان التغذية الرديئة جدا كان لها هى ايضا دورها ، لأن النقود كادت تنتهـــى عند الكثيرين من الحجاج ، فكانوا يعيشون ببيع امتعتهم ، ناهيك بانه لم يكن ثمة شيء يمكن شراؤه بهذه النقود عدا لحم الضأن السيئ النوعية او احيانا دجاجة هزيلة . كذلك لعبت دورا ، اغلب الظن، المحلة الخارقة الكآبة ، والرياح الشمالية المتواصلة التى تهب هنا بقوة كبيرة جدا ، قالبة الخيام ، والتى تخفف القيظ نوعا ما والحق يقال ، ولكن التى تغطى جميع الاشياء على الدوام بشريحة سميكة من الرمل .

قبل انتهاء مدة الحجر الصحى بيومين ، قام الطبيب بفحص عام ، جديد ، جاسا الغدد ، ووجد ان كل شيء على ما يرام . وقد توسل الحجاج من الله باصدق نحو ان يموت جميع الضعفاء والمرضى منهم ، اذا كان لا بدّ لهم من الموت ، فى اى مكان ، فيما عدا هذا المكان ، فيما عدا هذا المحجر الصحى . وغالبا جدا ما تذكروا احاديث الحجاج السابقين ، ومفادها ما يلى : فى زمن الوباء ، اذا مات حجاج فى الايام الاخيرة من الحجر الصحى ، كان رفاقهـم يدفنونهم خفية فى الخيام ؛ وكان الجميع موافقون تماما على انه هكذا ينبغي التصرف اذا توفى احد ما فجاة ، لا سمح الله !

واخيرا حل يوم الفرح بالنسبة للجميع ، يوم انتهاء مدة الحجر الصحى ؛ ونقلوا الحجاج بالطريقة نفسها ولكن بسرعة بالغة الى الباخرة التى تعرضت هى ايضا فى هذه الاثناء للتعقيم العام .

وقد افادنى بعض من الحجاج ممن كانوا فى الطور فى السنة الماضيـة ايضا (سنة ١٨٩٧) ان ظروف الحجر الصحى فى السنة الجارية اخف الى ما لا قياس له ؛ فآنذاك وصلت من ينبع دفعة واحدة ٦ بواخر ؛ والبواخـــر

التى وصلت بعد غيرها اضطرت الى انتظار دورها لانزال الركاب اكثر من ١٠ ايام ؛ وهذه الايام لم تدخل فى حساب مدة الحجر الصحى (١٥ يوما) . وهكذا ، امضى ركاب الباخرة «ماغنيت» فى الطور ٢٧ يوما . واثناء التعقيم ، اصاب التلف عددا كبيرا جدا من شتى الاشياء . مثلا ، قدّر احد المسلمين من رعايا روسيا خسائره بمبلغ يربو على ٥٠٠ روبل .

ان كل حجر صحى هو بالطبع عبارة عن مضايقة معينة ، اى التأخر مدة متفاوتة الطول فى الطريق ، والنفقات الاضافية ، والحرمانات ، والانتقال مع جميع الامتعة الى الشاطئ والعودة معها الى الباخرة ، وما الى ذلك ؛ ولكن اذا تفحصنا نظام الحجر الصحى فى الطور ، اتضح لنا جزئيا لماذا ينظر الحجاج اليه باحتراس وحذر وخوف . ليس من الصعب اقناع الحجـــاج ان التعقيم ضرورى لتحاشى نقل الوباء الى وطنهم ، رغم ان لديهم اعتراضـــا جاهزا مفاده انه لم يكن ثمة اى وباء فى النقاط التى زاروها فى الحجـاز . ولكن حين يرون ان بعض الاشياء يجرى تعقيمها ببالغ الصرامة وان اشياء اخرى مماثلة تمر بدون اى تعقيم او تطهير ؛ وحين يرون كيف يجبرونهم على التعرى تماما ويرسلون جميع الالبسة الى مقصورة ، وكيف يسمحون بابقاء الاشياء الصغيرة ، وكيف لا يغسلون اجسام الحجاج باى شىء — حينذاك يفقد الحجر الصحى بالطبع كل ثقة . ان التعرى امام الآخرين هو بحد ذاته عمل مرهق جدا بالنسبة للمسلمين ؛ وارتداء البياض القذر ، المنزوع من قبل ، الله وحده يعرف عمّن ، والمرمى على الارضية القذرة ، يمكنه بالطبع ان ينقل الى الناس الاصحاء عدوى شتى الامراض الجلدية ؛ فبين الحجاج ، يوجد مصابون بالسفلس ؛ وقد يكون بينهم برص زاروا الاماكن المقدسة بحثا عن الشفاء ؛ واخيرا يتسبب التعقيم الزاما ببعض الخسارة لاصحـاب الاشياء اذ يبهت لونها وتحترق غلافاتها ، والخ . . والعزلة نفسها ، القاسية جدا بالنسبة للحجاج ، قلّما يتقيد بها الخدم .وكل هذا معا يقنع الحجاج بان هدف الحجر الصحى ليس البتة المقتضيات الصحية ، بل مجرد التسبب لهم بالخسائر وتصعيب وصولهم الى الحجاز .

ويستفاد من المعلومات الرسمية ان ٢١ سفينة مرت فى هذه السنـــة عبر الحجر الصحى فى الطور ، منها ١٩ باخرة ومركبان شراعيان ، وانهـــا نقلت بالاجمال ١٦٩٥٢ حاجا . وبلغ عدد الذين ماتوا فى الطور ١٩٥ شخصا وفى ابو زليم ٨ اشخاص .

وفى السنة الجارية اعتمدت الحكومة المصرية اكثر من ٣٠٠٠٠ ليـرة (حوالى ٣٠٠٠٠٠ روبل) لبناء تخشيبات خاصة فى الطور . ولا ريب فى ان

الظروف لاجل المحجورين فى المحجر الصحى ستتحسن كثيرا بعد بناء هذه التخشيبات .

بعد انتهاء الحجر الصحى فى الطور تبقى البواخر التى تستقبل الحجاج من سكان مصر وغيرها من اقطار افريقيا الشمالية لاجل الفحص فى جوار ابو زليم ؛ اما البواخر التى تحمل حجاجا من بلدان ابعد الى الشمال ، فانها تتجه للهدف ذاته الى بيروت التى كان يتعين علينا ان نمضى اليها .

ومما له دلالته ان نسبة الوفيات بين ركاب الباخرة كانت اكبر نسبة اثناء الانتقال من الطور الى بيروت ، وانهم كانوا فى هذه الايام الاربعة من السفر يرمون يوميا فى البحر جثث ثلاثة او اربعة اشخاص . ومرد ذلك ، اغلب الظن ، الى الحرمانات السابقة ، والضنك الاقصى ، وكتمة الهواء التى لا تطاق والضيق فى الباخرة ، ولربما ايضا الى التموج القوى جدا الذى رافق هذه المرحلة .

فى السويس اخذت الباخرة طبيبين صحيين واوصلتهما الى بور سعيد ؛ ورافقتها فى القناة سفينة خافرة لتحاشى فرار الركاب ، الامر الذى يصعب حدوثه فعلا .

المحجر الصحى فى بيروت

فى بيروت تتوقف الباخرة فى مكلأ مفتوح ؛ والنزول صعب جدا اذا هبت ريح شديدة نوعا ما . ولنقل الركاب ، يأتى اصحاب زوارق من المرفأ ويقومون بهذه العملية على زوارقهم الصغيرة جدا .

يقع المحجر الصحى فى بيروت فى محلة جميلة ، بين البساتين ، على ساحل البحر بالذات ، على بعد زهاء فرستا اثنين الى الشمال من المدينة ؛ وعن حق وصواب يعتبر الحجاج اقامتهم فى هذا المحجر استراحة مستطابة . وعند دخول المحجر يجرى التعقيم هنا ايضا ولكن بصورة سطحية جدا ، وبصورة خفيفة بالنسبة للجميع . يوزعون الحجاج فى تخشيبات مريحة جدا ورحبة وجزئيا فى خيام منصوبة فى ظلال الاشجار . الماء جيد جدا وموجود فى كل مكان . النسيم الذى يهب من البحر بارد نسبيا ومستطاب على الدوام . اما المزية الرئيسية لمحجر بيروت الصحى ، فهى الدكانة الواسعة المزودة بجميع السلع والمآكل الضرورية ، والتى كل شىء فيها رخيص نسبيا ومن نوعية جيدة . وهنا اشترى الحجاج للمرة الاولى لحم الضأن الجيد («كما عندنا فى روسيا» ، قال حجاجنا) ، ووجدوا شتى الخضراوات ، واكلوا

الفواكه للمرة الاولى ، وشربوا الحليب الممتاز ، ورأوا الجليد . ولم يستطع قرغيزيونا الا ان يشربوا حتى التخمة من اللبن البارد . وهنا انتعش الجميع ، ومرحوا ، وتحسنت صحتهم .

وللمحجر الصحى فى بيروت مزية كبيرة اخرى : فان المرء لا يشعر بانه محبوس ، معزول ، ولا يرى اى حرس ، واى خفر ، والمجال الى البحر مفتوح ؛ وبفضل ذلك يتنعم الجميع بالاستحمام الرائع فى مياه البحر .

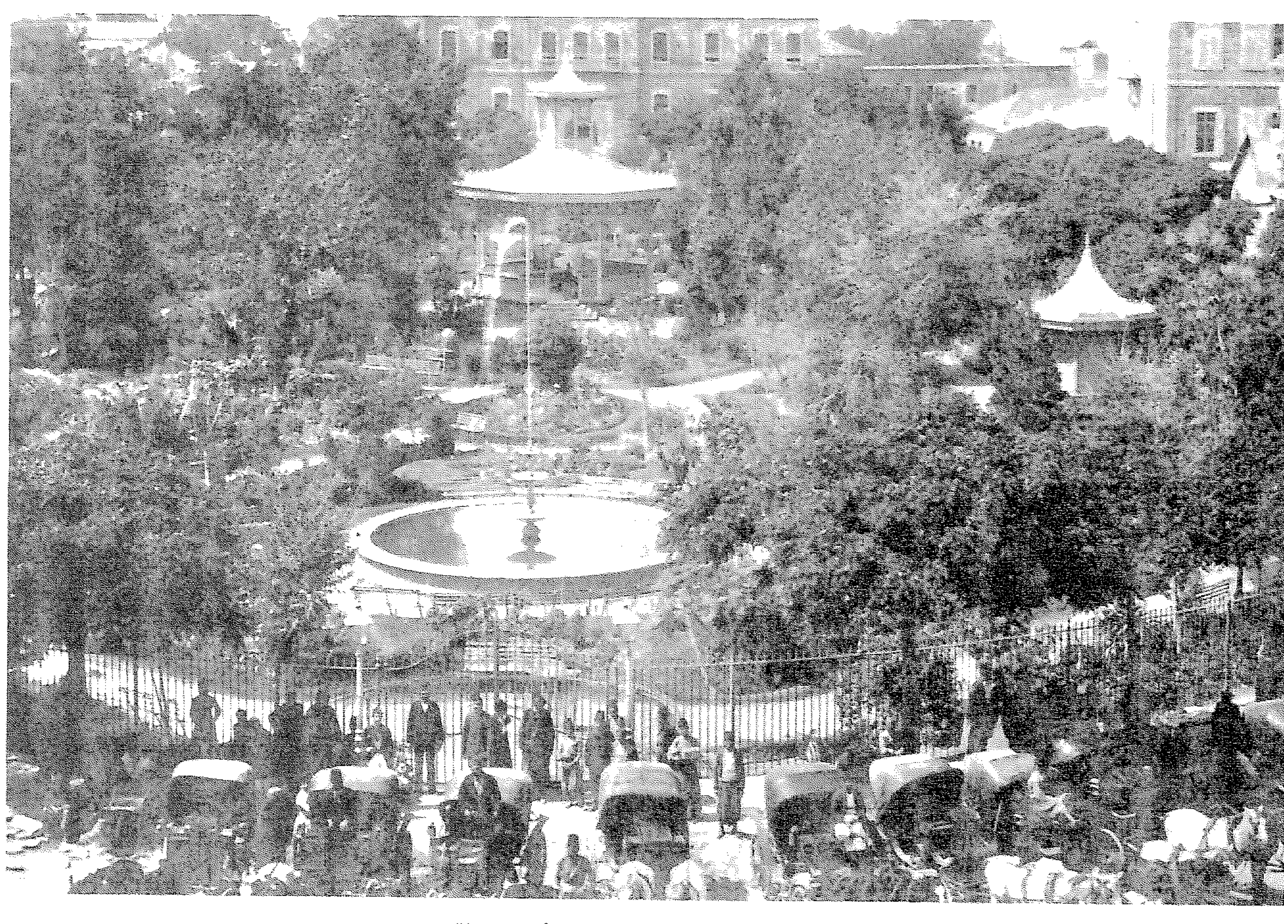
حوش المحجر الصحى نظيف كفاية ؛ بيوت الخلاء المبنية فى اماكن مختلفة على شاطئ البحر ينظفونها ويعقدونها بعناية ؛ وجميع الدروب والتخشيبات التى يسكن فيها الحجاج تنار ليلا ؛ ولكن المرء يشعر هنا بالاهمال الكبير فيما يتعلق بالنظام الداخلى والمراقبة . المحجر الصحى يشرف عليه طبيب خاص يعيش فيه على الدوام . نفقات المحجر الصحى يغطيها رسم عن كل حاج قدره ٣٧,٥ قرشا ؛ ولكن فى هذه السنة على الاقل لم يدفع الا من كان ضميرهم لا يطاوعهم فى الامتناع عن الدفع ، لأنه لم يكن ثمة اية رقابة او اى مطالبة بالوصل عند الخروج .

بين ركاب باخرتنا ، لم تحدث فى بيروت اية وفاة ؛ كذلك لم تحدث اية اصابات باية امراض . وعند الرحيل قال الحجاج : من الافضل لو ان الحجر الصحى كان فى بيروت فقط ، عوضا عن الطور ؛ وقالوا انهم يوافقون على البقاء فى محجر بيروت ولو بضعة اشهر .

عند انقضاء الايام الخمسة ، سمحوا للحجاج الذين اخذوا التذاكر حتى بيروت بالخروج من المحجر الى المدينة ، اما المسافرون الى القسطنطينية فقد نقلوهم الى الباخرة . وفى حال التموج ، يجرى ركوب الباخرة فى مكلأ مغلق .

زيارة القدس ودمشق والقاهرة

يبقى بعض من حجاجنا فى بيروت لكي يمضوا من هنا الى القدس والى دمشق حيث مدفن يحيى (يوحنا) ، ويزورون كذلك القاهرة حيث مدفن رأس حفيد النبى محمد (صلعم) ، الحسين وحيث مدفن احد الائمة السنيين الاربعة ، الشافعى ، ولكن هذه الرحلات تتحقق على الاغلب قبل السفر الى الجزيرة العربية ، لان الحجاج بعد انتهاء الحج يشتاقون بشدة الى الوطن .



٢- بيروت. ساحة البرج / تصوير بونفيس سنة ١٨٨٢.

عودة الحجاج الى روسيا

في طريق العودة يصل حجاجنا الى القسطنطينية ؛ وهى النقطة الاخيرة التى يمكن شراء التذاكر للسفر اليها ، وهى كذلك مكان لاجل وقفة قد تطول او تقصر . واذا كان الحجاج العائدون من الحجاز لا يملكون الوثائق التى تتيح لهم حرية الدخول الى روسيا ، فانهم يأخذون امتعتهم من السماسرة ويحاولون ان يصنفوها بحيث يكون من الاسهل تمريرها عبر الحدود ؛ مثلا ، يسكبون قسما من ماء زمزم فى زجاجات ، ويتركون القسم الآخر لاجل الارسال فيما بعد اذا سنحت الفرصة ويستعلمون عن اسهل السبل للعودة ، وما الى ذلك .

وقد عرفت عن حجاج سنة ١٨٩٨ ان اكثرهم يسرا عادوا الى روسيا بالسكة الحديدية ، عبر فيينا وفرصوفيا ، اما الآخرون فقد انتظروا طويلا فى القسطنطينية ، واستأجروا بواخر خاصة نقلتهم الى فيودوسيا .

والحجاج العائدون يستقبلهم اقاربهم ومعارفهم بمهابة واحتفال كما فى حال توديعهم ، ويكونون فى الاونة الاولى موضع انتباه وتقدير خاص فى اوساطهم . ويتوافد جميع الاقارب المقيمين فى المنطقة المعنية لرؤيتهم ؛ والمطلوب من الحاج الجديد الحديث بالتفصيل عما رآه وسمعه اثناء هذه الرحلة الطويلة .

تأثير الحج فى مسلمينا

اى تأثير يمارسه الحج فى مسلمينا ؟

بقدر ما استطعت ان اراقب فى موطنى واثناء المأمورية الاخيرة ، ينقسم حجاجنا الى قسمين ، القسم الاول يتألف عادة من الشيوخ ، وهم اناس ذوو ثقافة ضعيفة جدا ، ينظرون بلا مبالاة وبلا مشاركة الى كل ما يحيط بهم ، ولا يبتغون غير الهدف النهائى من السفرة ، وينفذون على العمياء شعائر الحج بما فيها اقل التفاصيل ؛ وهم يرون حتى فى عمليات النهب والسلب التى يقوم بها البدو سرا يستحيل فهمه ومكيدة من الشيطان للحيلولة دون اداء الشعائر المقدسة ، ويعتبرون جميع التدابير الصحية امرا غير ضرورى اطلاقا ، لانه لا ملاذ على كل حال من القضاء والقدر ، وما الى ذلك . واذا سألهم احد بعد العودة من الحج عما رأوه اثناء الرحلة ، فليس بمقدورهم ان يفيدوا شيئا غير بعض الحكايات والخرافات التى سمعوها فى الطريق عن

مختلف المعجزات . وبعد العودة الى البيت ، يتحلون ببالغ التصـــوّف والتقوى ، هذا اذا لم يكونوا كذلك من قبل ، وغالبا ما يكرسون بقية العمر للصلاة بوجه الحصر ، ويتجنبون الشؤون والهموم الدنيوية .

اما الآخرون ، وعددهم يتزايد سنة بعد سنة ، فهم اناس اكثر تطورا ، وذوو اهتمامات متنوعة ، ويحللون ويفكرون ، ولهم معيار معين . ومنذ اولى الخطوات بالذات بعد الخروج من روسيا ، ينفسح امامهم مجال غنى وشيق لاجل المراقبة والمقارنة . فى البدء تتملكهم خيبة أمل مرة فى عاصمة الخلافة – اى فى القسطنطينية التى يعتبرها مسلمونا ضربا من العجائب . فـــان الشوارع الضيقة والقذرة ، والبيوت الرديئة ، وانعدام النظام ، كل هذا يحمل على المقارنة عن غير قصد مع اوديسا المجاورة التى ينطلق منها حجاجنا فى اغلب الاحوال . ثم يتعرف حجاجنا على عمليات استحصال جوازات السفر وعلى النظم التركية وعلى الرشـــوة السائدة فى كل مكان ، ويغـــادرون القسطنطينية بتصور مغاير تماما . وبعد ذلك يتسنى لهم ان يسمعوا ويروا حقارة البواخر التركية التى غالبا ما تحدث لها احداث غريبة ، كنفاد احتياطى الفحم فى وسط البحر ، او التوقف اسابيع عند مدخل قناة السويس بسبب عدم دفع النقود المتوجبة عن المرور ، ورفض تقديم الفحم لها فى المرافى ، والخ . . وفى الحجاز ينذهلون لكون البدو ، ابناء موطن النبى ، ينهبون فى قلب الاسلام اخوانهم فى الدين القادمين ببالغ الصعوبة لاداء الشعائـــر المقدسة التى ينص عليها دينهم الحنيف ؛ وتذهلهم كذلك جرأة عمليات النهب هذه ووقاحتها وغياب كل عقاب عليها ووقوعها فى وضح النهـــار وبحضور الجنود الاتراك ؛ ويدهشون لما تبديه السلطات من لامبالاة تامة ومن انعدام كل تعاطف واهتمام بمصائر الحجاج . ويعجبون بالغ العجب حين يرون من جانب سكان الحجاز الاصليين الذين اعتادوا فى الوطن اعتبارهم قديسين او يكاد ، موقفا طائشا من اداء شعائر الدين الاساسية وهيمنة المصالح النقدية بنظرهم على جميع المصالح والاهتمامات الاخرى . ويبـــدو لهم من الغريب جدا انعدام النظام والنظافة فى «ام القرى» وفى «مدينة النبى» بالذات ، ولا يطيب لهم البتة غياب السكون والاجلال فى المساجد بالذات ، وقرب الكعبة المقدسة ، وعند قبر النبى (صلعم) ؛ ويتسنى لهم ان يسمعوا عن ارتشاء الشريف ، وعن استئثاره بالاعانات المالية المقررة لبعض قبائل البدو ؛ ومن جراء ذلك يضطر الحجاج التعساء الى الدفع من جيوبهم وصحتهم .

لا يجوز ولا يمكن ان ننكر ان الحج يساهم فى رفع الشعور الدينى نوعا ما ؛ فان قسما من الحجاج من الفئة الثانية يغيرون حياتهم الروحية كثيـــرا

بعد عودتهم الى الوطن ، ويحاولون التقيد بقواعد الدين بمزيد من الدقة ، ويؤمنون انهم قد تخلصوا من الخطايا السابقة ، ويحادلون عدم تفـــويت مواعيد الصلاة والصيام فى المستقبل ، وتجنب الاشياء الممنوعة ، كالخمر مثلا ؛ والبعض يحرم نفسه حتى المتع البريئة كالمسرح او السيرك . ولكن يمكن القول قطعا على العموم ان حجاجنا جميعهم تقريبا يعودون الى الوطــن بنظرات تغيرت كثيرا ، واكثر نضوجا وتبصرا ، وبموقف اوعى من وضع الامور السياسى ؛ فان تلك الصبغة التى كانوا يتصورون بها من قبل تركيا الاسلامية ورأسها الخليفة تزول تماما .

تبدر الاشارة الى ان اغلبية حجاجنا يتصرفون بعد العودة ببالغ التمالك بين ابناء شعبهم فيما يتعلق بانتقاد ما رأوه لاعتبارهم انه من غير اللائق التنديد بالبلدان الاسلامية والاماكن المقدسة ، ولعدم رغبتهم فى اثارة شتى الملامات ؛ واذا ما تحدثوا ، ففى وسط الناس القريبين منهم فقط .

لقد اثارت اهتمامى بنحو خاص مسألة ما اذا كان للحج فى الظـــرف الراهن شأن سياسى ما من حيث تقارب المسلمين من مختلف القوميـــات ؛ ولكن الحج الى مكة ، باقتناعى الصادق ، وعلى الاقل فى الظرف الراهـــن ونظرا لوضع الشعوب الاسلامية الحالى لا يؤدى الى اى تقارب ، بل ان فكرة مثل هذا التقارب نفسها لا وجود لها . وفضلا عن الماليزيين وعن سكـــان الهند الغريبين تماما عن سائر الحجاج من حيث اللغة ومن حيث الاصل ، وعن سكان ايران المنعزلين بالخلاف الدينى ، ينعزل الحجاج من جميع القوميات الاخرى بعضهم عن بعض بكل شدة ، ويعاملون بعضهم بعضا بغير صداقة ومودة . وحتى قرغيزيونا وتترنا لا يريدون ان يعرفوا بعضهم بعضا . ان اوضاع الحج نفسها ، اى الفريضة ذات الطابع الدينى الصرف ، والقصيرة جدا والمتسرعة جدا ، والحافلة بالهرج والمرج ، والادراك العام لوجــود الخطر مثل نشوب وباء للتو – كل هذا لا يساعد فى ظهور هذه الفكرة ولا يدفع الى القيام بالمظاهرات السياسية . وعند الجميع فكرة واحدة فقط – انجاز الشعائر بأسرع وقت ، والتفرق بأسرع وقت .

ان التجمع فى مكة لا يزال يحتفظ بالنسبة لسكان الحجاز وحدهم دون غيرهم ببعض الاهمية السياسية الداخلية الى جانب الاهمية الدينية والتجارية ؛ فهنا يجرى التصالح بين مختلف القبائل المتعادية ، ويدفعون الفدية عـــن الدم ، والخ . . .

تأثير حجاجنا فى سكان الحجاز

تملكتنى دهشة مستطابة جدا لكون وطننا العزيز يتمتع بجاذبية خاصة ايضا بين سكان الحجاز البعيد . فهناك كذلك يتحدثون عن جبروت القيصر الروسى وعن النظام فى روسيا ، والاهم ، عن العدالة فى روسيا . وغالبا ما تسنى لى ان البى فضول السكان المحليين الذين يهتمون بالغ الاهتمام بالمعلومات عن عظمة الامبراطورية الروسية وعن مدنها ، وعن عدد سكانها وما الى ذلك . باى سبيل امكن ان تنتشر شهرة روسيا وتصل حتى الى هذا البلد البعيد ؟ لا يمكن تفسير هذا الواقع الا باحاديث حجاجنا الدائمة المفعمة اعجابا واعتزازا بالوطن ، وبنقلهم شهرة روسيا الى الحجاز وان بصورة غير واعية احيانا . فان مسلمينا ، اذ يصلون الى ربوع الجزيرة العربية الشحيحة والقائظة ، الخالية من ابسط اسباب الرفاه ومن ابسط المرافق ، والتى تتبدى فيها ببالغ السطوع افضليات الوطن البعيد فى جميع الميادين يتحولون فجأة الى مواطنين فى منتهى الحماسة ويتغنون ويشيدون فى كل مناسبة بطبيعة روسيا وثرواتها ونظمها ويرفعونها الى السحب . وجميع النظم والاوضاع فى الحجاز تستنير فى الحال المقارنة . «روسيا لن تجيز النهب فى اراضيها» ، «القرى هناك تتمتع بنظام اكبر وبقدر من المرافق واسباب الرفاه اكثر مما تتمتع بها المدن هنا» ، «فى الطرق التى يمر بها عشرات الآلاف من الحجاج ، كانت امتدت السكك الحديدية من زمان» ، «المجرمون عندنا فى روسيا لا يتخلصون من العقاب مهما دفعوا من النقود» . وطبيعة الحجاز الشحيحة التى لا تنتج اى شىء تقريبا تعطى حجاجنا موضوعا لاحاديث لا عد لها عن ثروات بلادنا ، عن وفرة ورخص المأكولات فيها ، الامر الذى يستمع اليه بانتباه خاص البدو شبه الجياع . واذا قال حجاجنا «كما عندنا فى روسيا» ، اعتبر قولهم هذا من فائق المديح . وتأثير روسيا هذا اصبح ، على ما يبدو ، ملحوظا فى الاونة الاخيرة . ويستفاد من اقوال الحجاج القدماء الذين زاروا مكة منذ ١٥–٢٠ سنة انه صار من الافيد فى السنوات الاخيرة فقط ان يقول الحاج عن نفسه انه من رعايا روسيا ، لان هذا الانتماء يوحى بقدر اكبر من الاحترام .

تأثير سائر الامم الاوروبية

على نقيض روسيا ، لا يعطف سكان الحجاز كثيرا على انجلترا ؛ فان الانجليز يشتهرون هنا بانهم امة من الصحيح انها متفننة وبارعة ولكنها

غدارة وقاسية . وفي جميع الاحاديث والقصص والحكايات التي يعيش بها شعب الحجاز ، يعود الى الانجليز دور الناس الاوفر دهاء ومكرا ، دور من لا يبتغون سوى نفعهم . ويعتبر اهل الحجاز بصورة قاطعة ومبرمة ان الانجليز ايضا مسؤولون عن جميع الاضطرابات والفتن . الحركة في السودان ، الانتفاضة في اليمن ، هجوم ايطاليا على الحبشة ، كل هذا ، برأيهم ، هو من صنع انجلترا . وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٨ تقابلت صدفة في القاهرة مع بضعة اشخاص من سكان مكة النافذين ، العائدين من القسطنطينية ، الى حيث مضوا لشراء البضائع . حكيت لهم عن الاحداث التي وقعت في شهر ايار (مايو) عندنا في انديجان ، ورغبة في معرفة ما يقال عنها في القسطنطينية سألت — من اين امكن ان ظهرت عند السرت مثل هذه الفكرة الطائشة ؛ فقرر سكان مكة الاجلاء في الحال ان هذه بلا ريب من مكائد الانجليز . من الصعب ان اقول من اين ينتقل الى الحجاز هذا النفور من الانجليز — اغلب الظن ، من مصر ، حيث ، كما اقتنعت ، لا يحبونهم كثيرا ؛ ولربما من الهند .

عن هولندا لا يعرفون في الحجاز اي شيء تقريبا ، ومرد ذلك ، على الارجح ، الى ان رعاياها ، الماليزيين يعيشون في عزلة مفرطة . كذلك يتحدثون في الحجاز قليلا جدا عن الفرنسيين .

الفصل السادس

الحجاج من الدول الاخرى

القشغريون

القشغريون وسائر المسلمين من تركستان الصينية يتوافدون الى الحجاز باعداد قليلة جدا نظرا لبعد البلد ولمصاعب الطريق .

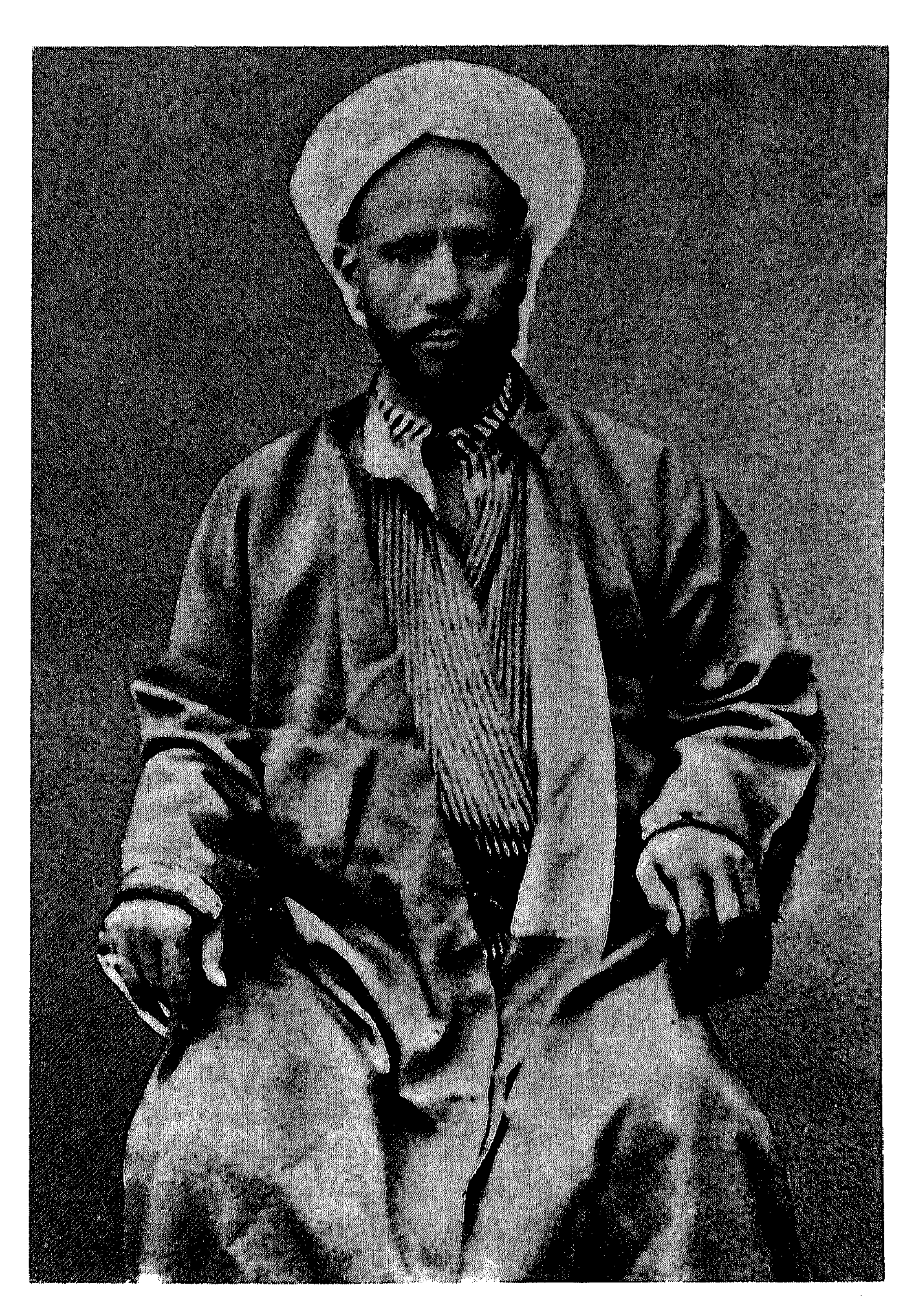
والقشغريون ، بقدر ما استطعت ان اعرف ممن سافرت معهم ، يقومون بهذه الرحلة فى واحد من الطرق الثلاثة التالية .

١ – الطريق الاغلى ولكن الانسب والاسهل والاسرع انما هو الطريق عبر معبر تركداوان الى اوش وسمرقند وكراسنوفودسك وباكو وباطوم والقسطنطينية والى ابعد . واذ تعطيهم السلطات الصينية جوازات السفر تطلب منهم بالاقوال ان يكون لديهم من المال ما يكفى للسفر ، الامر الذى يشار اليه فى الوثائق المعنية . وعند قنصلنا فى قشغر يحصلون على التأشيرات اللازمة ؛ وهناك ايضا يقايضون جميع نقودهم بالاوراق النقدية والنقود الذهبية الروسية .

٢ – وفى الطريق نفسه يمضون الى سمرقند ومنها ركوبا عبر كابول الى بيشاور ، ثم بالسكة الحديدية الى بومباى او كاراتشى ، ثم على البواخر الانجليزية الى جدّة .

٣ – اخيرا ، الطريق الثالث ، عبر كوندجوت او باداخشان الى كابول دون الدخول الى روسيا .

السفر فى الطريقين الاخيرين لا يكلف غاليا جدا ، – زهاء ١٠٠ روبل فقط – ولكنه محفوف بمصاعب كبيرة ويقتضى الكثير من الوقت ؛ اذ انهم يمضون دائما على احصنتهم ؛ ويبيعونها بفائدة بعد الوصول الى بيشاور ؛ وفى اغلب الاحيان يبيعونها مسبقا فى كابول لاجل الخيالة الافغانية . ويلقى الحجاج فى البلدان التى يجتازونها الاستقبال الطيب والدعم المادى من جانب السكان المسلمين .



- حاج من الملايو / تصوير هيروغرونيه سنة ١٨٨٨.

وفى هذه السنة كان عدد القشغريين ١٨ شخصا فقط . ولكن عدد الحجاج من هذا البلد ، كما يقولون ، يبلغ المائة فى بعض السنوات .

وفضلا عن القشغريين كان هناك شخصان من تشيغوتشاك ، سافرا على الخيل مرحلة فمرحلة حتى مدينة اومسك ومنهما بالسكة الحديدية ، وثلاثة اشخاص من شعب الدونغان الذين لا يربو ابدا عدد الحجاج منهم ، كما قالوا لى ، على ٥-٦ اشخاص .

الفرس

يمضى سكان ايران الى الحجاز فى الطرق الرئيسية الاربعة التالية .

١ - اقدم الطرق - عبر بغداد او البصرة الى جبل الشمّر ومكة ؛ والعودة الى المدن ذاتها عبر المدينة المنورة . هذا الطريق الصعب والخالى من الماء لا يزال يستعمله سكان ايران الجنوبية او سكان الاقاليم الاخرى ، الراغبون فى السجود اثناء الطريق امام المقدسات الشيعية الرئيسية فى كربلاء والنجف .

٢ - الطريق الثانى - وهو ايضا طريق تاريخى وكان لا يزال منذ ٥٠-٦٠ سنة الطريق الوحيد بالنسبة لايران الشمالية - يمر عبر دمشق ؛ وعلى هذا الطريق يمضى المحمل السورى الذى يحظى بحماية مسلحة ويرافقه دائما عدد كبير من الحجاج والتجار . وهذا الطريق ، كما قالوا لى ، اخذ ينتعش من جديد فى الآونة الاخيرة بعد تاسيس المحجر الصحى فى الطور وكمران ؛ وشرع كثيرون من الحجاج يفضلون السفر شهرا من المدينة المنورة الى دمشق على البقاء ١٠-١٥ يوما فى احد المحجرين الصحيين المعنيين .

٣ - يسافر قسم من الحجاج من الاقاليم الجنوبية من ايران بحرا عبر البصرة ، وبندر بوشير او بندر عباس الى جدّة .

٤ - اخيرا الطريق الحديث والاكثر انتعاشا ؛ وهو يعبر حدود روسيا ؛ فان سكان خراسان يمضون الى احدى محطات سكة حديد ما وراء قزوين ؛ ومن اقليم استراباد او من اقليم مازاندران ، يسافرون الى باكو ومن طهران واذربيجان يسافرون بسكة حديد ما وراء القفقاس ، وفيما بعد يسافرون الى القسطنطينية عبر باطوم .

صحيح انهم يصبرون على الشيعيين ويسمحون لهم ، على قدم المساواة مع سائر الحجاج ، باداء جميع الشعائر التى يقتضيها الحج ، ولكن كره السنيين لهم ، اى كره جميع الحجاج الباقين يتجلى فى كل حال . اما اساس

هذه العداوة ، فهو ، عدا الاسباب التاريخية ، موقف الازدراء من جانب الفرس انفسهم حيال بعض المقدسات التى يجلّها السنيون ؛ فاثناء قيامهم بالطواف ، مثلا ، يشيحون بوجوههم عن الحجر الاسود ؛ واحيانا يثبتون عليهم تدنيس المقدسات بصورة افدح ؛ فعند زيارة قبر النبى ، يعبرون بجلاء عن احتقارهم للخليفتين المدفونين هناك مع النبى ، الامر الذى لا يندر ان يشبعوهم ضربا بسببه .

وليس ثمة امة من الامم تعرب عن مشاعرها الدينية بنفس القدر من الوضوح الذى يعرب به الفرس عنها ، وتتميز بنفس القدر من الحمية والهياج الذى يتميز به الفرس اثناء اداء شعائر الحج ؛ فحول الكعبة ، ينحبون باصوات مدوية ، قارعين صدورهم بقبضاتهم ، ويبوسون عتبات الحرم ، ويلثمون البوابات ، وما الى ذلك .

يشكل سكان ايران اكثر طبقات الحجاج يسرا ؛ واذا كان على البواخر ركاب فى الدرجة الاولى والدرجة الثانية ، فهم كلهم تقريبا من الفرس ؛ كما ان الفرس وحدهم يستعملون اغلى واسطة للتنقل فى الحجاز وهى تختروان ؛ وخيرة البيوت فى جدّة ومكة والمدينة المنورة وينبع يشغلها هؤلاء الحجاج الفرس ؛ والبيوت فى منى يستأجرها على الاغلب الفرس وحدهم . وهم يجلبون معهم خياما جيدة ، وسجادات ؛ وعند كثيرين منهم خدم .

وتجدر الاشارة الى ان البدو يستحصلون من الشيعيين ، لقاء حق المرور ، رسما معينا ؛ ففى هذه السنة ، مثلا ، اخذ رجال قبيلة بنى حرب من كل منهم ليرة ونصف ليرة فى الطريق من المدينة المنورة الى ينبع .

وهذه السنة بلغ عدد الفرس الذين زاروا الحجاز ، بمن فيهم النساء والاطفال الذين يأخذهم الكثيرون من الفرس معهم زهاء ٨٠٠٠ شخص .

الاتراك

يشكل الاتراك اكبر قسم من الحجاج الذين يتوافدون من الشمال .

اما النقاط الرئيسية التى يركبون فيها البواخر المنطلقة الى الحجاز ، هي القسطنطينية وازمير ، ثم ادنة ومرسين ، وكذلك مرافئ صغيرة اخرى على سواحل البحر الابيض المتوسط التى تدخل اليها البواخر التركية التى تنقل الحجاج . ونادرا ما يسافر الاتراك مع افراد عائلاتهم ؛ وهم يشكلون اهدأ طبقة من الحجاج .

وقد ترسخت عند اهالى الاناضول عادة مفادها ان الذين ينوون الحج يقضون شهر رمضان كله فى مكة ، ولذا يسبقون جميع الحجاج ، اذ انهم يتوافدون قبل الموعد المقرر بأكثر من ثلاثة اشهر .
وفى هذه السنة بلغ عدد الترك زهاء ١٠٠٠٠ شخص .

السوريون

عادة يسافر سكان سوريا وفلسطين عبر طرابلس وبيروت ويافا ، ونظرا لقيام المحاجر الصحية شرعوا فى السنوات الاخيرة يفضلون ، لاجل طريق العودة ، سفرا اصعب واطول مع المحمل .
وكل سنة يمضى كثيرون من دمشق الشام الى الحجاز مع هذه القافلة بدافع المصالح التجارية حاملين الى مكة والمدينة المنورة البضائع الحريرية والفواكه المجففة على الاغلب ، وعائدين بالبن اليمنى والتمر .
فى سنة ١٨٩٨ بلغ عدد الحجاج الشاميين قرابة ٤٥٠٠ شخص بينهم عدد كبير من النساء .

المصريون

يمضى سكان مصر الى الحجاز بحرا عبر السويس ، مستعملين بواخر الشركة الخديوية ويشترون التذاكر ذهابا وايابا .
فى هذه السنة بلغ عددهم ٥٢٤٥ شخصا (المعطيات الرسمية للمحجر الصحى فى الطور) ، ثلثهم او ربعهم من النساء . فى السنوات المناسبة ، كما يقال ، يكون عددهم ثلاثة امثال .
يتميز هؤلاء الحجاج بالفقر المدقع وغياب فئات اوفر ثقافة واطلاعا بينهم ؛ وفى جميع مدن الحجاز يقيمون فى خيام مرتجلة ، فى اقذر الاحوال . وهم يقدمون اكبر عدد من الحجاج الذين يستفيدون من الطعام المجانى فى مكة والمدينة المنورة والطور واكبر عدد من الركاب المسافرين مجانا فى البواخر .
ولاجل الحد من حج الطبقة المعدمة التى لا يشكل الحج البتة بالنسبة لها واجبا الزاميا والتى ليس الحج بالنسبة لها غير عبء نافل وخطر ، طبقت الحكومة المصرية فى سنة ١٨٩٨ النظام التالى : يتعين على الراغب فى الحصول على جواز سفر للحج ان يعرض تذكرة سفر بالباخرة ذهابا وايابا ،

ويقدم كفيلين يؤكدان ان الحـــاج يملـك مـــا يكفى مـن المال لاعالـــة نفسه فى الطريق وفى الحجاز . ولسنة ١٨٩٩ ، ظهر مشروع قانون يقضى بان يقدم المسافرون الى الحجاز ، علاوة على تذاكر السفر بالباخرة ، ليرة ونصف ليرة (زهاء ١٥ روبلا) ، منهما نصف ليرة يجب دفعه فى صالح المحجر الصحى ، وليرة يجب صرفها على اعالة الحاج اثناء اقامته فى المحاجر الصحية ، وذلك تحوطا لعدم توفر المال لديه . واذا توفر عنده المال ، يتعين اعادة المبلغ المذكور اليه .

عدا السكان الحضر ، يسافر من مصر ايضا البدو الذين يمضى معظمهـم كما من قبل فى القوافل عبر السويس وشبه جزيرة سيناء والعقبة ، ورابغ حتى مكة وايابا عبر المدينة المنورة والوجه . وهذه السنة بلغ عدد هؤلاء الحجاج ٢٠٠٠ شخص .

المغاربة

جميع العرب القاطنين فى القسم الشمالى من افريقيـــا — طرابلس ، تونس ، الجزائر ، فاس-المغرب — يسمونهم فى الحجاز «بالمغاربـــة» اى «الغربيين» خلافا لبدو الجزيرة العربية — «الشرقيين» .

يأتون بحرا الى الاسكندرية ، ويعرجون على القاهرة ، ثم يواصلون السفر بالطريق البحرى العادى عبر السويس ، ولكن يوجد بينهم ايضـــا بعض القبائل التى تفضل السفر برا عبر شبه جزيرة سيناء .

والبدو الافارقة المتعادون مع الشرقيين يحملون معهم ، لاجل الدفاع عن النفس اثناء التنقل فى ربوع الحجاز ، وفرة من الاسلحة المماثلة لاسلحة اعدائهم .

فى السنوات الاخيرة شرع سكان الجزائر يسافرون الى الحجاز باكرا جدا ؛ ففى تشرين الثانى (نوفمبر) وكانون الاول (ديسمبر) ، كانت تقـــع العين فى القاهرة على حجاج جزائريين ذاهبين الى مكة . وقد فسروا لى السبب بالرغبة فى السفر فى الوقت المناسب تحوطا لمنع قد يصدر فيما بعد عن الحكومة الفرنسية .

فى هذه السنة بلغ عدد الحجاج من طرابلس زهاء ٦٠٠ ومن تونس ٢٠٠ ومن الجزائر ٢٠٠ ومن فاس-المغرب ٣٠٠ شخص .



- حجاج من بورنيو الغربية / تصوير هيروغرونيه سنة ١٨٨٨.

الافغان

عدد الحجاج من سكان افغانستان يكون عادة قليلا جدا ؛ وفى هــذه السنة بلغ عددهم زهاء ٢٠ . طريقهم تمر عبر بيشاور ، وعبر كاراتشى او بومباى ، رغم انه يوجد بينهم افراد يشقون لانفسهم طريقا عبر القــارة متجنبين المحجر الصحى فى كمران .

سكان الهند

فى السنوات السابقة كان سكان الهند يشكلـون قسما كبيرا مـن الحجاج ، ولكن عددهم انخفض كثيرا فـى الاونة الاخيرة من جراء وبـاء الطاعون فى بومباى والحجر الصحى الشديد فى كمران ؛ وفى هذه السنة وصلت باخرة واحدة فقط حاملة هؤلاء الحجاج ، وقد بلغ عددهم زهاء الف راكب . وبين سكان الهند ياتى عدد كبير من التجار مع بضائعهم . الطريق الذى ينطلقون عليه الى الحجاز طريق بحرى ، عبر بومباى او كاراتشى الى جدّة ولكن فى السنوات الملائمة ، كما قالوا لى فى دمشق ، كان قسم منهم ، اكثر من ١٠٠٠ شخص ، ينزل فى البصرة قصد زيارة مختلف المقدسـات خارج الجزيرة العربية ، ومن البصرة ينطلق فى طريق دائرى عبر بغداد الى دمشق ، ويزور القدس ثم مصر ثم يسافر الى الحجاز .

الماليزيون

فى السنوات الاخيرة يشكل سكان جزر السند وشبه جزيرة ماليزيـا الذين يسمونهم فى الحجاز «جاوه» العنصر المهيمن بين الحجاج . وجميعهـم يصلون بالطريق البحرى فقط عبر جدّة .

يشكل الحجاج الماليزيون مجموعات منعزلة تماما ، متراصة بوثوق ، على رأسها آمرون منتخبون . وهؤلاء الامرون يشرفون على كل اقتصـاد مجموعاتهم : يشترون تذاكر السفر ، يتزودون بالمؤونة على الباخرة اثناء السفر ، يستأجرون الجمال ، يجدون الغرف للاستئجار ، وما الى ذلـك ، وهم يمضون بقافلتهم من مكة الى المدينة المنورة ، ويعودون منهـا على الجمال ذاتها . وغياب النساء والمعدمين بين هؤلاء الحجاج يستلفت النظر .

فى هذه السنة بلغ عدد الماليزيين ١٥٠٠٠ شخص ، اما فى السنوات الملائمة ، فان عددهم ، كما يقال ، يبلغ الضعف .

سكان الساحل الشرقي من افريقيا

من زنجبار ومدغشقر والترانسفال ، يكون عدد الحجاج صغيرا جدا ، ونظرا لعدم وجود اتصال مباشر بالبواخر مع جدّة ، يمضى هؤلاء الحجاج اولا الى السويس ومنها يسافرون الى جدّة .

سكان الجزيرة العربية

الجزيرة العربية ذاتها تعطى هى ايضا عددا كبيرا من الحجاج ، ناهيك عن سكان مكة والمدينة المنورة والضواحى القريبة ، الذين يشتركون بنحو او آخر فى اداء الشعائر . وقبيل الحج وصلت هذه السنة ثلاث قوافل كبيرة من اليمن (زهاء ٤٠٠٠ شخص) ، وقافلة من عدن (٢٠٠ شخص) وقافلة من عمان (زهاء ٣٠٠ شخص) وبضعة ركب وقافلة من نجد و[. . . .] (حوالى ٤٠٠٠ شخص) .

الحاصل

وهكذا يبلغ عدد الحجاج فى سنة ١٨٩٨ :

من روسيا	
القرغيز	٢٥٠ شخصا
التتر	١٠٠ شخص
سكان ما وراء القفقاس	١٠٠ شخص
من تركستان الصينية	٢٠ شخصا
الفرس	٨٠٠٠ شخص
الاتراك	١٠٠٠٠ شخص
السوريون	٤٥٠٠ شخص
المصريون	٥٢٤٥ شخصا
البدو المصريون	١٥٠٠ شخص

سكان	طرابلس	٦٠٠ شخص
	تونس	٢٠٠ شخص
	الجزائر	٢٠٠ شخص
	فاس — المغرب	٣٠٠ شخص
	الهند	١٠٠٠ شخص
	الساحل الشرقي من افريقيا	٢٠ شخصا
	سكان مكة والضواحى زهاء	٤٠٠٠٠ شخص

سكان الجزيرة العربية	المدينة المنورة	٣٥٠٠ شخص
	اليمن	٤٠٠٠ شخص
	عمان	٣٠٠ شخص
	عدن	٢٠٠ شخص
	نجد وغيرها	٤٠٠٠ شخص
الافغان		٢٠ شخصا
الماليزيون		١٥٠٠٠ شخص

حوالى ١٠٠٠٠٠ شخص

واذا صدقنا الافاصيص لا يقل عدد الحجاج فى السنوات الملائمة عن ٢٠٠٠٠٠ شخص ، كما يبلغ عدد الحجاج فى الحج الكبير ٥٠٠٠٠٠ شخص .
اما قلة عدد الحجاج فى سنة ١٨٩٨ فمردها ، عدا اجراءات الحجر الصحى ، الى غياب العلف فى المراعى لاجل الجمال ، الامر الذى خفض كثيرا عدد الحجاج القادمين مع القوافل .
تجدر الاشارة الى ان تقدير عدد الحجاج ، وان بصورة تقريبية جدا ، صعب ومعقد جدا نظرا لغياب الاحصاءات الرسمية ، ونظرا للوقت القصير الذى يقضونه معا فى مكة وفى عرفات وفى منى ، ونظرا للازدحام والهرج والمرج هناك فى ايام الحج . والاسلوب الوحيد الذى لجأت اليه انما هو الاستعلام ، بعد اداء الشعائر ، من مطوّفى كل قومية ، اذ انهم ، يعرفون عدد حجاجهم التقريبى ، على الاقل فى السنوات التى لا يكون عددهم كبيرا جدا . واحصاءات المحجرين الصحيين فى الطور وكمران لا تبيّن غير عدد العائدين بحرا .

الفصل السابع

عن اوبئة الكوليرا فى الحجاز

معلومات عامة عن الاوبئة

كان وباء الكوليرا ووباء الطاعون معروفين فى الجزيرة العربية من سحيق الازمنة . ومن بداية العهد الاسلامى حتى ايامنا وصل قول مشهور جدا ينسب للنبى محمد (صلعم) يبدو كأنه يقرر الحجر الصحى ، اذ قال انه لا يجوز دخول بلد يتفشى فيه الطاعون واذا كان المرء فيه فلا ينبغى ان يفر منـــــه . وفى الوقت الحاضر ، يستعمل العرب كلمة «الطاعون» لتعريف هذا المـرض ، وكلمة «الوباء» لتعريف الكوليرا ؛ ولكن هذين المرضين او الوبائيـــــن اختلطا من قبل ، على ما يبدو ، اذ اننا نجد مثلا العبارة التالية : «قـــال الخليل : الطاعون هو الوباء» ، وما الى ذلك .

فى السنوات المائة الاخيرة لم يسمع احد عن الطاعون فى الحجـــاز ، فتوطد بين السكان الاعتقاد بأن الله تقبل صلوات نبيّه ومنع هذا المرض الى الابد من المساس بالمدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ولكن اوبئة الكوليرا تنشب احيانا كثيرة فى وقت توافد الحجاج الى الحج وذلك ، بالمتوسط ، مرة كل ثلاث سنوات ، فتسفر فى بعض السنوات عن نتائج رهيبة اذ تفتك باكثر من نصف الحجاج وتمتد الى اماكن ترحل البدو المجاورة والى نقاط آهلة اخرى فى الجزيرة العربية .

طابع اوبئة الكوليرا المحلية

يستفاد من اقوال جميع من تسنى لى ان اتحادث معهم ان هذا الـــوباء يبدأ احيانا عند عرفات ، ولكن بشكل ضعيف ، ولذا لا يسترعى الانتباه ، ولكنه ينشب فى اغلب الاحيان فى منى ويبلغ هنا قوته القصوى . وقالوا لى انه اذا سارت جميع الامور على ما يرام عند الانطلاق الى عرفات وحتـــى

مساء اليوم الاول من الاقامة فى منى ، فمن الممكن الامل فى ان الوباء لـــن ينتشب هذه السنة . ويتبين من الآراء العامة ان هذا الوباء يتميز هنا بطابع الانفجار الرهيب ويتواصل بشدة مخيفة طوال ٥-٧ ايام ثم يهدأ كذلـــك بسرعة . وبقدر ما استطعت ان اعرف من الاحاديث مع السكان والاطبــــاء المحليين ، لا يوجد وباء الكوليرا فى الحجاز بصورة مرض دائم ؛ وفى اغلبية الاحوال يلاحظ ان الحجاج من الهند يجلبونه معهم ؛ واحيانا ينشب بصورة مستقلة تماما ، على ما يبدو ، فى منى او عند عرفات ، او لربما ، حتى فى مكـة ؛ واذا كان فى مكة لا يسفر عن نسبة كبيرة جدا من الوفيات ، فــان مراقبته اصعب هناك مما عند عرفات او فى منى حيث كل شيء ظاهر للعيان نظرا لتجمع الحجاج فى الخيام .

نشبت ارهب الاوبئة من حيث قوتها فى السنوات التى كان يقع فيهــا الحج الكبير ، الذى يجتذب ، كما سبق ان قلنا ، عددا كبيرا جدا من الحجاج ، وفى السنوات التى يجرى فيها الحج فى فصل القيظ . كذلك سمعت من عدد كبير جدا من الناس ان وباء الكوليرا ينشب عادة فى السنوات التى تكون فيها الجبال التى تحيط بفج منى مكسوة بالعتمة ؛ وبقدر من تكون العتمة كثيفة ، بقدر ما يكون الوباء قويا . وهذه الظاهرة تنجم ، اغلب الظـن ، عن حالة الجو الخاصة وعن غياب التيارات فـى الهواء : وعلى هـذا الاساس تنبأوا عند وصولنا الى منى بان الحج سيجرى هذه السنة بسلامة ؛ الامر الذى تحقق فعلا .

الاوبئة المعروفة فى القرن الحالى

اشهر اوبئة الكوليرا فى القرن الحالى هو الوباء الذى نشب سنة ١٨٣١ والذى جاء الى الحجاز من الهند ؛ وآنذاك ، كما يقال ، مات ثلاثة اربـــاع جميع الحجاج وانتشر الوباء فى عموم اوروبـا . والوباء التالى نشب فـــى سنة ١٨٣٤ ، ثم فى سنة ١٨٣٧ وسنة ١٨٤٠ ؛ ثم عاث الكوليرا فسادا طوال خمس سنوات على التوالى - فى سنوات ١٨٤٦ ، ١٨٤٧ ، ١٨٤٨ ، ١٨٤٩ ، ١٨٥٠ .

ولكن وباء سنة ١٨٦٥ تميز بشدة خاصة ؛ وقد بدأ من الحجـــاج القادمين من الهند ودام فى السنة التالية ، ١٨٦٦ .

اليكم ما رواه لى شيخ شاهد هذا الوباء الرهيب بام عينيـــه : «كان الحج الكبير (يوم الجمعة ، ٥ نيسان - ابريل) ، وقد توافد عدد خارق من

الحجاج . الاقامة عند عرفات ، كما بدا ، جرت بسلامة ؛ انتقلوا الى منى ، وهنا ايضا كان اليوم الاول هادئا . صحيح ان حجاجا ماتوا ، ولكن عـــدد الموتى كان قليلا . وآنذاك لم تكن قد ظهرت القاعدة القاضية بطمر الخرفان المذبوحة على سبيل التضحية . كان كل حاج يذبح ويرمى قرب خيمتـه ؛ وقرب الخيمة ايضا كانوا يرمون بقايا الاغنام المذبوحة لاجل الاكل . فبيـــل مساء اليوم الاول ، انتشرت من تعفن جيف الاغنام رائحة كريهة الى حـد انه كان من المستحيل التنفس . فى المساء ازداد فى الحال عدد الموتـــى المنقولة جثثهم للدفن ؛ وفى الخيام المجاورة لنا وقعت ايضا حالات مرض وموت ، ولكن لم يخطر بعد فى بالنا ان هذا وباء . فى اليوم التالى ، ازداد عدد الموتى الى حد انه لم يكن يتسنى دفنهم ؛ وقبيل مساء ذلك اليوم ، كان شارع منى مكسوا كله بجثث الحجاج الذين ماتوا اثناء اداء شعيرة رمـى الاحجار ؛ ولاداء هذه الشعيرة كان يتعين السير على الجثث حقا وفعلا . من اصل ثمانية اشخاص كانوا فى خيمتنا ، بقى اثنان فقط قيد الحياة . بقـى الحجاج فى منى بحكم العادة ثلاثة ايام ؛ وعندما وصلوا فيما بعد الى مكة ، كان الوباء هناك ايضا على اشده . قمنا ببالغ السرعة بالطواف والسعـى ، وانطلقنا فى الطريق الى جدة ، وكانت الطريق مزروعة بجثث الحجاج الموتى ؛ وفى جدة كان المرض قد سبقنا اليها . رحنا بالباخرة المنطلقة الى السويس . آنذاك لم تكن المحاجر الصحية قائمة ؛ والباخرة التى كانت تكتظ بالركاب فرغت كثيرا فى آخر الرحلة . فى السويس لم يسمحوا لنا بالنزول الى المدينة بل اركبونا فى القطار وارسلونا الى الاسكندرية ؛ وهنا نقلونـــا بالطريقة نفسها الى باخرة راسية فى المكلا . واثناء مواصلة السفر ، ظلوا يرمون فى البحر كل يوم بضع عشرات من الموتى ؛ ولكن المرض ، على ما يبدو ، اخذ يضعف ، وحدثت حالات نقاهة وشفاء . بعد زهاء ١٠ ايام مـن وصولنا الى القسطنطينية بدأ الوباء فى هذه المدينة ايضا» .

ان وباء الكوليرا الذى نشب سنة ١٨٦٥ وعمّ فيما بعد اوروبا بأسرها لفت الانتباه اخيرا الى الحجاز ؛ وفى ١٣ شباط (فبراير) ١٨٦٦ انعقد فى القسطنطينية مؤتمر قرر فيما قرر وجوب طمر جيف الخرفان المذبوحة فى منى فى حفر .

وبين الاوبئة التى نشبت فيما بعد ، تميز وباء سنة ١٨٨٣ ، بنسبـة خارقة العلو من الوفيات ، وذلك حين وقع الحج يوم الجمعة ايضـــا (١٢ تشرين الاول — اكتوبر) .

جميع التواريخ المذكورة اعلاه تحققت من صحتها فى القاهرة بمـوجب

المصادر الرسمية ؛ اما الاشارات اللاحقة الى السنوات ، فانها لا ترتكز الا على احاديث اشخاص مختلفين ، متناقضة احيانا كثيرة ، رغم ان الماضى غير بعيد جدا . ولكن سكان الحجاز يرون هذه البلايا مرارا وتكرارا الى حد انهم لا يتذكرون منها غير الرهيبة والجائحة . وحسب هذه المصادر ، نشبت اوبئة غير شديدة جدا في سنوات ١٨٨٤ ، ١٨٨٨ ، ١٨٩٠ ، ١٨٩١ ، ١٨٩٢ .

واخيرا وباء الكوليرا الاخير الذى تسبب هو ايضا بكثرة كثيرة من الضحايا وقع سنة ١٨٩٣ (الحج الكبير . يوم الجمعة . ٢٣ حزيران — يونيو) . ويستفاد من اقوال شهود العيان ان هذا الوباء ، مثله مثل وباء سنة ١٨٦٥ ، قد بدأ بصورة غير ملحوظة عند عرفات ، وتفجر فى منى نحو مساء اليوم الاول من اقامة الحجاج هناك ، وانتقل بسرعة الى مكة وجدة ، ولكن ، بفضل المحاجر الصحية ، لم يتجاوز حدود الحجاز .

فى سنة ١٨٩٥ نشب ايضا وباء ما يشبه ، حسب الاوصاف ، حمى التيفوئيد او الزحار (الدوسنطاريا) ؛ بدأ هذا الوباء فى قافلة انطلقت من المدينة المنورة الى مكة ، واستمر بدرجة ضعيفة عند عرفات ، ولكنه لم ينتشر فيما بعد ، وانتهى فى منى ، كما يفترضون . ومن هذا الوباء الاخير عانى قرغيزيونا اشد من غيرهم . فمن اصل ٦٠ قرغيزيا جاؤوا فى تلك السنة من كوستاناى عاد ١٨ فقط ، كما يقول شاهد عيان .

وغالبا جدا ما تسنى لى ان اسمع من السكان المحليين ان القرغيز يصابون فى الحجاز بالكوليرا حتى حين لا وجود لاى اثر لهذا المرض فى هذا البلد ، ويموت منه فى منى وعند عرفات عدد كبير منهم . ولذا اذا عاد الى الوطن عُشر الحجاج القرغيز ، ترتب اعتبار هذا ظاهرة طيبة . اغلب الظن انه يوجد ايضا مرض ما ترافقه آلام فى المعدة ويصيب اقل مواطنينا من الرحل تمالكا واحتراسا فى الاكل ، السمان وغير المعتادين للمناخ المحلى . وفى السنة الجارية ، الملائمة خارق الملاءمة ، كما يستفاد من اقوال الجميع ، تجاوزت نسبة الذين ماتوا فى الحجاز من القرغيز ، بقدر ما استطعت ان احسب ، ١٢ بالمئة ، ومن سائر حجاجنا زهاء ٨ بالمئة ؛ وتميز المرض بالآلام المتواصلة فى المعدة المرفقة بدرجة عالية جدا من الحرارة وبالهذيان .

الاسباب التي تساهم
في نشوب واشتداد الاوبئة في الحجاز

الحجاج الذين يتوافدون من اقطار بعيدة يشكلون بيئة مستعدة تماما لتقبل شتى الامراض – فان السفر المضني والطويل ، والازدحام الخـــارق وكتمة الهواء الفائقة في البواخر ، والمآكل السيئة وغير الصالحة ، والمناخ الحار والرطب ، واللباس غير المألوف ، المفرط الخفة (ثوب الاحرام) ، – كل هذا ينهك الجسم ويضعفه الى اقصى حد . ومنذ الخطوات الاولى بالذات ، يصل الحجاج الى جدة او الى ينبع اللتين تتميزان بمناخ وخيم جدا وبظروف صحية خارقة الرداءة ؛ وفي هذا الوضع ، يبقون ، بانتظار انطلاق القافلة ، في جدة يوما او يومين ، وفي ينبع اسابيع احيانا . ثم السفر المضني من جدة الى مكة او السفر من ينبع عبر المدينة المنورة الى مكة ، وهو سفر اشد ارهاقا . ان الظروف الصحية غير المرضية في مكة ، وشرب الماء مـن بئر زمزم بصورة فائقة الحد ، ثم الوضع الصحي الرديء بشكل لا يصـــدق عند عرفات ، وبخاصة في منى ، والطعام اللحمي الوفير لمناسبة العيد ، وسوء نوعية المشروبات المباعة في البازار ، والانقضاض على البطيخ والشمام وغيرهما من الثمار – كل هذا يجعل الحجاج اناسا شبه مرضى وذوي عضوية مستعدة لتقبل اي مرض كان .

ان اقدس المدن في الحجاز – المدينة المنورة ، وبخاصة مكة المكرمة ، حيث يقيم الحجاج اطول ما يقيدون ، ليستا على الصعيد الصحي في الاوقات العادية اقذر من مدن الشرق الاخرى كالاحياء القديمة في دمشق او القاهرة مثلا ، ولكن تجمع عدد ضخم جدا من الناس والمواشي ، وضيق موقعي هاتين المدينتين – مكة والمدينة المنورة – والمناخ الحار ، كل هذا يخلق بيئة ملائمة جدا لنشوب شتى الاوبئة .

من جراء التلوث الشديد ، يمكن ان يشكل عرفات بؤرة من بؤر العدوى ، ولكن الشر الاكبر بالطبع يكمن في منى ، بسبب درجة الحرارة العالية جدا ، وغياب الريح ، ومئات الآلاف من الجيف المتفسخة والمتعفنة التي تلوث الهواء ، وتلوث الماء بالتأكيد .

عدا الاسباب الواضحة جدا لآلام اختلال اجهزة الهضم مثل اللحم الرديء ، والماء غير المغلي ، والبطيخ ، والشمام ، يوجد عدد كبير من الاسبـــاب الاخرى . يقول البعض ان الخرفان الجائعة المساقة الى مكة من اماكن بعيدة تأكل اوراق السنا المكي (الورق الاسكندري) الذي ينبت بوفرة في ضواحي

مكة ، ويفترضون ان الخواص المسهلة الملازمة لهذه النبتة تنتقل مع اللحم الى الانسان . لا اعرف مبلغ صحة هذه الفرضية ، ولكن الاغنام تأكل فعلا اوراق هذه النبتة .

ان الطبيب المصرى صالح صبحى الذى زار الحجاز بتكليف من حكومته فى سنة ١٨٩١ وسنة ١٨٩٤ يرى سبب الاوبئة فى منى . واطباء مكة الذين تسنى لى ان اتحادث معهم فى هذا الصدد ، وكذلك سكان مكة الاكثر ثقافة واطلاعا ، يعتبرون هم ايضا ان الوباء عاقبة لتلوث الهواء من جيف الاغنام المتفسخة والمتعفنة فى منى . اما سواد السكان والحجاج ، فهم يرون فى الكوليرا عقابا من الله وحسب .

ماذا تم فعله حتى الآن للتجهيز بالمرافق الصحية

١ – منذ سنة ١٨٦٦ بدأ تطبيق قاعدة تفرض على الحجاج تقديم اضاحيهم فى الامكنة المعينة وحدها دون غيرها وطمر الجيف فيما بعد فى حفر مهيئة سلفا . ولكن هذا التدبير ، وان كان يبلغ هدفه من حيث الاساس ، لم يوضع البتة تقريبا موضع التنفيذ ؛ صحيح ان الحفر قد حفرت ، ولكن الحجاج كانوا يستغلون غياب المراقبة ويفضلون الذبح قرب خيامهم . يستفاد ، مثلا ، من اقوال محمد صادق باشا الذى زار الحجاز فى سنة ١٨٨٠ ان الحجاج لم يرموا فى الحفر المحفورة وراء المسجد غير بضعة خرفان ، بينما ملأت الجيف الباقية كل المدى بين الخيام ؛ بل ان خيمة الشريف وخيمة الوالى كانتا محاطتين ايضا بجيف متفسخة ومتعفنة ؛ ومنذ الساعة ١٢ من اليوم الاول من الاقامة فى منى بدأت تنتشر رائحة كريهة رهيبة . وفى السنة الجارية ، كما سبق ان اشرت ، جرى الطمر بصورة سطحية جدا وببالغ الاهمال .

٢ – فى زمن الحج يرسلون فى مأمورية ثلاثة اطباء الى مكة وطبيبا الى المدينة المنورة ؛ وفى كل من هاتين المدينتين ، يوجد ما يسمى بالمحجر الصحى («الكرنتينة») ، وتوجد لوازم لاجل مستشفى متنقل يتسع لثلاثين سريرا يتعين فتحه فى الخيام اذا ما نشب وباء . والمحجر الصحى المكى ينتقل مع الحجاج الى عرفات ، ثم ينتقل معهم الى منى حيث يوجد مبنى مكيف خصيصا من اجله . وفى هذين المكانين ، وكذلك فى مكة ، يعطى المستشفى الادوية مجانا ويقدم الاسعاف الطبى الجوال للحجاج المرضى .

ومن النافل القول ان المستشفى الذى يتسع لثلاثين شخصا يكون عاجـزا تماما اذا ما نشب وباء جدى ، خطير بين مثل هذا العدد من الحجاج .

بوسع هذا المستشفى المتنقل ان يعود بمزيد من النفع فى المدينـة المنورة ، اذ انه لا يحدث تجمع كبير جدا من الحجاج هناك ، واذ انه يمكن ، باغلاق البوابات ، عزل المدينة كليا عن العالم الخارجى .

عدا الاطباء الاربعة المذكورين سابقا ، يأتى ايضا ، فى زمن الحج ، طبيبان مع المحملين السورى والمصرى .

٣ — فى كل من مكة والمدينة المنورة يوجد مستشفى دائم لاجل الفقراء فيه ٣٠ سريرا . وفى هذين المستشفيين يجرى ايضا استقبـال المرضى بطريقة المستوصف واعطاء الادوية مجانا . وفى السنة الجارية كان فـى مستشفى مكة طبيبان وفى مستشفى المدينة المنورة طبيب واحد .

٤ — فى جميع البواخر التى تقوم بنقل الحجاج يوجد اطباء يسعفـون الركاب المرضى مجانا وتحت تصرفهم صيدليات صغيرة .

٥ — ضمن حدود البحر الاحمر انشئت لاجل الحجاج محاجر صحية فـى جدة وكمران والطور وابو زليم .

٦ — يبقى ان نشير ايضا الى انه قامت محاولة لانشاء مقصورة بخارية فى جوار مكة لاجل تعقيم البسة وامتعة الحجاج العائدين من منى . ولكن مبنى المقصورة الذى انتهى بناؤه للتو دمره البدو فى سنة ١٨٩٥ حيـن كان الحجاج عند عرفات ؛ ولذا لم يتسن لهم اختبار هذه الوسيلة . وحيـن يشاهد المرء آثار المبنى المدمر ، يعجب عفو الخاطر ويتساءل : باى نحـو كانوا يفترضون ان يتسنى لهم فى هذه المقصورة الصغيرة ان يعقموا مثل هذه الجمهرة الضخمة من الحجاج العائدين معا ، دفعة واحدة ، الى مكة . اغلب الظن انه كان تعين كبحهم بالقوة المسلحة فى غضون بضعة ايام فى منـى وتعريضهم لجميع فظائع الاقامة فى هذه المحلة المشؤومة . اضف الى ذلك انه اذا ما نشب وباء ، فان التعقيم ما كان ليبلغ الهدف لأن العدوى، ناهيك عن الحجاج ، تنتقل الى مكة مع الماء بكل سهولة ؛ واذا ما هطلت امطـار غزيرة ، فان السيول ستجرف جميع النفايات من منى الى مكة .

ما هى التدابير الصحية الضرورية الاخرى

التدابير المذكورة اعلاه لابعد بالطبع من ان تكون كافية لقيام نظام صحى مرض الى هذا الحد او ذاك فى الحجاز . وهذه التدابير ، على ما يبدو ،

قد وافقت الحكومة التركية على معظمها بأقصى التردد وعدم الرغبة ، تحت الضغط الخارجي ، كما انها موضع تنفيذ بقدر اقل من الرغبة والحرص ، وذلك لمجرد «رفع العتاب» . واذا لم تتخذ تدابير اشد جذرية وحزما لاجل تنظيم اوضاع الحج الصحية ، فان الحجاز سيشكل دائما خطرا على البلدان الاخرى .

وفي عداد هذه التدابير يجب ، برأيي ، ان ترد في المقام الاول التدابير التالية :

في منى :

١ — اقرار نظام لمنع التلوث من جيف الاغنام . وقد يكون حرق الجيف اسلوبا اصوب ، اكثر عقلانية ؛ وهذا الاسلوب يدعمه الدكتور صالح صبحي بشدة ، وتم تطبيقه جزئيا في سنة ١٨٩٦ ؛ ولكن توقف العمل به لسبب ما . واذا بقي النظام السابق للطمر ، فمن الضروري نقل الحفر الى ابعد عن المقام السكني وعن الماء ، وحفر حفر اعمق ، والطمر بمزيد من العناية ، واستعمال وسائل التعقيم .

٢ — انشاء خزانات لاجل الماء اكثر تجاوبا مع مقصدها من الاحواض المكشوفة المتواجدة حاليا ، وتامين الادوات لاستقاء الماء دون استعمال الدلاء .

ومن الممكن ، مثلا ، انشاء خزانات لاجل احتياطيات الماء في مكان اعلى من منى زهاء فرستا اثنين او ثلاثة ، ومد انابيب من هناك الى حنفيات لتوزيع الماء مركبة في اماكن مختلفة .

٣ — انشاء بيوت خلاء عامة افضل على الصعيد الصحي وباعداد اكبر ، وتعقيمها بدقة وعناية احيانا كثيرة ومنع اقامة المراحيض الموقتة قرب الخيام .

٤ — نصب خيام الحجاج بموجب خطة مرسومة سلفا وحسب نظام معين لا يحول دون تيارات الهواء ، ويسهل الرقابة على الخيام . ومنع نصب الخيام في الاحواش المغلقة وفي الشوارع .

٥ — نقل السوق الذي يتاجر باللحوم الى خارج المقام السكني .

٦ — ابعاد جميع الجمال طوال مدة اقامة الحجاج في منى الى مكان ما في الضواحي .

٧ — بسط رقابة في منتهى الدقة والصرامة على النظافة سواء في الشوارع والاحواش ام بين الخيام ، وبخاصة على نوعية المأكولات والمشروبات المباعة في السوق .

٨ — بما ان الحجاج الذين يقيمون في الخيام طوال ايام الاقامة الثلاثة

فى منى يعانون ، اشد ما يعانون ، من الحرارة العالية ، فان انشاء اكواخ ما او سقائف ما تحميهم جيدا من الشمس من شأنه ان يعود بنفع اكيد .

٩ - من المرغوب فيه توزيع الاطعمة الجاهزة على الحجاج المعدميـــن ومنعهم من تناول لحوم الاضاحي .

عند عرفات :

١ - من الضرورى اغلاق الاحواض المبنية لاجل الاستحمام الذى لا تنص عليه اية شعائر دينية .

٢ - من الضرورى ، كما فى منى ، توفير ادوات لاستقاء الماء من الحنفيات .

٣ - يجب نقل سوق اللحوم بعيدا ، فى منحى عن موقع مخيـــم الحجاج وانشاء مسلخ .

٤ - يجب انشاء مراحيض عامة خشبية منقولة وتعقيمها بدقة وعناية ؛ ويجب فى الوقت نفسه منع اقامة بيوت الخلاء قرب كل خيمة .

٥ - بما ان المكان عند عرفات رحب كفاية ، فمن المرغوب فيه نصب مخيم الحجاج بمزيد من السعة ، حسب خطة مرسومة وحسب نظام معين .

٦ - واخيرا من الضرورى اقصى الضرورة فرض رقابة عامة فى منتهـى الدقة والصرامة على النظافة سواء بين خيام الحجاج ام ، بصورة خاصة ، فى الاسواق ، وفرض الرقابة على المشروبات والاطعمة المباعة .

فى مكة :

التدابير الضرورية فى مكة هى التالية :

١ - تأمين حنفيات لتوزيع الماء ، وان ، مثلا ، من النوع المستعمل فى المدينة المنورة ، ومد انابيب مخفية عوضا عن المزاريب المكشوفة .

٢ - اسلوب نزح مواد برازية اكثر عقلانية من الاسلوب القائم حاليا ، تعقيم بيوت الخلاء احيانا كثيرة وبدقة وعناية ، وبخاصة منها العامة .

٣ - نظرا لامكان تسرب الاقذار عبر التربة من البالوعات الى الماء ، من الضرورى ، على الاقل ، بناء البالوعات الواقعة حول المسجد الكبير او قرب خط انابيب الماء على اساس من الاسمنت ، الامر الذى يستطيع الحجـارون المحليون صنعه بنحو ممتاز من المادة المحلية بالذات .

٤ - نقل اسواق اللحوم الى اماكن ابعد عن الحرم .

٥ - مراقبة التكيات ، واقرار معدلات لعدد النازلين يتعين على نظـار هذه المؤسسات عدم تجاوزها .

٦ - رش بعض الشوارع الرئيسية ، وبخاصة حول الحرم وفى الاسواق حيث تقوم الحركة الاشد انتعاشا .

٧ — تبليط الاسواق والشوارع حول الحرم .

٨ — المراقبة الصارمة والدائبة على النظافة فى المدينـــة ، تكنيس الشوارع بانتظام ، رمى النفايات فى عربات خاصة تطوف فى المدينة عوضا عن رميها فى الشوارع .

٩ — جمال القوافل المتوافدة الى مكة يجب ابعادها الزاما الى خـــارج المدينة .

١٠ — نزع جميع المنشآت الخشبية التى تصعّب المرور فى الشوارع الضيقة ، ومنع سد الشوارع بالرحال وما الى ذلك .

١١ — نقل المسلخ الى مسافة ابعد خارج المدينة وتعقيم البقايا .

فى المدينة المنورة :

بصدد التدابير الصحية الضرورية فى المدينة المنورة ، يتعين تكرار ما قيل فيما يتعلق بمكة . بعض هذه التدابير تحققت فى المدينة المنــورة كحنفيات توزيع الماء مثلا ، والارصفة ؛ بينما يتعين تنفيذ بعضها الآخــر وان لم يكن بنفس القدر من الالحاح والسرعة كما فى مكة .

فى ينبع :

ينبع ، كما سبق ان قلنا ، من اسوأ مدن الحجاز من حيث التجهيـــز بالمرافق ومن حيث الظروف المناخية الوخيمة ، وهنا ينقص شرط من اهم شروط الحياة ، وهو الماء الصالح للشرب الى هذا الحد او ذاك . ولهـــذا يجب فى المقام الاول :

١ — تأمين التزويد بالماء . اقرب الينابيع التى تعطى الماء الجيد تقع على بعد ٢٠-٢٥ فرستا تقريبا الى الشرق من ينبع فى بلدة ينبع النخلة الواقعة فى ارتفاع عن سطح البحر اعلى بكثير من ينبع الاولى . وفى حـــال انفاق مبلغ معين ، يمكن جر الماء بالانابيب .

٢ — تطبيق اسلوب احدث لنزح المواد البرازية مع نقل الزبالة الـى خارج المدينة .

٣ — بما ان بيوت المدينة لا يمكنها ان تتسع لجميع الحجاج الذيـــن يتجمعون هنا ، يتعين ، اذا ما رغب جميعهم فى استئجار الغرف ، بنـــاء سقائف او شيء ما من هذا القبيل لاجلهم .

٤ — تحاشيا لتلوث الشوارع ينبغى بناء مراحيض عامة .

٥ — هنا ينبغى اكثر مما فى سائر مدن الحجاز فرض الرقابة بمنتهى الدقة والعناية على النظافة فى المدينة وفى البيوت الخاصة ، ولاسيما فـى السوق .

٦ – اخيرا ، الحجاج محرومون اثناء اقامتهم فى ينبع من كل اسعاف طبى ؛ والمرضى الخطيرون الذين لا يقبلونهم فى البواخر لا بد من تركهم لرحمة القدر عندما يرحل رفاقهم . ولهذا من الضرورى اقصى الضرورة هنا طبيب لاجل الحجاج ، ومستشفى صغير ، يتسع على الاقل لخمسة عشر سريرا ، والاسعاف المستوصفى ، وتوزيع الادوية .

فى جدة :

مدينة جدة ، المرفأ الرئيسى فى الحجاز ، تعانى ، بموجب الاوصاف والاحاديث ، نفس الظروف الصحية السيئة التى تعانى منها ينبع ؛ ومن الضرورى فى جدة اتخاذ نفس التدابير كما فى مكة .

فى نقاط صعود الحجاج الى البواخر :

على البواخر التى تنقل الحجاج ، يقبلون ، كما سبق ان اشرنا ، عددا من الركاب اكبر بكثير مما تتسع له الباخرة ومما يرد فى وثائق الباخرة . وهذا الضيق الخارق ، والقيظ الدائم ، وبخاصة فى غرف العنابر ، يضعفان الى اقصى حد المسافرين ، ويعرضانهم سلفا لخطر شتى الامراض . اما بأى قدر تكتظ البواخر بالركاب ، فمن الممكن تكوين فكرة عن ذلك ، مثلا ، من الواقع التالى : على متن ١٩ باخرة نقلت هذه السنة الحجاج من الحجاز الى الطور ، كان بموجب وثائق البواخر ١٤٢٩٠ شخصا ؛ اما عند تعدادهم فى المحجر الصحى ، فقد تبين ان عددهم ١٦٩١٠ اشخاص اي ما يزيد ٢٦٢٠ شخصا . يجب الظن ان هذا الفرق يبلغ ارقاما اكبر ايضا اثناء الرحلات الى الحجاز . ولهذا من الضرورى فرض رقابة اصرم على البواخر المعنية .

طبقة الحجاج المعدمة

هناك عامل آخر ييسر انتشار مختلف الامراض الوبائية ويزيد من سوء الظروف الصحية فى جميع النقاط الآهلة فى الحجاز التى يجرى فيها تجمع الحجاج ، هو النسبة الكبيرة من الحجاج المعدمين .

لقد سبق ان قلنا ان اداء فريضة الحج مرة واحدة فى الحياة ليس ، بموجب الشريعة ، فرضا الزاميا الا على اولئك المسلمين الذين يملكون ما يكفى من الاموال لاجل القيام بهذه السفرة ولاجل تأمين عيالهم حتى عودتهم ؛ وهذه القاعدة تلقى تفسيرا واحدا عند جميع مذاهب السنيين الاربعة وعند الشيعيين . ولكن الى جانب تفسير الشريعة ، قامت عند بعض الشعوب عادات تتطلب اداء هذه الفريضة من قبل جميع الافراد ممن يملكون الكفاءة

البدنية ، ولهذا يظهر فى الحجاز عدد كبير من الحجاج تتلخص جميع اموالهم واحتياطياتهم لكل مدة هذه السفرة الطويلة فى اناء لاجل الماء وقطعة من قماش ما لاجل توفير الظل فى اماكن التوقف . وامثال هؤلاء الحجاج ، كما قيل لى ، تعطى اكبر عدد منهم اليمن (قبيلة حضرموت) والهند وافريقيا الشمالية ؛ ومن قبل كانت مصر تعطى هذا العدد الكبير ايضا . وفضلا عن هؤلاء الاشخاص الذين يتوافدون الى الحجاز تحقيقا للعادة المتبعة ، يتوافد فى وقت الحج عدد كبير من شتى المتشردين والفقراء من ابناء جميع القوميات وجميع البلدان . واكبر عدد من هؤلاء يأتى بالطبع من الاماكن القريبة ، ولكن يوجد بينهم افراد من سكان آسيا الوسطى وقشغر وافغانستان والقفقاس وايران وتركيا وغيرها ، بل انى تقابلت مع شخص من روسيا يقيم فى محافظة كوفنو (٧) . وجميعهم يأتون عادة سيرا على الاقدام ، وبعض منهم يتجوب عدة سنوات ؛ المتحدرون من آسيا الوسطى وقشغر يأتون عبر افغانستان وايران الى بغداد او دمشق حيث ينضمون الى احدى قوافل الحجاج او يمضون الى القسطنطينية او الى احد مرافئ آسيا الصغرى وسوريا لكى يركبوا هناك على البواخر التركية التى تحمل الحجاج ؛ وسكان الهند وافغانستان وايران يمضون عادة الى بغداد او البصرة ، وسكان افريقيا الشمالية يذهبون مع قوافل مواطنيهم الذين يسافرون برا عبر السويس والعقبة .

وجميع هؤلاء الحجاج المعدمين يعيشون فى الطريق كله من جمع الحسنات بوجه الحصر ؛ وحين يصلون الى مكة ، يقيمون عادة فى الحرم او مباشرة فى الشوارع ، ويأكلون جزئيا فى التكيات ، وبصورة رئيسية من الحسنات من جديد ، ولذا تكون شوارع مكة على الدوام حافلة بهم طوال اليوم كله .

ومع سائر الحجاج ينطلقون الى عرفات ويتوزعون هناك ، بعض تحت الجنبات ، وبعض تحت الصخور ، ثم يمضون الى منى مدبرين امورهم فى هذه الايام الثلاثة تحت صخور السفوح الجبلية المحيطة . وبعد حياة مديدة من الجوع ينقض هؤلاء الفقراء هنا بنهم على اللحم المجانى ويستغلون وفرته فلا يحاولون سد جوعهم بفيض وحسب ، بل يحضرون ايضا اللحم المجفف لاجل مواصلة السفر . وقد قال لى طبيب من الاطباء المحليين عاش طويلا فى مكة وشهد كثرة من اوبئة الكوليرا فى منى ان هذا الوباء يبدأ دائما ، حسب مراقباته ، من امثال هؤلاء الحجاج الذين لا مأوى لهم ، رغم انه فسر السبب ، لا بالظروف التى يواجهونها ، بل بكونهم يرتدون البسة من قماش

الاكياس التى يُنقَل بها الرز من الهند ؛ ومع هذه الاكياس ، برأيه ، تنتقل مسببات الامراض .

بعد الحج يمضى قسم من الحجاج المعدمين الى جدة حيث تجبر السلطات المحلية ربان كل باخرة بقبول بضع عشرات من هؤلاء الفقراء مجانا . والبواخر التركية التى تنقل الحجاج فى رحلة ثانية من الحجاز تكون على الاغلب مشغولة مجانا بامتال هؤلاء الركاب . وقسم آخر من هؤلاء الحجاج ينضم الى قافلة وينتقل معها الى المدينة المنورة ؛ وهنا يقيمون ، عادة ، نهارا فى الحرم ، وليلا فى الشوارع المجاورة ، حين يغلق الحرم ابوابه . اما المصدر الرئيسى لطعامهم فى المدينة المنورة فهو هنا ايضا الصدقة ، وجزئيا التكية المصرية . وبقدر ما تنطلق قوافل الحجاج من المدينة المنورة ، يتفرق هؤلاء الحجاج المعدمون تدريجيا فى جميع الاتجاهات ؛ بعضهم يمضى مع المحمل الســـورى الى دمشق ، وآخرون يمضون الى بغداد او البصرة ، وبعض ثالث الى ينبع بأمل الحصول على مكان فى باخرة . وفى المحاجر الصحية ، يتمتع الحجاج المعدمون بالمؤونة على حساب الحكومة .

يبدو ان كثيرين من هؤلاء الافراد ، اذ يصلون سيرا على الاقــدام او ركوبا الى مدينة ما ، يبقون فيها حتى الحج التالى ويعودون من جديد الــى الحجاز . فقد تسنى لى فى بيروت ودمشق ان اتقابل فى اوقات مختلفة مع بضعة افراد فقراء من ايرانيين وبخاريـيـــن وقشغريين عادوا من مكـــة . وسألتهم : كيف يعتزمون السفر الى اوطانهم البعيدة ، فاجاب الجميع انهــم ينتظرون رمضان المقبل ، ويركبون باخرة تركية ويعودون الى مكة حيث قد يوافق مواطن من مواطنيهم القادمين الى الحج بنقلهم الى الوطن .

هذه الطبقة المعدمة من الحجاج التى تواجه اسوأ الظروف الصحية هى بلا ريب عنصر غير مرغوب فيه اطلاقا . وليس من المتوقع ان تسنح الفرصة بمنعهم كليا من الدخول الى الحجاز . ولكن اذا حظيت وسائل المسافر المادية بمزيد من الاهتمام لدن منح جوازات السفر للحج ، واذا رفضت البواخــر التركية نقل الحجاج مجانا الى الحجاز ، واذا منع المحمل السورى الفقراء من اللحاق به ، لقل كثيرا ، اغلب الظن ، عدد هذا الطراز من الحجاج .

التدابير التى ينصح بها الدكتور صالح صبحى

لتنظيم قضايا الحج ينصح الطبيب المذكور اعلاه صالح صبحى باتخاذ التدابير التالية :

١ – «مطالبة كل حاج بشهادة تفيد انه يملك ما يكفى من الاموال لاجل رحلته ولاجل اعالة نفسه» . هذا التدبير يجرى تطبيقه منذ حين فى مصر ؛ فعند منح جواز السفر لاجل الحج ، كان المطلوب فى سنة ١٨٩٩ توفـــر تذكرة بالسفر ذهابا وايابا على الباخرة وتقديم ضمانة قدرها ١٥٠ قرشا ، ٥٠ قرشا منها فى صالح المحجر الصحى ، و١٠٠ قرش تنفق على اطعـــام الحاج اذا تبين انه صار خالى الوفاض . ولتقليل عدد الحجاج المعدمين ، من المرغوب فيه ان تطبق الحكومات الاخرى ايضا هذا التدبير . اما المسلمون الروس ، فان المعدمين بينهم ظاهرة استثنائية ، نادرة جدا . واذا هوى احد منهم الى هذا الوضع من جراء حادثة مشؤومة ما ، فان مواطنيه يساعدونه عادة .

٢ – «بدون اذن خاص من السلطات المعنية على الاقل ، يمنع الحج على

أ – الاولاد ممن لم يبلغوا العاشرة من العمر ،

ب – النساء فى المرحلة الاخيرة من الحمل ،

ج – العميان ،

د – الشيوخ الهرمين ،

هـ – الافراد الذين ليس لديهم افادات بالتلقيح ضد الجدرى فى غضون السنوات التلات الاخيرة» .

وقد سبق ان ذكرنا انه من النادر جدا ان يسافر الحجاج من روسيا مع عائلاتهم ؛ واذا سافروا مع زوجاتهم ، فعادة يسافرون بدون الاولاد . ولكن يوجد بينهم كثيرون من الشيوخ ، علما بان الشيوخ يدوتون بمعظمهم اثناء هذه السفرة الصعبة .

٣ – «تزويد الحجاج بتعليمات مطبوعة بصدد التدابير الصحية الرئيسية الضرورية اثناء السفر الى الحجاز :

أ – اية مؤونة يصح اخذها ،

ب – اية اساليب لتنقية الماء بواسطة المصافى ،

ج – اية البسة مناسبة للمناخ ،

د – اية اشياء ضرورية للسفر ، كالاغطية وما الى ذلك ؛

هـ – اية ادوية يجب اخذها تحوطا للامراض المفاجئة» .

٤ – «من الضرورى تواجد صيدليات فى مكة ومنى وينبع» .

فى مكة توجد صيدليات منذ حين ؛ فى منى يجرى توزيع الادوية مـــن المحجر الصحى .

٥ – «الزام كل باخرة تنقل الحجاج بان يكون على متنها طبيب مختص» . الاطباء من هذا النوع يعملون منذ حين على جميع البواخر .

٦ – «من الضرورى فى جدة وينبع نقل قذر البواليع الى خارج المدينة، عوضا عن طمرها فى الشارع ، لان الماء فى الاحواض المجاورة يتلوث نظرا للتربة الرخوة» .

٧ – «وصل ينبع التى يمر عبرها عدد كبير من الحجاج ، بالتلغراف ، مع جدة او نقطة آهلة اخرى» .

٨ – «حرق جيف الاغنام فى منى عوضا عن طمرها . اما اذا استحال تنفيذ هذا التدبير ، تعين على الحجاج الامتناع عن تقديم الاضاحى فى جميع الايام الثلاثة من الاقامة فى منى ، والاكتفاء بتقديمها فى اليوم الاخير قبل الرحيل من منى ، الامر الذى تسمح به الشريعة» . التدبير الاخير ، اذا لم يستتبع التسرع البالغ والهرج والمرج وشتى ضروب الفوضى ، من شأنه ان يمارس تأثيرا خيرا فى الوضع الصحى فى منى . ولكن ، من جهة اخرى ، لا يستطيع الحجاج ، بموجب الشعيرة ، ان يخلعوا ثياب الاحرام الا بعد تقديم الاضاحى . ولهذا سيتعين عليهم ان يبقوا خلال اليومين الاولين فى هذا اللباس غير المريح ، الامر الذى ينعكس باقصى الضرر على صحة الاغلبية .

٩ – «تجنبا للتماس بين الحجاج القادمين من الجنوب ، مثلا ، من الهند وجزر السند حيث الكوليرا يتواجد فى شكل مرض مستوطن ، وبين سائر الحجاج القادمين من الاقطار السليمة ، يجب اقرار دور يجيز لسكان الهند وغيرها الدخول الى الحجاز فى سنة ، وللحجاج من البلدان الشمالية فى سنة اخرى» . هذا التدبير الهام من شأنه على كل حال ان يكون نافعا جدا لانه يقضى على خارق تجمع الحجاج فى مكة وعند عرفات وفى منى ، الامر الذى يشكل على الصعيد الصحى احدى سلبيات الحج الرئيسية .

١٠ – اخيرا . لاجل تسهيل حركة الحجاج فى طريقهم الرئيسى ، يوصى صالح صبحى بوصل جدة بمكة بالسكة الحديدية . ولكن ، اغلب الظن ، لن يرى الحجاز عما قريب السكة الحديدية فى ربوعه .

الخاتمة

هذه هى التدابير المرغوب ، برأيى ، فى تطبيقها بأسرع وقت ممكن ؛ وهذه التدابير لا تتنافى ، لا مع مفاهيم الجموع ، ولا مع الشريعة ، ولا تتطلب نفقات كبيرة جدا .

ولو كان الحجاز خاضعا لحكومة اخرى ، اشد همة ونشاطا من الحكومة العثمانية ، لحظى اغلب الظن ، بقدر معين من الرفاه واليسر ؛ ولتوفرت فى

النقاط الآهلة التى يتجمع فيها الحجاج ظروف صحية افضل ، ولجرى تعقيم الاغنام المذبوحة فى منى بأسلوب من الاساليب الفعالة ، ولجرى استعمال هذه الاموال الكبيرة المصروفة عبثا فى مهب الريح لما فيه فائدة القضية ، ولتم مد السكك الحديدية فى ربوع الحجاز ولجرى الحج كله ، باستعمال واسطة المواصلات هذه ، فى غضون ٧-١٠ ايام ، ولصار ظاهرة عادية ، ولفقد الحجاز سمعته الرهيبة كبؤرة للامراض المعدية ؛ ولكن ، من جهة اخرى ، لو كانت هناك حكومة اشد همة ونشاطا ، لاستفادت ، بالتأكيد ، من تجمع الحجاج هذا فى اغراضها السياسية ايضا .

لا ريب فى انه لن يكون من الممكن فى وضع الامور القائم تطبيق هذه التدابير غير المعقدة من قبل السلطات التركية بالذات رغم جميع المطالب على الورق ؛ ولهذا قد يكون من الاصوب تعيين قناصل او نواب قناصل الدول الغربية فى مكة بالذات عوضا عن جدة ، وتعيينهم من عداد المسلمين وتكليفهم بالاشراف على كل الجانب الصحى وانفاق المبالغ المعتمدة لهذا الغرض .

اما فيما يتعلق بالجانب المالى من المسألة ، فقد يكون من الممكن والعادل والصائب اجبار جميع الحجاج المسافرين الى مكة على دفع مبلغ خاص من المال ، مثلا ، خمسة روبلات ، عند منحهم جوازات السفر ، ونظرا لمتوسط عدد الحجاج — ١٠٠ الف شخص ، يبلغ الرسم المحصل بالاجمال زهاء نصف مليون روبل ، اى ما يكفى تماما لاجل تطبيق التدابير الصحية فى غضون سنة بكاملها .

وعلى العموم اعتقد ان تنظيم قضايا الحج حاجة حيوية وملحة ، ولربما تجد حكومتنا من الضرورى ، نظرا لوضعها السياسى بين الشعوب الاسلامية ، ان تأخذ زمام المبادرة فى هذا المجال الهام .

النقيب دولتشين

ملاحظات

١ – هنا ، وفى جميع المنشورات الاخرى الواردة فى هذا الكتاب ، لا تعلق من وجهة نظر العلم الحديث على هذه او تلك من آراء المؤلفين التاريخية . وهى بمجملها تعكس مستوى الاطلاع على القضايا المتعلقة بتاريخ الاسلام والعالم العربى فى روسيا وفى كثير من الاحوال فى اوروبا اجمالا ، الامر الذى يتسم بحد ذاته بجانب من الاهمية والفائدة .

٢ – سوفت – تلميذ المدرسة الدينية .

٣ – الاورطة البوكية (الاورطة الداخلية) – خانة (امارة) كازاخية تابعة لروسيا ؛ دامت من عام ١٨٠١ الى عام ١٨٧٦ . اسميت باسم بوكى نورعليموف . كانت تقع بين الاورال ونهر الفولغا . دخلت فى قوام محافظة استراخان .

٤ – سيمبيرسك (منذ سنة ١٩٢٤ اوليانوفسك) – مدينة على نهر الفولغا . حاليا مركز مقاطعة . مرفأ على خزان كويبيشف المائى .

٥ – منذ سنة ١٨١٥ ، عاصمة المملكة البولونية فى قوام روسيا .

٦ – «تركستانسكيي فيدوموستي» (وانباء تركستان») (١–٦–١٨٩٩) تعطى لوحة زاهية عن انطلاق الحجاج من استنبول : «كانون الثانى (يناير) ١٨٩٩ كان قطيع كبير من الجمال ذات السنامين المزينة باشرطة متعددة الالوان ، وشبارق غنية من الديباج ، وشتى الخشخيشات وعشرات البغال تحت شقادف جميلة ومظلات ذهبية التلاوين ، واخيرا ، فصيل كبير من الحمير البيضاء الصغيرة المحملة بصناديق حديدية والمرفقة «بزيبقين» شرسين يقطنون فى ولاية ايدين ، جميعها تسير فى هذه الايام فى جميع الشوارع الرئيسية بعاصمة السلطان التركى .

ان السلطان التركى ملزم ، بموجب عادة قديمة ، بان يرسل سنويا الى مكة ، قبل ١٥ يوما من رمضان ، قافلة مع الهدايا ووكيله الذى يقوم بالنيابة عنه ، اى عن السلطان ، بالرحلة المقررة قانونا للسجود امام مقدسات مكة المكرمة والمدينة

المنورة . ومنذ ١٥٠ سنة كان يتعين على السلاطين ان يمضوا شخصيا الى الاماكن المقدسة ؛ اما الآن فان واجب السلطان فى هذه الحال يؤديه الوكيل ؛ وهذه المرة عين السلطان بدور الوكيل رئيس الفرع الدينى بوزارة التعليم العام ، عريف افندى .

امضت القافلة يومين فى دار شيخ الاسلام ؛ وفى احاديث متواصلة القى كلمات النصح على المسافرين فى سفرة بعيدة ، ثم اتجه الى قصر يلدز اى الى حيث كان يتجه ويتجمع جمع غفير من الناس .

وتسنى للاجانب ان يروا مشهدا فريدا ، حيث تجمعوا فى بتشيك داش الذى كان لا بد ان تمر فيه «القافلة المقدسة» . فى طليعة صف الجمال والبغال والحمير المزينة بتبرقش ، كان عريف افندى راكبا على جمل ابيض ذى سنامين ، وكان يرتدى معطفا مطرزا بالذهب هو المعطف الرسمى للموظف التركى ، ماسكا فى يديه الممدودتين الى الامام شهادة صلاحياته . وقد ركز كل انتباهه على هذه الورقة التى كان عريف افندى ينظر اليها برقة وحنان كما الى شىء مقدس ، وبالوداعة الملازمة للتعصب الاسلامى . ان مجموعة «الزيبقين» التى تسير فى طليعة الموكب وفى مؤخرته تشكل الحرس الذى ينبغى ان يحرس القافلة من هجوم البدو عليها فى الطريق . و«الزيبقون» الذين يرافقون القافلة من شيخ الاسلام الى قصر السلطان يرقصون بلا انقطاع مسترعين الانتباه العام بلباسهم الغريب . وبهذه الصورة تصل «القافلة المقدسة» الى قصر يلدز حيث يستقبلها بمهابة واحتفال اصحاب المقامات الكبيرة الاتراك المتجمعون لهذا الغرض ويرحب بها السلطان نفسه الذى يظهر لهذا الغرض هذه المرة على الشرفة الكبيرة المطلة على حوش القصر .

بعد اداء الصلاة ما قبل السفر ، امر عريف افندى بتسرع بفتح الصناديق الحديدية وارسال خمسة منها الى مخدع السلطان . من الصعب ان نصف باى ورع وضع اصحاب المقامات الكبيرة الاتراك حفنات من الذهب فى الصناديق المفتوحة . وبالنظر اليهم ، لم يكن يجوز التنديد بالرعاع الجهال الذين باسوا آثار حوافر المواشى المنطلقة الى مكة المكرمة والمدينة المنورة .

وبعد فترة وجيزة اخذ الخصيان يتوافدون الى عريف افندى حاملين اكياسا حريرية تحتوى تبرعات سيدات حريم السلطان . وكل من هؤلاء الناسكات التعيسات ارسلت كيسا ، يحتوى ، عدا بضع قطع نقدية ذهبية ، عنوان المتبرعة التى كان يتعين على الوكيل ان يجلب لها من مكة الماء المقدس ، او سلاكة خشبية للاسنان ، و مسابح رخيصة ، ولكن ها هم ياورو السلطان يطلون حاملين الصناديق المرسلة الى مخدع السلطان . ان وضع الامور المقلق فى الجزيرة العربية ، ولاسيما فى ولاية اليمن اجبر الباديشاه على عدم الضن بالذهب المعد على سبيل الهدية للشيوخ العرب الذين يرأسون مختلف القبائل العربية التى تخضع لسلطة شيوخها بوصفهم اخلافا

لمحمد (صلعم) . ولا جدوى من احداث شجار بين الشيوخ العرب والباب العالى ، لان الباب العالى يدرك جيدا جدا عجزه عن اجبار العرب على اجلاله واحترامـــــه . ان الرشوات السخية المقدمة للشيوخ النافذين هى وحدها التى تحافظ اليوم على النظام الظاهرى فى الولايات العربية . واذا غضب شيخ طماع بطبيعته ، فان القبيلة بأسرها تصبح على استعداد من الاشارة الاولى لحمل السلاح وشد السروج على احصنتهم .. . ولكن لا يخامر الشك احدا فى ان الذهب لا يكفى الباب العالى مدة طويلة لاجل ارضاء الشيوخ العرب الذين يطالبون بالمزيد من الذهب بالحاح وجشع .

بعد ان اخذت القافلة المقدسة فى قصر يلدز كل ما يمكن اخــــذه ، انطلقت بالاحتفال ذاته الى القسم الاسلامى من المدينة «سكوتارى» حيث تبقى ١٥ يوما ، وتنتقل فى هذه المدة من بيت الى بيت لجمع التبرعات» .

واننا نترك لذمة المؤلف الاخطاء بصدد الوقائع ولهجة بعض من آرائه .

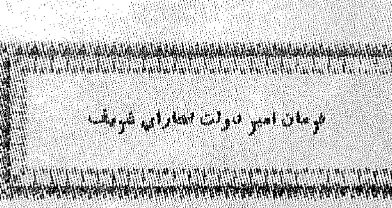
٧ — المركز — مدينة كوفنو . منذ سنة ١٩١٧ كاوناس ، مدينة فى ليتوانيا .

مكتبة فرع لينينغراد لمعهد الاستشراق لـــــدى اكاديمية العلوم فى الاتحـــــاد السوفييتى ، XXVII (٢٧) ٣٤/١٢ . النص الرسمى مع الختم «سرى» نشر سنـــة ١٨٩٩ فى بطرسبورغ فى مطبعة هيئة الاركان العامة .

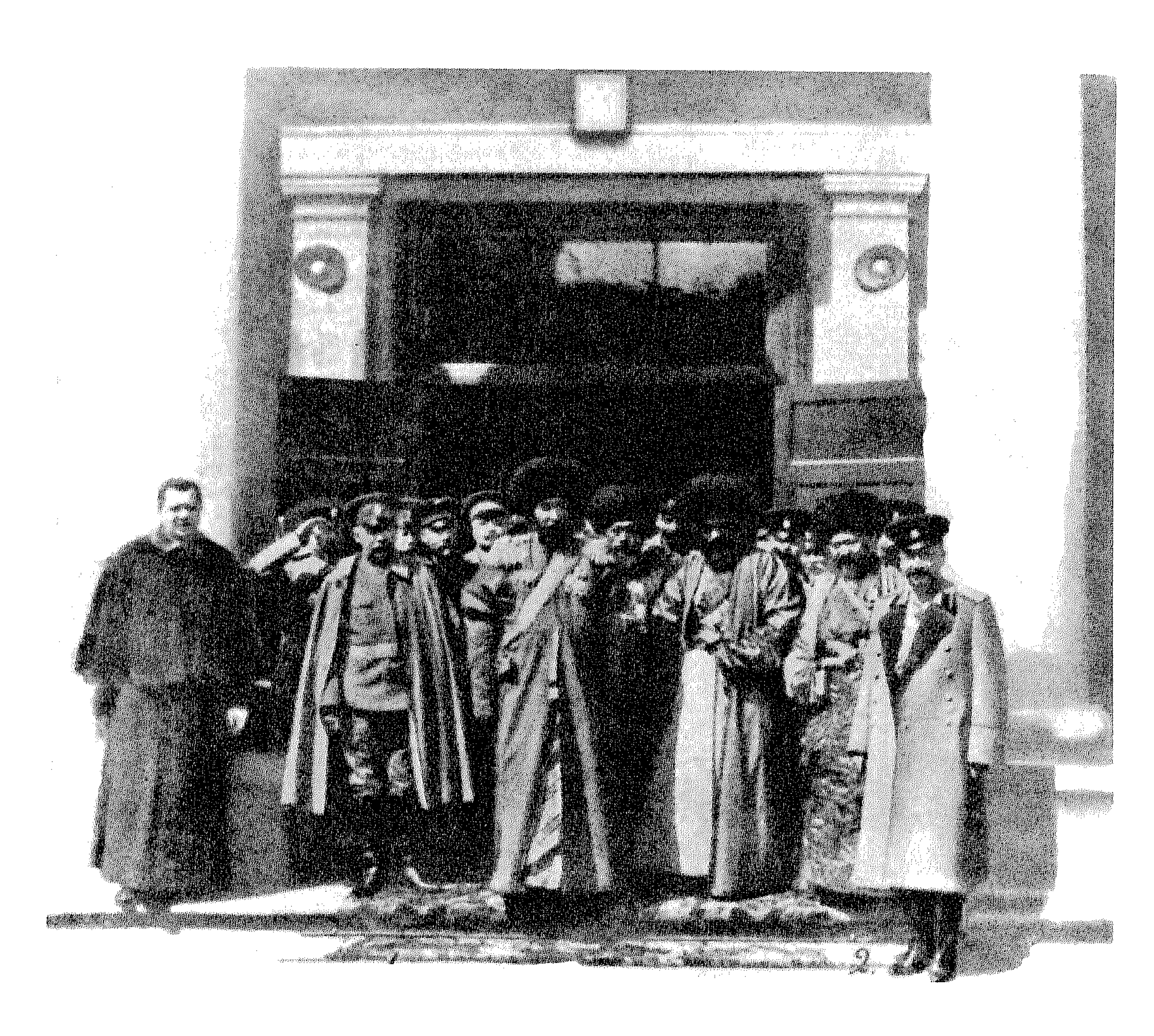
سزلکی محترم الحاج عبدالعزیز افندی بن عبدالله قانطون
حضرت دولتشین جنابلرینه

[illegible]

ـ رسالة في يوم يوبيل دولتشين من ممثلي الرأي العام الإسلامي.


فرمان امیر دولت بخارای شریف

ـ فرمان أمير بخاري بمكافأة دولتشين.



ـ خان خوي في بطرسبرج سنة ١٩١١/ويبدو العقيد دولتشين الثاني من اليسار.



ملاحق

الملا ميرزا عليم
ابن دام الله ميرزا رحيم طشقندى

وصف طريق الحاج

[الورقة ١٥٥ – أ] فى السابع من شهر رجب ١٣٠٥ (٢١ كانون الثانى – يناير ١٨٨٨) انطلقنا فى اتجاه المدينتين المقدستين ، مكة المكرمة والمدينة المنورة . خرجنا من مدينة قوقند ووصلنا الى محلة بش اريك ، ومنها الى ناحية محرم . غادرنا هذه الناحية ، ودخلنا مدينة خوجند . وهنا زرنا الشيخ مصلح الدين ، ثم واصلنا السفر . توقفنا فى ناحية بيقاباد ، وبعدها فى ناحية جاما ، ثم توقفنا فى دجيزاك . ثم واصلنا السفر وتوقفنا فى ناحية يانغى كورغان . اجتزنا هذه النقطة وتوقفنا فى ناحية آك تبه . ثم واصلنا السفر حتى مدينة سمرقند المحمية من شتى الاحوال الطقسية [. . . . .] ، وقضينا الليل فيها . هنا قمنا (الورقة – ١٥٥ ب) بالحج الى شاهزنده والى (ضريح) صاحب العظمة الامير تيمور ، وطلبنا العون من روحه ، ثم واصلنا السفر ووصلنا الى ناحية الوديل . وهنا توقفنا للاستراحة . ثم واصلنا السفر ، ووصلنا الى كاتتا – كورغان وتوقفنا فى ناحية تشاخار شنبه . ومن هنا انطلقنا ووصلنا الى محلة اسمها كرنب – اتاباته ، ومن بعدها دخلنا الى عاصمة الولاية ، مدينة بخارى . وهنا قمنا بالحج الى ضريحى الولى بهاء الدين نقشبند ومير قولال ، وصلينا كذلك امامهما . فى جامع تك أب ، قمنا بصلاة الظهر ، ومن بعدها واصلنا السفر . [الورقة ١٥٦ – أ] وتوقفنا للاستراحة فى ناحية قره قول ، وصلنا الى مدينة شاردجو حيث امضينا الليل . ثم وصلنا بالقطار الى مدينة مرو . دفعنا ثلاثة روبلات بدلا للركوب . قبل ذاك كانت هاتان المدينتان تخصان يوسف بك واحمد بك . ومن هنا واصلنا السفر بالقطار . فى يوم واحد وصلنا بالقطار الى عشق آباد ، وهنا قضينا الليل . هذه المنطقة القديمة كانت مدينة رستم دستان . ثم واصلنا السفر فى القطار المذكور ، وفى

غضون يوم واحد وصلنا الى محلة اوزون آطا (كراسنوفودسك) . دفعنا لقاء السفر بالقطار احد عشر روبلا وعشرين كوبيكا . خرجنا من هناك ، وركبنا باخرة ؛ فى غضون يوم وصلنا الى مدينة باكو . وباكو هى بالفعل ، كما يقولون ، مدينة بلقيس . لقاء السفر بالباخرة دفعنا روبلين ونصف روبل . وليعرف القارئ انه كان لهذه الباخرة (الورقة ١٥٦ – ب) مروحتان وان هيكلها كان من طابقين . طول الباخرة تسعون خطوة .

شعر :

النبى رأى الله ، وموسى سمعه ،

وهل يمكن تشبيه المسموع بالمرأى .

ان شاء الله ، يذهب كل امرئ فى طريق الحج ،

ويؤكد كل هذا اذ يجربه بنفسه .

خرجنا من مدينة باكو المذكورة ، وواصلنا السفر ؛ وفى غضون يوم واحد وصلنا الى مدينة تفليس . هذه المحلة كانت تخص السلطان ابن قور ، وكانت مدينته . ومن هنا واصلنا السفر ودخلنا مدينة باطوم . كانت هذه بالفعل مدينة ابى مسلم صاحب [. . . . .] (اى ابو مسلم المنتصر) . بدل السفر الى هاتين المدينتين بلغ ١٨ روبلا . فى الطريق عبرنا انفاقا جبلية كبيرة منورة . ثم واصلنا السفر بالباخرة . فى غضون يوم واحد وصلنا بالباخرة الى (الورقة ١٥٧ – أ) مدينة طرابزون ؛ وقد كانت من مدن الاسكندر (المقدونى) . حجم الباخرة المذكورة : الطول مائة واربعون خطوة ، العرض ثلاثون خطوة ، الهيكل من ثلاثة طوابق .

وليعرف القارئ ان مرفأ استنبول تدخله (كل يوم) مائة باخرة ويغادره العدد نفسه من البواخر . ومن هنا واصلنا السفر بالباخرة ؛ وفى غضون يوم واحد وصلنا الى مدينة سمسون . بعد يوم وصلنا بالباخرة الى مدينة انبولا وامضينا الليل فيها . بعد يوم دخلنا بالباخرة الى استنبول المحمية وتوقفنا فيها . بدل الركوب الى مدينة استنبول اثنا عشر روبلا .

فى استنبول يوجد جسر . طوله الف خطوة وعرضه يكفى لسير العربات بثلاثة صفوف . المدخول اليومى من هذا المكان يبلغ ستمئة قطعة نقدية ذهبية (الورقة ١٥٧ – ب) . من كل عربة يأخذون ، كبدل المرور على الجسر ، تانغا واحدة ، ومن كل فارس تانغا ونصف تانغا ، ومن كل ماش كوبكين . كذلك رأينا جامع آجيا صوفيا الشهير . طول هذا الجامع مائة واربعون خطوة ، عرضه مائة وعشرون خطوة ، قسمه الاعلى – بشكل قبة . من جانبى المحراب توجد شمعتان طول كل منهما قولاتشان (١) وسماكة كل

منهما سبعة قاريشات (٢) ، وهناك اعمدة من المرمر سماكة كل منها احد عشر قاريشا ، وطوله خمسة قولاتشات . عدد الاعمدة الاجمالي في الجامع المذكور سبعون ؛ وفيه سبعون ثريا . وفي كل ثريا تشتعل سبعون شمعة .

حكينا عن استنبول بايجاز ، والا لما كفت ٥-١٠ اوراق [الورقة ١٥٨ – أ] لاجل وصفها . ولهذا الوصف لم يتوفر الوقت .

خرجنا من استنبول ، وركبنا الباخرة [. . . . . .] ، وبعد ثلاثة ايام كنا في الاسكندرية . ومن الاسكندرية انطلقنا بالقطار ، وبعد خمس ساعات وصلنا الى القاهرة . دفعنا لقاء السفر بالقطار خمسة روبلات .

ايها الاعزاء ، اعلموا اننا قمنا بالحج الى قبور بيبب زينب ، ابنة صاحب العظمة علي ، والامام حسن والامام الشافعي ، وشاهدنا بئر صاحب العظمة يوسف ، فليحل السلام عليه . طول البئر مائتان وخمسون خطوة . شاهدنا كذلك جامع [. . . . . .] علي . طول السجادة فيه ثلاث وعشرون خطوة وعرضها ست عشرة خطوة . يقولون ان معلمي العمار بنوا هذا الجامع في غضون ستين سنة . انطلقنا من القاهرة بالقطار . بعد عشر ساعات بلغنا السويس . دفعنا عن السفر ستة روبلات [الورقة ١٥٨ – ب] . الباخرة الراسية في السويس تتسع لالف راكب . خرجنا من السويس على متن الباخرة ، وبعد يومين وصلنا الى رائق (؟) ، دفعنا عن السفر سبعة وعشرين روبلا ، لبسنا لباس الحجاج ، بعد يوم دخلنا مدينة جدة المقدسة . في مدينة جدة المقدسة ، امضينا ليلتين . قمنا بالحج الى ضريح صاحبة العظمة امنا حواء . ثم ، بعد صلاة الظهر ، انطلقنا على الجمال باتجاه مدينة مكة المكرمة . في الطريق توقفنا في ناحية [. . . .] . بعد الصلاة ، وقبل مغيب الشمس راكبنا الجمال من جديد ، ووصلنا قبل الفجر الى مدينة مكة المكرمة . بعد وصولنا ، توضأنا في الحال ، بموجب الشعيرة ، ودخلنا رواقا مكشوفا ، وهنا رأينا ساحة الحرم الشريف [الورقة ١٥٩ – أ] . قلنا ثلاث مرات : «الله اكبر» . بعد هذا ، اقتربنا من مقام صاحب العظمة ابراهيم ، عليه السلام ، ورأينا هنا الكلمات : «ومن دخل كان امينا» ؛ وفي الحال ركعنا ركعتين . تذكرنا الاصدقاء والاقارب وصلينا من اجلهم . بعد هذا شرعنا في الطواف حسب الشعائر حول المكان المقدس وطفنا حوله سبع مرات بكل تقوى ، وفي كل مرة كنا ننحني امام الحجر الاسود . ثم صلينا وقوفا بين «الملتزم الشريف» وابواب الحرم . وبعد الصلاة امام الكعبة ، اقتربنا جميعا من ضريح ابراهيم ، عليه السلام ، وركعنا هنا ركعتين . وبعد ذلك سعينا سبع مرات بين الصفا والمرو ، وقصصنا شعرنا ، وبعد العودة الى حيث

كنا قد توقفنا ، [الورقة ١٥٩ – ب] خلعنا ثوب الاحرام ولبسنا البستنا . ثم نزلنا فى بيوت جيدة وتمتعنا بضعة ايام ؛ [. . .] المستطاب ، وكل يوم كنا نأكل معا حتى التخم البطيخ والخندلاق (٣) والخيار ونشرب العصائر ، ومن جراء ذلك ارتفعت حرارتنا ومرضنا مدة يومين تقريبا . ووزعنا الصدقات باسم الله ، وبعد ذلك شفى الجميع اى ان طبيعتنا صارت متناسبة مع طبيعة مكة العظيمة . وبعد هذا ، صلينا خمس مرات فى المسجد . وكما من قبل قمنا خمس مرات بالطواف . تذكرنا جميع الرفاق ، وصلينا من اجلهم ، ثم رحنا باتجاه المدينة المنورة . يا رب ، لتكن سفرتنا على خير وسلامة .

ملاحظات

١ –قولاتش – مقياس طول تحدده المسافة بين طرفى الاصبعين الوسطيين لليدين الممدودتين .

٢ – قاريش – مقياس طول تحدده المسافة بين طرفى الابهام والخنصر الممدودين .

٣ – خندليق (خندلاق) – نوع سريع النضوج من الشمام مستدير الشكل .

الملا ميرزا عليم
ابن دام الله ميرزا رحيم طشقندى

وصف بوابات كعبة الله والاماكن المقدسة حيث يمكن ان يقبل [الله] صلوات المؤمنين

بعد تمجيد الله وانبيائه زمنا طويلا ، يرد : [الورقة ١٦٠ – ب] الحجر الاسود ، والكعبة ، ومقام ابراهيم ، عليه السلام ، وبئر زمزم المقدسة ، فى القسم الشرقى من كعبة الله ، اى الحرم الشريف . اضرحة الانبياء المقدسين نوح عليه السلام ، وهود عليه السلام ، وشعيب عليه السلام ، وصالح عليه السلام ، تتواجد هنا . وهذه قصة الشيخ التقى حسن البصرى . وهـذا القسم يسمى ركيزة الحجر الاسود . الخاتم المقدس ، ماسورة تصريف الماء ، عليها رحمة الله ، [الورقة ١٦١ – أ] مقام (اتباع) ابو حنيفة ، عليه رحمة الله ، حجر اسماعيل (. . . . .) عليه السلام ، ضريح بيبى حجر ، عليها رضى الله ، تتواجد فى القسم الشرقى مـن حرم الله ، وهذان القسمان يسميان بالركيزة العراقية . (مقام) المالكيين يقع فى القسم الغربى من حرم الله ؛ وهنا تقع مدافن سبعين نبيا ؛ هذا القسم يسمى بالركيزة اليمنى . لكعبة الله – حرم الله ، اربعة واربعون بابا . باب السلام يتألف مـن ثلاثة ابواب ، باب النبى يتألف من بابين ، باب عباس يتألف من ثلاثة ابواب ، باب على يتألف من ثلاثة ابواب ، باب البعلى يتألف من بابيـن ، باب [. . . . .] يتألف من بابين ، باب الصفا يتألف من خمسة ابواب ، باب الشريف يتألف من بابين ، باب الجهاد يتألف من بابين ، باب التكية يتألف من بابين ، باب الامهات يتألف من بابين ، باب الوداع يتألف من بابين ، باب ابراهيم يتألف [الورقة ١٦١ – ب] من باب واحد ، باب النقيب الاشرف يتألف من باب واحد ، باب العتيق يتألف من باب واحد ، باب الماسـك يتألف من باب واحد ، باب البيطار يتألف من باب واحد ، باب [. . . . .] يتألف من باب واحد ، باب زياد يتألف من ثلاثة ابواب ، بـاب القاضى يتألف من باب واحد ، باب مدرسة السليمانية يتألف من باب واحد ، باب الداودية يتألف من (ثلاثة) ابواب . الحاصل ٤٤ بابا .

لبوابة المكان المقدس سبع مآذن . لكل مئذنة مؤذن واحد يــؤذن بوقت كل من الصلوات الخمس . وليكن واضحا ومفهوما اننا سنحكى [ادناه] عن مكانين للحج فى مكة المكرمة . فى جنة (الجنة المعلا) يوجد مدفــن ام المؤمنين خديجة الكبرى ومدفن آمنة بنت وهب ، ام نبى الله ، — صلى الله عليه وسلّم ؛ ومدفن صاحب العظمة عبد الرحمن ابن ابو بكر ، ومدفــن السيد عثمان المرغينانى ، ومدفن مالك الاجدر . جميع هذه المدافن هــى محجات [الورقة ١٦٢ — أ] . يتلو الناس سورة وجيزة ويصلون ، وبخاصة من اجل المذكورين اعلاه والباقين الموجودين فى جنة المعلا . المسجد (هنــا هو ذلك) المكان الذى اصبح فيه شياطين الليل مسلمين بعد ان اتفقوا مع النبى ، ولهذا فان جميع الاماكن من هذا النوع هي محجات .

فى جبل ابو قبيس توجد علامة هى محج . المكان الذى اقيم فيه موقتا الحجر الاسود ، اثناء الطوفان العالمى فى عهد صاحب العظمة نوح عليــه السلام ، هو محج . بيت العجب هو ايضا محج . مكان ولادة النبى صلى الله عليه وسلّم — هو محج .

مكان ولادة صاحب العظمة على والغرفة التى كان يصلى فيها (عــادة) ؛ محراب خديجة العظيمة ؛ مضرب ابو بكر الصديق ، عليه رضى اللــه ؛ الحجر الحاكى اى الحجر الذى كان شاهدا على عظمته (محمد) ؛ مكــان ولادة صاحب العظمة الامير حمزه ؛ [الورقة ١٦٢ — ب] المكان الذى كان يصلى فيه صاحب العظمة عمر (عادة) ؛ مدرسة صاحب العظمة عثمان ابن عفان ؛ المكان الذى ولد فيه صاحب العظمة الامام جعفر الصديق ومدفن مولانــا محجوب ؛ ومدفن القحافة ؛ ومدفن مولانا تاج الامام الربانى ؛ ومدفن السيد حسنى ؛ مدفن تلامذة السيد عبد القادر الكيلانى واخوته الصغار ؛ مدرسة صاحب العظمة [. . . . .] الاعظم ، رضى الله عليه ، جميع الاماكن المذكورة هى محجات .

بين بوابات مكة المكرمة ، المسماة باسم الشيخ محمود ابن ابراهيم ادهم حيث يرتدى الحجاج ثياب الاحرام فى حال الحج الصغير وبين مكة المكرمة توجد مدافن احد عشر ممن استشهدوا فى الجهاد وبينهم عبد الله ابن عمر ، رضى الله عليه ، هذه المدافن هى ايضا محجات .

وليعرف القارئ ايضا امكنة الحج فى منطقة منى . مسجد [. . . .] . يقولون ان نبى الله كان هناك وقدم الاضاحى . هنا كهف نزلت فيه آيــات «والمرسلات» . اثناء التضحيــة بصاحب العظمة اسماعيل عليــه الســلام [الورقة ١٦٣ —أ] ارسل الله العظم لاجل التضحية خروفا (عوضا عنــه) .

تكريما لقبول الضحية ، ادى الصلاة ، وركع ركعتين . ذلك المحراب الذى صلى قربه (اسماعيل) صار مكانا للعبادة .

ليعلم القارئ ايضا جبل الرحمة . انه مكان توقف فيه النبى ، صلى الله عليه وسلّم . على جبل الرحمة يوجد مكان القى فيه النبى – صلى اللـــــه عليه وسلم – الخطبة . ويتناقلون فى احدى الاساطير ان والدنا صاحب العظمة آدم ، عليه السلام ، وامنا حواء تعارفا هنا . على الجبل يوجد مبنى بديع يذهب اليه للعبادة المنتمون الى مذهب الامام الشافعى . اما نحن ، فلا توصينا الشريعة بذلك . وفى مدينة جدة زرنا قبر صاحبة العظمة حواء . وفى جبل النور يوجد مكان نزلت فيه آيات سورة القرآن «سورة الشرح». وفـــى جبل النور يوجد كهف نزلت فيه آيات القرآن «اقرأ باسم ربـــك الذى خلق» . وفى جبل النـــــور يوجد كهف تخفى فيه صاحب العظمـــة [الورقة ١٦٣ – ب] نبى الله – صلى الله عليه وسلم – وصاحب العظمة ابو بكر الصديق من الكفار . هذا الكهف هو محجة . بعد زيارة هذه الاماكن ، ايها الاخوة الاعزاء ، انطلقنا صوب المدينة المنورة . الهدف الاساسى مـــن زيارة المدينة المنورة يتلخص بالنسبة لنا فى قرع جباهنا الخاطئـــة على الضريح المقدس لصاحب العظمة ، النبى محمد ، صلى الله عليه وسلم . . .

نأمل فى ان يسمح الله العظيم للنبى بعد اداء هذه الشعائر برعايتنا نحن الخطأة فى يوم الحساب .

[الورقة ١٦٤ – أ] ان شاء الله ، سنحكى بايجاز عن مواقف واماكن العبادة التى رأيناها حيث كنا . ايها الاخوة الاعزاء ، على الطريق السلطانى المؤدى الى المدينة المنورة ، توجد المواقف التالية : «وادى فاطمـــــة» ، «محسنة» ، «اسفهان» ، «اخلاص» ، «كـــريمة» ، «رابغ» ، «مستـــورة» ، «حسالى» ، «صفراء» ، «بئر عباس» ، «بئر شريف» . عن السفر الى المدينة المنورة دفعنا عشرين روبلا . قبل مدخل المدينة المنورة ، توجد محجة ؛ انها قبة صاحب العظمة الخضر ، عليه السلام . دخلنا المدينة المنورة ونزلنا في بيت حيث توضأنا حسب الاصول ، وذهبنا الى نبى الله لاجل الصلاة والسجود (ومررنا) عبر بوابة باب السلام ، مرددين الآيات : «اللهم انت السلام ومنك السلام واليك يرجع السلام ، تباركت ربنا وتعاليت يا ذا الجلال والاكرام». وقرب محراب النبى صلينا فى ركعتين ، ثم رحنا الى السجود امام ضريح نبى الله ، ثم قمنا بالحج الى ابو بكر الصديق ، رحمة الله عليه ، ثم كنا عنـــد مدفن صاحب العظمة عمر ، رحمة الله عليه . ثم قمنا بالحج الى المكان الذى نزلت فيه الملائكة . ثم قمنا بالحج الى ضريح فاطمة الزهراء ، البريئة من

كل خطيئة . بعد الحج الى جنة الباقى ، سجدنا صوب جبل أحُد . وقمنا بالحج الى مدفن الامير الحمزة وسائر الشهداء . ثم اقتربنا عن كثب من غرفة صغيرة قائمة تحت مئذنة وصلينا ووجوهنا الى القبلة . ثم صلينا ووجوهنا صوب الضريح المقدس . ثم ابتعدنا منه اربع او خمس خطوات وصلينا مرة اخرى ووجوهنا صوب الضريح . ثم صلينا ووجوهنا صوب ضريح صاحب العظمة نبى الله ، صلى الله عليه وسلم وانهينا الصلاة ؛ وهكذا بعد كل صلاة قمنا بالسجود بالطريقة الموصوفة اعلاه . يوم الجمعة [الورقة ١٦٥ — أ] قمنا بالحج الى مقبرة «جنة الباقى» . القبة الاولى فيها هى قبة الولى عثمان ، عليه بركة الله ، وهى اول مكان للعبادة . القبة التالية ، قبة الولية حليمة السعدية . ثم توجد خارج المقبرة قبتان ، وهما ايضا مكانان للعبادة . الشهداء المدفونون فى مقبرة جنة الباقى يعتبرون هم ايضا جديرين بالتقدير والاجلال . ومن الاماكن المقدسة يعتبرون ايضا : قبة الامام مالك ، عليه بركة الله ، الذى كان مؤسس مذهب ؛ مقبرة خوجه محمد [. . .] ؛ قبة الولى عباس ، عليه بركة الله العلى ؛ (مقبرة) الائمة الاثنى عشر ؛ قبة الولية عائشة ومدفن زوجات النبى ؛ (مقبرة) عم نبى الله القائمة بين بوابة المقبرة والمدينة اى انها تقع قرب مدخل المدينة المنورة ؛ الى اليسار ، على بعد خمس او ست خطوات ؛ قبة اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق ، عليه بركة الله ، وتقع فى الغرب من باب الرحمة [الورقة ١٦٥ — ب] مدرسة [. . . . .] ومدفن عبد الله اى والد نبى الله ؛ مدرسة فى دار غوث الاعظم ، عليه بركة الله .

واعلموا ، ايها الاخوة المؤمنون ، ان الحج الى الامير حمزة فى جبل أحُد والى المكان الذى انكسرت فيه سن النبى الكريم بسبب الايمان يجرى يوم الاربعاء . سجدنا امام قبة ولينا الامير الحمزة وجميع اولاده واحفاده الموجودين هناك . وسجدنا ايضا امام مدفن الولى [. . . . .] والمستشهدين فى سبيل الله الاحد . وبئر الولى عثمان ، بركة الله عليه ؛ والمدينتين المقدستين (القدس ومكة) ؛ ومسجد الاربعين ؛ كهف غار الخزن ؛ مسجد القبة ومسجد [. . . . .] . جميع هذه الاماكن تقع فى القسم الخلفى من مقبرة جنة الباقى . كما سجدنا امام محراب نبى الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ محراب فاطمة الزهراء ، والمنبر ؛ المكان الذى ركعت فيه ناقة نبى الله ، والواقع ما وراء مقبرة «جنة الباقى» . مسجد على ؛ والمسجد الاخضر [الورقة ١٦٦ — أ] لعمر ، بركة الله عليه ؛ اشجار النخيل التى تملك موهبة الكلام ، والتى جاءت بلا اقدام وادلت بشهاداتها . وتقول الاسطورة ان عثمان

اسقط فى بئر خاتم النبى ؛ وهذه البئر تسمى بئر الخاتم ؛ جميع الاماكن المذكورة آنفا هى اماكن للعبادة ، وكذلك مسجد جرت فيه صلاة الجمعة وهو ايضا مكان للعبادة .

وليعلم القارئ ايضا انه يوجد فى المسجد ثلاثة محاريب . الاول منهـــا محراب نبى الله ، صلى الله عليــــه وسلم ؛ المحراب الثانى ، محـــراب السلطان سليم . المحراب الثالث ، محراب الولى عثمان ، بركة الله عليه . بوابات المسجد خمس — باب السلام ، باب الرحمة ، باب المجيد ، باب النساء ، باب جبرائيل . مآذن المسجد ثلاث — المئذنة المجيدة ، والمئذنة الرئيسية ، ومئذنة بلال . ثريات المسجد خمسمئة [الورقة ١٦٦ — ب] منها اثنتان بيضاوان ، اثنتان حمراوان . قياسها عشر شارقات تقريبا ، اللـــه وحده يعلم . الباقية مختلفة المقاييس . قبب المسجد مائتان . عدد الاعمدة اربعمئة .

المخطوطة رقم ٥٠٤٢—III/٩٣٧٢ مقتبسة من مجموعة المخطوطات والوثائق الشرقية لدى اكاديمية العلوم فى جمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفييتية (راجع ص ٥٤—٥٥ ، المجلد ٧ من كاتالوج المجموعة ، طشقند ، سنة ١٩٦٤) . النص مكتوب بخط عربى دقيق على ورق قوقند (١٥×٢٥ سنتمترا) . تشكل المخطوطة قسما من مجلد كبير (الاوراق ١٥٤ ب — ١٥٩ ب) ، وهى ، نظرا للحاشية فى الورقــة ٨٢ ب ، من خط المؤلف . النص باللغة الاوزبكية . يصدر للمرة الاولى .

الحاج سليم غيرى سلطانوف

منطقة المسلمين المقدسة فى الجزيرة العربية

(من ذكريات حاج)

مقتطفات

النبذات التى اعرضها على القراء كتبتها بموجب تسجيلات وجيزة قمت بها اثناء السفر ، وبموجب ذكرياتى الشخصية .

المعلومات التاريخية والمرتبة زمنيا اقتبستها من مؤلفات مختلف العلماء المسلمين ، وكذلك من تاريخ الاسلام للمستعرب الالمانى البروفسور موللر . فلأجل دراسة الشريعة ، اى علم الدين الاسلامى وقوانينه ، عشت زهاء سنتين فى قرية صغيرة تقع فى اعماق بشكيريا حيت توجد من قديم الزمان مدرسة دينية اسلامية شهيرة فى اقليم اوفا . وهنا تعرّفت على مُلاّ بشكيرى اسمه خيرالله راح غير مرة الى المنطقة المقدسة فى الجزيرة العربية . وقد حكى لى المُلاّ خيرالله الكثير عن اسفاره ، وهذه الاحاديث اثارت فى نفسى الرغبة فى زيارة اماكن المسلمين المقدسة .

فى الصباح الباكر من الرابع من آذار (مارس) سنة ١٨٩٣ ، انطلقنا نحن ستة مسلمين من محافظة اوفا ، بعد ان تمنى لنا جمع غفير من المودعين السلامة واغدق علينا النصائح ، من محطة اوفا الحديدية الى مكة البعيدة لكى نؤدى هناك الفريضة الدينية – اى السجود والصلاة امام المقدسات التى تشغل بينها الكعبة او بيت الله المرتبة الاولى فى عيون اتباع الاسلام .

بفضل وسائط المواصلات الحالية ، كنا بعد اسبوع فى القسطنطينية . لن اصف القرن الذهبى والبوسفور وجمال وروعة ضواحيه العجيبة والمناظر من البحر الى المدينة العالمية الجليلة . وقد ارجأت مشاهدة المدينة وطرائفها بصورة مفصلة الى طريق العودة . والاحظ ان الحجاج فى القسطنطينية يرون واجبهم الاول فى زيارة ضريح ابى ايوب الانصارى ، الشهير فى تاريخ الاسلام ، ومن اخلص اصحاب النبى (صلعم) [. . .]

ثم يزور المسافرون المسلمون المساجد – مسجد آيا صوفيا ، مساجد

السلاطين : سليمان ، محمود ، احمد ، سليم ، بايزيد ، وغيرهم . واخيرا يتسنى لبعض الحجاج فقط مشاهدة المتاحف والقصور ، الامر الذى قمنا به فى طريق العودة بفضل تلطف ياور البلاط العقيد صادق بك [. . .]

فى ٢٩ آذار (مارس) كنا فى بيروت حيث غادرنا باخرتنا «ناخيموف» لكى نسافر الى دمشق . ومن بيروت الى دمشق كان السفر يجرى آنذاك فى عربة كبيرة تجرها ستة بغال . اما الآن فقد بنيت هناك سكة حديدية . تعبر الطريق جبال لبنان ، بخط متعرج ، متلو ، اولا ٥٠ فرستا صعودا فى الجبال ، ثم ، بعد معبر عبر الجبال ، ٦٠ فرستا نزولا من الجبال ، ثم الفرستات الـ١٠ الباقية فى وهدة ، على ضفة سيل مائى ، عابرة اياه غير مرة من ضفة الى اخرى . . .

اعظم طرائف دمشق جامع الامويين القديم الباقى من حيث خطوطه الكبرى حتى ايامنا هذه . وهو يتميز بعظمته ومهابته الخارجية ، وروعة الزينات من الذهب والفسيفساء فى الداخل ، وكبره الذى لا يصدق اذ يتسع لـ١٨ الفا من المصلّين . وفوق الجامع تنتصب بضع منارات * رشيقة اسطوانية الشكل . واحداها تعتبر الاهم ؛ فعليها ، كما تقول الاسطورة ، سينزل يسوع المسيح حين يحل زمن التنكيل بالمسيح الدجال اى حين يحل يوم القيامة او يوم الحساب [. . .]

القصور والجنائن والبساتين ، والكثير من العمارات الفخمة ، والسوق البديعة ، ومخازن الاسلحة ** ، والمقاهى ، وزهاء ٢٠٠ مسجد — كل هذه تشكل زينة المدينة القديمة . بيوت المالكين الخصوصيين الذين تسنى لى ان ازورهم لا تسترعى النظر بشىء من الخارج ، ولكنها فى الداخل تتغندر بالزخارف وبالفسيفساء المتنوعة الالوان وبالبذخ حسب الذوق الشرقى .

جمال دمشق الرئيسى موقعها . فمن الثلوج الذائبة من الجبال اللبنانية تتشكل كثرة من السواقى التى تصب فى واحدة وتشكل مسيلا اسمه بردى ،

---

* المنارات فى الكلام التركى جمع منارة ؛ وفى الشرق يسمونها على الاغلب «مدينة» والاصح «مئذنة» اى مكان الدعوة الى الصلاة (مشتقة من فعل «آذن» و«اذّن» تأذينا بالصلاة اى اعلم بها ودعا اليها) .

** السلاح الابيض من فولاذ دمشق البديع واسع الانتشار فى الشرق . السيوف الفولاذية ، الخناجر والسكاكين من الصنع الدمشقى القديم تسنى لى ان اراها فى بولونيا ايضا . فقد جلبوها الى هذا البلد بعد الحرب ضد الاتراك بجوار فيينا . النبلاء البولونيون يقدرونها رفيع التقدير ويسمونها Szabla Damascenke (السيوف الدمشقية) .

وعرضه ٣٠ ساجينا تقريبا . يسيل نهر بردى فى وسط المدينة ثم ينقسم الى سواعد ، ويتشعب فى عموم المدينة وبذلك يتيح انشاء الاحـــواض والفوارات فى كل مكان . وفى كل حوش تقريبا توجد فوارة ، وفى كـــل بستان حوض مائى تتلاعب فيه «اسماك ذهبية» ، وفى كل بيت ، وحتى فى كل غرفة تقريبا توجد مجارير المياه .

التربة الخصبة ، ووفرة الماء والمناخ الحار تعطى نباتا سريع النمـــو ومتنوع الاصناف ، وزهورا وثمارا عجيبة الى حد ان العرب يسمون دمشق عن حق وصواب «جنة الدنيا» .

وفى دمشق تعرّفت على تترى من قازان يعيش ويشتغل هنا من زمـان بعيد . وقد رحت معه الى جبل واقع قرب المدينة يدلون منه على المكـان الذى قتل فيه قايين اخاه هابيل . ثم زرنا قبر ولى مسلم يحكون عنه ما يلى .

منذ سنوات عديدة جدا دفن امام دمشقى شخصا غير معروف كان يعيش فى دمشق . وحين طمروا الجثة بالتراب ، طرح الامام على الحاضرين السؤال العادى : هل كان المتوفى طيبا . الجميع ذكروه بالخير وتمنوا له المملكـة السماوية (الجنة) ، ولكن واحدا منهم قال عن المتوفى الكثير من السـوء . فى هذه الاثناء اطلت من القبر قدم بسرعة البرق . لم تكن للدهشة حدود بالطبع ، الجميع آمنوا بقداسة المتوفى ، وبنوا فوق رفاته ضريحا لائقـا لا يزال يزوره الى الآن كثيرون من المسلمين .

وانقضت سنوات عديدة . ذات مرة زار باشا تركى عجوز القبر ، وكان يشك ، نظرا للقدم المطلة ، فى ان تبقى الجثة مئات السنين . حفروا القبر فتصاعد منه نور ساطع . رأى الباشا وجميع من معه بام عيونهم جثة الرجل المقدس ، وندموا زمنا طويلا جدا ، مرددين الصلوات الحارة . وبعد هـذا ، لم يطمروا القبر من جديد بل غطوه بالقطن تاركين القدم فى وضعها السابق . وانا رأيتها بام عينى ، وعجبت كثيرا بالطبع ، بينما الفرنسى الواقف بقربى هز رأسه دليل الشك .

فى اوائل نيسان (ابريل) عدنا مـن دمشق الى بيروت ؛ وفى اليـوم نفسه انطلقنا الى يافا ومنها الى القدس . من يافا الى القدس توجد سكـة حديدية هى ملك شركة فرنسية . السكة تمتد طوال الوقت كله تقريبا فى الجبل والقسم الاخير منها فى فج ضيق وعميق .

فى القدس امضينا اسبوعا بكامله ، وشاهدنا الاماكن المقدسة وصلينا فى مسجد عمر وفى المسجد الاقصى .

المسجدان المتجاوران ينتصبان فوق ساحة عريضة ، مطوقـــة بحائط

حجرى – الحرم الشريف الواقع فى قمة جبل [. . .] الممهدة والمبلطة بصفائح من المرمر والغرانيت ، والمحاطة بكثرة من الانشاءات العجيبة .

وبمسجد عمر المشيد فى مكان هيكل سليمان ترتبط الاسطورة عن سفر النبى ليلا من مكة الى القدس . وفى هذا المسجد يدلون ايضا الى الصخرة التى تشكل كلا واحدا مع الجبل الذى صعد منه محمد الى السماء [. . .]

الاماكن المقدسة فى القدس موصوفة مرارا وتكرارا ؛ وفى الادب الروسى توجد عنها كتب عديدة مختلفة من حيث المستوى والمزايا ، ولذا اتحاشى تكرار المعروف . ولكن اكتفى بالقول ان الاماكن المقدسة تبدو حسب الوصف كأنما موزعة فى مساحة كبيرة بينما هى فى الواقع متقاربة بشدة .

لا يمكن ولا يجوز الصمت عن ان مقدسات المدينة العالمية يشوبها اقصى القذر . والمدينة نفسها تحدث بعد دمشق انطباعا مرهقا سواء بمظهرها الوسخ ام بتجهم وبرودة سكانها المتنوعى القوميات والاديان ؛ وبقدر ما نرى سكان دمشق مضيافين ولطفاء وخدومين بقدر ما نرى سكان القدس الحاليين ، بدءا من اليهود وانتهاء بالروس او ممن يتظاهرون بانهم روس ، طماعين ، بخلاء ، ميالين الى ابتزاز اكثر ما يمكن من المسافرين والحجاج ، والى خداعهم بنحو ما . وقد اعتاد السكان النظر الى الحجاج نظرتهم الى دجاجات تبيض بيضات ذهبية . ويستحوذ الحياء والغضب على القلب والروح حين يرى المرء كيف يسود الفساد الى جانب المقدسات . والى ما قيل يجب ان اضيف مناخ القدس الردىء ، غير الصحى ، وغياب الماء الجيد فيها .

من القدس قمنا برحلة الى بيت لحم والى حبرون (الخليل) الواقعة على مسافة ٧ ساعات ركوبا فى طريق بديع . وفى بيت لحم رأينا كنيسة المهد ، وفى الكنيسة معلف . والمعلف عبارة عن حجر محفور ومنحوت ، من الغرانيت على ما يبدو ، طوله زهاء ارشين واحد . وفى هذه الكنيسة يعرضون ايضا المكان الذى نمت فيه شجرة كانت تجلس تحتها العذراء مريم والطفل يسوع فى يديها .

وفضلا عن الكثرة من مختلف المقدسات والطرائف المعمارية ، زرنا فى حبرون هيكلا بديعا ترقد فيه ، كما تقول الاسطورة ، رفات بطاركة القدس الاوائل – ابراهيم ، يعقوب ، يوسف ، وغيرهم . والقبور تقع فى كهف مستواه ادنى من مستوى ارضية المسجد ، واليه ينزلون على سلاسل بضعة مشاعل صغيرة مشتعلة .

قضينا الليل فى حبرون وعدنا الى القدس ثم الى يافا ، ومنها انطلقنا على متن الباخرة «اوديسا» التابعة لشركة روسية الى بور سعيد .

وعند وصولنا الى بور سعيد زرنا في الحال القنصل الروسى لكى نسأل عن البواخر الذاهبة الى ينبع . وقد تبين ان قنصلنا السيد براون المانى ولا يعرف اية كلمة روسية . اعـرب عن استعداده لخدمتنا ومساعدتنـا بالمعلومات التى يملكها ؛ ولكن من جراء عدم فهم اللغة بصورة متبادلـــة وغياب المترجم فى القنصلية ، جاءت خدمات السيد براون مثل خدمة الدب بالذات اى جاءت بعكس القصد منها ؛ اى انها لم تنفع بل اضرت . فمـــن توضيحاته نجم ان هناك باخرة وحيدة تقلع من بور سعيد فى ١٦ نيسان (ابريل) ؛ وان الباخرة التالية لن تقلع قبل مضى اسبوعين . وفى الـوقت نفسه تطوع السيد براون لتزويدنا بالتذاكر ، فوافقنا بطيبة خاطر . ولكـن تبين فيما بعد ان الباخرة الوحيدة التى ستقلع فى ١٦ نيسان (ابريل) الى ينبع ، تخص الشركة النمساوية «لويد» التى يقوم السيد براون بـــدور عميل لها ؛ وان هناك بواخر تابعة لشركات اخرى واننا لو سافرنا على متن احداها لدفعنا اجرة اقل .

فى ١٦ نيسان اقلعت الباخرة «اغلايا» من بور سعيد عبر قناة السويس ؛ وفى صباح اليوم التالى كنا فى السويس ، ثـم عبرنا البحر الاحمر خـــلال يومين . واثناء هذه الرحلة ، تقابلنا للمرة الاولى مع مؤشرات الدخول فى المنطقة الاستوائية . كان ميزان الحرارة حسب معيار ريومور يشير الى ٢٧ درجة فى الظل . الابخرة التى ترتفع من البحر تترسب ليلا بصورة ندى صمغى يثير احساسا غير مستطاب اطلاقا ، ولاذعا نوعا ما ، حسب كـل احتمال ، لأنه ينير طفحا احمر سواء على الوجه ام على الاقسام المكشوفة من اليدين المعرضة لتأثيره . ولا يمكن فى اى حال من الاحوال القول عن السفر فى البحر الاحمر بانه مستطاب ؛ فان القيظ نهارا ، وكتمة الهواء ليلا يرافقان المسافرين طوال الوقت كله لأن الندى الذى ذكرته للتو لا يسمح بفتح ابواب ونوافذ ليلا . وسواحل البحر تعرض منظرا صحراويـا تماما . وللماء لون محلول الزاج ؛ ولا تقع العين على الطيور ولا حتى على طيـــور النورس ، ولا نرى الاسماك التى تتلاعب عادة على سطح الماء فــى البحار الاخرى ؛ ولذا يبدو البحر الاحمر نفسه فى الطقس الهـادئ عديم الحيـاة كليا . [. . .]

ينبع قلعة غير كبيرة . عدد سكانها خمسة آلاف . وهنا مقر القائمقام ،

معاون عامل المدينة المنورة (الوالى) . وفى القلعة حامية تركية من ٥٠٠ جندى .

بانتظار تشكيل القافلة امضينا فى ينبع خمسة ايام ، واشترينا كل ما يلزم لاجل مواصلة السفر الطويل الى المدينة المنورة على «سفن الصحراء» . [. . .]

حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر انطلقنا من بوابة القلعة فى اتجاه المدينة المقدسة . [. . .]

كانت الوقفات على العموم غير طويلة . كانت القافلة تسير نهارا وليلا . خطوة الجمل كبيرة نسبيا ، ولكن رغم كل هذا تسير القافلة ببطء . سبب بطء الحركة امتداد القافلة الكبير . يكفى ان يقف جمل لسبب ما حتى يتعين ان تقف كل السلسلة السائرة وراءه . فى اليوم الواحد كنا نقطع بالاجمال ٣٠-٣٥ فرستا ، لا اكثر .

فى ٢٥ نيسان (ابريل) اقتربنا مساء مع غروب الشمس من المدينة المنورة ، اى من اقدم مراكز الاسلام . انتعشت القافلة . اشعل الجميع المصابيح والمشاعل وبدأ اطلاق النار من البنادق ، وانشد البعض اناشيد دينية ، وتلا آخرون غيبيا آيات من القرآن الكريم ، وتنادوا باصوات مدوية ، واطلقت النساء الهنديات والمصريات من الحلق ترانيم غريبة جدا .

وعلى بعد ١٠ فرستات تقريبا من المدينة ، استقبلنا المسلمون المهاجرون الروس المقيمون هنا على الدوام . وفى الساعة الحادية عشرة كنا جالسين فى صالون مواطننا اللطيف المضياف عبد الستار افندى الى سماور روسى يفح بمرح والى مآكل قومية متنوعة .

فى صباح اليوم التالى صليت بدموع الفرح والحنان والرقة وبكل حرارة عند قبر محمد ، الذى كان فى التاريخ العالمى كله الانسان الوحيد الذى جمع فى نفسه النبى والشاعر والحقوقى والمشترع والطبيب والخبير الصحى ومؤسس دين وامبراطورية ، واضفى القوة والوحدة على جميع القبائل فى الجزيرة العربية ومن خلالها على العديد من الشعوب الاخرى فى آسيا وافريقيا واوروبا ، ويتقيد بمذهبه وتعاليمه الآن اكثر من ثلث البشرية جمعاء [. . .]

عامل المدينة المنورة * عثمان باشا تحدر من روسيا ؛ فهو شركسي القومية ، وقد غادر القفقاس طوعا واختيارا . حموه ، الابن البكر للشخصية الشهيرة شميل ، غازى محمد ، الذى يعيش على الدوام فى مدينة النبى ، يتمتع بالشعبية الواسعة ، والانتباه والاحترام بين العرب . وان مسلما مثقفا ذكيا يشغل مكان الصدارة فى رفقتنا الصغيرة زار مرارا شميل وعثمان باشا . وهو يقول ان الحديث العام كان غالبا ما يعود الى الذكريات عن روسيا ، الموطن السابق ، وهى ذكريات مفعمة بالعطف العميق .

تشغل المدينة رقعة غير كبيرة نسبيا ، ومرد ذلك الى اقصى تزاحم العمارات ؛ فان البيت يلتصق بالبيت دون اية فسحة بينهما . لا احواش . الشوارع ضيقة الى حد انه لا يمكن فى بعضها الا بصعوبة ان يتلاقى ويتفارق حماران محملان .

ومن غير المريح ابدا بالنسبة لابن الشمال غياب الزجاج فى الغرف ، ولذا يطير الغبار اليها مباشرة من الشارع ؛ والغبار كثير لأن الحركة فى الشوارع هائلة ومتواصلة فى غضون اربعة اشهر ، بدءا من شهر رمضان ** حين يتوافد الى هنا الحجاج من شتى اقطار العالم الاسلامى .

ان الموضوع الذى يجتذب الى هنا مئات الآلاف من الحجاج انما هو الجامع الذى يتواجد فيه قبر النبى محمد . قبره يقع فى الجانب الجنوبى من الجامع . وفوقه يوجد مرتفع غير كبير مكسو بغطاء حريرى مطرز بغنى

* قبل هجرة النبى من مكة ، كان سكان يثرب يسمون مقامهم فى اغلب الاحوال «بالمدينة» خلافا للضواحى . واطلقوا على المدينة مع الضواحى اسم يثرب . وهذا الاسم الاخير تراجع مع مر الزمن . واخذوا يسمون المدينة «بالمدينة» قاصدين «مدينة النبى» .

** اسم الشهر الذى يصوم المسلمون فى غضونه . الفرس والاتراك يلفظونه «رمظان» . التقويم الاسلامى قمرى . السنة تتألف من ١٢ دورة قمرية ، وبالتالى من ٣٥٤ يوما او من ٣٥٥ يوما . فى الحالة الاخيرة يضاف الى الشهر يوم واحد آخر . الشهر فى غضون ٣٣ سنة ينتقل دائما عبر جميع اوقات السنة . اسماء الاشهر : محرّم ، صفر ، ربيع الاول ، ربيع الثانى ، جمادى الاول ، جمادى الثانى ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة . ومن يرغب فى معرفة التقويم الاسلامى بمزيد من التفصيل يمكنه ان يراجع مقالة السيد تيرينتييف («بشير آسيا الوسطى . ايار — مايو ١٨٩٦) وكتاب «التقويم الشمسى فى العالم الاسلامى» لمؤلفه شاكر باشا ، ياور السلطان ، والسفير التركى سابقا لدى البلاط الروسى ، والمفوض السامى الحالى للباب العالى لاجل تطبيق الاصلاحات فى آسيا الصغرى . ترجمة محمد آغا شاهطاختينسكى (محمد بك) من التركية . موسكو . سنة ١٨٩٧ ، ١٧٣ ص .

ووفرة ، ومحاط بشبكة من الحديد الصب المطلي بالذهب ، وعاليا فـــوق السطح تشع قبة (السعادة) . والى جانب النبى دفن خليفتاه الاولان - ، الخليفة ابو بكر * والخليفة عمر - والى ابعد ، ابنة النبى ، زوجة الخليفة على ، فاطمة . [. . .]

امضينا فى المدينة المنورة خمسة اسابيع بانتظار قافلة دمشق لأننا لم نتجرأ على مواصلة السفر مع قافلة البدو نظرا لغياب التنظيم فيها ، ثم لأن قوافل البدو لا تراعى البتة اية قواعد صحية . والآبار التى تمر بها هــذه القوافل فى طريقها محاطة بكثرة من الاقذار والاوساخ ، وحتى جثث الذين يموتون فى الطريق يطمرونها كيفما اتفق فى مكان التوقف بالذات .

اغتنمت فرصة الاقامة المديدة فى المدينة المنورة فتعلمت اللغة العربية لأنى حسبت ان ابقى بضع سنوات فى الجزيرة العربية رغم انى غيرت رأيى فيما بعد . اللغة العربية عسيرة المنال على الكثيرين ولكنى كنت اعرفها نوعا ما على الصعيد النظرى ، وهذا ما ساعدنى فى استيعاب الكلام الدارج بسرعة .

يكنّ العرب للكفار ، اى لغير المسلمين اشمئزازا غريزيا ، وفضلا عن ذلك ينظرون بعدم الرضى الى جميع من لا يتكلمون بالعربية . وهم يعتبرون لغتهم ، وليس بدون بعض المبررات اغلب الظن ، لغة فائقة الغنى ، قويـة التعبير ، واحسن لغات العالم وقعا على الاذن ، واكثرها اناقة .

فضلا عن دراسة اللغة العربية بصورة عملية ، اخذت دروسا فى «علم التجويد» الذى يتلخص فى صحة نطق آيات القرآن الكريم ، لأن اهل المدينة المنورة يُعتبرون خيرة قراء ومفسرى الكتاب المقدس . وكثيرون منهـــم يعرفونه بكليته غيبا . تعلمت عند معلم ، من سلالة النبى ، اسمــه على افندى زغيرى . اخلاف النبى يسمونهم «بالاسياد» ولذا كانوا يسمون معلمى «بالشيخ السيد على زغيرى» . ولكل سيد ، عدا ذلك ، لقب «الشريف» ؛ والاسياد يحملون فى الحزام حنجرا اعوج دليلا على تميزهم .

وقد تبين ان السيد على افندى ، كما كان ينبغى التوقع نظرا لاصلـه الرفيع ، كان انسانا متعلما ، محبا للاطلاع ، ولطيفا جدا . فى سنة ١٨٩٨

---

* ابو بكر . من قديم الزمان والى الآن يعتز العربى اكبر الاعتزاز بكونه ابا ، ولهذا يخاطبونه باسم ابنه دليلا على التقدير والاحترام . الخليفة ابو بكر ، الــذى تسنم الخلافة من سنة ٦٣٢ الى ٦٣٤ ميلادية اى من سنة ١١ الى سنة ١٣ هجرية لقّبه النبى «بالصدّيق» . اما عمر الذى نعته المؤرخون وكذلك العلماء المسلمــون «بالفاروق» لعدالته ، فقد حكم من سنة ٦٣٤ الى ٦٦٤ . والخليفتان ، ولاسيمـــا عمر ، عملا كثيرا على نشر الاسلام وتأسس الامبراطورية الاسلامية .

تجوب فى ربوع آسيا الوسطى وروسيا ، وزار مدينة اوفا حيث كان من حسن حظى ان ازوره . وقد عرفنى فى الحال ، وسُرّ باللقاء على ما يبدو . امضينا معا امسيتين ، متحادثين عن روسيا وعن الجزيرة العربية ، ومتذكرين ، فيما تذكرنا ، المدينة المنورة ودروسنا . وغنى عن البيان انه لقى من جانب المسلمين فى كل مكان ، بوصفه ضيفا رفيع المقام ، ومبجلا ، ونادرا ، الاحترام اللائق والاستقبال المناسب . [. . .]

فى المدينة المنورة تسنى لى ان احضر محاكمة ، ولكن بصفة شاهد .

قبل سفرنا ببضع سنوات توفى فى المدينة المنورة حاج ، بشكيرى من انحائنا ، تاركا زوجة واولادا . وبموجب القاعدة العامة السارية المفعول ، اخذوا اموال المتوفى ، حتى حضور ومطالبة ورثته الشرعيين الى بيت المال اى الى مؤسسة تشرف على اموال وتركات الموتى . اعطت زوجة المرحوم احد رفاقى وكالة للحصول على الارث . طلبت المحكمة شاهدين بوسعهما ان يؤكدا صحة الوكالة . وكنت انا احد الشاهدين . استجوبونا بعد القسم . جرت المحاكمة فى حجرة متواضعة ، علنا ، امام الحضور ، وبصورة لائقة جدا . والدعاوى يفصل فيها قضاة تعينهم الحكومة التركية . وعند الفصل فى الدعاوى يسترشدون بلوائح خاصة تسمى «بالدساتير» ؛ وهذه تضعها الحكومة التركية على اساس احكام الشريعة .

طريقة وضع الدستور الذى يتجاوب مع الحياة الواقعية هى التالية . توجد فى القسطنطينية لجنة خاصة من حقوقيين مسلمين يضعون ، كما اشرنا اعلاه ، على اساس احكام الشريعة ، مشروع قانون فى فرع معين من الحق ، عارضينه فى شكل عقائدى . مشروع القانون الموضوع هنا يطبعونه ويرسلونه الى المحافظات العامة والمحافظات فى الامبراطورية حيث توجد لجان ثانوية . وهذه تدرس المشروع المرسل وتعيده مع اعتباراتها وآرائها . ولجنة العاصمة تدرس هذه الاعتبارات والآراء حول مشروعها وتضع نهائيا وثيقة تكتسب قوة القانون تصبح سارية المفعول ما ان يصادق عليها السلطان .

فى اواخر ايار (مايو) وصلت الى المدينة المنورة قافلة حكومية تركية يجرى تجهيزها سنويا فى دمشق وارسالها عبر المدينة المنورة الى مكة المكرمة مع هدايا عادية لشريف مكة ورؤساء (شيوخ) البدو ، وهدايا للكعبة وللجوامع ، ومع النقود لاعالة الموظفين الاتراك .

هذه المرة كانت القافلة تتألف من الفى جمل وسارت بقيادة عبد الرحمان باشا وبرفقة بضع مئات من الجنود المسلحين بالبنادق وراكبين على البغال .

وكانت القافلة مزودة بمدفع ولذا كانت مضمونة تماما على صعيد السلامة والأمن دون هجوم البدو المتوحشين . والى هذه القافلة انضممنا نحن المسلمين الروس وعددنا ٤٢ شخصا . ومعنا سافر مهاجر روسى ، طبيب تعلم على نفسه ، وساعد كثيرا ومجانا اثناء السفر بنصائحه وادويته .

فى ٣٠ ايار (مايو) مساء ، انطلقت القافلة من البوابة الشرقية للمدينة المنورة فى طريق لا تمضى عليه قوافل البدو /لأن هذا الطريق اطول من الطريق العادى . قطعنا الطريق من المدينة المنورة الى مكة المكرمة فى الشقادف ، ولكن توجد فى قافلة دمشق تختروانات ايضا . التختروان انما هو حمالة يركبون عليها لاجل ركوب المسافر كشكا غير كبير له نوافذ صغيرة جدا يمكن فتحها . وهذا الكشك يشدونه بين جملين سائرين الواحد تلو الآخر .

كانت القافلة تسير نهارا فقط ، منطلقة من الموقف بعد صلاة الفجر اي قبل طلوع الشمس بساعة ونصف ساعة تقريبا ؛ وكانت تتوقف لربع ساعة لاجل اداء صلاة الظهر ثم كانت تسير بلا توقف حتى صلاة المساء وادائها قبل غياب الشمس وتتوقف لقضاء الليل . وقبل توقف القافلة ، يرسلون الى الامام لاجل الاستكشاف افرادا من حرسها المرافق والخدم الذين ينصبون الخيام .

كان الوقت اثناء الوقفة ينقضى بما يكفى من المرح فى تبادل الزيارات واحتساء الشاى (كانت معنا سماورات روسية) وفى الاحاديث التى غالبا ما كانت تستطيل الى ساعة متأخرة من الليل . وقد اجتزنا الطريق كله بهدوء وانشراح وبشاشة ، ولم يكن ثمة شىء ، على ما يبدو ، ينذر بويلات الوباء الذى كان ينتظرنا فى مكة . . .

ركوب الجمال لا يطاق البتة . يهتز الراكب واى اهتزاز . ولدى كل خطوة من الجمل يتأرجح الراكب تارة الى جانب وطورا الى آخر ولذا يصاب كثيرون فى الايام الاولى بمرض دوخان البحر . وهذا الركوب ازعجنى لفترة من الزمن الى حد انى طلبت من سواق الجمل ، وهو عربى سورى ، ان يتنازل لي عن حصانه لمدة يوم واحد . وافق وان لم يكن ببالغ من طيبة الخاطر ، وحل محلى فى الشقدف ، واخذ يراقبنى منه بين الفينة والفينة طالبا ان امضى بمزيد من الهدوء والبطء ، رغم انى لم اكن افكر البتة بحث حصان لا اعرفه . . .

ان العرب يحبون ويقدّرون احصنتهم الى اقصى حد . ولا يمكن ان نجد عند اى شعب آخر مثل هذا التعلق بهذه الحيوانات الضرورية فائق الضرورة

لاجل القبيلة ، المترحلة على الاغلب . وهذا التعلق ليس غريبا لا على الحكام ولا على الشعب البسيط ، ولا على النساء ولا على الاولاد . وكثيرون من الشعراء العرب تغنوا بالحصان . وهناك ادلة كثيرة على حب العرب وتعلقهم برفاقهم فى الفرح ، فى المجد والتعاسة – الاحصنة . . . [. . .]

فى اليوم الحادى عشر مساء اقتربت قافلتنا من مكة وتوقفت فى محلة شهادة ؛ وسرعان ما جاء دليل المسلمين الروس محمد على سروجى مع احد معاونيه . والادلة هم قادة الحجاج فى زمن اداء شعائر الحج وفى زمن زيارة الاماكن المقدسة فى المدينة وضواحيها . محمد على سروجى عربى اصيل من مواليد مكة وسكانها الدائمين . آنذاك كان عمره اكثر من ٦٠ سنة . وانا لا اعرف ما اذا كان لا يزال الآن قيد الحياة . كان سروجى يتكلم بالتركية بطلاقة ، ولكن اللغة الروسية ايضا لم تكن غريبة عليه . فقد تعلم التكلم بالروسية فى سجن طشقند حين زجوا به فيه بسبب عدم وجود الوثائق اللازمة اثناء تجوبه فى ربوع آسيا الوسطى . وفى السجن امضى سنتين كاملتين الى ان انتهت المراسلات الدواوينية بشأنه ؛ وهذا واقع يدل على غلاظة وقساوة الاوضاع البيروقراطية .

والادلة يعينهم شريف مكة ، وهذا اللقب ينتقل بالوراثة من الاب الى الابن . [. . .]

[. . .] حين وصلنا الى عرفات ، كان الوادى مغطى كليا بالخيام اذ تجمع هنا حوالى نصف مليون من الحجاج من مختلف القوميات : من العرب المحليين ، والبدو ، والافارقة من مصر والجزائر والمغرب ، والهنود ، وسكان جزيرتى سومطرة وجاوه ، وسكان بخارى ، والفرس الشيعيين ، وسكان بوسنيا ، ثم نحو الفين من المسلمين الروس ، وعدد اقل من الافغان ، واخيرا نحو ١٠ صينيين . وللمناسبة اقول ان جميع القوميات تساوت هنا باللباس العام الذى يرتديه الحجاج – ثوب الاحرام .

ان الحادثة التالية قد تعطى فكرة عن كبر المخيم . راح احد المسلمين الروس يتنزه فى المخيم فاضاع مكان خيمته . وحين كان يسأل عن كيف يجد جماعته ، كانوا يسألونه من اى بلد جاء . وهذا لأنه بوسع المرء ، اذا عرف وطن السائل ، ان يخمن القافلة التى وصل معها والمكان الذى توقفت فيه . ولكن هذا الساذج لم يخطر فى باله ان يجيب عن جميع الاسئلة انه «قازانلى اى قازانى» ، من قازان ، وكان يجيب انه «بوغولمى» ، دون ان يخطر فى باله ان عدد قليلا جدا من الناس ، لا فى الجزيرة العربية وحسب ، بل ايضا فى روسيا اغلب الظن ، سمعوا بوجود بلدة بوغولما الصغيرة فى

محافظة سامارا . . ولذا لم يستطع ان يتلقى جوابا من احد على اسئلته ، وامضى اكثر من نصف اليوم فى البحث ؛ ونحو المساء فقط وصل بالصدفة الى خيام مواطنيه .

طوال ليلة الحادى عشر الى الثانى عشر من حزيران (يونيو) صدحت الموسيقى فى مخيم الحجاج ، وشعت الالعاب النارية والصواريخ ودوت طلقات المدافع بين الفينة والفينة . كانت هناك ثلاثة مدافع . واحد فى قافلتنا ، والثانى فى القافلة المصرية ، والثالث فى القافلة المكية .

اليوم الثانى ، يوم عرفات ، بدأ بالقاء موعظة دامت حتى الساعة الرابعة تقريبا من بعد الظهر . وقد القى الموعظة امام معين خصيصا ، وصعد الى الجبل على جمل ابيض وتوقف على بعد بضعة ساجينات من العمود الحجرى المنصوب على الجبل . لم اعرف مضمون الموعظة بسبب الضجة المحتمة فى مثل هذا الحشد الجمّ من الناس ، وبسبب بعد الامام . [. . .]

عند الظهر تكشفت بين الحجاج اصابات مرض . كان المرضى الاوائل من عداد اليمنيين ؛ وبعد بضع ساعات ، سرت فى المخيم بسرعة البرق اشاعة عن حالات وفاة . تكدّر الجميع ، ولكن خضوع المسلمين لمشيئة الله كان له الغلبة . فلم يُخَالَف النظام العادى للاحتفال بالعيد العظيم والنادر الى اقصى حد بالنسبة للاغلبية الساحقة . وعدا ذلك ، لقى الجميع العزاء من الايمان فى ان من امضى الليل فى عرفات قد لقى الغفران عن جميع الخطايا التى اقترفها قبل ذاك .

قبل غياب الشمس بدأ جميع الحجاج ، باستثناء الشيعيين ، يتجمعون للرحيل ؛ وحين دوت طلقة المدفع اطلق جميع الحجاج ، وعددهم نصف مليون شخص ، هتافا مدويا بالتشهد ، وانطلقوا بلا نظام فى طريق مكة الى وادى منى .

كان الجمع فى منتهى التنوع . مضى البعض سيرا على الاقدام ، ومضى بعض آخر على ظهور الحمير او على ظهور الجمال ، ومضى بعض ثالث فى شقادف بسيطة ، وبعض رابع فى تختروانات مزينة بسخاء وغنى ؛ وبعض خامس على احصنة بديعة وحتى فى عربات مطلية بالذهب .

وعلى بعد قرابة عشرة فرستات عن عرفات ، توقف الجميع لبضع ساعات فى وادى المزدلفة حيث تلاقى آدم مع حواء ، كما تقول الاسطورة ، بعد طردهما من الجنة ، وحيث قضيا الليلة الاولى . يقع الوادى بين الجبال . وهنا توجد بلدة صغيرة ، ويوجد مسجد محاط بحائط . بعد اداء صلاة المساء وصلاة الفجر ، واصلنا السير عند الفجر علما بان كلا من الحجاج

اختار لنفسه عددا معينا من الاحجار الصغيرة . وعلى بعد بضعة فرستات من المزدلفة تقع بلدة منى الصغيرة جدا فى واد بالاسم نفسه . هذا الوادى يحفل بالذكريات ؛ والمؤرخون المسلمون يذكرونه غير مرة . هنا ، كما يقال ، كان قبر آدم ، وهنا قدم قايين وهابيل الاضاحى ، وهنا ولدت هاجر ابنها اسماعيل فى احد الكهوف ، وهنا اراد ابراهيم ان يضحى بابنه ، ولكن الشيطان المتجسد بصورة شيخ مسن حال دون ذلك ، ولذا اخذ البطريرك ابراهيم يرجمه بالحجارة . وهنا اخيرا اغرى الشيطان نفسه اسماعيل على الانتحار ، وقطع الطريق ثلاث مرات امام ابراهيم واسماعيل حين عادا من عرفات الى مكة بعد اداء فريضة الحج ، الامر الذى كان لا بد من ان يجازى عليه ؛ فان النبيين – الاب والابن – اخذا يرجمانه بالحجارة . ثم ، كما تقول الاسطورة ، راح اسماعيل طوعا واختيارا الى المكان الذى كان يجب ان يضحى به فيه ولكن الشيطان اغراه هنا ثلاث مرات محاولا ان يصرفه عن اطاعة والده وعن عزمه على التضحية بنفسه . ومكان كل من لقاءات اسماعيل الثلاثة هذه مع الشيطان مُعَلَّم بعمود حجرى يرميه الحجاج (فى غضون الايام الثلاثة من الاقامة فى منى) بالاحجار المجلوبة من المزدلفة تذكيرا بان اسماعيل رد على اغراء الشيطان برميه بالاحجار * .

فى وادى منى توقفت قافلة الحجاج بأسرها لمدة ثلاثة ايام ، ما عدا الشيعيين الذين بقوا فى عرفات ، وكانت تلك اكبر وقفة . هبت «السموم» وارتفعت الحرارة من ٢٧ درجة بمقياس ريومور الى ٣٥ درجة فى الظل بسرعة بالغة .

الوادى – والاصح القول – الفج ضيق جدا ، ولذا تلامست خيام الحجاج المنصوبة وتماست تقريبا احداها بالاخرى . والصخور العارية التى تطوق الوادى والتى تسخنها الشمس حولته حقا وفعلا الى فرن هائل مشددة القيظ الذى لا يطاق وكتمة الهواء الخانقة فوق ما هما عليه من شدة . وازداد عدد المرضى وازداد عدد الموتى .

وكان اليوم التالى يوم تقديم الاضاحى ** .

صحيح ان تقديم الاضاحى هو بمثابة العمل الاخير فى جميع اعياد الحج ،

---

* يضرب الحجاج الشيطان كما يلى . يضع الحاج حجرا صغيرا على ظفر ابهام اليد اليسرى وينقفه باصابع اليد اليمنى .

** يضحى الحجاج بشتى الحيوانات ولكن على الاغلب بالغنم . علما بانه يجب ان يكون الحيوان خاليا من اية نواقص بد . . . سليما تماما .

وصحيح انه كان ينبغي على القافلة ان تعود الى مكة فى اليوم الثالث ، عند غياب الشمس ، ولكن هذه المرة اجيزت مخالفة النظام العادى بسبب تزايد عدد الوفيات اكثر فاكثر ، ولذا عدنا الى مكة بعد يوم من الموعد ، وذلك فى ١٥ حزيران (يونيو) .

لا بد من الاشارة الى ان القيظ الذى لا يطاق فى وادى منى كانت لـه جوانب طيبة ايضا . فان التجمع الهائل من الناس والحيوانات فى واد عميق ضيق وكثرة النفايات بعد الذبح كان لا بد لهما ان يتسببا ، فـى اوضاع اخرى ، بنتانة رهيبة ، الامر الذى لم يحدث هنا ؛ فان شمس الجزيـــرة العربية قد ادت واجبات الوقاية الصحية بشكل ممتاز ؛ اذ ان جميع النفايات قد جفت آنيا وفقدت القدرة على نشر النتانة والروائح الكريهة فى الهواء...

من مجموعة المسلمين الروس الذين جاؤوا مع قافلة دمشق ، وعددهم ٤٢ ، وصل اربعة الى مكة مرضى ، ومات ثلاثة منهم فى اليوم نفسه متضورين فى آلام رهيبة من التشنجات . ثم اخذت تتوارد معلومات عن الجديد والجديد من الاصابات والوفيات بين الحجاج من المسلمين الروس .

علاوة على الظروف المناخية ، يشكل خطرا كبيرا على القادمين الى مكـة لحم الاغنام المحلية الذى هو لذيذ جدا ، والحق يقال ، ولكنه يثير اختلالا شديدا فى المعدة . ومرد ذلك ، كما يقولون ، الى ان الاغنام تأكل ما يسمى العشب المكى (السنا المكى) اى الورق الاسكندرى . هذه النبتة ، كما هو معلوم ، تملك خاصية مسهّلة . وللحيلولة دون التأثير المضر للحم المحلى فى الجسم ينصحون بتقطيعه قطعا صغيرة وقليه او شويه ، قبل طبخه ، ثم باستعماله فى الطعام . وان الحساء من هذا اللحم والمآكل الاخرى منه لـم تمارس بالفعل تأثيرا ضارا فى المعدة فى حال تناولها باعتدال .

تجلى المرض بالضعف العام ، والسهال ، والقيء ، والتشنـج . وكان الموت يحل بعد ساعتين او ثلاث . ولى كثرة من المبررات للقول ان هـذا المرض هو الكوليرا الاسيوية الحقيقية * .

اخذ القيظ يشتد يوما بعد يوم ؛ كذلك ازداد عدد الوفيات ، ولذا اسرع الجميع الى مغادرة المدينة بخير وسلامة . [...]

بعد العودة من منى الى مكة اشترينا فى اليوم التالى بعض الاشياء ثـم اغتسلنا بعد الظهر بماء زمزم ، وقمنا بطواف الوداع ، وقبّلنا للمرة الاخيرة الحجر الاسود ، وعتبة بيت الله ، وكسوته ، وادينا الصلاة ، وخرجنا من المسجد ناظرين الى بيت الله حتى توارى عن انظارنا .

* الكوليرا فى الحجاز ظاهرة عادية تحل سنويا .

عند غياب الشمس انطلقت مع واحد من رفاقنا وبرفقة ثلاثة من العرب الى جدة لكى نركب الباخرة هناك ونسافر الى وطننا روسيا . رحت راكبا على بغل ؛ وبما اننا قطعنا المسافة كلها بين المدينتين (٧٠ فرستا) فى الليل ، فانى لم ار شيئا عدا المسافرين فى الاتجاه المعاكس ، المنطلقين مجموعات على الحمير بضجة وضوضاء بين الفينة والفينة .

فى الصباح الباكر وصلنا الى جدة . تقع مدينة جدة على ساحل البحر الاحمر ، وهى مرفأ لمدينة مكة ، كما انها اكبر مركز تجارى فى منطقة الحجاز كلها . والنشاط فى المدينة كبير نسبيا . وهنا توجد قنصليات الدول الاوروبية ، بما فيها القنصلية الروسية . شغل السكان الرئيسى صيد المرجان وعلى الاغلب المرجان الاسود .

وقرب المدينة يدلون على قبر جدة جميع الكائنات البشرية ، حواء ؛ طول القبر زهاء ٦٠ ارشينا . فى وسطه ينتصب مسجد يؤدى فيه الزوار الصلاة . وفى المقبرة نفسها ، دفن ، فى عداد من دفنوا ، القنصل الروسى الاول فى جدّة ، المستشار الحكومى الفعلى ابراهيموف (تترى من تركستان) . وقد توفى بصورة مأساوية فى الطريق بين جدّة ومكة من الكوليرا فى السنة الاولى بالذات من تعيينه ، سنة ١٨٩٢ . ويقال ان المرحوم كان قنصلا متحمسا وهماما يحرص على مصالح مواطنيه الحجاج ، المسلمين الروس .

كان القنصل الروسى الكسندر دمترييفيتش ليفيتسكى لطيفا الى حد انه عرض بسرور النزول فى شقته ، رغم اننا جئنا من محلة عصف فيها مرض لم تكن خواصه معيّنة بعد بدقة ، وسموه بالكوليرا فى جدّة نظرا لعدد الوفيات الهائل .

اغتنمنا ضيافة القنصل الروسى ، واقمنا هنا ثلاثة ايام بانتظار رفاقنا الذين بقوا فى مكة وبانتظار اقلاع اولى البواخر بالحجاج . وبين اولى البواخر التى اقلعت ، كانت الباخرة «عبد القدير» ؛ وقد ركبنا فيها مع الركاب الآخرين واغلبهم من الترك والمسلمين الروس واهل البوسنيا . وفيها سافر ايضا الصينيون العائدون من مكة . وقد جاؤوا الى مكة عبر الهند ؛ اما الآن فقد اختاروا طريقا آخر لكى يشاهدوا القسطنطينية ؛ ولكن هذا الفضول كلفهم غاليا بسبب الحجر الصحى . اقلعنا من جدّة فى ٢١ حزيران (يونيو) وتوقفنا قرب جبال سيناء على بعد ١٢ ساعة فى الطريق من مدينة السويس وبداية قناة السويس .

وقد تبين ان اختيار الباخرة «عبد القدير» لم يكن موفقا ؛ فقد صعد الى متنها زهاء الفى راكب اي ما يوازى ضعفى ما يصح لها من حيث حجمها .

ناهيك بانهم قبلوهم على متنها دون اى تمييز ، سواء منهم الاصحاء ام المرضى الذين رفضت البواخر الاخرى قبولهم . وسرعان ما تكشفت عواقب ذلك ؛ فقد كان الضيق شديدا الى حد ان ركاب الدرجة الثالثة كانوا ممددين حقا وفعلا مثل السمك فى برميل ، بل ان كثيرين منهم حتى انزلوهم فى العنبر الذى نعته الركاب بجهنم نظرا للقيظ وكتمة الهواء اللذين لا يطاقان فيه . وبما انهم قبلوا على الباخرة ركابا مرضى ، فسرعان ما ظهرت الوفيات ؛ واثناء السفر من جدّة الى سيناء رموا فى البحر ٢٥ جثة للركاب الموتى .

وقرب سيناء وجدنا اربع بواخر موقوفة بسبب الحجر الصحى . وكانوا قد انزلوا ركابها الى الساحل ووزعوهم فى الخيام بحيث ان ركاب كل باخرة شكلوا جماعة منفردة ، معزولة تماما عن الجماعات الاخرى ، علما بان حراسا مسلحين كانوا يحافظون على هذه العزلة . اما نحن ، فقد بقينا طوال وقت الحجر الصحى على الباخرة ، ولم نشعر نحن شخصيا بمنغصات هذا الحجر الصحى . [...]

كان للمحجر الصحى مستشفى ولكن المرضى راحوا اليه باقصى المضض والانزعاج لأن الاطباء والخدم فيه عرب لا يفهمون لغات المرضى . واثناء الحجر الصحى كان اليهود يستجلبون من مصر المأكولات ويبيعونها باسعار رابحة جدا بالنسبة لهم : سعر رطل اللحم ٤٠ كوبيكا ، سعر الدجاجة روبل و٢٠ كوبيكا واغلى ، بينما سعر رطل اللحم فى السويس ، على بعد ١٢ ساعة فى الطريق ١٠ كوبيكات فقط ، وبينما شتى اصناف الدواجن - الدجاج ، الارانب ، الحمام - كانت تزدحم بها حقا وفعلا الاسواق فى الاسكندرية والقاهرة . إلاّ ان الطعام كان مؤمنا للمعدمين ، والحق يقال ، على حساب الحكومة التركية .

اثر باخرتنا «عبد القدير» اخذت تتوافد بواخر اخرى وتتوقف كذلك للتقيد بالحجر الصحى . نحو اليوم الخامس عشر من التوقف قرب جبال سيناء ، تجمعت ٢٥ باخرة . وفى هذه الاثناء ، سمحوا للبواخر التى وصلت قبل «عبد القدير» بالسفر ثم بدأت تقلع شيئا فشيئا البواخر التى وصلت بعدها ، ولكن اعتبروا انها خضعت للحجر الصحى . ومحل البواخر التى اقلعت ، حلت بواخر جديدة ، ولذا وصلت اثناء توقفنا قرب جبال سيناء قرابة اربعين باخرة حاملة الحجاج العائدين من مكة .

وبالنسبة لنا نحن ركاب «عبد القدير» دام الحجر الصحى ٣٣ يوما ؛ وفى ٢٥ تموز (يوليو) فقط أُعلن ان بوسع الباخرة ان تستأنف سفرها . نقلوا الركاب من الساحل بالزوارق الى الباخرة . ولكن نقلوا معهم زهاء ٦٠

مريضا بقوا من البواخر الاخرى . أكان هذا سوء استعمال للوظائف ام مجرد نقص فى القيام بها ؟ على كل حال كان من الغريب ان يبقونا فى الحجر الصحى ٣٣ يوما وان ينتهى هذا الحجر الصحى بضم مرضى من بواخر اخرى الينا من جديد . وبالطبع ، ما لبثت النتائج ان ظهرت ؛ فبعد يوم ، كانت على «عبد القدير» خمس جثث .

فى ٢٦ تموز (يوليو) مساء ، اقلعت «عبد القدير» ، وفى صباح اليوم التالى اقتربت من مدخل قناة السويس . وهنا صعد الى الباخرة اعضاء اللجنة الصحية الدولية ، وفحصوا المرضى وتحققوا من عدد الركاب ، ثم دخلت الباخرة قناة السويس التى هى عبارة عن شريط مائى ضيق بين ضفتين رمليتين منخفضتين . والقناة ضيقة الى حد انه لا يمكن لباخرتين ان تتلاقيا ، بل يجب ان تنتظر احداهما الاخرى فى امكنة معينة اوسع .

مضينا فى القناة يوما بكامله بحراسة باخرة صحية صغيرة وحرس مسلح من على ضفتى القناة . واثناء عبور القناة ، تلاقينا مع باخرة حربية فرنسية وباخرة حربية اخرى ، انجليزية . وكان على متن الباخرة الاخيرة طلاب عسكرية فى رحلة تدريبية .

فى ٢٨ تموز (يوليو) ، نقلوا جثث الركاب الموتى الى الباخرة الصحية لاجل دفنها ، وذلك اثناء المرور بمحاذاة الاسماعيلية . وفى مساء اليوم ذاته تجاوزنا بور سعيد ودخلنا البحر الابيض المتوسط ، الامر الذى تجلى فورا سواء فى تغير الهواء ام فى منظر نبات السواحل الذى لم نره قبل ذاك ولو مرة واحدة طوال سفرنا على الباخرة «عبد القدير» .

انعطفنا الى الشرق وخلفنا الى اليمين مدينة يافا ومدينة صيدا ؛ وفى ٣٠ تموز (يوليو) مساء وصلنا الى بيروت . فى اليوم التالى جاء الى الباخرة ترجمان من القنصلية العامة الروسية فى بيروت واعلمنا انه اعد لنا على الساحل مبنى نظيف يجب قضاء مدة الحجر الصحى فيه . امضينا ذلك اليوم كله على الباخرة . وفى الصباح التالى (فى اول آب – اغسطس) نقلونا الى مخيم المحجر الصحى .

وفى بيروت كيفوا للحجر الصحى ثكنات قديمة مرممة تشغل مساحة كبيرة جدا ، ويحيط بها من ثلاثة جوانب سور حجري ، ومن الجانب الرابع البحر . وضمن هذه الرقعة ، توجد بضعة انشاءات حجرية . فى واحد منها مكيف بهذا القدر او ذاك للسكن ، كان يعيش الدكتور العامل فى المحجر الصحى . وهنا ايضا خصصوا غرفة لنا . وكل مساحة المخيم مقسمة فى داخله

بحواجز من الشعريات الى ثلاثة اقسام لكى لا يتصل ويتعاشر ركاب باخرة مع ركاب البواخر الاخرى .

والمحجر الصحى مزود بوفرة من الماء النقى الممتاز ؛ وفى داخله تنتصب الاشجار . ومن حيث الظروف الطبيعية ، يمكن على العموم نعت المحجر الصحى فى بيروت بانه مرضٍ ، ولكن الترتيب والنظام كانا فى منتهى القباحة . فقد انزلوا ركاب الباخرة «عبد القدير» وعددهم اكثر من ١٣٠٠ شخص ، فى احد اقسام المحجر الصحى ، ولم يكن من الممكن بالطبع ان تتسع لهم جيمعا الانشاءات الحجرية المتواجدة فى هذا القسم ، ناهيك بان عدد الخيام كان قليلا ، ولذا تاتى لعدد كبير جدا من الركاب ان يتحملوا الحجر الصحى فى الهواء الطلق .

كان الطبيب واحدا لكل هذا الجمع من سكان المحجر الصحى وعددهم الف وخمسمئة تقريبا ؛ وكان بدون معاونين وبدون ممرضين ، ناهيك بانه لم يكن يفهم اى لغة من لغات الشعوب التى كان ابناؤها من عداد ركاب «عبد القدير» . كذلك الخدم الصحيون كانوا لا يعرفون اية لغة عدا اللغة العربية . وبوسع القارئ ان يتصور الى اى حد مؤسف كان وضع اولئك الذين كان من سوء حظهم ان ينزلوا فى مستشفى لا يمكنهم فيه حتى ان يطلبوا الماء من الخدم الذين لا يفهمون لغاتهم .

كان المستشفى على مقربة من الانشاءات السكنية . كانوا يغسلون جثث الموتى كيفما اتفق قرب الابواب بالذات تحت نوافذ الانشاءات السكنية . وكانت المراحيض ، غير المنظفة ابدا على ما يبدو تنشر رائحة كريهة رهيبة . وكان التطهير يجرى بصورة سيئة للغاية . وزيادة فى الطين بلة ، لم يكن المستشفى مجهزا حتى بالاسرّة وكان المرضى ينامون مباشرة على الارضية .

بفضل القنصل الروسى المرحوم ك . د . بياتكوفيتش وتدخله الحازم ، بعد ان ابلغناه عن اوضاع المحجر الصحى ، اخذت هذه الاوضاع تتغير نحو الاحسن . فقد زودوا المحجر الصحى بعدد كاف من الخيام ، واتخذوا التدابير لحفظ النظافة ولازالة النتانة السائدة . ونقلوا المستشفى الى عمارة واقعة بعيدا عن الانشاءات السكنية والخيام . وظهرت الاسرّة ، ولذا لم يعد المرضى ينامون على الارضية . ومن جراء ذلك قل عدد الوفيات فى المستشفى . فى الآونة الاولى بلغت الوفيات ١٠٠٪ ، ولذا اخذ سكان المحجر الصحى يسمون المستشفى ، لا «كاستاخانة» بل «كاسابخانة» * ؛ وكل

* «كاستاخانة» تعنى مستشفى . «كاسابخانة» تعنى مسلخ .

من كان يدخله كانوا يعتبرونه على كل حال ميتا . وعندما اخذ بعض المرضى يشفون بعد تحسين الخدمة الصحية فى المحجر الصحى ، تعجب الجميع من ذلك بوصفه ظاهرة غير عادية .

كذلك وقعت حوادث طريفة . كان معنا اثنان من تتر القرم . مرض احدهما فوضعوه فى المستشفى . وبما ان رفيقه كان على يقين بانه لا مخرج من المستشفى غير مخرج واحد هو الطريق الى القبر ، وبما انه افترض ان رفيقه لم يعد بحاجة الى امواله ، فقد اقام ضربا من بيع بالمزاد العلنى وباع كل امتعته ؛ ولكن المريض ، لما فيه دهشة رفيقه ، شفى بعد ١٣ يوما وخرج من المستشفى ووجد ان كل امتعته انتقلت الى اناس آخرين ، وبقى بدون اى لباس تقريبا .

ويوما بعد يوم اخذ يتزايد عدد الذين يشفون ، ويقل عدد الذين يمرضون ، واخيرا اعتبروا ان الحالة الصحية العامة لركاب «عبد القدير» مرضية تماما ، فاطلقوا سراحنا من المحجر الصحى . واجمالا بقينا فى المحجر الصحى فى بيروت ٤٣ يوما . وعلى امتداد كل هذه الحقبة من الزمن كان المعدمون يحصلون على الطعام مجانا ، وان يكن شحيحا جدا : فى اليوم رغيفان صغيران من عجين القمح وقطعة متناهية الصغر من الجبنة المالحة جدا .

اقلعت الباخرة السيئة الحظ «عبد القدير» من بيروت فى ١٥ ايلول (سبتمبر) ، وكان لا بد لها ان تخضع فى اورله ، بجوار ازمير ، لحجر صحى آخر مدته يومان . وهنا انزلت قسما من ركابها ، قرابة خمسمئة شخص ، ثم تابعت سفرها . وفى الدردنيل جرى فحص الركاب ، الامر الذى تسبب بوقفة غير طويلة . واخيراً ، بعد كثرة من المحن ، وصلنا فى ٢٠ ايلول الى القسطنطينية . وهنا استقبلنا على متن الباخرة موظف السفارة ، السيد ياكوفليف ، ومعه نزلنا الى الساحل .

زرنا فى القسطنطينية اقاربنا المقيمين هنا من زمان بعيد واقمنا عندهم اسبوعا . وفى ٢٧ ايلول اقلعنا الى اوديسا وفى اول تشرين الاول (اكتوبر) نزلنا فى ارض الوطن ؛ وبعد اسبوع كنت فى اوفا ، فى بيتى ، بين اهلى واقاربى واصدقائى ومعارفى .

مكتبة لينينغراد لمعهد الاستشراق لدى اكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى . B/3355 .48 النص باللغة الروسية اصدرته فى سنة ١٩١٦ فى موسكو الجمعية الامبراطورية لهواة العلوم الطبيعية والانتروبولوجيا والاتنوغرافيا .

الحاج عيشايف

مكة
مدينة المسلمين المقدسة

(حديث حاج)

(مقتطفات)

الفصل الاول

مدينة جدة

في سنة ١٨٩٥ خدمت فى مدينة جدة الواقعة على ساحل البحر الاحمر ، فى منطقة من الجزيرة العربية ، اسمها الحجاز . جدّة مدينة كبيرة نسبيا ، والنقطة التجارية الرئيسية فى الحجاز . فى مكلّتها غالبا ما ترسو البواخر والسفن التى تقيم الاتصالات بين اوروبا وبين افريقيا الشرقية وايران الجنوبية والهند والشرق الاقصى . عبر جدّة تتحرك كذلك الى مكة جماهير الحجاج المسلمين القادمين من مختلف البلدان على السفن والبواخر . وفى جدّة ينزلون ويسافرون برا الى مكة التى يفصلها عن جدّة ما لا يزيد عن سبعين فرستا . ولحماية مصالح الحجاج توجد فى جدّة قنصليات من الدول الاوروبية التى عندها رعايا مسلمون ؛ وفى عداد القنصليات القنصلية الروسية التى خدمت فيها [. . .]

على الصعيد الادارى والعسكرى يدير جدّة معاون محافظ مكة ، القائمقام . وفى المدينة ترابط حامية تركية من ٥٠٠ فرد وتوجد بضعة مدافع . ولسكن الجنود توجد ثكنتان ، احداهما تقع على ساحل البحر ، قرب المكان الذى ينزل فيه الحجاج من البواخر ، والاخرى قرب قبر حواء .

لا وجود فى المدينة لطرائف خاصة ، ما عدا قبر حواء الواقع خارج المدينة ، وسط مقبرة كبيرة . لمدفن ام البشر اجمعين نحو ٦٠ ارشينا بالطول ؛ فى مقدمة القبر (اى فى موضع الرأس فى القبر) يوجد ضرب من صفيحة من المرمر عليها كتابات عربية ؛ وتنتصب نخلة . فى الطرف الآخر من القبر تنمو شجيرات ما . فوق وسط المدفن يوجد بناءان تحت سقف واحد ، احدهما يعتبرونه مسجدا ، وفى الثانى يوجد مدفن يتوافد اليه الحجاج ويلثمونه . قرب المدخل ، يوجد ، فى الخارج ، خزان محفور فى

صخرة كبيرة يشبه الجرن الذى تشرب منه الخيول . وفى الخزان يصبون الماء ويعتبرونه زمزم حواء . وهنا يعيش عدد عديد من الشيوخ ، وعدد اكبر من النساء والاولاد الفقراء ؛ وهؤلاء يجمعون الحسنات من الحجاج الذين يتوافدون لاداء الشعائر الدينية .

مدفن حواء ، كما سبق ان قلنا ، تحيط به مقبرة دفن فيها ، مثلا ، القنصل الروسى الاول فى جدّة المستشار الحكومى الفعلى شاهيمردان ميرياسوفيتش ابراهيموف الذى توفى من الكوليرا فى العام الاول بالذات من تعيينه (عام ١٨٩٢) . وعلى مدفنه حجر عليه كتابة بالروسية والعربية نصبه القنصل الذى خلفه ، السيد ليفيتسكى .

وبما ان المرحوم ابراهيموف كان معروفا جدا فى تركستان وعموما فى آسيا الوسطى حيث خدم زمنا طويلا ، فانى ارى انه ليس من النافل ان اسوق معلومات جمعتها من بعض الافراد عن وفاته ، خصوصا وانها تصح عموما على وضع الحجاج فى زمن الاوبئة من حيث عجزهم التام عن تدبير سبيل للاتصال بين جدّة ومكة ، ومن حيث نقص الاهتمام والعناية بهم من جانب العرب المحليين والحكومة التركية .

وبما ان ابراهيموف كان يعيش على مقربة من مكة ، فقد كان ملزما ، بوصفه مسلما ، ان يقوم فى السنة الاولى بالذات بالحج اليها ، اى برحلة دينية لاجل السجود للمقدسات الاسلامية . ولسوء حظه نشب فى ذلك العام وباء كوليرا شديد ، تأجج اواره بخاصة فى مكة فى «يوم عرفات» — اى فى ذلك اليوم الذى يمضى فيه الحجاج ، بموجب نظام اداء شعائر الحج ، الى وادى عرفات الواقع على بعد ٢٠ فرستا من مكة . وخاف المسكين ابراهيموف خوفا شديدا وتوجه رأسا من عرفات الى مكة بدون توقف . وهنا مرضت زوجة القنصل ، اما بالكوليرا واما من الارهاق اثناء التحرك السريع من عرفات . ترك ابراهيموف زوجته فى مكة ، ومضى الى جدّة مع فارسين (خادمين) ومع احد التركستانيين ومعهم مضى ايضا طبيب مصرى . وعند الرحيل كانوا جميعا بخير الصحة والعافية ، ومضوا ركوبا مع قافلة . فى المقهى الاول بالذات توقفوا للاستراحة . احتسوا القهوة والشاى واكلوا . وتابعوا السير ، وما كادوا يقطعون بضع مئات من الساجينات حتى اصيب ابراهيموف فجأة باختلال فى المعدة ، اذ اصابه اسهال دموى قوى . انزله الخادمان عن السرج ووضعوه ارضا . بدأ الطبيب يدلكه وعرض عليه تناول دواء ، ولكن المريض رفض قطعا .

شعر ابراهيموف باقصى الضعف ، فامر بوضعه على تختروان اى على

مسند خاص مصنوع من عارضتين ممددتين على بغلين او على جملين . البون بين العارضتين يجدلونه بحبال مثلما يفعلون فى اسرّة السرتييــن . وعلى التختروان يمكن الجلوس والتمدد اثناء السير بصورة مريحة نوعا مــا . وضعوا المريض وتابعوا السفر . بعد بعض الــوقت ، امر الطبيب احــد الخادمين بمعاينة المريض وجس جسده . قال الخادم ان جسد المريض قد برد . اسرع الطبيب الى الامام وقال انه سينتظر فى المقهى التالى ولكن لن تقع عليه العين فيما بعد . فقد راح الى جدة تاركا المريض المحتضر فى يد القضاء والقدر . مات ابراهيموف قبل الوصول الى محطة حدة . نقلوا جثمانه الى جدة ، حيث دفنوه قرب مدفن حواء .

وعن سبب موت ابراهيموف تنتشر شائعة اخرى لن ارويها انا لانى لا املك اية مستندات .

ان المرحوم ابراهيموف كان يؤدى واجباته القنصلية ، كما يقولون ، بغيرة وحماسة ، وكان يصرّف الامور بهمة وحزم ؛ ولذا يتذكره بالســوء حتى الآن شتى الادلة والوكلاء ، اى تركستانيونا الذين يأخذون فى جــدّة من الحجاج السذج ، السريعى التصديق ، النقود لاجل صيانتها وحفظها اثناء سفر الحجاج الى مكة ؛ وكذلك على العموم جميع الانذال الذين لا يعيشون الا من نهب الحجاج واستثمارهم بكل الوسائل . وقد حاول ابراهيموف ، بوصفه قنصلا روسيا ، ان يحمى مواطنيه من هذا الجراد الذى ينقض عليهم فــى الحجاز ، وكان على العموم يساعدهم بقدر الامكان . تجدر الاشارة الــى ان السياسة الاسلامية فى الحجاز تبدو فى الظاهر بسيطة وساذجة جدا ، ولكنها فى الواقع معقدة وداهية جدا . اما قنصليتنا فى جدّة ، فهى مؤسسة حديثة جدا ، وضماناتها ضعيفة جدا ، الامر الذى يتضح ، مثلا ، من هجوم العرب على قناصل الدول المسيحية فى جدّة سنة ١٨٩٥ . وعلى القنصل الاوروبى ان يكون هنا محترسا خارق الاحتراس [. . .]

الفصل الثانى

من جدّة الى محطة حدّة

[. . .] فى ٣٠ نيسان (ابريل) حوالى الساعة الرابعة بعد الظهــر ، انتظرتنا قافلتنا ما وراء البوابة المكية فى جدّة ، قرب المقهى الاخير الواقع غير بعيد عن البوابة . رحت مع العائلة . وقد رافقنا الى المقهى : مديــر

اعمال قنصلية امبراطورية روسيا فى مدينة جدّة ، والسيد الفائق الطيبة غ . ف . براندت والسكرتير ف . ف . نيكيتنيكوف ، وكذلك كثيرون من التركستانيين القاطنين فى مدينة جدّة . قرب القافلة تقدم منى سـواق الجمال والجندى التركى رئيس الخفر [. . .]

وبما ان القافلة لم تكن بعد جاهزة للرحيل ، فقد رحنا الى المقهى . كنا جميعا مرتدين بدلات اوروبية صيفية خفيفة ؛ كان السيد براندت فى سدارة روسية بيضاء ، والسيد نيكيتنيكوف فى قبعة من القش ، وانا فى طربوش تركى . البدلة الاوروبية هنا ليست على العموم بالامر النادر ، ولا تبهـر عيون السكان المحليين بالجدة والغرابة ، ولكن عمرة الرأس ، الطربوش ، هو العلامة المميزة المعترف بها عموما على التبعية التركية . صحيح انى كنت فى عداد الاجانب ، ولكن كانوا يعرفوننى هنا كمؤمن ، من ابناء الدين نفسه ؛ والاتراك لا يحترمون المسلمين الذين يرتدون على الرأس عمرة ما غيـر الطربوش . وحين كنت فى القسطنطينية وكنت اذهب الى القنصلية او الى السفارة لابسا القبعة ، رآنى الاتراك الذين يتلاقون معى فى الشارع واشاروا غير مرة الى عدم لياقة عمرة رأسى ، الامر الذى اضطررت الى التقيد به مع ذلك نزولا على رغبة سفيرنا السيد نليدوف الذى نفر من الطربوش . وحين وصلت الى الحجاز ، اضطررت تحاشيا لملامات الاتراك والعرب ، الى لبس الطربوش ، رغم كل نفورى منه لانى كنت قد اعتدت على القبعة ، وهى عمرة رأس انسب واسهل ، وبخاصة فى الوقت الحار [. . .]

الفصل الثالث

محطة حدّة والوصول الى مدينة مكة

فى صباح الاول من ايار (مايو) وصلت قافلتنا نحو الساعة السابعـة الى محطة حدّة ، حيث توقفت للاستراحة ليوم بكامله .

هنا استقبلنا كبير الادلة المكيين محمد على سروجى مع تلامذته . وهنا الاحظ ان الادلة هم قادة الحجاج اثناء قيامهم بالحج ، وعن الادلة سأتحدث بمزيد من التفصيل فيما بعد . — جلب لنا محمد على من مكة الكثير من ماء نبع زمزم المقدس واعد غداء من بضعة مآكل واهدى الاولاد بيضات مصبوغة وشتى الحلويات . وقد تبين انه كان يعرف ، قبل رحيلى من طشقند ، عن

سفرى للخدمة فى جدّة ، ومن جدّه تلقى خبرا عن سفرى الى مكة ، فراح الى لقائى ، واستقبلنا هنا بكل مودة وترحاب . وفى الغداء روى الكثير من الاخبار [. . .] وقد اعرب ، فيما اعرب ، عن استيائه من شريف مكة وكذلك من القنصل الروسى السابق فى جدّة ، شاهيماردان ابراهيموف . ومحمد على عربى اصيل ، عمره اكثر من ٦٠ سنة ، ويعرف اللغة التركية ؛ وهو على العموم شيخ محترم جدا وكثير الكلام . منذ نحو عشرين سنة كان فى روسيا ؛ وهو الآن يعمل دليلا لجميع التتر والقرغيز من امبراطورية روسيا ، حاصلا منهم على دخل عن القيادة فى اداء فرائض الحج اثناء زيارتهم لمكة . وهو يحظى بين التتر والقرغيز بكبير الاحترام ، ولا يعرف من يأتون هنا لاجل اداء فريضة الحج وحسب ، بل يعرف ايضا جميع التجار والاغنياء المعروفين من التتر ، وكذلك الايشانات والملاّت القاطنين فى المدن الروسية والسهوب القرغيزية . وعفو الخاطر دهشت لمعرفته الشاسعة هذه عن روسيا وتركستان . فانا ، المقيم فى تركستان ، لا اعرف الكثيرين من التتر المحليين ، بينما هو يعرف الجميع . ولكن كان من السهل تفسير ذلك ، فيما بعد ، لكون محمد على يملك مجلدات كبيرة بقوائم المسلمين الروس . وهو يتراسل مع كثيرين منهم واحيانا يرسل مع الحجاج العائدين الى روسيا تلامذته لاجل جمع التبرعات .

تقع محطة حدّة فى وسط الطريق بين جدّة ومكة . وهى تتالف من بضع منشآت شاسعة مبنية من احجار غير منحوتة مشدودة بالاسمنت . الحوش مسيج بسياج من الحطب القشاش . وفى الحوش ، بمحاذاة السياج ، توجد كثرة من الاكواخ المصنوعة من المادة ذاتها . وفيها يتوقف عادة الحجاج متسترين من اشعة الشمس الحارقة . الى يسار الحوش الرئيسى يوجد حوش آخر مماثل تماما ولكنه اصغر . وفى عداد المنشآت الاخرى توجد منشأة من غرفة واحدة مع قاعة انتظار ومع حوش بقربها . وهى معدة لاجل الحجاج الاغنياء المسافرين مع عائلاتهم ، وهى تؤجر عادة لقاء مبلغ كبير من النقود ، وبخاصة اذا كان بين القادمين مع القافلة موظفون واغنياء اتراك . وبما انه يتعين على القادمين الى الحج ان يمكثوا فى حدّة يوما بكامله فان هؤلاء لا يضنون ، عادة ، بالنقود فى الصيف ، فى القيظ الرهيب ، لاجل النزول فى هذه المنشأة ، فينقذون بذلك حياتهم وصحتهم . القيظ فى هذه الصحراء العارية ، الخالية من الماء يكون احيانا رهيبا حقا وفعلا مهددا الانسان غير المتعود بضربة شمس وعلى العموم باختلال واستضعاف الجسم . فى طريق العودة ، اخذ الموظفون الاتراك الذين وصلوا بعدنا يطالبون

بالضجيج والصياح بهذه المنشأة السمينة لانفسهم — مع انها خالية من المفروشات ، وعارية الجدران ، وقذرة كفاية ؛ ولكن سرعان ما هدئوا حين قالوا لهم ان موظفا قنصليا روسيا يشغلها . وحتى فى الحجاز الموحش يحظى الاسم الروسى بالمكانة والاحترام . . .

فى حدّة يوجد مسجد يسمى بمسجد النبى . تقول الاسطورة ان محمد كان هنا ، وانه من هنا انطلق الى المدينة المنورة . والمسجد عبارة عن بناية حجرية كبيرة نسبيا مرفقة بحوش غير كبير ، ولكنه مهمل جدا . يبدو ان احدا لا يصلى فى هذا المسجد ، ولكن لم يخطر فى بالى ذلك فرحت اليه لاصلى صلاة الظهر غير اننى وجدت هناك جنديا من الحرس العسكرى عنده ، كما تبين ، شقة فى المسجد بالذات ، رغم ان لديه على مقربة مبنى خاصا به مرفقا بمصطبة وحوش . بيت الصلاة يستخدمونه بصورة غريبة جدا . . .

تقع حدّة فى واد جبلى شاسع تبدو فيه اكواخ العرب الحقيرة فى جوار المحطة . وغير بعيد عن محطة حدّة ، يوجد دغل كبير من اشجار النخيل ووراءه يسيل نهر صغير ينبع من منابع جبلية . عرض النهر نحو ثلاثة ارشينات فقط ، وعمقه زهاء نصف ارشين . مياهه تروى المحطة ، وحقل البرسيم ، ومزارع من القرع حقيرة المنظر ، ومزرعة قطن . وهو من الانهر القليلة فى الحجاز . ولكم طاب لى ان ارى فى هذا البلد القائظ والصحراوى ، الخارق الجفاف ، نهرا ، وان صغيرا ، نهرا حقيرا بالنسبة لى انا الذى ترعرعت بين السيول الزرقاء والزبداء لنهر تشيرتشيك الذى يحتوى الذهب ، مع ضجته وهديره المستطاب على الاذن ، وجريانه وسط واد جميل ذى نباتات ساطعة وخضراء . . . وحين وقفت على ضفة النهير الحجازى ، تذكرت عفو الخاطر مدينتى طشقند الغارقة فى اخضر بساتينها الزمردى ، وقدّرت كل اهمية وفرة مياهها التى يقدمها تشيرتشيك الذى لا ينضب معينه . . . ولكن خيل الينا اننا فقدنا طشقند الى الابد . . .

[. . .] وصلت قافلتنا الى مكة فى الثانى من ايار (مايو) عند طلوع الفجر . وعند دخول المدينة توقفت فى ساحة كبيرة ؛ اما نحن ، فاننا لم نتوقف بل رحنا الى شقتنا ؛ وقد قادونا اليها عبر المدينة كلها تقريبا . كان الجو لا يزال معتما ، وفى عتمة الفجر لم استطع ان ارى شيئا بنحو جيد نوعا ما . كانوا يسوقون الجمال فى شوارع ضيقة ومتعرجة . كانت تصعد تارة الى جبل وطورا تنزل . على جانبى الطريق كانت تنتصب جدران وبيوت . فى بعض الاماكن اصطدمنا باناس نائمين فى الشارع مباشرة . ولدن اقتراب جمالنا كان الناس شبه النيام يقفزون بذعر وينهضون على اقدامهم

ويطلقون اللغط والضجيج والصياح ، ولكن الحراس السائرين ، شاهرى البنادق على جانبى جمالنا كانوا سرعان ما يقطعون بنحو ما حبل الضجيج والصياح ، وكنا نواصل السير بهدوء حتى الكومة التالية من المشردين الذين اختاروا الشارع منامة لهم [. . .] واخيرا توقفت الجمال قرب بيت من طابقين كان يعيش فيه احد معارفنا التتر ، المدعو عبد الرحمن سلطانوف الذى انتقل من طشقند الى السكن فى مكة . استقبلنى قرب بوابة البيت . وكان معه الدليل محمد على الذى استقبلنا فى حدّة وسبقنا .

كل حاج يصل حدينا الى مكة ملزم قبل كل شيء باداء الطواف اى السير سبع مرات حول الكعبة (بيت الله) وبين الصفا والمرو * ؛ وبعد ذاك يخلع ثوب الاحرام . ورغم خارق الارهاق من السفر على «سفينة الصحراء» ، فى موكب لا يشرف كثيرا العرب المشهورين بذكائهم وفطنتهم ، اضطررت الى الخضوع للقواعد المقدسة لشعيرة الدخول ، واديتها فى عتمة الصباح باشراف الدليل محمد على . دام طوافى طويلا جدا ، ولذا عدت الى شقتى نحو الساعة السابعة صباحا . وجاءنى حلاق وحلق شعر رأسى ، وبعد ذاك خلعت ثوب الاحرام . كانت زوجتى واولادى لا يزالون نائمين . وكان سلطانوف وزجته مشغولين باعداد الدسترخان اى بالمآكل من شتى الحلويات ، الامر الذى يعرفه جميع التركستانيين جيدا .

كان الوقت يناهز الثامنة حين اخذ يظهر الواحد تلو الآخر الادلة المكيون ، وموزعو مياه بئر زمزم المقدسة ، وخدم بيت الله ، والتتر اصحاب التكيات ، (وهى ضرب من خانات) ، والبخاريون ، والسرتيون ، والقرغيز ، وسائر الحجاج من آسيا الوسطى . ثم ارسل جميع الادلة الغداء من بيوتهم . فهناك توجد العادة التالية : كل دليل يرحب باغنى حجاجه بغداء وفير نسبيا يرسله الى الشقة التى يشغلها القادم . وفى مكة يتوزع الحجاج بين الادلة حسب القبائل والقوميات . ولكنى ، بوصفى ممثلا عن جميع قبائل المسلمين من رعايا روسيا ، تلقيت المآكل من جميع الادلة الذين وزعوا فيما بينهم حجاجنا . ومقابل هذه المآكل كان ينبغى بالطبع تقديم الهدايا فيما بعد . وفى هذا يتلخص بالضبط كل مغزى مجاملة ارسال

* الطواف . عند اداء شعيرة الدخول الى مكة ، يجب قبل كل شيء القيام سبع مرات بالسير ، بالطواف ، حول الكعبة المسماة بيت الله ؛ وبعد ذلك يمضى الحاج الى مكانى الصفا والمرو الواقعين فى جوار الكعبة ويقوم بينهما بالسير سبع مرات مرددا طوال الوقت الصلوات المقررة ، باشراف الدليل ؛ واذا كان الحاج لا يعرف الصلوات ، فانه يرددها اثر الدليل .

الاطعمة الى المسافر القادم . ولا اثر البتة للضيافة فى كل هذا ، بل مجرد امل فى الحصول مقابل الطعام على ما يوازى سعر المآكل مثلين او ثلاثة امثال على الاقل . وصاحب البيت الذى نزلت فيه ، سلطانوف ، بوصفه رجلا محنكا وتاجرا ، كان يقيّم كل طعام بعناية ودقة ، مطبقا اسعار السوق المحلية ، وكان يحدد ثمن الغداء بمبلغ يتراوح بين مجيديتين وثلاث مجيديات . وبما ان العملة التركية ، المجيدية ، توازى بالعملة الروسية روبلا و٦٠ كوبيكا ، تعيّن علىّ ان ادفع مبالغ لا يستهان بها مع اضافة الفائدة ، لقاء مجاملة الادلة وبشاشتهم وضيافتهم ، خصوصا وانهم كانوا يرسلون الىّ زهاء عشرة غداءات . ومنها كنت احتاج مع عائلتى الى غداء واحد فقط ، ولذا صرفت النافل كله على تضييف مواطنى وغيرهم من الضيوف القادمين لزيارتى . وفى عداد الضيوف كان كبير الادلة فى مدينة مكة ، واسمه محمد على . وفجأة اخذ يتكلم معى بالروسية لما فيه دهشتى . وقد تبين انه اعتقل حين تجوب فى ربوع اقليم تركستان بدون جواز سفر وامضى اكثر من سنتين فى سجن مدينة طشقند بانتظار نتيجة المراسلات بشأنه ؛ وفى السجن تعلم اللغة الروسية . فيا للقاءات الغريبة التى تحدث احيانا ! . .

كانت شقتى تقع فى القسم الجنوبى الشرقى من المدينة ، وكانت واجهتها تطل على ساحة كبيرة نسبيا . وبالمقابل ، فى الجانب الآخر من الساحة ، كانت شقة والى مكة حسن حلمى باشا . ومن الجانب الايسر كانت تقع ثكنات الجنود الاتراك ، ومن الجانب الايمن ، بعد بضعة بيوت ، كانت تقع صيدلية حكومية بقربها روضة صغيرة كان الضباط الاتراك والافراد المدنيون يتنزهون عادة فيها فى الامسيات . كانت شقة الوالى تلاصق الجبل من جانبها الخلفى ، وكان الجبل يعلو ، على الاقل ، زهاء ٥٠ ساجنا فوق سطح هذا المبنى الثلاثى الطوابق . وعلى الجبل كانت تنتصب قلعة ، وبقربها سجن المدينة الذى كانت على مدخله مدافع . وبقرب بيت الوالى ، كانت تقوم ، من الجهة الشمالية ، عمارة ضخمة من طابقين (تكية) ، شبه مدمرة ، كانت تنزل فيها اغلبية الحجاج القادمين من مختلف انحاء آسيا الوسطى ؛ ومن الجهة اليمنى كانت تقوم مرابض عسكرية لاجل بغال الركوب التى يركبها هنا الخيالة الاتراك . والى ابعد كانت تنتصب عمارات عسكرية مختلفة ، ثم الى ابعد ايضا ، على سفوح الجبال ، كانت تبدو خيام بيضاء يعيش فيها الجنود الاتراك الذين يؤلفون حامية مكة . وبما اننا اقمنا على هذا النحو بين العساكر التركية وعلى مقربة من شقة الوالى ، فقد كنا مؤمّنين الى هذا الحد او ذاك من حيث السلامة الشخصية ، الامر الذى لا

يشغل المرتبة الاخيرة فى مكة ؛ فهنا جمهرة من الناس الجياع جاءت عن جهل بالوضع بدون اى وسائل للعيش ، ولذا ليس من النافل ابدا اتخاذ تدابير الحيطة والاحتراس . وفى الساحة الواقعة مقابل شقتى ، كانت تتجمع دائما قبيل المساء جموع من الحجاج العرب والهنود من عداد الذين لا مأوى لهم . فى الليل كانوا ينامون فى الساحة المكشوفة متمددين على التربة مباشرة ، دون اى فراش . وبما ان هذه الساحة هى فى مكة المكان الوحيد الذى يمكن فيها استنشاق الهواء النقى نسبيا ، فقد كان كثيرون من الحجاج ممن لا مأوى لهم يتوافدون اليها نهارا ايضا ؛ كانوا يسكبون الماء على انفسهم دون ان يخلعوا ثياب الاحرام . وكان من المؤسف حقا النظر الى هؤلاء المساكين ! كانوا يرتدون ملابس فقدت لونها بسبب الوسخ والعرق ، وبالكد تصل حتى الركاب . وكان كل ما يملكونه عبارة عن صرر صغيرة جدا ، واباريق صغيرة من الصفيح للشاى ، ومظلات مكسرة . كانوا سودا وصفرا بحكم الطبيعة ، قذرين بشكل لا يصدق ، جياعا ، منهوكى القوى الى اقصى حد ؛ كانوا عبارة عن كائنات تشبه حقا الاسماك المدخنة [. . .] ومهما كان المرء يشفق عليهم ، كان لا بدّ له من ان يأخذ منهم جانب الحذر والاحتراس ، لان بمقدور الجوع ان يدفع الانسان الى اقتراف اى فعل وجرم [. .]

الفصل الرابع

مدينة مكة

تقع مدينة مكة فى واد ، وتحيط بها الجبال العالية من جميع الجهات . وهى مبنية على تربة رملية حجرية وتشغل مساحة قدرها ثلاثة فرستات مربعة تقريبا . بيوتها من طابقين الى خمسة طوابق ، وجميعها تقريبا من احجار جبلية بصورة قطع غير صحيحة الاضلاع ، غير منحوتة ، ومصفوفة ومرصوصة جدرانا بالاسمنت . السقوف وكذلك الارضيات فى الغرف هى ايضا من الاسمنت . والبيوت جميعها تقريبا مكيفة لاجل التأجير ، وحقيرة جدا من حيث المنظر والترتيب ؛ والبيوت تشبه من حيث منظرها الخارجى ناهيك عن منظر الغرف الداخلى وعن احوالها الصحية ، ضربا من قصور قديمة كبيرة متروكة بدون تصليح ، وبدون اية عناية على العموم . وواضح ان اصحابها ينظرون اليها كمصدر للدخل ؛ وبما ان تدفق الحجاج دورى

ودائم ، وبما ان دخل اصحاب البيوت مضمون بالتالى ، فهم لا يهتمـون لا بمنظر البيوت الخارجى ولا بالاسباب الداخلية للراحة والرفاه [. . .] .

التجار فى مكة هم على الاغلب من السوريين والفرس وسكان دمشـق والمسلمين الهنود . والسوق يحفـل بشتى بضائع المصانع والمعامـل الاوروبية ؛ وهناك ايضا كثرة مـن الآنية النحاسية الهندية الصنـع . والخردوات هى على الاغلب من انتاج المصانع الانجليزية ، عنينا بها الخرز والاساور والخواتم والحلق والمطرزات والاشرطة والجـوارب والقصـب واللآلئ الاصطناعية والقناديل والسلطانيات والفناجين والكؤوس وغير ذلك من الآنية الزجاجية ، والآنية من البورسلين والخزف ، وكذلك الآنية المعدنية والمطلية بالميناء . وهناك وفرة من الدهائن والعطور والصابون وخلافـه وكذلك من الاحذية من احدث موضة ، فضلا عن الكثير من شتى الحلويات والمقبلات : مختلف المخللات ، والمربيات ، والسردين ، ومختلف السكاكر والحلويات ؛ ومختلف الاجهزة وآلات الخياطة وآلات صنع الثلج ، وخلافها . وجميع هذه البضائع ينقلونها الى الحجاز ، بالطبع ، على السفن الاوروبية عبر مرفأ جدّة . الشرف والمجد للانجليز على نشاطهم وهمتهم ، والاهـم ، على مهارتهم في تعويد الشعوب شبه البربرية على منتوجاتهم ! ومن بيـن منتوجات المصانع الروسية ، لا يقدّر السكان المحليون غير الاقفال التى يجلبها احيانا بعض الحجاج ، وببضع العشرات فقط . وهذا كل ما يأتى الى هنا من روسيا . . .

ونظرا لطبيعة الارض الصحراوية المحيطة بمدينة مكة ، ولنمط معيشة سكان البلد الترحلية ، يستجلبون الى مكة جميع المنتوجات الحيوية مـن بلدان اخرى ومدن اخرى ؛ فان الفواكه الطازجة ، مثلا ، والعنب ، والمشمش والدراق والعنبيات وخلافها يستجلبونها من الطائف ؛ والتمر من المدينـة المنورة ؛ ومختلف الخضراوات والشمام والبطيخ وخلافها من محلـة وادى فاطمة ؛ ومختلف الحبوب وكذلك البطاطا والملفوف جزئيا مـن القاهرة ، واغلبها من بومباى . ولطحن الحبوب المستجلبة توجد فى مكة مطـاحن ، تصاميمها فى منتهى البساطة ، وتحركها الحمير والبغال . ولا وجود فـى المدينة بالذات ولا فى ضواحيها لاية بساتين ومباقل واحواض للخضراوات ولا اية مزروعات على العموم ، اذ ان كل هذا رهن قبل كل شىء بقلة الماء لاجل الرى . وعدا هذا ، لا ينبت فى البلد غير النخيل والنباتات البرية اى الاعشاب والشجيرات الشوكية [. . .]

وفي مكة توجد لاجل الحجاج الفقراء على اختلاف قومياتهم مساكن مجانية تسمى «التكيات» ، وهي بصورة بيوت . وهذه التكيات بناها في ازمان مختلفة المسلمون الاغنياء والشعوب التي تدين بالاسلام وجعلوها وقفا على الحجاج . وهذه التكيات يشرف عليها افراد خصوصيون . منظرها الخارجي والداخلي غير مرض اطلاقا ، مثله مثل اغلبية البيوت في المدينة على العموم . والاجانب ، سواء في مكة ام في عموم الحجاز ، لا يملكون الحق ، بموجب القانون ، في اقتناء الاموال غير المنقولة ؛ والكفار ، اي غير المسلمين ، لا يسمحون لهم لا بدخول مكة ولا بدخول المدينة المنورة [. . .] وهنا يملك العرب كل شيء ؛ ونظرا لبربريتهم وغياب المزاحمة ، قلما يحرصون على حسن بناء العمارات السكنية وصحة صيانتها ؛ اما الحكومة التركية ، فانها ، بسبب الضعف واختلال المالية ، لا تتخذ اية تدابير ، لا لتوفير اسباب الراحة والوثار للحجاج ، ولا على العموم لتحسين معيشة السكان المحليين . والاستثناء الوحيد هو المؤسسات الحكومية التالية : محطة البريد والبرق ، التي تستقبل وترسل الرسائل والبرقيات الى شتى اقطار العالم ؛ ولا تقبل غير الرسائل البسيطة ، غير المضمونة ؛ والبريد في جدّة وسائر مدن الحجاز ينقله مكارون خصوصيون على الحمير [. . .] ومن هذا يتبين ان المواصلات البريدية لا تتميز بحسن التنظيم ولا بالسرعة [. . .] وهناك صيدليتان احداهما حكومية ، والثانية خاصة . وهناك مستشفى نهبه العرب . . . وهذا كل شيء .

ومن حيث تجهيز المدينة بالمرافق وتحسين معيشة السكان ، قلما تحقق هنا على العموم مثلها في ذلك مثل سائر المدن الآسيوية البحتة . وهنا لا وجود البتة للحوذيين ، ولا توجد عربات الا عند والي مكة وشريف مكة . ولا وجود البتة للخيل . والسفر في المدينة يجرى ركوبا على الحمير ؛ والخيالة التركية ، كما سبق ان قلت ، تركب البغال . اما لماذا لا وجود للخيل هنا ، في اهم مدن البلاد التي تشتهر بخيلها ، فلم استطع ان افهم السبب ، ولكن بوسعي ان اؤكد ان الحصان في مكة ظاهرة نادرة جدا . كذلك لا وجود البتة للانارة في الليالي في شوارع المدينة . وفي البيوت يلجأون الى الانارة بالكاز بواسطة القناديل الانجليزية والكاز الاميركي .

يبلغ عدد السكان الدائمين في مكة زهاء ثلاثين الف نسمة . والرياش في البيوت بسيطة جدا على العموم . ولا وجود تقريبا للمفروشات في الغرف ؛ والعرب بمعظمهم يجلسون ويتمددون على الارضية ، مثلهم مثل جميع الشعوب الشرقية . ولا يملكون البتة تقريبا اقتصادا منزليا اذ يشترون من السوق

جميع المؤن . ولهذا السبب توجد فى المدينة كثرة كثيرة من المقاهـــى ودكاكين المأكولات والمخابز .

وفى مكة يعيش عدد كبير نسبيا من مواطنينا من آسيا الوسطى . وهم يمارسون مختلف الحرف ولا يفكرون فى العودة الى الوطن .

وعلى العموم يعيش سكان المدينة بدون ملل كبير . ففى الاعياد ، وفى اثناء صيام رمضان ، وعيد الاضحى ، وغير ذلك من المناسبات ، تقـام نزهات واحتفالات شعبية كبيرة مرفقة بالاراجيح ورقصات الرجال فى سرادق خاصة . واثناء الاحتفالات الشعبية تقام المقاهى ودكاكين واكشاك المأكولات وتباع شتى الخردوات وشتى التوافه واللعبات لاجل الاطفال ؛ خلاصة القول انه يقام بازار عيدى . وفى هذه النزهات والاحتفالات تتجمع على الاغلب النساء والاولاد فى ألبسة مبرقشة ولامعة . وعلى الخصوص تنذهل العين غير المعتادة من ألبسة الاولاد الغريبة من الديباج والشاش . وهم مزينون من الرأس حتى القدمين بشتى العقود ، والنقود المعدنية الفضية ، ومختلف التفائه . وهذه ضرب من حفـلات راقصة مقنعة للاولاد مقامة فــى الهواء الطلق . . . صحيح ان النساء يحجبن وجوههن ، ولكنهن يتنزهـن بكـل حرية ، ويتنادين باصوات مدوية فــى الجموع ، ويتحادثن ، ويضحكـن . ووحدهن حصرا يركبن المراجيح . وعادة يركبن عليها ازواجا ، ويغنيـن الاغانى ، ويقرعن الدفوف . ولا يمنعهن احد عن ذلك ، ولا يندد بهن احد ، وليس هذا وحسب ، بل بالعكس ، فان الرجال يقفون بوقار ورزانة الـى جانب ويستمعون الى اغانيهن وقرعهن على الدفوف (وهنا لا توجد عادة اية موسيقى اخرى) . وعفو الخاطر دهشت لهذه الحرية التى تتمتع بها النساء فى مدينة مكة وعموما فى الحجاز . وفى النزهات والاحتفالات الشعبية يتجمع اناس من عموم المدينة ؛ وفى عدادهم ضباط وموظفون وجنود . كذلك يأتى بالطبع الحجاج الوافدون من شتى انحاء الدنيا ، والتجار ؛ وايضا القضاة والائمة والرؤساء ؛ وخلاصة القول ، ممثلو جميع طبقات مجتمع المدينة وممثلو جميع الاقوام والشعوب الاسلامية فى الكرة الارضية . وجموع الرجال تسلك وتتصرف ببالغ التواضع واللياقة كأنما لا تلاحظ البتة النساء اللواتــى يمرحن . وعادة يطلقون الصواريخ النارية فى الامسيات ، ويشعلون النيران البنغالية ، الرخيصة جدا . ثمن الوحدة من ٥ الى ١٠ كوبيكات . واحيانا يصنعها العرب انفسهم ؛ اما اكبر كمية منها ، فيستجلبها التجار الهنود من بومباى . وعلى العموم تكون الامسيات اثناء النزهات الشعبية مرحة جدا . تطقطق وتنفقع الصواريخ ، تشتعل النيران البنغالية المتنوعة الالـوان ،

الاخيرة ، حدّ السلطان التركى تماما من سلطة شرفاء مكة . فهم مجرد رؤساء دينيين ، ولا يملكون اية سلطة مدنية ، ويخضعون للمحافظ (الوالـــى) التركى ويعينهم السلطان التركى فى الوظيفة بناء على توصية من الوالى .
فى سنة ١٨٩٥ كان عون الرفيق شريفا فى مكة . وكان يناهز الستين من العمر ، وكان له مقر دائم فى مدينة الطائف – الواقعة على بعـــد ٧٠ فرستا تقريبا من مكة باتجاه الشرق ، وراء عرفات .

والشريف يرافقه عادة خفر تركى من ٥٠ جنديا برئاسة ضابطيــــن يعتبران ياورى الشريف ويرتديان حمائل ذات اطراف معدنية مثل يـاورى والي مكة . ويقال ان الشريف يعيل خفره من الجنود والياورين من مداخيله غير القليلة . وعادة يلبس بدلة آسيوية طويلة الاطراف ، ولكن له لاجل المناسبات الاحتفالية زيا خاصا بصورة معطف رسمى يزور به ، مثـــلا ، الشخصيات الاجنبية الرفيعة المقام . وهو يحمل عبر كتفه شريطا من نوع شريط وسام القديس اندرى فـــى روسيا وكثرة من الاوسمة والنجـــوم المرصعة باحجار الالماس واللآلئ .

وعادة يخرج الشريف من بيته فى عربة تجرها البغال . ومما له دلالته انه حين يرغب فى زيارة احد ما ، يرسل سلفا الى الامام قبل وصوله ببضع دقائق بضعة جنود مسلحين مع ضابط . وهؤلاء يقفون فى الغرفة المعدة لاجل استقبال الشريف ، وحين يصل ، يقدمون له التحية : يقدمون السلاح ، ويقفون هكذا امام الشريف ورب الدار طالما تستمر الزيارة . وليس مـن النادر فى هذه الزيارات ان يحملوا مسبقا الى البيت الذى يمضى اليـــه نارجيلته ، كما تفعل النساء ، الامر الذى سبق ان تحدثنا عنه [. . .]
تعقد المحكمة جلساتها علنا . ونظام وشكل النظر فى الدعاوى فـــى غرف المحكمة بسيطان جدا ، غير معقدين ، كما ان الوضع كلـه بسيط ايضا . كل شيء يجرى ببالغ الهدوء وبكل لياقة . وعند النظر فـى القضايا والفصل فيها لا يسترشد القضاة بكتب الشريعة بل بانظمة خاصة وضعتها الحكومة التركية على اساس احكام الشريعة . وهذه الانظمة تسمى «الدستور» ومكتوبة بشكل مواد منفردة ، مثل قوانيننا الروسية ، او على العموم مثـــل المجموعات الاوروبية من القوانين . ومواد «الدستور» تتغير وتتكامل وفقا لمقتضيات الحياة العملية وروح العصر ولا تشكل بالتالي احكاما جامـدة لا

تتغير مثل الشريعة * . والمدعى او المدعى عليه ، اللذان لا يرضيان على قرار القاضى الوحيد الواحد ، يملكان الحق فى استئناف الدعوى الى محكمة اعلى تسمى «حكومة» تقوم بوظيفتها لدى الوالي ، كما سبق ان قلنا .

والحجاز على العموم بلد لا يميل الى التقاضي . ومما له دلالتـــه ان مواطنينا من تركستان يشغلون اهتمام المحاكم اكبر مـــن جميع السكان الآخرين . ومن الجلي انهم يحملون الى هذا البلد ولعهم بالمجادلات وحبهم الحار للتقاضي بدافع من امور تافهة في اغلب الاحيان . وليس عبثا يقال ان العادة طبيعة ثانية .

[. . .] يمكن تقسيم جميـــع الحجاج الى اربع فئات : الفعليـــين ، الاختصاصيين ، التجار ، المحتالين . الحجاج الفعليون او الحقيقيون يذهبون الى مكة بالدافع الدينى فقط ، كما يذهب المسيحيون الى القدس والبوذيون الى التيبت ، الى لهاسا ، وخلافهم . وهم مشغولون حصرا باداء فريضة الحج فقط اى باداء الشعائر والواجبات الدينية ؛ وبعد ذلك ، يعودون فورا الى الوطن . وهؤلاء هم بالطبع خيرة الحجاج . الحجاج الاختصاصيون يقومـون بالحج بالنيابة عن الآخرين ، الامر الذى تجيزه الشريعة ؛ وبما انهم اناس ذوو خبرة فى هذا المجال فانهم يقومون بدور الادلة لاجل المبتدئيـــن ؛ ويسمونهم «البدلاء» ، اى انهم يقومون بالحج بالنيابة عن الآخرين ، بدلا عنهم ، وليس بدون مكافاة بالطبع . و«بدلاؤنا» يتنقلون على الدوام بيـن روسيا ومكة محولين الحج الى ضرب من حرفة . وهذه الحرفة يتعاطاها على الاغلب المُلاّت والائمة وخلافهم ، اى رجال الدين المسلمون . وعلى العموم قلما يسافرون للحج من اجل انفسهم بالذات ، بل يذهبون فـــى اغلب الاحوال بدور البدلاء . وهذه الحرفة — البدالة — متطورة بخاصة بين تترنا رغم انها بدأت فى الآونة الاخيرة تتطور بين سكان السهب القرغيز ايضا .

---

* اصول وضع الدستور هى التالية . توجد فى القسطنطينية لجنة خاصة من الحقوقيين المسلمين ، وعلى اساس احكام الشريعة ، يضع هؤلاء مجموعة الاحكـام القانونة فى فصل معين من الحقوق ، عارضينه فى شكل عقائدى لا وجود له اطلاقا فى كتب الشريعة . ومشروع القانون الموضوع هنا يطبعونه ويرسلونه الى المحافظات والقائمقامات فى تركيا حيث توجد لجان ثانوية ، اقليمية . وهذه تدرس المشروع المرسل لها وتعيده مع اعتراضاتها وملاحظاتهـا . وتدرس لجنة العاصمة هـــذه الاعتراضات والملاحظات ومشروعها هى نفسها وتضع نهائيا قانونا يصبح سارى المفعول ما ان يصادق عليه السلطان . هيئة التحرير [...] (اى هيئة تحرير المجلة التـى نشرت فيها هذه الذكريات . **الناشر**) .

الباهرة ، منيرة الجموع المبرقشة ، المنتعشة ، الصاخبة ، وألبسة الاولاد الغريبة . وفى كل مكان يتعالى قرع الدفوف وتنداح اغانى النساء . . . الضجة ، التبرقش ، الانتعاش . وكـل شىء اصيل ، فريد الـى اقصى حد [. . .]

ولكن لا بدّ من الاشارة الى ان اخلاق النساء فى مكة لا تتميز بصرامة خاصة . ومفهوم للجميع بالطبع ان الحال لا يمكن ان يكون على نحو آخر فى مدينة يتجمع فيها العديد من الرجال ممن لا نساء ولا عائلات لهم . هناك رأى شائع مفاده ان بوسع الحجاج هنا ان يتزوجوا لمدد مختلفة ، من بضعة ايام حتى بضعة اشهر ، ولكننى لا استطيع ان اؤكد هذا الرأى ؛ بيد انه معروف ان الطلب يستتبع فى كل مكان العرض . . . وفى المدينة عدد كبير من العبدات ؛ وفى جوار المدينة اوكار من ادنى واحقر المستويات . . .

وفى معرض الكلام عن نساء مكة ، لا استطيع امتناعا عن الاشارة الى عادة من عاداتهن الفريدة . جميعهن يدخنّ ؛ واذا اردن الذهاب فى زيارة ، فانهن يرسلن سلفا نارجيلاتهن ؛ وحين يصلن ، يجلسن ، ويدخنّ ويترثرن مع ربة البيت ، كما يجرى فى كل مكان وعند جميع الشعوب . وعموما يشغل تدخين النارجيلة فى الحجاز دورا مماثلا تقريبا للدور الذى يشغله عندنا السماور واحتساء الشاى اى القرى وتمضية الوقت [. . .] ولهـذا يستعمل الجميع هنا التبغ ، وغالبا ما لا يجده الراغب فى الدكاكين .

[. . .] ان ضباط الحامية التركية المرابطة فى مكة ، لا يتقيـدون اطلاقا ، على ما يبدو ، بوحدة اللباس العسكرى ولون قماشه . جميعهم يرتدون ما تقع عليه ايديهم ، جميعهم فى ألبسة متنوعة الالوان ، رغم انهم دائما يحملون السلاح : سيفا ذا حد واحد او ذا حدين من الطراز الانجليزى فى حمائل فضية او ذهبية . وعلى الاكتاف يحملون كتافات من الجوخ مع نجيمات معدنية . والجنود يرتدون قمصانا بيضاء . كتافاتهم من الجوخ دون اية علائم . والانضباط والهيئة العسكرية غير ملحوظين بينهم .

وفى معرض الكلام عن الجنود الاتراك ، لا يسعنى لزوم الصمت عن تمرداتهم غير النادرة ضد رؤسائهم . تنشب التمردات بصورة رئيسية لسببين : لعدم تقاضى الراتب فى الموعد المعين ، ولعدم تسريح من خدموا المدة الشرعية ولابقائهم فى الخدمة بصورة غير صحيحة . واثناء الفتنة ، لا يندر ان يحتل الجنود بيت الله بقوة السلاح ، وان ينهبوا سكان المدينة وضواحيها وينصرفوا الى اقتراف شتى الموبقات . ولتهدئتهم ، يلجأون عادة الى محاولات الاقناع ، الامر الذى يشارك فيه ، عدا الضباط ، رجال

الدين ، مؤثرين فى شعور الجنود الدينى . والجنود المرابطون هنا هم على العموم شعب مستهتر جدا ، وذلك ، طبعا ، بذنب من رؤسائهم الذين ليس دائما يتصرفون بصورة عادلة وقانونية .

فى سنة ١٨٩٠ ، تمردت حامية المدينة المنورة لانهم لم يسرحوا الجنود من الخدمة بعد انتهائها . رموا اسلحتهم وراحوا الى حوش قبر النبى وعاشوا هناك اكثر من اسبوع الى ان افلح الرؤساء فى اقناعهم وتهدئتهم . وفى هذا الاسبوع حولوا حوش قبر النبى الى ثكنة ولم يسمحوا لاحد بالاقتراب والصلاة ؛ ونهبوا السوق ودكاكين المأكولات لتأمين المؤونة لانفسهم . وقد نشب تمرد مماثل تماما فى مدينة جدة سنة ١٨٩١ . واحتل الجنود جامعا كبيرا فى المدينة ونهبوا المأكولات ايضا فى السوق .

وفى مكة توجد مطبعة حكومية لا تطبع غير الكتب الدينية الفحوى ، وكذلك صورا بمناظر مكة والمدينة المنورة وبيت الله وخلافها . والطبع كله يكلف رخيصا جدا ؛ فلا يأخذون سوى ثمن الورق والقليل لقاء العمل . وعند بوابتى بيت الله الرئيسيتين توجد بازارات للكتب . والكتب والرسوم التى يشتريها الحجاج يوزعونها فى شتى اقطار المعمورة . وعندنا ، فى آسيا الوسطى ، نجد منها الكثير ، كما هو معلوم ، وذلك فى الجوامع وفى منازل السكان [. . .]

الفصل السادس *

شريف مكة . المحكمة .
الحجاج والادلة

شريف مكة ، انما هو الشخصية الدينية العليا فى عموم العالم الاسلامى . ومن حيث اصله يعتبر سليلا ووريثا مباشرا للنبى محمد (صلعم) . وفى الازمنة الغابرة لعب الشرفاء دور الامراء اى دور الحكام المستقلين ، الاعلين . اما فى الوقت الحاضر ، فان هذا اللقب قد بقى لهم ولكنه لا يتسم باية اهمية عملية . واللقب يكتب على الورق فقط . وفى السنوات العشرين

---

* يحتوى الفصل الخامس وصفا لبيت الله نغفله هنا لانه مماثل لما ورد فى المواد الاخرى المنشورة فى هذا الكتاب . الناشر .

الحجاج التجار يتعاطون على الاغلب التجارة ، وينقلون البضائع من مدينة الى مدينة ويقيمون لمدة غير معينة حيث يرون فائدة لهم . ولا يهمهم البتة حقا وفعلا سواء وصلوا قبل زمن الحج او تأخروا عنه . وبالنحو نفسه يعودون الى ديارهم . وغالبا ما يتزوجون فى الطريق ويبقون للاقامة فى تلك المدن من الجزيرة العربية او من تركيا على العموم حيث وجدوا مأوى لانفسهم . الحجاج المحتالون اختاروا لانفسهم حرفة الابتزاز والنهب من السذج من اخوانهم فى الايمان وبخاصة ممن جاؤوا من مختلف الاماكن النائية ، الموحشة . وهم يستقبلون هؤلاء الحجاج ويرافقونهم فى طريق سفرهم ، ويحرصون على سلامتهم ومصالحهم ، ويتظاهرون بانهم اطيب الرفاق واكثرهم مودة وحسن نية ، وبخاصة على متن البواخر . وهؤلاء المحتالون يدرسون طبع رفيق الطريق ويعرفون قدر امواله ؛ وحين تسنح اول فرصة ينهبون الضحية الساذجة وغالبا ما يتركونها فى يد القضاء والقدر بين اناس غرباء ، بعيدا عن الوطن . وهذه الحرفة تمارسها النساء ايضا [. . .]

فى خاتمة هذا الحديث ، ارى من الضرورى ان اتحفظ . فعن كل ما رأيته احكى كشاهد عيان ، دون ان اضيف شيئا ، وحتى مقللا نوعا ما ، لكى لا امسّ بنحو ما ، عن غير قصد ، المسلمين فى مشاعرهم الدينية ، اذ انهم ، بعد العودة من الحج ، يعتبرون عادة من واجبهم ان يرووا مختلف المعجزات [. . .] وانا احكى عما رأيته وسمعته ، متقيدا باكبر قدر ممكن من الدقة .

مكتبة اكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى . ٢٣٠ . النص باللغة الروسية لشرته فى طشقند مجلة «بشير آسيا الوسطى» الشهرية (١٨٩٦ ، تشرين الثاني — نوفمبر ، ص ٦١—٨١ ؛ كانون الاول — ديسمبر ، ص ٤٥—٨٣) .

ف . ب . تشيريفالسكى

الحج
(من وجهة نظر روسية)

-١-

يوجد فى روسيا اكثر من ١٤ مليونا من المسلمين ، اى اكثر من ١٠ بالمئة من عموم السكان .

على الصعيد الاقليمى يشغل المسلمون مناطق مشارف الاورال ومناطق مشارف القفقاس ، والسهوب القرغيزية ، والمناطق المضمومة الى روسيا فى القرن الماضى من آسيا الوسطى . وفى معرض الكلام عن توزع العنصر الاسلامى على الصعيد الاقليمى ، يجب الا يغيب عن البال ان مسلمى آسيا الوسطى من رعايا روسيا هم على صلة وثيقة من القربى مع مسلمى بخارى وخوى شبه المستقلتين .

وفى سياق تعميم الظروف الاقليمية والاتنوغرافية لا بد ان نرى انه يتعين على الحكومة الروسية ، فيما يتعلق بالحج ، ان تاخذ بالحسبان ان فئة المسلمين تتألف من ٢٠٠٠٠٠٠٠ شخص .

-٢-

فيما يتعلق بالحج ينقسم جميع هؤلاء العشرين مليونا من المسلمين الى جماعتين دينيتين رئيسيتين : الى معتنقى مذهب السنّة ومعتنقى مذهب الشيعة . من الناحية العددية ، يربو عدد السنيين فى الممتلكات الروسية بصورة ساحقة على عدد الشيعيين .

يتجمع الشيعة فيما وراء القفقاس والسنيون الذين يشغلون مساحات شاسعة متواصلة فى آسيا يظلون فى روسيا الاوروبية منغرسين جزئيا فى وسط السكان الروس الذين يؤلفون هنا الاغلبية الساحقة ، ومستقرين جزئيا فى مناطق سلسلة جبال القفقاس . والقرم يستكمل مجموعة مسلمينا الجنوبيين .

-٣-

كل مسلم ملزم بموجب تعاليم محمد باداء فريضة الحج ولو مرة واحدة في العمر ، بصرف النظر عن اية عقبات وحوائل . والقوى القاهرة وحدها هي التي تسمح للمسلم بالاستعاضة عن الحج شخصيا بتكليف شخص آخر للقيام به بالنيابة عنه ، او بارسال التبرعات فى صالح الاماكن المقدسة .

وهذه الفريضة يجب اداؤها - بموجب مذهب السنيين - [ص ٧] قرب الكعبة ، فى مكة ، اى قرب حرم بنى ، حسب اساطير الجزيرة العربية ، فى مكان المعبد الاولي الذى بناه ابراهيم .

تتلخص شعائر العيد فى الطواف حول الكعبة ، فى السير - والاصح ، فى السعى بين صخرة الصفا وصخرة المرو ، فى السير من مكة الى جبل عرفات وفى مرسم رجم الشيطان فى وادى منى على ما يبدو . وهنا ايضا يقدمون الاضاحى فيذبحون عددا كبيرا من المواشى .

فى معرض الكلام عن الحج ، يجدر التذكير بان محمد منع الذى يقوم بالحج الكثير من الامور العادية كحلق شعر الرأس او الصيد مثلا ، ولكنه لا يسمح وحسب ، بل يبارك ايضا التجارة فى زمن الحج وهذا «السعى وراء هبات الرب» محبب جدا جدا الى قلب كل مسلم .

-٤-

ان المسلمين السنيين فى روسيا الاوروبية والقفقاس والقرم لا يواجهون المصاعب فى الحج عبر القسطنطينية التى يمضون اليها عبر مرافئ البحر [ظهر ص ٧] الاسود والتى ينطلقون منها بطريق القوافل الى الجزيرة العربية . اما المسلمون الشيعيون ، فانهم يمضون الى اماكنهم المقدسة بطريق القوافل على الاغلب عبر الحدود الايرانية ، رغم ان المسلمين الشيعيين من مشارف قزوين قد يركبون البواخر ، اغلب الظن ، حتى انزلى ورشت .

اما اغلبية السنيين فى روسيا الاسيوية وبخاصة فى مناطق آسيا الوسطى ، وكذلك مجمل سكان بخارى وخوى ، فمن المشكوك فيه ان يكون من الممكن اجتذاب هذه المجموعة الهائلة بالتدابير الادارية او غيرها من التدابير الى مرافئ البحر الاسود . سيكون من الممكن بالطبع توجيه مسلمى آسيا الوسطى ايضا بالقوة عبر باطوم الى القسطنطينية ، ولكن هذا التدبير

سيكون ضارا مباشرة من جميع النواحى ، وضارا فى المقام الاول بمصالح السياسة الروسية .

—٥—

ان سفر المسلمين السنيين عبر القسطنطينية غير مرغوب فيه اطلاقا ، واذا كان لا بدّ من احتماله ، فبقدر [ص ٨] الضرورة المحتمة فقط ، وليس البتة فى اى حال من الاحوال بوصفه امرا نافعا او مرغوبا فيه .

ان الحج هو ظاهرة ذات طابع دينى سياسى . وبفضل الحج ينتعش المسلمون باستمرار ، لا فى عقائدهم وحسب ، بل ايضا فى عدائهم لغير المؤمنين اى لعموم العالم الذى لا يعتنق تعاليم القرآن . وفى هذا المجال يأتى المسيحيون واليهود اعلى نوعا ما من الوثنيين ولكنهم مع ذلك اعداء الله ، والله عدو لهم ، وهم اصدقاء الشيطان ، والحرب ضدهم عمل يرضى الله الذى لا يقبل حتى صلوات المؤمنين من اجل خلاص الكفار .

ان من يؤدى فريضة الحج يبلغ بالتالى وضع القداسة ، واذا ما حالفه الحظ وحمل الى وطنه شعرة كانت فى لحية النبى (لا يندر ان تكون ليفا من جوز الهند) ، فان الحاج يلبس باعتزاز عمامته الخضراء ، ويرشد الشعب بالهام ، ويأخذ منه جزية لا بأس بها .

ولهذا لا يجوز البتة النظر الى الحج من وجهة نظر واحدة ما ، مثلا ، من وجهة النظر الصحية ، بل يجب النظر اليه من وجهة مصلحة عموم الدولة ، التى تصغر حيالها وجهة النظر الصحية [ظهر ص ٨] الى ادنى حدا . ولهذا ، اذا كان من المفيد من وجهة النظر الصحية توجيه كل جمهرة المسلمين الى نقطتين او ثلاث ، فليس من المفيد اطلاقا فى مصلحة السياسة تمرير هذه الجمهرة عبر بوابة استنبول .

ان القسطنطينية تنتظر بفارغ الصبر دافعى الجزية هؤلاء ، لا عند سفرهم الى الجزيرة العربية وحسب ، بل ايضا عند العودة ، حين يستطيع العلماء ان يستميلوا ويحولوا عقول السنيين البسيطة حسب مقياسهم هم بالذات . ان القسطنطينية بالنسبة للحاج انما هي اكاديمية اضافية لنزعة الجامعة الاسلامية . فان الحاج الذى استماله علماء القسطنطينية انما يعود الى موطنه مسلما ولد من جديد ، تغير تماما . فهو يتحول من انسان بسيط ، شريف ، وحتى من تاجر طيب الى بروفسور ، استاذ ، يدعو الى افكار متسامية الى حد ان السنة الجمع تنعقد من سماعها ، وبما ان الجمع

لا يفهم ما لا يفهم الواعظ ايضا ، فانه ينظر عفو الخاطر الى استنبـول بوصفها مركز الايمان الصحيح الذى سينتقل اليه عاجلا ام آجلا صولجـان الملكية المطلقة العالمية .

-٦-

ان توجيه جميع مسلمى آسيا الوسطى الراغبين فى الحج ، بالتدابير الادارية او حتى بالتأثير فى الامير والخان * ، [ص ٩] الى مرافىء البحر الاسود يقابله الاستياء فى وسط اعتاد على طرق القوافل المنطلقة عبـر افغانستان وبومباى . وفى هذه السبل يسعى الحجاج وراء «هبات الله» اى انهم يتاجرون ، الامر الذى لا يستطيعون القيام به فى سبل السفر البحارية .

لا ريب فى ان بمقدور التأثير الروسى ان يجبر الامير والخان على اصدار الاوامر بتوجيه حج السكان الخاضعين لسلطتهما الى حيث يشآن ، وان الى مرافىء البحر الاسود ايضا ، ولكن هل هذا ضرورى لاجل سياستنا فـى آسيا الوسطى ؟ كلا . يجب ان يبقى الامير والخان فـى وسط السكان الخاضعين لسلطتهما مسلمين طيبين ، صادقى الايمان ، لا يمسان العادات والاعراف الدينية من اى ناحية . واذا كان بوسع الحاكم المسلم ان يقطع الرؤوس بلا حسيب ولا رقيب ، فانه يمعن الفكر مرارا وتكرارا قبـل ان يخالف القواعد الدينية والشعائر والمراسم الدينية .

قد لا يكون تذمر سكان بخارى او سكان خوى هاما بحد ذاته ، ولكـن نحن الروس تهمنا صداقة الشعوب الاسلامية الحدودية واخلاص حكامها سواء بسواء . [ظهر ص ٩] وفضلا عن ذلك ، نرى ان ذلك القسم من السكـان الذى يزدرى شتى المخاطر حيال قداسة الحج يمكنه ان يزدرى ايضا حتى الاوامر الصارمة للغاية ، بل ويقوم بالحج خفية عبر الممتلكات الاسيوية . وبحكم هذه الاعتبارات اعتقد انه من الافضل الامتناع كليا عن اغلاق سبـل القوافل من آسيا الوسطى ، والاكتفاء بانشاء مراكز حدودية لاجل اجـراء فحص طبى للحجاج العائدين من الحج .

---

* المقصود امير بخارى وخان خوى . المعرب .

-٧-

ينبغي الا يلقى الحج اية حماية من جانب اصحاب السلطة ، ولهذا يبدو المشروع القائل بواجب المحافظين الاهتمام بتامين المأكولات وبتسهيلات السفر امرا غير مفهوم اطلاقا . وهل هناك شيء من هذا القبيل بالنسبة للحجاج المسيحيين ؟ كلا ، على ما يبدو .

لنتذكر ان التنظيمات المضبوطة كفاية ليس دائما تتجاوب مع مصالح السياسة السائدة . فان التنظيم المضبوط للشؤون الدينية الاسلامية في اورنبورغ وقازان قد اسفر عن اعتناق الملايين من السكان القرغيز للدين الاسلامي .

[ص ١٠] ولماذا هذا الجهد الجهيد لكي يصل المسلمون الحجاج الى اكاديمية التعصب الاعمى بصورة مريحة جدا ؟ فاذا كان ذلك لاهداف محمودة ، مفعمة بالروح الانسانية ، فمن الضروري بذل القدر نفسه من الجهد او حتى قدرا اكبر في صالح الحجاج المسيحيين . اما اذا كانت هذه التدابير صحية بوجه الحصر ، فينبغي ان تكتفي بالتوصل الى هدف واحد فقط هو ان لا يجلب الحجاج المسلمون معهم امراضا معدية من الجزيرة العربية او من بلاد ما بين النهرين .

ان نية التأكد من سلامة صحة المسلمين عند اجتياز الحدود في الطريق الى الاماكن المقدسة تتجاوز حتى حد المرغوب فيه من وجهة النظر الاسلامية . فان المسلمين الذين يموتون في اثناء الحج يتطهرون بالتالي من كل ارضى ، من كل دنس . ولهذا لن يقابل المسلمون الحرص على معالجة المرضى (اذا لم يكونوا مصابين بامراض معدية) بالتعاطف .

-٨-

ان الانظمة [ظهرص ١٠] المضبوطة لابعد من ان تبلغ دائما وعلى العموم الاهداف المنشودة . اما التنظيم المصمم في القضية موضوع البحث ، فانه يتمادى الى حد ان العمد (الشيوخ) والجاويشية سيقتربون من وضع الموظف الحكومي حتى مع الحق في المكافآت .

الجاويشية ضارون على العموم لانهم «يدعون بالحاج» الى الاماكن المقدسة مبتزين من مهنتهم الكثير من المنافع . والجاويش المنتخب طوعا واختيارا يحظى بقسط من الاحترام من جانب جماعة الحجاج السائرة وراءه ،

ولكن الجاويش المعيَّن من فوق لن يحظى بهذا الاحترام . واذا خطر فى باله عند اجتياز الحدود ان يطبق انظمة اوحوا له بها او امروه بتطبيقها ، فان رفاقه الحجاج سيعلنونه بالكافر ويطردونه على الارجح من بيئتهم . ويبقى للجاويش او للعمدة (فيما وراء الحدود) ان يذعن لمتطلبات الجمهور ، واذا كان فى الجمهور حاج محنك فانه لن يبقى للجاويش المعين غير ان يكون خادمه المطيع .

ودون الاستغراق فى محاكمات شاسعة ومتعددة الجوانب بصدد هذه المسألة البالغة الشأن من الناحية السياسية كما هو عليها الحج ، ارى من الممكن الاكتفاء بالمبادئ التالية :

١ – الامتناع فى كل حال من الاحوال عن اللجوء الى التدابير غير العقلانية فى توجيه الحجاج عبر مرافئ البحر الاسود والقسطنطينية .

٢ – الامتناع عن اغلاق سبل القوافل القائمة فى آسيا الوسطى من اجل الحج .

٣ – انشاء مراكز عبور على الخطوط الحدودية مع فرض رقابة صحية جدية على الحجاج العائدين .

٤ – الامتناع عن اللجوء الى اية تدابير حماية فى صالح الحجاج المسلمين وبخاصة الى تدابير تتفوق على تدابير العناية بالحجاج المسيحيين .

٥ – ترك قضية تنظيم الحج للمسلمين مع منحهم الحق فى تقديم المساعدة الطبية لمواطنيهم واقربائهم وابناء قبائلهم .

فل . تشيريفانسكى

ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ . الفهرس I . الاوراق ٥–١١ . المخطوطة على ورق ابيض (٢٢×٢٧,٥) ملحقة باحدى صيغ «مشروع القواعد الموقتة بصدد حج المسلمين» . تنشر للمرة الاولى .

وثيقة وزارة الداخلية

وزارة الشؤون الداخلية

الدائرة الطبية

القسم الخاص بالامراض الوبائية

---

٢١ آذار (مارس) ١٩٠٢

رقم ٨٤٨

حول الموافقة على مشروع
«القواعد الموقتة بصدد حج المسلمين»

الى لجنة الوزراء

صاحب السعادة ف . ك . بليفى (١)

عرض القضية

ان امكنة حج المسلمين الواقعة فى الجزيرة العربية وايران وبلاد ما بين النهرين ، – نظرا لتجمع الحجاج من جميع انحاء الدنيا ، بما فيها البلدان التى تتواجد فيها الكوليرا على الدوام وينشب فيها الطاعون احيانا كثيرة – تتعرض كل سنة لاخطار انتشار المرضين الوبائيين المذكورين فيها ، ولذا تتوافر دائما امكانية نشر الاوبئة من جانب الحجاج عند عودتهم الى اوطانهم ، الامر الذى يضفى بدوره على هذه الحركة طابعا خطرا من الناحية الصحية .

ان الحج الى ايران وبلاد ما بين النهرين (مشهد ، كربلاء ، النجف) يتسم اساسا باهمية بالنسبة لروسيا التى يقوم منها سنويا – من منطقة ما وراء القفقاس والممتلكات فى آسيا الوسطى – ما لا يقل عن ١٥–٢٠ الف مسلم شيعى من رعايا روسيا ؛ اما الحج الى الحجاز فانه يمس مصالح الدول الاوروبية جميعها تقريبا . ونظرا لاهمية حج السنيين البالغة ، تتعرض التدابير الصحية لاجل تنظيمه وضبطه للبحث فى المؤتمرات الصحية الدولية . فان مؤتمر باريس سنة ١٨٩٤ ومؤتمر البندقية سنة ١٨٩٧ ، مثلا ، قد رسما جملة من التدابير الرامية الى تقليل الضرر الذى تتسبب به هذه الحركة على الصعيد الصحى .

وفى الزمن غير الملائم من حيث الكوليرا والطاعون اعتبروا من الضرورى فى روسيا ، لاعتبارات صحية ، منع المسلمين من رعايا روسيا منعا باتا من السفر الى الاماكن المقدسة بنظرهم الواقعة فى خارج روسيا . وقد صدر امر بوقف الحج فى غضون سنوات ١٨٩٢–١٨٩٥ التى سادت فيها الكوليرا ، وكذلك فى النصف الثانى من سنة ١٨٩٦ ، نظرا لظهور الطاعون فى هندوستان الانجليزية .

ولكن تبين آنذاك بالذات من المعلومات المتوافرة فى وزارة الداخلية ان منع الحج لا يقضى على خطره من الناحية الصحية ، وليس هذا وحسب ، بل حتى يشدد ايضا خطر نقل الامراض الوبائية الذى اتخذ هذا التدبير ضده . فان المنع الذى قلل بصورة تافهة العدد الفعلى للمسافرين الى الحج قد خلق الحج السرى الذى يجرى عن طريق جملة من اساليب الاحتيال والمكر والغش الرامية الى تجاوز هذا المنع .

وقد تأكدت كليا صحة هذا الرأى فى التقارير عن الحج التى ارسلتها الى وزارة الداخلية سفارتنا فى القسطنطينية وقنصليتانا فى جدّة وبغداد . ان اعتبارات الدوائر المذكورة ، المعروضة بالتفصيل فى ص ٣٨–٤٥

من المذكرة المطبوعة الملحقة الصادرة بتاريخ ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ تحت الرقم ٢٠٢٥ عن ديوان اللجنة المؤسسة بامر صاحب الجلالة تتلخص اجمالا فيما يلي : صحيح ان الحج ظاهرة ضارة وظاهرة غير مرغوب فيها سواء من الناحية الصحية ام من الناحية السياسية ، الا انه لا يجوز منعها ، ولكن من الضرورى مع ذلك اتخاذ تدابير ترمى سواء الى تنظيم هذه الحركة داخل الامبراطورية ام الى تحسين شروط اداء الحج فى الخارج .

ومن وجهة النظر هذه اشارت سفارتنا فى القسطنطينية وقنصليتانا فى جدّة وبغداد الى ضرورة تعزيز الرقابة على الحدود الروسية الايرانية وتسهيل المعاملات وازالة التباطؤ فى منح جوازات السفر للحج وترخيص كلفتها ، والاكتفاء بمنحها فى قسم معين من السنة ، والزام الجاويشية باخذ جوازات سفر لانفسهم والامتناع ، تحت طائلة العقاب ، عن اخذ اشخاص لا يحملون جوازات سفر فى قوافلهم ، وتحميل المشاعيات القروية المسؤولية عن الغائب بدون جواز سفر ، واخيرا ، توجيه جميع الحجاج السنيين دفعات كبيرة الى مرافئ البحر الاسود .

ومن باب الرقابة على اداء الحج خارج حدود الامبراطورية اشير الى ضرورة الزام الحجاج بالتأشير على جوازات السفر الى القسطنطينية ، وضرورة الايعاز الى المحافظين بابلاغ القنصل الروسى فى القسطنطينية عن جميع المسلمين الذين حصلوا على جوازات سفر ، وزيادة عدد ممثلينا القنصليين فى الاماكن المقدسة بالنسبة للمسلمين ، واخيرا ، التقدم مع الدول الاخرى من الحكومة التركية بطلب حماية الحجاج اثناء سفرهم فى الصحراء .

الاعتبارات المذكورة قد احاطت بها علما وزارة الداخلية المحافظين العامين والمحافظين للعمل بموجبها ، وذلك فى الرسالة التعميمية الصادرة عنها فى ٢٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٦ تحت الرقم ٤٧٠١ .

الخلاصة المفصلة لاراء رؤساء المحافظات معروضة بشكل ملحق خاص .

اعربت الاغلبية عن انه من المرغوب فيه اتخاذ اوسع ما يمكن من التدابير لاجل تحسين شروط الحج . ولكن محافظى باكو واورنبورغ وفرغانة وتورغاى ، لاعتبارهم الحج ظاهرة فادحة الضرر ، عارضوا قطعا اتخاذ اى ضرب من التدابير التى تسهل اداء الحج ويمكنها بالتالى ان تؤدى الى تطوره . وعلى نقيضهم ، اشار الحاكم العام فى القفقاس ، والمحافظ العام فى تركستان (بالنسبة لمسلمى خانة خوى وخانة بخارى) * ومحافظ مقاطعة الاورال

---

* خانة تعنى امارة . المعرب .

ومحافظ ساراتوف الى ان تدابير الحدّ من السفر لا تقلل البتة مقادير الحج ، الا انهم يخلصون الى القول ان اقرار شتى ضروب تدابير التضييق سيعطى المسلمين الذريعة ليروا فيها تضييقا على تلبية حاجاتهم الدينية ، كما انهم لا يجدون مبررات للاعتراض على اقرار حتى تسهيلات معينة فى صالح الحجاج المسلمين .

وبما ان اتخاذ التدابير ضد انتشار الطاعون قد القى بموجب الارادة السامية الصادرة بتاريخ ٨ كانون الثانى (يناير) ١٨٩٧ على لجنة خاصة برئاسة صاحب السمو الامير الكسندر بتروفيتش اولدنبورغسكى ، فان دراسة مسألة الحج لاحقا قد انتقلت الى هذه اللجنة المؤسسة حديثا . ان صاحب السمو رئيس اللجنة سابقا ، قد اثار فى جلسة ٢٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٨ مسألة ما اذا كان يصح ان تأخذ الحكومة فى يدها قضية تنظيم الحج نظرا للخطر الذى يمثله المسلمون الحجاج من حيث جلب ونشر الطاعون فى روسيا . بعد الاستماع الى بيان صاحب السمو ، كلفت اللجنة ، بقرار مسجل فى ٢٠ كانون الاول ١٨٩٨ ، ديوانها بتقديم تقرير فى هذا الصدد .

بالاستناد الى مادة شاسعة جدا تتألف من تقارير وآراء رؤساء المحافظات ، وتقارير ممثلينا الديبلوماسيين والقنصليين فى القسطنطينية وجدّة ومشهد وبغداد ، وكذلك من تقارير الاشخاص الذين ارسلتهم اللجنة خصيصا بمأموريات ، وضع الديوان السابق للجنة التى أسست بامر من صاحب الجلالة بصدد تدابير درء عدوى الطاعون ومكافحتها مشروعا بتنظيم حج المسلمين . وهذه الرسالة مرفقة بنسخة مطبوعة عن التقرير .

صحيح ان هذا المشروع يرتكز اساسا على النظرة المذكورة آنفا ومفادها ان تدابير المنع لا تبلغ الهدف ، ولكن واضعى المشروع اعتبروا فى الوقت نفسه ان الحج كأداة من ادوات «توطيد وتوحيد الاسلام بأسره بوصفه كلا سياسيا دينيا واحدا» وانه بالتالى ظاهرة غير مرغوب فيها من وجهة نظر عموم الدولة . ولهذا قصد المشروع ، مع رفضه منع الحج ، اقرار تدابير ترمى الى تقليل هذه الحركة باحداث تضييقات جديدة متفاوتة الاهمية .

وقبل حل مسألة الحج حلا نهائيا ، تقدم القائم باعمال مفتى توريدا فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٠٠ من وزير الداخلية بطلب السماح بالحج الى الحجاز واشار فى طلبه الى ان السكان قبلوا طوال سنتين اوامر الحكومة بطيبة ووعى ، وذلك وفقا لاحكام الشريعة القائلة : الامتناع عن الفرار من حيث ظهر الطاعون والامتناع عن السفر الى حيث ظهر .

اما فى الوقت الحاضر ، فان منع الحج الذى فقد اهميته من الناحية

الصحية نظرا لعدم وجود الطاعون فى الحجاز قد يقلق ويربك المسلمين من رعايا روسيا .

ان الطلب المذكور اعلاه قد احاله وزير الداخلية الى اللجنة المؤسسة بامر صاحب الجلالة ، وقد قررت هذه اللجنة ، وفقا لتقرير الوزير ، السماح ، حتى تنظيم الحج تنظيما نهائيا ، بمنح المسلمين جوازات السفر للحج الى الحجاز ، ولكن بحيث يمضى الحجاج ويعودون بالطريق البحرى حصرا ، عبر مرفأ من مرافئ البحر الاسود ، وان يتعرضوا بعد العودة لتدابير صحية معينة (القرار المذكور والرسائل التعميمية التى اصدرتها وزارة الداخلية فى هذا الصدد واردة فى الوثيقة التوضيحية) . هذا القرار يستمر مفعوله فى سنة ١٩٠٢ بموجب امر من اللجنة بتاريخ ٢٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٠١ .

ولاجل تكميل مواد الاستفسار المتوفرة بصدد مسألة الحج ، اقترحت الرسالة التعميمية التى وجهتها وزارة الداخلية بتاريخ ١٨ ايار (مايو) ١٩٠١ تحت الرقم ١١٥٩ الى المحافظين ورؤساء المقاطعات ، ان يعرضوا آراءهم فى نتائج تطبيق قواعد الحج الموقتة الصادرة لسنة ١٩٠١ .

مجموعة آراء رؤساء المحافظات الواردة اثر ذلك معروضة فى الوثيقة التوضيحية تحت الرقم IV .

من الاراء المذكورة يتبين ان القواعد الموقتة التى فرضت الرقابة الصحية اللازمة على الحجاج العائدين ، قد قللت كثيرا ، على كل حال ، من خطر الحج من الناحية الصحية ، لانه لم تقع حالات تدل على تهرب المسلمين من العودة عبر احد مرافئ البحر الاسود ، كما تفيد معلومات رؤساء المحافظات . وعلى العموم يؤيد رؤساء المحافظات تمديد مفعول هذه القواعد فى المستقبل .

ثم يشير كثيرون من المحافظين الى ان منع الحج لا يوقف كليا هذه الحركة ، ويخلق ويطور السفر السرى . ويرى الحاكم العسكرى لمقاطعة داغستان ان السماح السنوى بالحج يوقف السفر السرى ويشكل فى الوقت نفسه وسيلة فعالة لوقف طموح وسعى السكان الى الهجرة الى الامبراطورية التركية لان احاديث العائدين من هناك عما يعانيه النازحون الى تركيا من بؤس وفقر وتعاسة وكذلك عن موقف السلطات التركية الظالم والسيئ النية من السكان على العموم ومن المهاجرين على الخصوص ، تقتل الرغبة فى النزوح .

وبمقارنة جميع المعلومات المتوافرة ، رأت وزارة الداخلية من الممكن

اعتبار حج المسلمين ظاهرة دينية بحتـــة تشكل احدى شعائـــر السكان المسلين الكثيرين فى الامبراطورية ، وتسترعى الانتباه من وجهة نظـر عموم الدولة ، من حيث اهميتها الصحية اساسا .

ولهذا كان المقصود عند وضع مشروع تنظيم هذه القضية اخضاع حركة الحج لرقابة صحية فعالة قدر الامكان ؛ ولاجل معارضة التهرب المحتمل دائما من الرقابة ، ينص المشروع على توفير منافع وتسهيلات معينة لاجل الحجاج المسافرين بالسبيل الرسمى القانونى . وعلى هذا النحو يفترض المشروع منح جوازات سفر خاصة للحجاج لقاء بدل مخفض ، وتبسيط المعامـــلات المتعلقة بالحصول على جوازات السفر ، وتوفير مأكولات رخيصة ممكنة حسب الظروف المحلية ، وتنظيم قضاء الليل فى طرق سفر مجموعات الحجـــاج ، وتأمين تسهيلات من حيث تعريفات السفر فى السكك الحديدية .

عند وضع مشروع القواعد اتخذت عدا ذلك ، اساسا ، الاعتبـــارات التالية .

ان الحج الى الاماكن المقدسة قد كان على الدوام ولا يزال حلما حميمـــا لكل مسلم ، حلما يحققه اذا توفرت لديه الوسائل المادية الضرورية للسفر ؛ اما سائر العقبات الباقية فى وجه بلوغ الهدف المقدس ، فانها لا تلعب دورا الا اذا استحال كليا القضاء عليها او تجاوزها . وفى عداد العقبات الكأداء التى يستحيل تذليلها ، لم يذكر المسلمون يوما منع الحج الذى صدر ، مثلا ، فى سنوات ١٨٩٧ و١٨٩٨ و١٨٩٩ و١٩٠٠ . وتجاوزا لهذا المنع اخذ قسم من الحجاج جوازات سفر عادية لاهداف زعموا انها تجارية ثم راحوا بسبل ملتوية الى مدينة القسطنطينية حيث استعاضوا عن جوازات السفر «بالتذكرة» ؛ والقسم الآخر استغنى كليا عن جوازات السفر وانتقل الى ايران وآسيـــا الصغرى المجاورتين عبر نقاط حدودية يعرفها جيدا عالم الحجاج ، ويصعب فرض رقابة صارمة فيها نظرا لبعدها ووحشية مواقعها وصعوبة منالها .

يؤكد مدير القنصلية فى بغداد فى تقرير قدمه سنة ١٨٩٧ ان «منـــع الحج من جانب الحكومة الامبراطورية حتى وان كان مدعوما بمخافر جديدة من المشكوك فيه ان يردع شيعيينا من منطقة ما وراء القفقاس عن الحج كما لـــم يردعهم المنع المماثل المقرر لاغراض الحجر الصحى سنة ١٨٨٩ ، وليس هذا وحسب ، بل لم ينعكس ايضا اطلاقا تقريبا على عددهم فى غضون جميـــــع السنوات الخمس التى دام فيها هذا المنع ولم يسفر الا عن واقع ان الحج اخذ يجرى بدون جوازات السفر المقررة» .

ان التقييم المذكور لوضع الامور ، وان كان مبالغا فيه بدرجة ما ، يعطى

مع ذلك المبررات للاعتراف بان المنع الكلي للسفر الى الاماكن المقدسة لا يوقف على كل حال غير قسم من الحجاج ، بينما القسم الآخر منهم يقومون بالحج مستغلين سبلا واساليب لا تطالها اية رقابة .

فى السنوات الحرة من المنع ، يتلخص سبب التهرب من القواعد المقررة للحصول على جوازات السفر فى المصاعب التى يواجهها امر الحصول عليها . وقوام هذه المصاعب انه ينبغى ، لاجل الحصول على جواز السفر ، الذهاب الى مركز المحافظة الذي يقع احيانا بعيدا جدا عن مكان اقامة الحاج الدائمة ، وانه ينبغى دفع بدل عن جواز السفر . ان مقدار بدل جواز السفر لا يشكل طبعا بالنسبة للحجاج الميسورين عقبة ؛ اما للاغلبية الساحقة من الناس الذين هم اقل يسرا ، فان ضرورة انفاق مبالغ كبيرة ، لا على جواز السفر وحسب ، بل ايضا على السفر الى مركز المحافظة ، انما هى امر صعب على التحقيق الى حد ان جمهور الحجاج يفضل التهرب كليا من استخراج جوازات السفر ، رغم انهم قد يتحملون فيما بعد مسؤولية معينة .

ان الحج السرى المتطور والمترسخ من قديم الزمان بين المسلمين الروس قد اتخذ تدريجيا سبلا معينة واستتبع جملة من تدابير تنظيمية معينة من جانب الافراد الذين يترأسون عادة مجموعات الحجاج . وهذه التدابيــــر تتلخص اساسا فى اعلام السكان المسلمين بصورة سرية وفى الوقت المناسب عــن موعد ومكان تجمع الحجاج ثم فى الهموم المرافقة لنقل مجموعة الحجاج سرا عبر الحدود . وعند انتهاء الحج يعود جميع الحجاج ، الذين سافروا سرا ، الى الامبراطورية بسبيل سرى ايضا بالطبع ، دون اية رقابة صحية ، ولذا بعد عبور الحجاج للحدود عائدين الى الوطن ، يبدأ السكان فى كل مرة يتعرضون لخطر من الصعب التكهن بمقاييسه حتى فى حـال عدم وجود اوبئة رهيبة كالطاعون والكوليرا فى المناطق التركية والفارسية المتاخمة مباشرة لحدودنا البرية . صحيح ان الحجاج قد لا [illegible]لمون بحد ذاتهم خطرا جديا فى هـــذه الحالة ، لانهم ، اذا اصيبوا باحد [illegible]رضين المذكورين فى مكان ما بعيــــد ، يموتون او يشفون قبل الوصول الى الحدود ، ولكن الخطر يبقى بسبب الخرق البالية والالبسة وتلك الاشياء التي يحملها الحاج معه بعد ان يشتريها فـــى الاماكن المقدسة دون ان يتأكد طبعا مما اذا كانت توجد فى هذه الاماكن اوبئة ودون ان يدرك البتة انه قد يحمل العدوى فى صرّته .

بهذا الشكل بالذات انتقل ، حسب كل احتمال ، الطاعون فى ناحيـــــة فييتلانكا ، ويمكن الافتراض بقدر كبير من الصحة ان حالات وباء الطاعون

التي لوحظت في السنوات الاخيرة في محافظة استراخان قد نجمت عن هذا السبب بالذات .

وهكذا يشكل الحج السرى فى كل وقت خطرا دائما على سلامة الدولة من الناحية الصحية ؛ وفى الوقت الحاضر ، اذ اتخذ الطاعون فى الهند مقاييس هائلة ، واذ يمكن ان نتوقع كل يوم انباء عن ظهور بؤر للعدوى فى ايران وتركيا تشتد فداحة هذا الخطر ، ويغدو من الضرورى بالتالى اتخاذ التدابير الحازمة بأسرع وقت لاجل درئه .

من الممكن مكافحة الحج السرى بسبيلين بالذات ، امّا بتوفير شروط يغدو بسببها مستحيل التحقيق فعلا وغير ممكن فعلا ، وامّا باحاطة الحج العلنى ، السافر ، بشروط مخففة نسبيا تفقد الحج السرى كل معنى .

ان السبيل الاول يتطلب من حيث الجوهر تدبيرا واحدا فقط ، ولكنه ضرورى اطلاقا ، هو انشاء خط من المخافر الحدودية على طول حدودنا مع تركيا وايران (فى القفقاس وآسيا الوسطى) من شأنه ان يجعل عبور الحجاج للحدود ، خارج النقاط المعينة ، مستحيلا فعلا . ان الاكتفاء بتعزيز الحراسة فى الاماكن التي صارت فى السنوات الاخيرة بمثابة مكان عادى لعبور الحدود بالنسبة للحجاج السريين سيكون بالطبع تدبيرا لا يسفر عن شيء لان الجاويشية (ادلة مجموعات الحجاج) سيبحثون حالا بالطبع عن اماكن اخرى يجرى فيها عبور الحدود بدون مخاطر ومصاعب كبيرة ؛ اما تعزيز المخافر بالتناوب فى سبل عبور الحجاج المفتوحة حديثا ، فمن شأنه ان يؤدى بالنتيجة الى النضال اللامتناهى بين يقظة حرس الحدود وقدرة الجاويشية على الاختراع ، علما بان جميع السكان المسلمين المحليين المقيمين فى مناطق الحدود سيكونون دائما معاونين ومستشارين للجاويشية .

ان تعزيز المخافر بصورة جدية على الطول الهائل لجميع حدودنا هو وحده الذى يمكن اعتباره ، كما قلنا سابقا ، تدبيرا يؤدى فعلا الى الهدف ، ولكن مقدار النفقات الذى يقتضيها هذا التدبير سيكون على درجة من الكبر بحيث انه لا يمكن تبريره الا اذا استحال بصورة بيّنة تماما بلوغ الهدف بأى سبيل آخر .

ومع العدول عن التدابير الرامية الى جعل الحج السرى غير ممكن ، يصبح من الاسهل بكثير تطبيق نظام من التدابير التى بمقدورها ان تجعل الحج السرى غير ضرورى اطلاقا فى عيون المسلمين .

وفى طليعة هذه التدابير يجب فى المقام الاول العدول التام فى المستقبل عن موانع الحج .

ان هذه الموانع ، كما سبق ان قلنا ، لم توقف الحج ، ولم تفعل غير ان خلقت جمهرة من الافراد المذنبين الذين تحمل قسم منهم العقوبات المناسبة عند اكتشافهم ، ولكنها لم توفر للدولة اية حماية صحية . اما الغاء المنع فى سنة ١٩٠١ ، فقد اسفر بالعكس ، وفى الحال ، عن نتيجة كبيرة الدلالة : فان عدد الحجاج العائدين عبر المحجر الصحى فى فيودوسيا كان اكبر من عدد الذين اخذوا (حسب المعلومات التى قدمها المحافظون) جوازات السفر لاجل اداء الحج . وبما انه لا ريب في ان هذا الفائض قد تشكل من اولئك الحجاج الذين سافروا سرا قبل منع الحج ، والذين كان بوسعهم طبعا ان يعودوا سرا ايضا متهربين من كل رقابة صحية ، فمن الممكن ان نرى من هذا ان مجرد الغاء المنع قد ادى بحد ذاته الى قيام نظام يغدو فى ظله من الممكن تطبيق التدابير الصحية الضرورية على الحجاج العائدين .

هناك سبب آخر يسفر عن الحج السرى ، هو المعاملات الشكلية المعقدة التى ترافق الحصول على جوازات السفر . ان التهرب من الحصول عليها ، كما يرى قنصلانا فى بغداد وجدّة ، ينجم فى المقام الاول عن كلفتها الكبيرة وعن خارق بطء الحصول عليها .

واذا ازيلت هاتان العقبتان ، لا يبقى للحجاج اى سبب يحملهم على اللجوء الى عبور الحدود سرا ، الامر الذى تصحبه على كل حال جملة من المنغصات رغم سهولته النسبية .

ان تخفيض تكاليف الحصول على جوازات السفر بالنسبة للراغبين فى السفر لهدف واحد فقط هو اداء الشعائر الدينية قد قرره القانون (المادة ٢٥٣ من لائحة جوازت السفر) بالنسبة لتتر محافظة توريدا ، ومن شأن سحب هذا التخفيض على جميع الافراد الذين يرغبون فى الحج ان يجعل مسلمى الامبراطورية جمعاء متساوين مع مسلمى محافظة توريدا (٢) .

ان منح جوازات السفر للحج من قبل رؤساء الاقضية من شأنه ان يكون الخطوة التالية فى هذا السبيل . فان المادة ٢٣٨ من لائحة جوازات السفر قد قررت نظاما كهذا بالنسبة لسكان منطقة ما وراء القفقاس المسافرين الى الخارج فى اغراض تجارية ؛ وتوسيع مجال تطبيق هذا النظام مع تطبيق مفعوله على الاشخاص المسافرين لاغراض دينية من شأنه ان يقضى على جملة كبيرة من تلك المصاعب التى يمارس المسلمون على نطاق واسع ، لاجل التهرب منها ، عادة الاستغناء عن اية جوازات سفر .

ان تطبيق التدابير المذكورة من شأنه ان يقضى على التربة التى نشأ عليها الحج السرى ، ولا يبقى بعد ذلك غير بذل الجهد لكى يجرى الحج كله

فى ذلك المجرى ، فى تلك السبل التى يكون من الاسهل فيها تنظيم الرقابة الصحية الحكومية عليه .

ولكن الهدف المذكور يمكن بلوغه بقدر كبير اذا سافر الحجاج ، لا كلا بمفرده ، بل جماعات كبيرة يكون وقت خروجها والطريق الذى قررت اتباعه معروفين سلفا . ان تنظيم هذه الجماعات باشراف افراد تعرفهم الادارة ، وقبل سفر الحجاج الى الخارج ، من شأنه ان يؤدى الى تشكيل عدد من مجموعات مختلفة من الناس تنطلق من مكان واحد لهدف واحد وترصها مصالح واحدة ، علما بانه ينبغى بلا ريب ان نتوقع توطد الصلات بين مختلف افراد كل مجموعة اثناء السفر ، ولذا يمكن بسهولة كبيرة ان نتم ايضا عودتهم بالقوام نفسه تقريبا . ان الحاجة الى توحيد الحجاج قد ادت الى ظهور فئة كبيرة من افراد اختاروا اختصاصا لهم تكوين مجموعات وقيادتها اثناء السفر .

وفى الوقت الحاضر لا يبقى غير الاستفادة من الظاهرة القائمة وتنظيم نشاط هؤلاء الادلة (القادة) بتعيين واجباتهم بمزيد من الدقة وجعل اختيارهم فى الوقت نفسه رهنا الى حد ما بموافقة الادارة .

وفى ظل هذه الشروط من شأن الحج ان يفقد بقدر كبير ذلك الطابع الخطير ، المشؤوم ، من حيث احتمال انتشار الاوبئة ، الذى لا يزال يتسم به حتى الآن ، كما من شأنه بالتالى ان يصبح منظما من وجهة النظر الصحية .

ونظرا لما قيل اعلاه ، تم وضع المشروع التالى بقواعد الحج :

١ — سفر المسلمين ، سواء منهم السنيون ام الشيعة ، الى الحج ، مسموح بموجب القواعد التالية ، فيما عدا الحالات التى يصدر فيها امر خاص من وزارة الداخلية بمنع الحج .

٢ — السفر الى الحجاز لاجل الحج مسموح بطريق البحر حصرا عبر احد مرافئ البحر الاسود ؛ الحجاج المسافرون الى ايران وبلاد ما بين النهرين يمكنهم السفر بطريق البحر عبر جميع المرافئ التى تقوم فيها مؤسسات الحجر الصحى او محطات الرقابة الطبية ، وبطريق البر عبر نقاط الرقابة الطبية على حدودنا البرية مع ايران وتركيا .

لا يسمح بعودة الحجاج من الحجاز وايران وبلاد ما بين النهرين الا عبر نقاط معروفة على حدودنا البحرية والبرية يعينها سنويا وزير الداخلية .

٣ — منح المسلمين الحجاج جوازات السفر للحج يقوم به سواء المحافظون ورؤساء المقاطعات وحكام المدن ام رؤساء الاقضية مع التقيد بالقواعد المقررة بالنسبة لجوازات السفر .

ملاحظة . رؤساء الاقضية يبلغون المحافظين اسبوعيا عن جوازات السفر التي منحوها للحجاج .

٤ – يسجل المحافظون ورؤساء الاقضية جوازات السفر للحج فى سجل خاص مع الاشارة الى ارقامها .

٥ – الراغبون فى الحج يشيرون فى طلباتهم الى الطريق الذى سيسافرون فيه .

الطلب المذكور يوقعه مقدمه بتوقيعه شخصيا او بواسطة وكيل مفوض .

٦ – على جوازات السفر الممنوحة للحجاج يشار على الصفحة الاولى بختم احمر على الصفحة كلها عليه كلمات : «لاجل حج المسلمين» .

٧ – علاوة على المعلومات المقررة لاجل جوازات السفر ، يشار فى جوازات السفر لاجل الحجاج على الصفحة ٣ من جواز السفر الى الامكنة التى ينوى الحاج زيارتها ونقطة الحدود التى يعتزم الحاج عبورها .

عند اعطاء الحجاج جوازات السفر ، يجب اعطاؤهم نسخة مطبوعة عن هذه القواعد بصدد الحج باللغة الروسية واللغة المحلية المعنية ، وكذلك نسخة عن التوصيات التى يرى وزير الداخلية من الضرورى اصدارها (بصدد التقيد اثناء السفر بالقواعد الصحية والطبية العامة ، والاشارة الى مقرات ممثلينا فى تركيا وايران ، والمسؤولية التى يتحملها الحجاج بسبب مخالفة قواعد الحجر الصحى ، وغير ذلك) .

٨ – لا يؤخذ لقاء جواز السفر للحج غير ثمن طبع اوراقه وقدره ٥٠ كوبيكا .

٩ – جوازات السفر للحج تعطى لمدة ستة اشهر ، دون الحق فى تمديد مفعولها لمدة جديدة . فى حال تجاوز موعدها يؤخذ ثمن جواز السفر بكليته .

١٠ – لاجل تنظيم حركة الحج تنظيما صحيحا ، يسافر الحجاج ، قدر الامكان ، مجموعات منظمة ، يجب ان يكون على رأسها عمد او شيوخ (الجاويشية عند الشيعة) ينتخبهم الحجاج او يعينهم رجال الدين المحليون ويصادق على انتخابهم او تعيينهم رؤساء المحافظات او رؤساء الاقضية ، بناء على طلب من رجال الدين المسلمين المحليين . تتشكل هذه المجموعات اما فى اماكن سكن الحجاج ام فى نقطة او بضع نقاط للتجمع فى المحافظة او فى القضاء ، او فى طريق سفر الحجاج ضمن حدود الامبراطورية ، قبل صعودهم الى الباخرة .

الملاحظة ١ – عدم رغبة الحاج فى الانضمام الى المجموعة لا يجوز اعتباره مبررا لرفض منحه جواز السفر للحج وعقبة امام سفره .

الملاحظة ٢ – عمد او شيوخ مجموعات الحجاج السنيين ، المتشكلة فى الطريق ، يصادق عليهم الرؤساء المحليون فى مرافئ الانطلاق .

١١ – جمع مجموعات الحجاج من قبل اشخاص ليس لديهم ترخيص من الرؤساء المحليين بذلك ممنوع ؛ والمذنب يتحمل المسؤولية بموجب المادة ٢٩ من لائحة العقوبات التى تطبقها المحاكم الابتدائية .

ملاحظة . العمد او الشيوخ (الجاويشية عند الشيعة) الذين يشكلـــون قوافل الحجاج يتعين عليهم ان يبلغوا سلفا الشرطة المحلية بذلك مع الاشارة الى وقت تجمع الحجاج .

١٢ – العمد او الشيوخ (الجاويشية عند الشيعة) ملزمون بان يأخذوا لانفسهم جوازات سفر للحج وبان يرفضوا ان يقبلوا فى قوافلهم الاشخاص غير المزودين بجوازات السفر اللازمة للحج .

١٣ – العمد او الشيوخ (الجاويشية عند الشيعة) الذين لا ينفـذون المتطلبات المذكورة فى البندين ١١ و١٢ يتعرضون للملاحقة القضائيـة بموجب المادة ٢٩ من لائحة العقوبات التى تطبقها المحاكم الابتدائية ، وذلك بصرف النظر عن حرمانهم من الحق فى قيادة القافلة .

١٤ – يتعين على العميد (الشيخ) والجاويش وضع قوائم باسماء الحجاج والاشارة الى النقص واسباب هذا النقص ، وكذلك جمع معلومات اخـــرى تتعلق بحركة الحجاج واقامتهم فى امكنة العبادة ، وكذلك تقديم جوازات سفر الحجاج الذين ماتوا للرؤساء المعنيين .

١٥ – يمكن تقديم العمد (الشيوخ) والجاويشية لمنحهم المكافـــآت الفخرية .

١٦ – مجموعات الحجاج الماضية سيرا على الاقدام او قوافل ملزمة بالتقيد بطرق السفر التى يقررها رؤساء المحافظات ويقررها كل منهم ضمن حـدود المحافظة او المقاطعة الخاضعة له .

١٧ – عن سفر مجموعة الحجاج بشكل قوافل او سيرا على الاقدام يبلغ رؤساء الاقضية سلفا رئيس القضاء المجاور ، كما يبلغون المحافظ لاجـــل اعلام المحافظ المجاور ، علما بانه يجب ان يشار الى عدد افراد المجموعة واسماء وكنيات العمد (الشيوخ) او الجاويشية ، والوقت الذى ستدخل فيه المجموعة القضاء المجاور او المحافظة المجاورة .

المجموعات المسافرة بالسكك الحديدية او بالبواخر يجب احاطة رئيس المحطة الحديدية المعنية او رئيس القضاء الذى يقع فيه المرفأ المعنى ، علما عنها قبل يومين او ثلاثة من انطلاقها .

١٨ – يتعين على المحافظين ان يؤمنوا قدر الامكان لاجل مجموعات الحجاج المسافرة بغير السكك الحديدية المأكولات باسعار رخيصة والمباني لاجل الراحة وقضاء الليل ، وكذلك الاسعاف الطبي .

١٩ – في نقاط الرقابة الطبية الحدودية يخضع الحجاج ، عند انطلاقهم ، للفحص الطبي ؛ والمرضى منهم يرسلونهم ، اذا رغبوا ، الى اقرب مؤسسة علاجية ؛ واذا لم تكن هناك مؤسسة من هذا النوع ، فانهم يبقون لدى نقاط الرقابة الطبية .

٢٠ – عند عودة الحجاج ، يخضعون في نقاط الرقابة الطبية الحدودية المعنية للتدابير المقررة لاجل القادمين من اماكن خطيرة من حيث الامراض الوبائية : يخضعون للفحص الطبي ؛ يغتسلون في حمام او تحت الدوش ؛ تخضع البستهم وبياضهم وامتعتهم للتطهير والتعقيم . يجري فرز المصابين بالطاعون والكوليرا والحمى الصفراء ، والدفتيريا (الخناق) ، والجدري ، والتيفوس . والمصابون بامراض اخرى يرسلونهم ، اذا رغبوا ، الى اقرب مؤسسة علاجية ؛ واذا لم تكن هناك مؤسسة من هذا النوع ، فانهم يبقون لدى نقاط الرقابة الطبية .

في جوازات سفر الحجاج العائدين الذين يخضعون للتدابير الصحية المذكورة اعلاه ، تختم مؤسسات الحجر الصحي او المؤسسات الطبية الحدودية علامة على الصفحة ١٥ : «خضع للتدابير المقررة – عنوان مؤسسة الحجر الصحي او نقطة الرقابة الطبية» . العلامة ذاتها توضع على قسيمة قابلة للفصل (ص ١٩ من جواز السفر) ، ثم يفصلون القسيمة ويرسلونها الى المحافظ او رئيس المقاطعة او حاكم المدينة ، حسب مكان اقامة الحاج .

الحجاج الذين يتهربون من تنفيذ هذا البند من القواعد يحالون الى المحاكمة القضائية بموجب المادة ٢٩ من لائحة العقوبات التي تطبقها المحاكم الابتدائية ، فضلا عن تطبيق تدابير الاحتراس الضرورية بحقهم (تعقيم الامتعة ومراقبة الاطباء) .

٢١ – نقل جثث المسلمين الشيعة الى بلاد ما بين النهرين والى ايران لاجل دفنها في الاماكن المقدسة يجاز باذن خاص من الرؤساء المحليين ، يمنحونه في حال عدم وجود اوبئة معدية بالغة الشدة في المحلة المعنية . والنقل نفسه لا يسمح به الا في وعاء محكم الاغلاق .

٢٢ – يتحتم على رجال الدين المسلمين ان يوضحوا لرعاياهم بالغ اهمية التقيد بقواعد الحج التي تهدف الى حماية الدولة من عدوى الامراض المعدية وازالة الشروط الصحية غير الملائمة للحجاج بالذات .

وقد طرح المشروع المعروض على بساط البحث امام اللجنة المؤسسة بامر صاحب الجلالة لتدابير درء عدوى الطاعون ومكافحتها . وبعد البحث لم يستطع اعضاء اللجنة التوصل الى استنتاج اجماعي .

ولم تأت من جانب وزير الحربية ووزير المواصلات ووزير المالية ، ومدير وزارة البحرية ، سوى ملاحظات بصدد بعض بنود المشروع . اما وزير العدلية ووزير الخارجية فقد ابديا علاوة على ملاحظات بصدد بعض البنود اعتراضهما على احكام المشروع الاساسية من حيث الجوهر .

فقد لاحظ وزير العدلية ان الفرضيات التى ترد فى مشروع قواعد حج المسلمين ، الى جانب عدد قليل جدا من القواعد الصحية والتى تستهدف حماية الدولة من جلب ونشر الامراض المعدية من قبل الحجاج العائدين (القسم الثانى من المادة ٢ والمادة ٢١) ، ترمى على الاغلب الى تنظيم النشاط الادارى البوليسى الذى تقوم به هيئات الحكومة التى تراقب حج المسلمين . وفضلا عن ذلك ، يقرر المشروع لاجل صحة تنظيم حركة الحج وتسهيلها : أ – منح الحجاج جوازات السفر لقاء بدل مخفض قدره ٥٠ كوبيكا (المادة ٩) ؛ ب – ارسال الحجاج من اماكن سكنهم بتشكل مجموعات منظمة بقيادة قادة خصوصيين – عمد (شيوخ) يمكن تشجيع نشاطهم بمكافآت فخرية (المواد ١٠ ، ١٤ ، ١٥) ؛ ج – امكانية ترخيض سفر الحجاج فى السكك الحديدية (المادة ١٨) ، واخيرا ، د – واجب الادارة بالحرص على تأمين المأكولات الرخيصة وتوفير راحة الحجاج المسافرين ومنامتهم واسعافهم الطبى (المادة ١٩ والمادة ٢٠) . ومن هنا ينجم ان فرضيات المشروع المذكورة تتخطى فعلا حدود التدابير الصحية والطبية التى يتعين ان تصادق عليها اللجنة المؤسسة بامر من صاحب الجلالة (راجع البند الخامس من مرسوم تأسيسها) وانها تتماس فى الوقت نفسه مع فرع هام جدا من فروع ادارة الدولة يتعلق عموما بالسكان المسلمين . علما بان هذا الموضوع جدير بانتباه خاص نظرا للمعلومات المتوافرة بصدد تطور التعصب الدينى فى اوساط مسلمينا (راجع المعلومات والاعتبارات المعروضة فى التقرير الذى وجهه الى صاحب الجلالة المحافظ العام لتركستان ، جنرال المشاة دوخوفسكى لعام ١٨٩٩) .

ونظرا لما سبق ، وكذلك نظرا لكون بعض من القواعد المصممة ينطوى على تراجع كبير عن القانون السارى المفعول بصدد منح الحجاج جوازات السفر (المواد ٣ و٥ و٩ من المشروع – قارن المواد ٢١٤ و٢٣٥ و٢٣٧ و٢٣٩ و٢٥٣ و٢٥٤ من لائحة جوازات السفر ، المجلد XIV ، طبعة

١٨٩٠) ، اعتقد وزير العدلية بدوره ان المشروع المعنى لا تمكن المصادقة عليه ، فى اقسامه المذكورة اعلاه ، وهى اهم اقسامه ، الا بموجب النظام التشريعى .

ويعتقد وزير الخارجية ان التدابير التى ترد فى بعض مواد المشروع والتى ترمى الى ترخيص حركة الحجاج المسلمين وتوفير اكثر ما يمكن من التسهيلات لها فى الاراضى الروسية قد تبث فى عقول المسلمين من رعايا روسيا الاقتناع الخاطئ بان حكومتنا تحمى الحج وتشجعه . ان التدابير المذكورة تتخطى ، من حيث الجوهر ، اطار التدابير الصحية ، وتمنح الحجاج المسلمين على ما يبدو ، ما لا يتمتع به الحجاج المسيحيون الذاهبون الى القدس . قد يخيل اننا بترخيص السفر الى مكة وكربلاء ومشهد وغيرها من الاماكن المقدسة الاسلامية لا نفعل غير زيادة عدد الافراد الذين يعتزمون الحج ، الامر الذى من المشكوك فيه اعتباره صائبا ، عقلانيا .

ان المسلمين من رعايا روسيا العائدين من الحج من الخارج وبخاصة من مكة لا يندر ان يكونوا قد تغيروا فى اتجاه ابعد من ان يتناسب مع اهداف الحكومة . فهم يمسون اشد تعصبا ، ويزداد عداؤهم لكل ما هو روسى ، ويسعون اكثر من سائر المسلمين الى الانعزال الدينى السياسى . وبما ان المسلمين العائدين من الحج بوصفهم «حجاجا» لا يندر لهم ان يتصفوا بصفات اخلاقية مشكوك فيها ، فانهم يحظون بمكانة معينة بين اخوانهم فى الايمان وغالبا ما يؤثرون فيهم بروح غير مرغوب فيها بالنسبة للحكومة .

جميع الاعتبارات المعروضة تحمل وزارة الخارجية على قول ما يلى : اذا كان لا يصح لحكومتنا ان تمنع الحج لأن من شأن هذا المنع ان يستتبع حتما الحج السرى وعبور الحدود سرا ، فانه من غير العقلانى على كل حال اتخاذ تدابير بصدد حج المسلمين من شأنها ان تخفف وترخص الحج وتكون بالتالى بمثابة تشجيع للحج .

وعلى رأى وزارة الخارجية القائل بانه من غير المرغوب فيه منح الحجاج المسلمين اية تسهيلات وافق مفتش الدولة وممثل وزارة الزراعة واموال الدولة .

ونظرا لوجود خلاف مبدئى فى الآراء بصدد الحج ، قررت اللجنة

المؤسسة بامر صاحب الجلالة ان تطلب من وزارة الداخلية طرح المشروع المذكور على بساط البحث امام لجنة الوزراء * .

واذ علق وزير الداخلية اهمية كبيرة جدا على اعتبارات وزارة الخارجية ، فقد اعتبر من الضرورى طرح مسألة الحج على البحث المفصل للمرة الثانية من وجهة نظر الجانب السياسى من القضية . وفى هذا الصدد تجدر الاشارة فى المقام الاول الى انه يوجد فى روسيا اكثر من ١٤ مليون مسلم اى اكثر من ١٠٪ من عموم سكانها ، والى ان المسلمين يشغلون على الصعيد الاقليمى مناطق مشارف الاورال ومناطق مشارف القفقاس ، والسهوب القرغيزية ومناطق آسيا الوسطى المضمومة الى روسيا فى القرن الماضى ؛ والسكان المسلمون فى هذه المناطق الاخيرة على صلة وثيقة من القربى مع مسلمى بخارى وخوى شبه المستقلتين .

وجميع هؤلاء المسلمين البالغ عددهم ١٤ مليونا ينقسمون الى جماعتين دينيتين رئيسيتين – الى معتنقى مذهب السنّة ومعتنقى مذهب الشيعة . ومن الناحية العددية ، يربو عدد السنيين فى الممتلكات الروسة بصورة ساحقة على عدد الشيعيين . يتجمع الشيعيون فى منطقة ما وراء القفقاس ؛ والسنيون الذين يشغلون مساحات شاسعة متواصلة فى آسيا يظلون فى روسيا الاوروبية منغرسين جزئيا فى وسط السكان الروس الذين يؤلفون الاغلبية الساحقة وقسما متركزا فى مناطق سلسلة جبال القفقاس . والقرم يستكمل مجموعة مسلمينا الجنوبيين .

كل مسلم ملزم ، بموجب تعاليم محمد ، باداء فريضة الحج ولو مرة واحدة فى العمر ، بصرف النظر عن اية عقبات ومصاعب . وهذه الفريضة يجب اداؤها – بموجب مذهب السنيين – قرب الكعبة ، فى مكة ، اى قرب حرم بنى ، حسب اساطير الجزيرة العربية ، فى مكان المعبد الاولي الذى بناه ابراهيم ؛ اما الشيعة فانهم يؤدون فريضة الحج فى بلاد ما بين النهرين .

ان المسلمين السنيين فى روسيا الاوروبية والقفقاس والقرم لا يواجهون المصاعب فى الحج عبر القسطنطينية التى يمضون اليها عبر مرافئ البحر الاسود ؛ ومن هذه المدينة ينطلقون بطريق القوافل الى الجزيرة العربية . اما المسلمون الشيعيون فانهم يمضون الى اماكنهم المقدسة بطريق القوافل على الاغلب عبر الحدود الايرانية رغم ان المسلمين الشيعيين من مشارف قزوين قد يركبون البواخر ، اغلب الظن ، حتى انزلى ورشت . واما فيما

* المقصود هنا مجلس الوزراء الذى كان يسمى آنذاك بلجنة الوزراء . المعرب .

يتعلق باغلبية السنيين فى روسيا الآسيوية وبخاصة فى مناطق آسيا الوسطى وكذلك مجمل سكان بخارى وخوى ، فمن المشكوك فيه ان يكون من الممكن اجتذاب هذه المجموعة الكبرى بالتدابير الادارية او غيرها من التدابير الى مرافئ البحر الاسود . سيكون من الممكن بالطبع توجيه مسلمى آسيا الوسطى ايضا بالقوة عبر باطوم الى القسطنطينية ، ولكن هذا التدبير سيكون ضارا مباشرة بمصالح السياسة الروسية لأنه ينبغى ان يؤخذ بعين الاعتبار ان الحج هو ظاهرة ذات طابع دينى سياسى . وبفضل الحج ينتعش المسلمون باستمرار ، لا فى عقائدهم وحسب ، بل ايضا فى عدائهم لغير المؤمنين ، اى لعموم العالم الذى لا يعتنق تعاليم القرآن . وفى هذا المجال يأتى المسيحيون واليهود ، بنظر المسلمين ، اعلى نوعا ما من الوثنيين ، ولكنهم مع ذلك اعداء الله ، والله عدو لهم ، وهم اصدقاء الشيطان ، والحرب ضدهم عمل يرضى الله الذى لا يقبل حتى صلوات المؤمنين لاجل خلاص الكفار . ومن هنا ينجم ان المسلم الذى يؤدى فريضة الحج يبلغ بهذا النحو وضع القداسة ويتمتع بكبير الاحترام .

ونظرا للآراء الاكيدة السابقة ، يمكن الاعتراف بمزيد من الاحتراس بأن زيارة مسلمينا للقسطنطينية لا تتناسب تماما مع مصالح سياسة عموم الدولة ؛ وبالفعل يمكن تسمية القسطنطينية بالنسبة للحجاج باكاديمية نزعة الجامعة الاسلامية . فمن تاجر عادى يتحول المسلم الى داعية لفكرة مفادها ان صولجان الحكم المطلق العالمى سينتقل عاجلا ام آجلا الى استنبول ، بوصفها مركز الدين الاسلامى .

وثيقة توضيحية

I . قرار اللجنة المؤسسة بامر صاحب الجلالة بصدد التدابير لدرء عدوى الطاعون ومكافحتها بتاريخ ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ .

استمعوا الى : بيان السيناتور دورنوفو ومفاده انه عندما كان وزير الداخلية فى القرم ، قدم اليه مفتى توريدا طلبا بالسماح بحج المسلمين فى السنة القادمة ، سنة ١٩٠١ ، وان اليغرميستر سيبياغين (٣) قد يعترف بامكان جواز الحج فى هذه السنة ، حتى تنظيم هذه القضية بصورة عامة ، على الاسس التالية :

١ — عند منح جوازات السفر للحج الى الحجاز يجب اخذ تعهد كتابى بان الحاصل على جواز السفر سيسافر الى الحجاز بطريق البحر ، عبر احد

مرافئنا على ساحل البحر الاسود ويعود الى الوطن بطريق البحر ايضا ، عبر اوديسا او فيودوسيا او باطوم او بوتي او نوفوروسييسك * .

٢ – في مؤسسات الحجر الصحي في هذه المرافئ يخضع الحجاج العائدون ، بصرف النظر عن التدابير المقررة لاجل السفن القادمة ، للتدابير التالية : يجب ان يغتسلوا في الحمام او تحت الدوش ، ويجب تعقيم الالبسة والبياض .

٣ – يشار في جوازات سفر الحجاج الى تنفيذ عملية التعقيم . غياب هذه الاشارة الذي يثبت ان الشخص المعني تهرب من التدابير الصحية يستتبع معاقبة المذنب ناهيك عن اتخاذ تدابير الاحتراس الضرورية .

٤ – من الضروري الزام رجال الدين المسلمين بان يوضحوا للسكان على الدوام الهدف الحقيقي لهذا الامر الحكومي .

قرروا : تفويض وزير الداخلية بالسماح بحج المسلمين في سنة ١٩٠١ على سبيل التجربة ، بموجب الاسس التي عرضها .

II . الرسائل التعميمية لوزارة الداخلية المتعلقة بالسماح بالحج .

أ – بتاريخ ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ تحت الرقم ٢٤١٤ . وفقا لقرار اللجنة المؤسسة بامر صاحب الجلالة بصدد التدابير لدرء عدوى الطاعون ومكافحتها أعترف بان من الممكن السماح بحج المسلمين الى مكة والمدينة ، في سنة ١٩٠١ ، حتى تنظيم هذه القضية بصورة عامة من باب التجربة ، على الاسس التالية («بشير الحكومة» . ٢١ كانون الاول ١٩٠٠ ، العدد ٢٨٤) :

١ – عند منح جوازات السفر للحج الى الحجاز يجب اخذ تعهد كتابي بان الحاصل على جواز السفر سيسافر الى الحجاز بطريق البحر عبر احد مرافئنا على ساحل البحر الاسود ويعود الى الوطن بطريق البحر ايضا عبر فيودوسيا وباطوم وحدهما .

٢ – في مؤسسات الحجر الصحي في هذين الميناءين يخضع الحجاج العائدون ، بصرف النظر عن التدابير المقررة لاجل السفن القادمة ، للتدابير التالية : يغتسلون في الحمام او تحت الدوش ، يجب تعقيم الالبسة والبياض .

٣ – يشار في جوازات سفر الحجاج الى تنفيذ عملية التعقيم . غياب هذه الاشارة الذي يثبت ان الشخص المعني تهرب من التدابير الصحية

---

* والى هذه القائمة يمكن ضم سيباستوبول ويفباتوريا .

يستتبع معاقبة المذنب بموجب المادة ٢٩ من لائحة العقوبات ناهيك عن اتخاذ تدابير الاحتراس الضرورية .

الامر المذكور ، الذى الغى القرارات الصادرة من قبل بصدد منع الحج الى الحجاز منعا تاما ، قد صدر على اساس الاعتبار القائل ان حرمان مسلمينا من امكانية تلبية هذه الحاجة الدينية الفائقة الاهمية التى هى الحج ، اذا كان مستمرا بضع سنوات على التوالى ومشكلا بالنسبة لهم تضييقا مرهقا فعلا ، يستتبع فى الوقت نفسه الحج السرى وعبور الحدود سرا . ولذا اعتبر من الممكن السماح من جديد بمنح جوازات السفر لاجل السفر الى الحجاز مع تقييد هذا السماح بشروط ضرورية بالتأكيد لاجل القضاء على الخطر من الناحية الصحية المتعلق بهذه الحركة وبخاصة لدن عودة الحجاج .

ونظرا لما ورد اعلاه ، لى الشرف بان اطلب منكم يا صاحب السعادة ، ببالغ الطاعة ، ألاّ ترفضوا اصدار الاوامر التالية فى هذه القضية .

١ – يجب ان نوضح لرجال الدين المسلمين ونعرض عليهم اغتنام كل فرصة على الدوام لكى يوحوا بدورهم لرعاياهم كل ضرورة الخضوع للمقتضيات المذكورة النابعة من اعتبارات حماية الدولة والحجاج انفسهم على الصعيد الصحى .

٢ – عند اخذ التعهد الكتابى بموجب البند الاول من الامر المنشور فى «بشير الحكومة» ، العدد ٢٨٤ ، يجب ان توضح للحجاج سواء الاهمية الصحية لمطلب السفر بطريق البحر ام المسؤولية التى سيتحملونها فى حال عدم تنفيذ هذا المطلب . ان اقرار شكل هذا التعهد الكتابى يخضع لرأى الرؤساء المحليين فى المحافظات .

٣ – اذا خلا جواز سفر العائد من اشارة من جانب المحجر الصحى تعمل السلطات المحلية فى مكان سكن الحاج بموجب البند ٣ من الامر المنشور فى «بشير الحكومة» ، العدد ٢٨٤ .

ب – بتاريخ اول آذار (مارس) ١٩٠١ – العدد ٣٩٩ . تكميلا للعرض الوارد فى الرسالة التعميمية بتاريخ ٣١ كانون الاول (ديسمبر) من السنة الماضية ، العدد ٢٤١٤ بصدد شروط السماح بحج المسلمين الى الحجاز ، لى الشرف بان اطلب بكل طاعة منكم ، يا صاحب السعادة :

١ – فرض رقابة صحية فى منتهى الدقة والصرامة على جميع المسلمين العائدين من الخارج الى حدود المحافظة المعهود بها اليكم .

٢ – اذا ثبت ان الحجاج الذين حجوا الى الحجاز وعادوا الى روسيا ، لا عبر المحجر الصحى فى فيودوسيا او عبر المحجر الصحى فى باطوم ،

يجب اخضاع هؤلاء الحجاج للمراقبة الطبية فى اماكن سكنهم فى غضون عشرة ايام ، واخضاع البستهم وبياضهم وكذلك امتعتهم على العموم لتعقيم صارم .

٣ — يجب ابلاغ وزارة الداخلية عن عدد الحجاج العائدين الى المحافظة المعهود بها اليكم مع الاشارة الى عدد الحجاج المذنبين فى عدم تنفيذ المطالب المفروضة بصدد الحج .

III . قرار اللجنة المؤسسة بامر صاحب الجلالة بصدد التدابير لدرء عدوى الطاعون ومكافحتها بتاريخ ٢٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٠١ .

يتبين من التقارير الواردة الى وزارة الداخلية من رؤساء المحافظات ان المسلمين شرعوا فى الوقت الحاضر يسعون الى منحهم جوازات السفر لاجل السفر الى مكة ، وانه يصعب على بعض المحافظين ان يلبوا هذه الطلبات لأن قرار اللجنة المؤسسة بامر صاحب الجلالة بصدد التدابير لدرء عدوى الطاعون ومكافحتها ، الصادر بتاريخ ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ لا يسمح بحج المسلمين الا فى سنة ١٩٠١ حتى تنظيم هذه القضية بصورة عامة .

قرروا : حتى صدور قواعد بصدد حج المسلمين مقررة حسب الاصول ، يجب تخويل وزير الداخلية تمديد فعل قواعد السماح بحج المسلمين الى الحجاز الصادرة بموجب قرار اللجنة بتاريخ ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ ، بحيث تكون هذه القواعد سارية المفعول فى سنة ١٩٠٢ .

IV — خلاصة آراء رؤساء المحافظات فى الرسالة التعميمية لوزارة الداخلية بتاريخ ١٨ ايار (مايو) ١٩٠١ تحت الرقم ١١٥٩

حرصا على وضع قواعد دائمة للحج من شأنها ان تؤمن سلامة هذه الحركة على الصعيد الصحى ، ورغبة فى الاستفادة فى هذه الحال من دروس تجربة سنة ١٩٠١ عرضت وزارة الداخلية بالرسالة التعميمية الصادرة فى ١٨ ايار (مايو) ١٩٠١ تحت الرقم ١١٥٩ على رؤساء المحافظات ابلاغ اعتباراتهم فى هذا الصدد ، وكذلك المعلومات فى المسائل التالية :

١ — باى قدر من الدقة تم تنفيذ القواعد المقررة للحج ؛ اذا كانت قد حدثت حالات تهرب ، فما هو قوامها ، واية تدابير اتخذت عند عودة الحجاج الذين ليست لديهم الوثائق اللازمة التى تؤكد تنفيذ المتطلبات المقررة (التدابير الصحية ، الاحالة الى المحاكمة) .

٢ — هل تتوفر معلومات عن سفر الحجاج عن غير الطريق البحرى المقرر عبر مرافئ البحر الاسود . اذا كانت قد لوحظت حالات من هذا النوع ،

فباى سبل سافر الحجاج ، والى اية وسائل لجأوا للتهرب من القواعـــد الموجودة .

٣ – اذا كان الحج السرى استمر فى سياق السنة الجارية ايضا ، فما هى الاسباب المباشرة التى دفعت اليه ، واية تدابير كان من الممكن اتخاذها لازالة هذه الظاهرة .

٤ – كيف مضى الحجاج من اماكن السكن ، وهل تشكلت جماعات ؛ اذا كانوا قد انتخبوا عمدا (شيوخا) ، فايا كانت مواقفهم من سائر اعضــاء الجماعة ؛ فى اى نقاط تشكلت الجماعات ، كم كان عدد افراد كل جماعة ، باى قسط اشتركت الادارة المحلية فى قضية تنظيم الجماعات .

٥ – وقت منح اول وآخر جواز سفر للحج فى سنة ١٩٠١ وعـــدد جوازات السفر الممنوحة فى كل اسبوع ، وكذلك عدد الحجاج الذين سافروا وعادوا مع الاشارة الى سبب عدم العودة اذا كان معروفا .

٦ – اية تدابير اتخذت لاجل ازالة التباطؤ فى منح جوازات السفر للحج .

لقد صعب على ٤٩ محافظا وعلى مدير الشرطة فى فرصوفيا وحاكم مدينة نيقولايف ابداء آرائهم فى هذا الصدد من جراء تفاهة عدد الحجاج او حتى عدم وجودهم فى المحافظات المعهود بها اليهم .

وفيما يلى ترد آراء ٢٩ محافظا و٤ من حكام المدن ، ومدير الشرطة فى موسكو ، ورئيس دائرة زاكاتالى .

١ – فيما يتعلق بتنفيذ الحجاج للقواعد المقررة يوجد ٢٦ تقريرا من محافظى استراخان وفياتكا وايليسافتبول وقازان وموسكو ونيجنى نوفغورود واورنبورغ وبنزا وسامارا وساراتوف وتوريدا وتامبوف وتفليس واوفـا ويريفان ، والحكام العسكريين فى مقاطعات كوتاييس وداغستان والاورال وسير داريا وتورغاى ، وحاكمى مدينتى اوديسا وكرتش-اينيقلعة ، ومدير الشرطة فى موسكو ورئيس دائرة زاكاتالى . منها يدل ٢٤ تقريرا على ان الحجاج تقيدوا بدقة بالقواعد المقررة .

اما الانحرافات عن هذه القواعد ، فقد اشار اليها محافظ يريفـــان ، والحاكم العسكرى لمقاطعة داغستان ورئيس دائرة زاكاتالى ، وتلخصت فى خلو جوازات سفر الحجاج من التأكيد على عودتهم عبر مدينة فيودوسيا او عبر مدينة باطوم (الحاكم العسكرى فى مقاطعة داغستان ، حالتان) ، وعدم وجود جوازات السفر بالذات مع الحجاج (محافظة يريفان – حالة واحدة ، ورئيس دائرة زاكاتالى – ٢٤ حالة) والحج بجواز السفر العـادى (محافظ يريفان – ٦ حالات) . فيما يتعلق بالحجاج المذكورين الذين لم ينفـــذوا

المتطلبات المقررة طبق الحاكم العسكرى فى مقاطعة داغستان ورئيس دائرة زاكاتالى الرقابة الطبية الصحية ، والتعقيم والاحالة الى المحاكمة ، ولجأ محافظ يريفان الى فرض الفحص من جانب طبيب القضاء والاحالة الى المحاكمة بموجب المادة ٦١ والمادة ٦٢ من لائحة العقوبات وطبق محافظ ايليسافتبول فى ١٤ حالة من الحج السرى المراقبة الطبية مدة عشرة ايام وتعقيم الاشياء والاحالة الى المحاكمة بموجب المادة ٢٩ من لائحة العقوبات.

٢ - محافظو استراخان وفياتكا وقازان وموسكو ونيجنى نوفغورود واورنبورغ وبنزا وساراتوف وسامارا وتوريدا وتامبوف وتفليس واوفا ، والحكام العسكريون فى محافظة كوتاييس ومقاطعة جيش الدون ومقاطعات الاورال وسير داريا وتورغاى ، ورئيسا مقاطعة ما وراء قزوين ومقاطعة كوبان، ورئيس دائرة زاكاتالى، وحاكما مدينتى اوديسا وكرتش-اينيقلعة ، ومدير الشرطة فى موسكو لا يملكون معلومات عن سفر الحجاج عن غير الطريق البحرى المقرر ، عبر مرافئ البحر الاسود .

الا ان محافظى يريفان وايليسافتبول (٤) وحدهما يشيران : الاول ، الى ان الحجاج سافروا الى مكة والمدينة بالطريق البرى ايضا عبر ايران وتركيا ، علما بانهم استحصلوا على جوازات سفر عادية عند عبور الحدود سواء بواسطة معارفهم ام بواسطة عمدهم (جاويشيتهم) وتابعوا السفر بلا عائق ؛ والثانى ، الى ان سكان قضاء نوخا (٥) - ١٣ شخصا - سافروا سرا عبر كرمانشاه وبغداد الى كربلاء الفارسية * وعادوا بالطرق نفسه .

٣ - محافظو استراخان وفياتكا وقازان ومينسك وموسكو ونيجنى نوفغورود واورنبورغ وبنزا وريازان وسامارا وساراتوف وسيمبيرسك وستافروبول وتوريدا وتفليس وتامبوف ، والحكام العسكريون فى مقاطعات كوتاييس وما وراء قزوين وكوبان وتورغاى ، وحكام مدن اوديسا وكرتش-اينيقلعة وسيباستوبول ، لم يلاحظوا فى السنة الجارية حجا سريا .

لاحظ محافظا ايليسافتبول واوفا والحاكم العسكرى فى مقاطعة داغستان حالات من الحج السرى .

اما الاسباب التى دفعت الى ذلك ، فقد كانت : منع الحج (محافظا ايليسافتبول واوفا ، والحاكم العسكرى فى مقاطعة داغستان ، ورئيس مقاطعة كوبان) ؛ عدم الرغبة فى الخضوع للقواعد المقررة (حالة واحدة ، الحاكم العسكرى لمقاطعة داغستان) ؛ عدم الرغبة فى دفع البدل المقرر عن جواز السفر (الحاكم العسكرى فى منطقة سير داريا) .

* هكذا فى النص الاصلى . المعرب .

من الممكن ازالة ظاهرة الحج السرى بالسماح سنويا بهذه الحركـة (محافظو ايليسافتبول واوفا ويريفان ، والحاكم العسكرى فى مقاطعة الاورال ، ورئيس مقاطعة كوبان) واقرار عقوبة بالنسبة للمخالفين بصورة غرامـة نقدية تربوا على بدل جواز السفر (الحاكم العسكرى فى منطقة سير داريا) .

وعدا ذلك ، كما يرى الحاكم العسكرى فى منطقة الاورال ، وبمـا ان السكان المحليين وكذلك موظفى الادارة العامة القرغيزية ، يعرفون عادة ، عزم كل قرغيزى يرغب فى السفر الى الاماكن المقدسة الاسلامية قبل تنفيذ هذا العزم بزمن طويل ، فان الحج السرى ، اذا ما توفرت الرقابة اللازمة من جانب الادارة المحلية ، انما يمكن درؤه تماما ، كما ان ازالته رهن كليا بنشاط الموظفين المذكورين اللازم ورقابتهم الدقيقة .

٤ — فيما يتعلق بتشكيل الجماعات من الحجاج عند انطلاقهم ، وردت تقارير من ١٨ محافظا ومن مدير الشرطة فـى موسكو ومن رئيس دائـرة زاكاتالى .

يفيد محافظو استراخان وقازان ونيجنى نوفغورود واورنبورغ وبنـزا وريازان وسامارا وسيمبيرسك وتوريدا وتامبوف وتفليس ، والحكـام العسكريون فى مقاطعات تورغاى وما وراء قزوين وكوبان ، ومدير الشرطة فى موسكو ان الحجاج يسافرون كلا بمفرده وفى حالات نادرة (محافظـو استراخان وقازان وسيمبيرسك والحاكم العسكرى فى مقاطعة تورغـاى) جماعات من شخصين او ثلاثة .

والى تشكل الجماعات يشير محافظا ايليسافتبول ويريفـان ورئيس مقاطعة كوبان والحاكمان العسكريان في مقاطعي الاورال وسير داريا ورئيس دائرة زاكاتالي .

يفيد محافظ ايليسافتبول ان الراغبين في اداء الحج قد تجمعوا في امكنة سكنهم في جماعات من ٣ اشخاص الى ٢٥ شخصا ثم انطلقوا فى خطـوط معينة بقيادة قادة-عمد (شيوخ) ، يسمونهم محليا بالجاويشية .

وقد كان الجاويشية-العمد (الشيوخ) قادة ومستشارى الحجاج فـى كل مدة سفرهم الى الحج وعودتهم الى الوطن . اما الحجاج ، الذين كانـوا يخضعون لهم بلا قيد ولا شرط ، فقد تعهدوا باعالتهم على حسابهم ؛ وكان عليهم ، فى حال سلامة العودة الى الوطن ، ان يدفع كل منهم مبلغا يتراوح بين ١٠ روبلات و٢٥ روبلا ناهيك عن تقديم الهدايا . وكدليل ساطع على واجبات الجاويشية المفصلة ، يسوق المحافظ من المصادر المتوفرة رسميا

وصف نشاط الجاويش المعروف الحاج زكريا نوح اوغلي ، في السنة الجارية ؛ وهذا الجاويش هو من مواليد مدينة نوخا ، وهو يعتبر الجاويش الدائم لحجاج نوخا . وبما ان الجاويش زكريا هو عمليا قائد جماعة نوخا من الحجاج ، فقد ادى ، فيما ادى ، المهام التالية : بعد ان وصل مع الحجاج الى باطوم عبر ايفلاخ ، انزل الحجاج في خانات الحجاج في باطوم ، وسعى الى الحصول من اجلهم على جوازات السفر والى شراء التذاكر للسفر على الباخرة الى القسطنطينية ، ثم رافق الحجاج الى القسطنطينية وانزلهم هناك فى الخانات ، ودبّر لاجل الحجاج وثائق تركية واستأجر لهم باخرة تنقلهم الى الاسكندرية (جدّة) ؛ وبعد ان أمّن الجاويش زكريا على هذا النحو سفر الحجاج الى الحجاز ، بقى فى استنبول ؛ وعندما عاد الحجاج الى هذه المدينة ، رافقهم الى فيودوسيا . وبينما كان الحجاج فى فيودوسيا يخضعون لاجراءات الحجر الصحى والتدابير الصحية ، راح الجاويش زكريا الى مدينة نوخا لاجل اعلام وتهنئة عائلات الحجاج واقاربهم بسلامة عودة الحجاج الى الوطن . وانتهت مهمة الجاويش زكريا باستقبال الحجاج بمهابة واحتفال فى قرية جعفر آباد الواقعة على طريق ايفلاخ — نوخا ؛ وفى هذا اللقاء وفى مرافقة الحجاج حتى مدينة نوخا اشترك كثيرون من اقاربهم .

ويفيد رئيس مقاطعة كوبان ان الحجاج انطلقوا جماعات من اماكن سكنهم الى احد مرافىء البحر الاسود ، وعلى الاغلب الى مدينة نوفوروسييسك ، وانتخبوا بانفسهم شيخا (رئيسا) لجماعتهم خضعوا بكل دقة لاوامره فى الطريق . والشيخ المنتخب ، الذى هو على الارجح ممن سبق ان كانوا فى مكة ، يشرف على تموين الحجاج اثناء السفر وعلى الحسابات مع شركات البواخر ، والخ . .

ويشير الحاكم العسكرى فى مقاطعة الاورال الى ان الحجاج الذين زاروا الاماكن المقدسة الاسلامية فى السنة الجارية ، والذين هم من مواليد قضاء ابيشنسك قد انطلقوا جماعة باشراف عميد (شيخ) انتخبوه خصيصا وهو ملاّ ناحية تشيلكار ، احمدجان باى محمدوف . فى البداية تشكلت الجماعة فى الطريق الى مدينة اورالسك من القرغيز ، ثم تكونت نهائيا فى مدينة اورالسك من ٢٨ شخصا .

ويفيد محافظ يريفان ان الحجاج يشكلون دائما فى حال السفر العلنى من اماكن السكن ، جماعات متفاوتة الكبر ؛ اما فى حال السفر السرى ، فان الحجاج يشكلون جماعات بعد اجتياز الحدود . وفى هذه الحالة تمضى

الجماعات عادة بمشاركة الجاويشية . والحجاج انفسهم يحددون عدد افراد الجماعة ، وهو يتراوح بين ١٥ و٢٥ شخصا ، رغم انه لا ريب في انه تتشكل احيانا جماعات اكبر . وعادة يجرى وداع واستقبال جماعات الحجاج من جانب المعارف والاقارب فى جو احتفالى ، ويشترك دائما فيهما عدد كبير منهم .

ويشير رئيس دائرة زاكاتالى الى ان الحجاج من الدائرة ينطلقون فى آن واحد تقريبا وجماعات كبيرة ، ولكن لم تظهر فيها اية مبادئ للنمط التعاوني .

اما فيما يتعلق بمشاركة الادارة المحلية فى قضية تشكيل الجماعات ، فقد اعطى جميع رؤساء المحافظات المذكورة جوابا سلبيا ، ما عدا الحاكم العسكرى فى مقاطعة الاورال ؛ فهو يفيد بصدد تشكيل جماعة واحدة ان الادارة المحلية لم تشترك الا بصورة غير مباشرة ، وانها حاولت ان توجه الحجاج بشكل جماعة لاجل الحصول فى آن واحد على جوازات السفر من الهيئة المعنية .

٥ – فيما يتعلق بعدد جوازات السفر الممنوحة ، وتوزع هذا العدد حسب الاشهر وكذلك بعدد الحجاج العائدين وردت معلومات من محافظى استراخان وباكو وايليسافتبول وقازان وموسكو ونيجنى نوفغورود واورنبورغ وبنزا وبطرسبورغ وريازان وسامارا وساراتوف وسيمبيرسك وتوريدا وتامبوف وتفليس وتوبولسك واوفا ويريفان ، ومن الحكام العسكريين فى محافظة كوتاييس ومقاطعات جيش الدون وداغستان وما وراء قزوين وكوبان وسير داريا والاورال وحكام مدن اوديسا وبطرسبورغ وسيباستوبول وكرتش-اينيقلعة ورئيس دائرة زاكاتالى .

عدد جوازات السفر التى منحوها شهريا تتوزع كما يلى :

كانون الثانى (يناير)	٧٤٢
شباط (فبراير)	١٥٨٨
آذار (مارس)	٤٨
نيسان (ابريل)	١
ايار (مايو)	٧
حزيران (يونيو)	٤
تموز (يوليو)	–
آب (اغسطس)	–
ايلول (سبتمبر)	–

تشرين الاول (اكتوبر)	–
تشرين الثانى (نوفمبر)	٣
كانون الاول (ديسمبر)	٣
المجموع	٢٣٩٦

وعن الحجاج العائدين ، وكذلك عن اسباب عدم العودة لا يفيد غير بعض من المحافظين . ويستفاد من معطياتهم ان ١٤٣٤ شخصا قد سافروا لاداء فريضة الحج وان ١٠٩٦ منهم عادوا وان ٤٠ قد ماتوا . ويستفاد من تقرير رئيس دائرة الحجر الصحى فى فيودوسيا ان ٦٥٢٩ حاجا قد عادوا عبر هذا المحجر فى الحقبة الممتدة من اول كانون التانى (يناير) الى ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٠١ بمن فيهم ٢٣٩ من تتر روسيا الاوروبية و٢٤٧ من محافظات سيبيريا ، و٢٧٠٠ من اقليم تركستان ، و٢٣٦٠ من القفقاس وما وراء القفقاس ، و٢٤١ من بخارى ، و٤٣٢ من رعايا الصين ، و٢٠٥ من رعايا ايران ، و١٠٥ من رعايا تركيا .

٦ – افاد ١٦ محافظا من اصل ٢١ محافظا ان جوازات السفر أُعطيت بدون مماطلة ، وافاد محافظ ريازان ان الحجاج قد نالوا جوازات السفر فى اليوم الثانى من تقديم طلباتهم ، وافاد رئيس مقاطعة كوبان ان جوازات السفر اعطيت فى اغلبية الاحوال فى يوم حضور الحجاج الى ايكاتيرينودار او فى اليوم التالى ، لأن طالبى جوازات السفر قدموا المعلومات الضرورية شخصيا من الشرطة عن عدم وجود عوائق تحول دون سفرهم الى الخارج .

واعتبر محافظ ايليسافتبول والمحافظ العسكرى فى مقاطعة داغستان وحاكم سيباستوبول من الضرورى لاجل القضاء على التباطؤ فى منح جوازات السفر للحج اتخاذ التدابير التالية :

محافظ ايليسافتبول – على رؤساء الاقضية ان يمنحوا افادات موقتة تسمح بالحصول على جوازات السفر وان يقتصروا على ما تفيده السلطة القضائية بصدد عدم ملاحقة الحجاج فى دعاوى جزائية .

المحافظ العسكرى فى مقاطعة داغستان – يجب تعزيز نشاط الدواوين دون استثناء ايام الآحاد والاعياد .

امر حاكم سيباستوبول الشرطة بان تقدم شتى ضروب المساعدة للقادمين ، وذلك بارسالهم مباشرة الى ديوان الحاكم ، لاجل الحيلولة دون استغلالهم من قبل مختلف السماسرة . ولاجلهم اعدوا فى الديوان اوراقا

بطلبات مطبوعة ، وبيانات للخزينة ، والتعهد المأخوذ منهم وفقا للبند ٢ من الرسالة التعميمية بتاريخ ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ تحت الرقم ٢٤١٤ . وعند اطلاعهم على هذه الرسالة التعميمية كان يحضر دائما مترجم لأنه كان من النادر جدا ان يفهم احد منهم الروسية ، وبالاحرى ان يتكلم الروسية .

وحسب تجربة السنة الجارية ، يعتبر رؤساء المحافظات قواعد الحج المقررة عقلانية تماما ويرون من المرغوب فيه العدول عن منع الحج بوصفه تدبيرا لا يسفر عن نتائج ايجابية ، وربط السماح بالحج فى المستقبل ايضا بالقواعد ذاتها ؛ ويشير محافظ باكو الى عقلانية السماح بالحج كذلك الى مشهد وكربلاء مع اقرار قواعد صحية لاجل الحجاج الذاهبين الى هذين المكانين مثل القواعد المقررة لاجل الحجاج الى مكة .

رغبة فى فرض الرقابة الصحية فى الوقت المناسب على الحجاج العائدين ، يقترح محافظا استراخان وسيميبالاتينسك ان يتقرر ما يلى : جوازات السفر لا يمنحها للمسلمين غير المحافظين حسب محل اقامة المسلمين ؛ كما يقترحون النظام التالى : عن كل جواز سفر ممنوح فى المحافظات الاخرى يبلغ رؤساء هذه المحافظات ، فى نفس الوقت الذى يسلمون به جوازات السفر محافظ المنطقة التى يعيش فيها بصورة دائمة الشخص الذى حصل على الجواز . ومن جهة اخرى ، كما يرى محافظ موسكو ، تظهر المخاوف من امكان نشوء الحج السرى فى المستقبل اذا صدقت الاشاعات المتسربة الى الاوساط الاسلامية والزاعمة ان جوازات السفر لن تعطى الا فى مراكز تلك المحافظات التى ينتمى اليها الحجاج رسميا وليس فى المدن الكبيرة الواقعة فى الطريق ، كما يجرى الآن . هذا التدبير سيزيد كثيرا بذل الوقت والنقود ولذا سيكون مرهقا .

قانون

I — **مجموعة القوانين** . المجلد الاول ، تشكيل لجنة الوزراء ، طبعة سنة ١٨٩٢ .

المادة ٢٤ — من عداد القضايا الجارية ، تحال الى اللجنة من الوزارات : ١ — . . . . ؛

٢ — القضايا التى يساور الشك الوزير فى حلها وتنفيذها ؛

٣ – القضايا التى يتجاوز حلها حدود السلطة المخولة بصورة خاصة لكل وزير ، والتى تتطلب الحل من قبل صاحب الجلالة .

II – **مجموعة القوانين** . المجلد ١٤ ، اقرار جوازات السفر ، طبعة سنة ١٨٩٠ .

المادة ٢١١ – منح جوازات السفر للاشخاص من جميع المراتب على العموم بما فيها مرتبة النبلاء ، يقوم به كبار رؤساء المحافظات ؛ اما حيث لا وجود لهم او حيث هم غائبون ، فيقوم به المحافظون وحكام المدن .

المادة ٢١٢ – اوراق جوازات السفر يجرى تحضيرها لدى وزارة الداخلية ؛ وهذه ترسلها حسب الارقام المتسلسلة المسجلة فيها الى جميع المحافظين بقدر ما تدعو الحاجة ؛ ولتجنب النقص فيها ، يجب ان تصل الطلبات بشأنها فى الوقت المناسب . عن جوازات السفر الممنوحة تحال قوائم شهرية الى هذه الوزارة بالذات .

المادة ٢١٤ – عند منح جوازات السفر تراعى القواعد العامة التالية :

١ – كل من رعايا روسيا ، ايا كان لقبه ، ملزم ، اذا ما اعتزم السفر الى الخارج ، بان يتقدم بطلب من المحافظ ويقدم بالاضافة شهادة من الشرطة تفيد بعدم وجود اية عقبة قانونية تحول دون سفره .

٢ – يجب على القاطنين فى مدن الاقضية ان يراجعوا الرؤساء المحليين الذين يبلغون المحافظ بذلك مع الشهادة اللازمة التى تفيد بعدم وجود عوائق تحول دون سفرهم ، وان الوثائق بدفع الرسوم المتوجبة مؤمنة .

٣ – الدوائر والاشخاص الذين يتوقف عليهم منح الراغبين فى السفر الى الخارج شهادات بعدم وجود عوائق تحول دون ذلك ، ملزمة باعطاء هذه الشهادات اذا لم تكن قد تسجلت او وردت بموجب الاصول المقررة الى هذه الدوائر او الى هؤلاء الاشخاص ، فى يوم اعطاء الشهادات المعنية ، مطالب شرعية ضد الراغبين فى السفر الى الخارج من جانب الدائنين الخصوصيين او من جانب الدوائر والاشخاص الحكوميين .

٤ – يدرس المحافظون الطلبات بهذا الصدد دون تباطؤ ويسمحون بمنح جوازات السفر بدون مماطلة اذا لم تكن ثمة عوائق قانونية . واذا توفرت اسباب وجيهة خاصة ، يُسمَح باخذ افادة عن عدم وجود عقبة تحول دون السفر الى الخارج بكفالة اشخاص معروفين باماناتهم .

المادة ٢٣٥ – التركمان والكلميك الذين يسافرون الى الخارج ، الى

مكة والتيبت وغيرهما من الاماكن ، يحصلون على جوازات السفر من رئاستهم المحلية بترخيص من وزارة الخارجية .

المادة ٢٣٧ — التتر من القرم المسافرون الى الحج يتعين عليهم ان يقدموا للرئاسة المحلية كفالة من المشاعيات التى ينتمون اليها تفيد بعدم وجود عوائق تحول دون سفرهم وتفيد ان شؤونهم الاقتصادية لن تختل من جراء ذلك ، وان دفع الرسوم وكذلك اداء سائر الفروض مؤمنان . تتأكد الرئاسة المحلية من مأمونية الكفالة المعنية وتبلغ بذلك رئاسة المحافظة التي تمنح المسافرين جوازات السفر بموجب المادة ٢١٤ .

المادة ٢٣٨ — فيما وراء القفقاس يجرى منح جوازات السفر لسكان الاقضية المجاورة لتركيا وايران وسكان موانى ريدوت-قلعة (٦) وباكو ودربند سواء فى مراكز محافظاتهم ام فى مراكز دوائر القضاء حسب الاسس التالية : ١ — لا تعطى الجوازات الا للاشخاص المسافرين الى الخارج فى شؤون تجارية ولمدة لا تزيد على ستة اشهر ؛ ٢ — ينبغى ان يكون رؤساء الاقضية مزودين لهذا الغرض بجوازات سفر بالاعداد التى يرتأيها المحافظون ؛ وهؤلاء يعطون رؤساء الاقضية سجلا ذا شريط لتسجيل جوازات السفر ؛ يتعين على الذين حصلوا عليها ان يوقعوا فيه اسماءهم ، كما يتعين على رئيس القضاء ان يبلغ عن كل تسليم لجواز سفر المحافظ الذى يخضع له ؛ و٣ — لا يجرى تسليم جوازات السفر الا بعد التحقق الدقيق من ان طالب السفر الى الخارج لا تحول دونه ودون السفر اية عقبات ، اى ان طالب السفر ليس قيد المحاكمة والتحقيق ، ولا علاقة له بهما ؛ وانه لا سترتب عليه دفع اية اتاوى ورسوم وضرائب للخزينة واية رسوم بلدية وغير ذلك من الضرائب المتأخرة ؛ وانه لا يواجه اية مطالب بديون خاصة مترتبة عليه للغير ، باستثناء الحالات التى يوافق فيها الدائن بالذات على سفره ؛ واخيرا ان يقدم طالب السفر كفالة من المشاعية بدفع الرسوم والضرائب عنه اذا لم يرجع لاسباب ما فى الموعد المعين .

ملاحظة . تخوّل ادارة قضاء شيماهه تسليم جوازات سفر قصيرة المدة لسكان قضاء شيماهه المسافرين الى الخارج ، بموجب القواعد الواردة فى هذه المادة (٢٣٨) .

المادة ٢٣٩ — فى مقاطعة ما وراء قزوين يعطى رئيس المقاطعة جوازات السفر : ١ — للمسلمين من رعايا روسيا المسافرين الى مكة لاجل الحج ، وكذلك للاجانب الذاهبين من البلدان الاسلامية المجاورة عبر اراضى المقاطعة الى الخارج ، و٢ — . . . .

المادة ٢٥٣ — لقاء دفع بدل طبع الاستمارات ، تعطى جوازات السفر :
١ — للاشخاص المسافرين الى القدس لزيارة الاماكن المقدسة .
٨ — للارمن والمسلمين المقيمين فى منطقة ما وراء القفقاس او القادمين اليها موقتا ، فى حال سفرهم الى المناطق الايرانية والتركية المجاورة ، وكذلك لمسلمى محافظة توريدا من جميع المراتب فى حال سفرهم الى مكة لاجل الحج .

الاعتبارات والخاتمة

الاعتبارات المعروضة اعلاه التى تؤكد مخاوف وزارة الخارجية تضفى على مسألة حج المسلمين اهمية على مستوى الدولة بأسرها ، وتلـزم ، اغلب الظن ، عند حلها ، بالتنازل عن المقتضيات الصحية بقدر معين . ولاجل تلبية هذه المقتضيات بافضل نحو ، ونظرا للمخاطر الناجمة عن الحج السرى ، ورد اقتراح بانشاء هيئة للحج تؤمن للمسلمين منافع معينة وتصرفهم بالتالى عن الاسفار السرية الى الحجاز وبلاد ما بين النهرين . ولا يمكن النكران انه لا يمكن لهذه الهيئة ان تؤدى الى نتائج ملائمة ، طيبة الا اذا استفاد المسلمون بكامل الثقة من تعليمات الحكومة وعدلوا كليا عن الحج السرى . ولكـــن آراء الاشخاص الذين يعرفون السكان المسلمين عن قرب تشير الـــى ان التعصب الاسلامى ظاهرة مكتومة الى حد ان تدخل الحكومة المسيحية فـى قضية اداء الشعائر الاسلامية المقدسة لا يؤدى ، نظرا لجهل اغلبية السكان ، الى توقف الحج السرى . واذا اعتبرنا هذه الفرضية وان قابلة للتصديق ، فلا ريب فى ان الهيئة الرامية الى تشجيع الحج تفقد اهميتها الصحية الحاسمة ولن يكون من الممكن تبرير وجودها بالثقة فى تأمين سلامة الامبراطورية بصورة تامة من نقل عدوى . واذا لم تتوفر هذه الثقة ، واذا قامت الشكوك بصدد توقف الحج السرى ، فان وزير الداخلية سيكون ملزما بان يقـــدم للجنة الوزراء مشروعا آخر بشأن الحج ، يرتكز اساسا على الاعتبـــارات التالية :

١ — لا يصح اتخاذ اية تدابير لاجل توجيه الحج عبر القسطنطينية .
٢ — يجب الامتناع عن اغلاق السبل القائمة لقوافل «الحج» فى آسيـا الوسطى .
٣ — يجب انشاء نقاط عبور على الخطوط الحدودية لاجل الرقابة الصحية على الحجاج العائدين .

٤ — يجب الامتناع عن اللجوء الى اية من تدابير الحماية لاجل حج المسلمين وبخاصة الى التدابير التى تتجاوز درجة الحرص على الحجاج المسيحيين .

٥ — يجب تخويل قضية تنظيم الحج نفسها الى المسلمين مع الحق فى تقديم العون الطيب لاخوانهم فى الايمان .

المادة الاولى ، الموضوعة بموجب اسس المشروع هذه ، تشير الى ان الحجاج يحصلون على جوازات سفر من طراز خاص . ان اقرار جوازات سفر كهذه ضرورى تماما لاجل الرقابة الصحية ولاجل مراقبة الحجاج العائدين الى الوطن .

ومن المرتأى ان يشار على جوازات السفر هذه بلون احمر الى كلمة «الحج» وتزويدها بقسيمة خاصة من اجل عدّ العائدين .

ونظرا للتفسير السابق ليست المواد ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، غير تطوير للاحكام الاساسية المعروضة .

المادة ٦ تعين العقوبات التى تؤمن مراعاة القواعد بدقة . وبصدد المقترحات المعروضة فى هذه المادة تجدر الاشارة الى انها جميعها تدخل مباشرة فى ميدان مخالفات القواعد المتعلقة بجوازات السفر ، ولكنها مع ذلك تشكل من حيث الجوهر تدابير لوقاية الامبراطورية من نقل الامراض المعدية . ولهذا يبدو من المناسب تحديد العقاب الواحد الذى تنص عليه المادة ١٠٢ من لائحة العقوبات التى يفرضها قضاة الصلح .

ولوزير الداخلية شرف تقديم المعروض اعلاه لنظر لجنة الوزراء فيه .

وقع : وزير الداخلية

اليغرميستر د . سيبياغين .

صادق : المدير راغوزين .

مشروع
القواعد الموقتة بصدد حج المسلمين

١ — المسلمون المسافرون للحج الى الحجاز وايران وبلاد ما بين النهرين ينالون جوازات سفر من طراز خاص .

٢ — لاجل عودة الحجاج يعين وزير الداخلية مرافئ البحر الاسود وبحر

قزوين المعينة ونقاط المراقبة الصحية على الحدود البرية . وهذه وتلك يشار اليها فى جوازات السفر .

٣ – عند العودة يخضع الحجاج للتطهير الطبى الصحى ولجميع التدابير المقررة لاجل الاشخاص القادمين من اماكن خطيرة .

٤ – مؤسسات الحجر الصحى ومؤسسات الرقابة الطبية تسجل فى جوازات سفر الحجاج العائدين اشارة الى تنفيذ التطهير الطبى الصحى . هذه الاشارة توضع ايضا على قسيمة خاصة متواجدة فى جواز السفر ، ثم ترسل هذه القسيمة الى المحافظ المعنى ، حسب مكان سكن الحاج او مكان تسجيله .

٥ – اذا عاد الشخص المزود بجواز سفر للحج الى الامبراطورية عبر النقاط الحدودية غير المشار اليها فى جواز السفر ، فان السلطات الحدودية ترسله على الفور الى اقرب دائرة للشرطة لاجل تنفيذ المقتضيات الواردة فى المادة ٣ .

٦ – الحاج : – أ – العائد الى مكان اقامته مع جواز سفر لا توجد عليه اشارة الى التطهير الطبى الصحى ، – ب – الذى سافر الى الحج بدون جواز سفر او بجواز سفر عادى ، – ج – العائد الى الامبراطورية عبر مرافىء ونقاط غير مشار اليها فى جواز السفر ، يعاقب بالاعتقال لمدة فى حدود شهر واحد او بغرامة نقدية فى حدود مائة روبل (المادة ١٠٢ من لائحة العقوبات) .

بصرف النظر عن هذا ، يخضع الحاج ، عند عودته الى مكان سكنه ، للتطهير الطبى الصحى المقرر .

٧ – عند الحصول على القسائم المذكورة فى المادة ٤ ، يتخذ المحافظون التدابير لكى يخضع الحجاج العائدون للرقابة الطبية الصحية خلال فترة معينة من الزمن .

وقع : وزير الداخلية
اليغرميستر د . سيبياغين .
صادق : المدير راغوزين .

ملاحظات

١ — ف . ك . بليفه (١٨٤٦–١٩٠٤) . وزير الداخلية فى روسيا . رئيس فيلق خاص من الدرك (١٩٠٢–١٩٠٤) ، رجعى متطرف ، قتله الاشتراكى — الثورى سوزونوف .

٢ — محافظة توريدا — ارض شبه جزيرة القرم .

٣ — سيبياغين د . س . (١٨٥٣–١٩٠٢) . وزير الداخلية فى روسيا (سنة) ١٩٠٠ . ملهم سياسة الروسنة فى الاطراف القومية .

٤ — المركز — مدينة اليسافتبول . قبل سنة ١٨٠٤ ، وفى سنوات ١٩١٨–١٩٣٥ ، ومنذ ١٩٨٩ غيانجا ، من ١٩٣٥ الى ١٩٨٩ كيروفوباد .

٥ — نوخا (منذ سنة ١٩٦٨ — شيكى) — حاليا مركز ناحية فى جمهورية اذربيجان .

٦ — ريدوت — قلعة . مدينة غير كبيرة على الساحل الشرقى من البحر الاسود عند مصب نهر هوبى . حاليا كوليفى .

ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ . الفهرس I ، الاوراق ١٤–٣٨ . النص المطبوع الرسمى . على الهوامش وفى النص ملاحظات عديدة .

اعتذار

يعتذر المؤلف للقارىء الكريم على الاختلاف في بعض اسماء الاشخاص والمواقع والقبائل العربية.

وقد بذلنا قصارى جهدنا في تدقيق تلك الاسماء لتأتي بشكلها الصحيح. الا ان ورودها بصيغ مختلفة في المراجع العربية ذاتها هو، بالاساس، سبب عدم دقة بعضها في ترجمتنا، ولذا نكرر اعتذارنا ونأمل أن ننبّه الى الاخطاء الواردة في هذه الطبعة لتلافى ذلك مستقبلا.

تعريف بالكتاب

ما أن انطفأ سراج القرن التاسع عشر، وأطلّ القرن العشرون، (١٨٩٨-١٨٩٩م)، حتى أرسلت السلطات القيصرية الروسية في ذلك الحين، ضابطاً روسياً مسلماً هو عبد العزيز دولتشين، للقيام برحلة إلى المملكة العربية السعودية بقصد الحج كسبب مُعلن، وبقصد وضع تقرير عن مشاهداته وانطباعاته عن حال بلاد الإسلام وأحوالها كسبب مُضمر. وكان الدافع الى هذه المهمة، في ذلك الحين، اهتمام الروس بمسألة الحج من جهة، والعالم الإسلامي من جهة ثانية.

أما اهتمامهم بمسالة الحج، فنابع من وجود ملايين المسلمين الذين ضُمّت بلادهم وأراضيهم قسراً الى السلطة القيصرية الروسية، وبالتالي محاولتهم معرفة ما يقدمه الحج، كفريضة على المسلم، وكيف يؤثر فيهم وعليهم.

أما اهتمامهم بالعالم الإسلامي، فنابع من أهمية هذا العالم الاستراتيجية، والذي كان في ذلك الحين مساحة من الصراع الفعلي بين الدول الكبرى، ارادت الدولة الروسية أن لا تكون بعيدة عنها.

إن هذا الكتاب يشكل وثيقة فريدة من نوعها، في غناها وتعدّد مواضيعها وميادينها، زاخرة بالتفاصيل المتعلقة بادق أمور الحياة اليومية في الجزيرة العربية وفي البلاد التي زارها دولتشين في طريق ذهابه وفي طريق عودته.

ففضلاً عن المقدمة التي تتحدث عن حال الصراع الدولي على منطقة الجزيرة العربية، وعلى العالم الإسلامي، والأسباب الكامنة وراء تفكير الروس في مسألة الحج، يحوي هذا الكتاب جداول وتفصيلات متنوعة عن عدد الحجاج من كل دول العالم، بالإضافة إلى عدد السفن التي تصل إلى جدّة، وعدد وأسماء الأدلّة والوكلاء، وتفاصيل مذهلة حول كل الأمور، لينتقل بعد ذلك الى الكلام عن الحدود والطوبوغرافيا والمناخ والسكان والتجارة والصناعة والوضع السياسي والتقسيم الإداري، وعن القافلة، والركب والمحامل السورية والمصرية، في كل من الحجاز ومكة المكرمة والطائف وجدة والمدينة ويَنبُع، ليفرد بعد ذلك فصلاً عن الحج، بشعائره وكل تفصيلاته في تلك الفترة، ولينتهي بستة ملاحق بأقلام علماء مسلمين أجلاّء من التابعية الروسية، عن وصف طريق الحج ووصف بوابات الكعبة، وعن الحج من وجهة نظر روسية، وغير ذلك من المواضيع الفائقة الأهمية.

هذه التقارير الوثائقية حول رحلة عبد العزيز دولتشين، جمعها ورتبها ونسقها الكاتب الروسي يفيم ريزفان، وترجمتها إلى العربية دار التقدم في موسكو. إن هذه الترجمة إلى العربية نتركها للقارىء كما هي، بالرغم من صياغتها غير المتينة عموماً، وبالرغم من بعض الأخطاء النحوية والمطبعية التي تشوبها، لنحافظ بذلك على نكهتها الوثائقية الهامة، ذلكَ ان كاتبها روسي، وجامعها روسي، ومعرّبها: مؤسسة روسية.

الناشر

